

الأدب العربي بين البادية والحضر

تأليف

الدكتور محمد عيسى

وكيل كلية اللغة العربية بالمنصورة

١٩٨٣ - ١٤٠٣ هـ

حقوق الطبع محفوظة لمؤلف

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إذا كانت دراسة الأدب من خلال العصور الأدبية تقدم تصوراً لمسيرته ، تتضح من المظهر إليه أطواره . . فإن صورة الأدب تبدو في هذه الأطوار باهتة ، تتطلب مزيداً من التحديد ، وتشير كثيراً من التساؤلات ، وكان من أبرز هذه التساؤلات ، تساؤل بعض الدارسين من العرب والمستشرقين عن السر في تباين الأدب العربي في الطور الواحد ، بحيث تواجه في العصر الواحد بأدب سهل الألفاظ لينها ، لا خشونة فيه ولا قوهر ، بل ولا جزالة ، كما تواجه في العصر ذاته بأدب جزل الألفاظ قوياً ، مع سهولة ووضوح ، أو مع خشونة ووعورة . . مما أثار أكثر من قضية كان من أهمها دعوى السهل والتريف .

لذا كان لي - وقد سبق أن قدمت دراسة للأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام - أن أضف إليها دراسة أخرى للأدب العربي في بيئاته المختلفة ، تحرص على تقديم صورة له في البيئة المتقاربة الآثار زمانية ومكانية وثقافية ، بحيث تبدو الصورة متلائمة ، يمكن بها الإجابة على بعض تلك التساؤلات المثارة .

وذلك لأن العصر الجاهلي - مثلاً - قد قام على بيئات عديدة ، منها البيئة ذات الحضارة المادية كما في إمارتي الحيرة والاشام ، والبيئة ذات الحضارة البدوية ، وهي البيئة البدوية التي وفدت إليها بعض المظاهر الحضارية ، فأثرت في أبنائها تأثيراً ما ، والبيئة ذات الحضارة الروحية والفكرية - وهي البيئة البدوية التي جاءت بها حضارة الإسلام الروحية والفكرية فهرت أبنائها هذا أسقط عنهم الكثير من موروثاتهم القديمة . أضف إلى هذه البيئات الثلاثة البيئة البادية التي حرص أبنائها على بداوتهم بكل ما فيها من خشونة وقوة .

فليس شك في أن اجتماع هذه البيئات على أمة واحدة في عصر زمني واحد ،

يجعل دارسى الأدب فى حيرة ؟ فهو أمام طواهر أدبية لا تقل عن أربع طواهر ، كل منها تختلف عن الأخريات فى آثارها .

من ثم رأيت أن أقدم دراسة فى الأدب العربى من خلال ييشاته ، لتكون مكملة لدراسته من خلال عصوره ، تتضح بهما معا صورة الأدب العربى وأطواره .

بيد أن دراسة النثر الجاهلى فى البادية والحاضرة لم تكن بالأمر اليسور ؛ لثمذر الوقوف على نصوص ثرية موثوق فى صحة نسبتها إلى قائلها . فكان أن تتبعمت فنون النثر فى أطواره المختلفة وفقا للبيئة الزمانية فحسب - دون نظر إلى البيئة المكانية - لتتمرف على انعكاس الحضارة الإسلامية عليه ، وأثر ذلك فيه .

وأما كان الجهد المبذول ، فهى خطوات على الطريق ، فى حاجة إلى ما يكملها ، فالمدى واسع ، والأحداث متشابكة ، وفقنا الله وسدد خطانا ، وهى أنا للصواب وهى الصواب لنا .

المؤلف

المنصورة فى ٦ من ذى القعدة ١٤٠٠ هـ

١٦ من سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد

الفصل الأول

الأدب

من يتعرض لدراسة الأدب العربي يواجه في أول أمره سؤال عن المقصود بكلمة « أدب » ، وأصل اشتقاقها ، وأطوار استعمالها منذ الفترة الزمنية التي يتيسر للدارس أن يطل على اللغة فيها حتى عصرنا الذي نميش فيه . ولا ريب في أن تلك الفترة الزمنية التي لا يستطيع الدارس أن يتجاوزها في إطلاله على اللغة العربية وآثارها هي ما نعرف عليه الدارسون باسم العصر الجاهلي ، وهو تلك الفترة الزمنية التي سبقت مجيء الإسلام ، وتمتد إلى نحو مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام .

مفهوم كلمة أدب :

الناظر في مآثور العرب في العصر الجاهلي يجد أن كلمة « أدب » ومادتها في استعمالات القوم نادرة ، وهي مع هذه الندرة - فيما وصلنا - لم تكن تستعمل بالمفهوم التعبيري الذي نعرفه اليوم ؛ فقد اجتازت في هذا السبيل أطواراً انتقلت فيها معنى إلى معنى ، شأن كلمات اللغة دائماً .

ولعل من أقدم استعمالات مادة « أدب » ما روى على لسان طرفة بن العبد للتوفي سنة ٥٦٩ :

نحن في المشتاة ندهو الجفلى لا نرى الآدب ! منّا يلتقر^(١)

فالآدب هنا : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدب يأدب أدبا - من باب ضرب - دعا إلى الطعام ؛ فالآدب - يسكون الدال - للدعاء إلى الطعام .

(١) انظر القصيدة (٥) بيت (٤٦) من ديوان طرفة ، طبعة آل وارد . والمشتاة : الشتاء ، والدعوة الجفلى : الدعوة العامة ، والآدب : الداعي إلى الطعام ، والانتقار : اختيار أناس دون أناس ، فالدهوة النقرى تقابل الدعوة الجفلى .

ثم ماروى على لسان أعشى قيس ، وهو شاعر مخضرم :
جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا فمرت حرب بأغمار (١)

وما جاء فى حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، يصف أبا سفيان بن حرب حين
خطبها قبيل الإسلام : « يؤدب أهله ولا يؤدبون » ، وما جاء فى ردها عليه :
« وسأخذ به أدب البعل مع لزوم قبلى وقلة تلقى » (٢) .

يشير إلى أن الكلمة انتقلت من المعنى الحسى السابق إلى المعنى الخلقى .

وقد يكون استعمالها فى المعنيين دون ترتيب ، لكن لم يصلنا ما يدل على ذلك ،
حتى إذا جاء الإسلام استعملت الكلمة فى الدلالة على المعنى التعليمى ، مثال ذلك
ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب وفود العرب على اختلاف
لهجاتهم ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، فقال له على كرم الله وجهه : يا رسول الله نحن بنو أب
واحد ، ونراك تسكلم الوفود بما لا نفهم أكثره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » (٣) . ومثاله كذلك ما جاء فى قول كعب بن سعد الغنوى
للتوفى فى السنة المباشرة قبل الهجرة :

حبيب إلى الزوار غشيان بيته حميل الحيا شب وهو أديب

ثم اطرد استعمالها فى العصر الأموى بهذه المعانى الثلاثة ، وكثر استعمالها فى الدلالة
على ما كان يلقيه المعلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل ما يهدب
النفس ويشققها من مختلف العلوم والمعارف . ومن ثم نشأت مهنة جديدة لجماعة من
الناس أطلق عليهم « المؤدبون » ، وهم أولئك المتميزون فى العلم والأدب ، فكانوا

(١) هذا البيت من قصيدة مشهورة تختلف روايتها بالزيادة والنقص ، والتقديم
والتأخير ، فى الأغاني ج ٨ ص ٧٩ ، وجمع الأمثال ج ٢ ص ٢٧٦ ، والبلدان ج ١
ص ٨٦ وما بعدها ، وشعراء الجاهلية ص ٣٦١ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٢٦١ ،
ص ٢٦٢ بتحقيق شاكر .

(٢) الأمل ج ٢ ص ١٠٤

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ طبع القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

موضع ثقة الخلفاء والأمراء فسمعوا إليهم لتأديب أبنائهم وتهذيبهم ، وتلقينهم التأثور من ألوان التعبير ، وأخذ ألسنتهم بثقاف اللغة على اختلاف اتجاهاتها وفنونها .

ومن ثم السع مدلول كلمة أدب ومشتقاتها ، وأصبحت شاملة كل ما يحقق للإنسان العلم والثقافة من معارف ، وعلوم ، ورواية شعر ونثر ، وظلت على هذا النحو يلسع مدلولها ويضيق وفقاً لمقام استعمالها حتى إذا كان العصر العباسي ، ونمت الحضارة العربية ، وازدهرت النهضة العلمية ، وقويت حركة التأليف والترجمة ، أخذ كل لون في الاستقلال بنفسه عن الأدب ، فأصبحت كلمة أدب تدل على التعبير الكلامي الجيد - شعراً ونثراً - وما يدور في ملكه من شرح وتعليق ونقد . وأصبحت كلمة أديب تدل على من يعالج فيه التعبير الكلامي ، قولاً أو نقداً أو شرحاً . ولم تعد تشمل عالم البلاغة أو النحو أو أصول اللغة كما كان .

يبد أن مادة « أدب » كانت تطلق في بعض الأحيان - مع هذا التخصص - على المعنى العام الشامل لكل ألوان الثقافة ومظاهرها ؛ فقد روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : « الأدب عشرة ، ثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ؛ فأما الشهرجانية فضرب العسود ولعب الشطرنج ، ولعب الصواج ، فأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر واللسان وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس ^(١) . وبهذا المدلول العام استعمل الكلمة إخوان الصفاء ، وعبروا بها عن مختلف العلوم والمعارف في رسائلهم ^(٢) ، وذكر ابن خلدون أنهم إذا أرادوا حديمه الأدب قالوا : « الأدب هو حفظ أعمار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف » ^(٣) .

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهاريج أو الشهارجة ، وهم أشراف الفرس ، والأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١ هـ - ٥٧٩ م . انظر زهر الآداب للحصري ج ١ ص ١٦٤ بتحقيق الشيخ محمد عبي الدين الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

(٢) انظر الرسالة السابعة من القسم الرياضي من رسائل إخوان الصفاء .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠ طبع كتاب التحرير بمصر سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

وما زال هذان السبيلان يتنازعان الكلمة إلى عصرنا الحديث ، فتارة تستعمل للدلالة على كل ما يحقق الثقافة للآسان ويهذب عقله وشعوره ولسانه ، وأخرى يراد بها الكلام الجيد الذى يعبر به صاحبه عما يحس ويرى شعرا كان أو نثرا .



هذا ويلاحظ أننا فى تقبصنا لاستعمالات كلمة « أدب » واشتقاقاتها كنا خاضعين لما وصلنا من استعمالات العرب قدمائهم وعحديثهم ، مما يلفت النظر إلى أن هذا التدرج اقتراضى ، لا يمكن الجزم به ؛ إذ من الممكن أن يكون العرب الجاهليون قد استعملوا الكلمة فى المعانى التى رأينا أنها جدت عليها وأصل الكلمة لا يمنع من ذلك ؛ فهى تدل على الدعاء ، سواء كان الدعاء إلى طعام أو رأى أو فكر أو شعور أو خلق .

أياما كانت أطوار الكلمة التى استعملت بها ، فالذى يعيننا فى دراستنا هنا هو أن الأدب العربى الذى سنتناوله بالتأريخ والبحث هو الكلام الجيد الذى عبر به العرب عن أحاسيسهم ومشاعرهم وصوروا من خلاله رؤيتهم للأشياء والأحداث بالقدر الذى يحقق الإمتاع النفسى ، واللذة الوجدانية ، فيحرك المواطن ، ويملك الانتماءات .

أقسام الأدب :

١ — الأدب أدبان : أدب ذاتى ، وأدب موضوعى .

أما الأدب الذاتى فهو ذلك الكلام الذى يعبر به صاحبه عن الأشياء أو الأحداث أو المواطن أو نحو ذلك تعبيرا مباشرا ، وهو ما عرف بالأدب الإنشائى ، وإنما كان هذا اللون من الكلام أدبا ذاتيا لأنه — كما ترى — يعرض لشخصية صاحبه بحيث ترى الحياة من خلال نفسه وعاطفته هو ؛ فأنت حين تتلقى قصيدة شاعر أو رسالة كاتب ترى فيها ما رآه هو من خلال تصوراته وحياله ، وتقع فيها تحت سلطان هواطفه وانتمالاته .

هذا اللون من الأدب إذن مرآة لنفس صاحبه ، ولأن نفس صاحبه تلك خاضعة لمختلف المؤثرات البيئية للعصر الذى تعيش فيه ؛ نقول أن هذا اللون من الأدب كذلك مرآة لمصره وبيئته .

ومن ثم كان حتميا أن يختلف حول هذا الأدب الآراء ، وتباين الاتجاهات ؛

إذا هو يعتمد بالدرجة الأولى على الذوق الخاص والمزاج الشخصي للأديب ، ولا يمكن أن تصور الناس مصبوبين في قلب عاطفي واحد . ومن ثم كان مولد الأدب الموضوعي . فالأدب الموضوعي هو ذلك الكلام الذي يتناول به صاحبه الأدب الداتي أو المواقف القاتية بالوصف أو الشرح والتحليل أو التأريخ أو الموازنة ، فهو أدب وصفي .
وإما كان هذا اللون من الكلام أدبا ولم يكن علما ؛ لأنه لا يمكن لصاحبه أن يعتمد فيه على الحقائق العلمية الخالصة ، بل هو فيه مضطرب إلى أن يجمع بين العلم والفن ، فبينما يقيم عمله على قوانين علمية ثابتة ، تجده مضطرا إلى أن يعزج ذلك بالاعتماد على الذوق الخاص والرؤية الشخصية ؛ فناقدا للأدب أو مؤرخه لا يستطيع أن يفقد أو يؤثر مالم يكن ذا ذوق أدبي ، يدرك به أسرار التعبير وظلاله ، ويتمكن به من موارد نص أهني بآخر . . إلى غير ذلك الذي يتعرض له ناقد الأدب ودراسة ؛ فهو - في ذلك - يختلف عن غيره من الباحثين في مختلف فروع العلوم الأخرى ، إذ ليس ضروريا أن يكون مؤرخ الثورة ثوريا ، ولا أن يكون مؤرخ السياسة سياسيا ، بخلاف من يؤرخ للأدب ، فلا بد من أن يكون أدبيا .

* * *

٢ - ثم الأدب الداتي (الإنشائي) أدبان ؛ شعر ونثر في .

أما الشعر فتميزه عن النثر ميراث شقي ، مثل الموسيقى المتولدة من الوزن والقافية ، واعتماده على العاطفة أكثر من النثر ، بيد أنهما يشتركان في المقومات العامة للأدب الإنشائي ، التي من أبرزها الفكرة ، والعاطفة ، والخيال ، والصورة ، ثم الأسلوب .
(أ) والفكرة : مر الحدث أو الموقف الذي يؤثر في الأديب ؛ ويوقظ مشاعره وأحاسيسه تمهيدا لتحريك العاطفة المناسبة فيه .

(ب) والعاطفة : هي الاستجابة العاطفية لدى الأديب للموقف أو للحدث الذي أثر فيه ؛ إذ بدون ذلك يفقد الأديب أهم عوامل السجاح الأدبي وهو الصدق الفني ، فيخرج كلامه حامدا حافلا لا روح فيه ولا حياة ، فهو مصنوع ملفق .

(ج) والخيال : هو المظار الشخصي للأديب ، يرى بواسطته الفكرة التي حركت مشاعره وأثارت عواطفه ، فهي رؤيا جديدة للأفكار بعد التأثر بها ؛ فنبث الأيام بنا

وقصاؤها عليها فكرة حركت مشاعر المرى وأثارت عاطفة الأس والحزن فيه، فرأى الإنسان أمام الأيام زجاجا قطعته في قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لكان البسيطة أن يسكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا رجاج ولسكن لا يمدله سبك

(د) والاسلوب : هو ذلك المنهج السكلامي الذي يسير عليه الأديب في صوغ العبارات التي تنقل ما يرى من خلال ذاته ، ليشعر متلقي أدبه بما شعر ، ويحس بما أحس ، ويحد ما وجد . وبواسطة نجاح الأديب في تأليب عبارته موافقة لما في نفسه ، يضمن لعمله لونا آخر من ألوان الموسيقى - بل هو أصمها - وهو تلك الهزات المنظمة المتوافقة في الإيقاع مع أحاسيس الأديب وعواطفه ، والتي تصل متلقي الأدب من ثنايا عباراته وإيحائها . وهذا اللون الموسيقى هو ما عرف باسم الموسيقى الداخلية .

نشأة الشعر والنثر :

كثر الحديث حول أسبقية الشعر للنثر أو أسبقية النثر للشعر ، وقدم كل ما عرّض به اعتراضه ؛ فالحديث في هذا الموضوع افتراضي حالص ، لا يمكن أن يحزم فيه برأى ، وبالتالي لا يمكن أن يحمل واحد على قبول أحد الرأيين دون الآخر

لكننا نميل إلى أسبقية الشعر بل نؤكد نؤمن بذلك ؛ لأن الشعر بمقوماته وخصائصه هو الفن التمييزي الذي يناسب المرحلة الأولى للأمة في أطوار حياتها الأدبية .

فالأدب المنشور يحمل صاحبه على مزيد معاناة وبذل جهد أكثر في تجميع أفكاره وترتيبها وتقديمها في ثوبها الفني ، وهذه المعاناة في صياغة الأدب المنشور لا تماثلها المعاناة في الترام الشاعر بالوزن والقافية - كما في الشعر العربي - لأن الوزن والقافية من الأمور التي يسهلها على الأديب الشاعر فطرته التي مجنح إلى الموسيقى وتميل نحو التطريب والإيقاع المتسق ، فالزام بموسيقى الشعر ما صعب إلا على أبناء الأطوار اللاحقة والأمم في أطوارها الأولى تنسم حياتها بما يتطلب الشعر ويتوافق معه ، إذ تكون في فترة الصراعات والحروب التي تسبق الاستقرار وما يتولد عنه من تنظيم سياسي واجتماعي إلى آخره . مما يتطلب التفكير والتروى ومعالجة الأمور بلون من التعبير أكثر تعقلا وحكمة .

هذا إلى أن الشعر وليد الخيال والنثر الأدبي وليد العقل، والخيال دائما يسبق العقل

في النمو والحركة ، كما يتضح من النظر في ملوك الأمم البدائية والمتحضرة ، فالخيال لدى البدائيين أقوى من العقل ، على خلاف الحال لدى المتحضرين ، وكما يتضح من النظر في سلوك الصبي والشاب ، فالخيال لديه أقوى من العقل ، بينما العقل لدى الشيوخ أقوى من الخيال ، فالخيال مصاحب للمراحل الأولى من أطوار الحياة ، ثم يليه العقل .

لذلك أقرر بأن الشعر كان الفن التمييزي الأسبق في حياة كل أمة ، وليست أمة في ذلك بمختلفة عن أمة

الفصل الثاني

العرب

العرب اسم لإحدى الجماعات السامية ، لم يعرف بمدى وجه التحقيق لهذا الأصل لها ولأحوايتها الأخريات ؛ فقد تعددت الأقوال ، واضطربت الافتراضات ، دون الوصول إلى قول حازم يحدد منشأها في عصور ما قبل التاريخ .

والذي يكاد يتفق عليه أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الجماعات السامية كلها في العصور التاريخية . استقروا فيها ، وأخذوا منها كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم .
وتحت ضغط الحياة في الجزيرة اندفع كثير من أهلها إلى الخروج منها والهجرة إلى حيث الخصب والتماء ، ولكن على فترات متباعدة .

في الألف الثالث قبل الميلاد خرج الأكديون « الأشوريون والبابليون » من الجزيرة إلى العراق ، وهناك عاشوا في صراع دائم مع المطامع الشخصية تارة ومع الأمم الوافدة - مثل الكشيين والحيثيين - تارة أخرى ، حتى قصى عليهم الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد خرج السكمانيون من الجزيرة إلى الشام ، وأسوا هناك مدينا تجارية ، مثل صيدا ، وصور ، وبيروت ، وقد أطلق اليونانيون على من أقام من هؤلاء بساحل البحر المتوسط اسم الفيقيين . ولم يلبث هؤلاء السكمانيون أن تشعبوا وانتشروا في المنطقة ، فتنازلت طائفة منهم في شمالي سوريا وهم المرومون باسم « الأوجريتيون » ، واستقرت طائفة أخرى في شرقي الأردن ، وهم « المؤابيون » ونزحت طائفة « العبريين » إلى فلسطين .

وفي نحو منتصف الألف الثاني قبل الميلاد خرج الآراميون من الجزيرة العربية ، إلى صحراء الفود في باديتي الشام والعراق ، وتنازلوا فيها حتى وصلوا إلى خليج العقبة غربا وجنوبي الفرات شرقا ، وكونوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربي ، عرفت باسم « كلد » ، ومنها أخذ اسم السكوثانيين .

أما من استقر به المقام في الجزيرة العربية فقد عاش بعضهم في القسم الجنوبي منها ، وعاش الآخرون في القسم الشمالي ، ولكل من القسمين طبيعته وخصائصه التي تميز من يعيش فيه .



أما من أقاموا في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية فقد صادفوا في موطنهم من أسباب التحضر ما أعانهم على الهوض ببلادهم ، وإيجاد حضارة مازالت آثارها باقية إلى يومنا هذا ؛ فقد تمكنوا من تشييد سد مأرب ليتحكموا في مياه الأمطار ، ويستخدموها بقدر على مدار السنة صمما لزراعة حصيبة تلى حاجاتهم ، وتقدم بأسباب الثراء والتقدم .

ومن ثم راجت في البلاد حركة التجارة الداخلية ، كما راجت حركة التجارة الخارجية التي دعت القوم إلى تكون لهم علاقات على مختلف المستويات بمن يجاورونهم في مصر والشام والمراق ، وأصبح مألوفا رؤية القوافل التجارية تجوب الصحراء العربية شرقا وشمالا .

وقد كشف النقوش التي عثر عليها في منتصف القرن التاسع عشر عن كثير مما كان مجهولا عن حضارة القوم وأنظمتهم الحكومية ؛ فقد تبين أن هذا الوطن العربي كان مقسما خمس ممالك هي مملكة معين وعاصمتها معين في الجوف النخلي ، ومملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تمع ، والمملكة الأوسانية جنوبي قتبان ، ثم مملكة حضرموت وعاصمتها شبوة .

ونسببت الطامع في نشوب حروب كثيرة وصراعات بين هذه الممالك الخمسة ، فقد كان لكل مطمع في أن يسيطر على طرق التجارة ويحمل الأمر كله في يده دون غيره . تحقق ذلك للمسيبيين في نحو القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم دارت الأيام وتغلب السبئيون في نحو القرن السابع فمدوا سلطانهم على الأرض ، وتحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية .

وفي نحو سنة ٢٧٠ ق . م أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحريا يجسوب البحر الأحمر ليربط بين مصر والهند وإفريقية الشرقية فاضطربت اقتصاديات السبئيين ، مما يسر على ملوك ريدان أصحاب ظفار أن يبارعهم وينلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية نحو سنة ١١٥ ق . م وفتحوا دولة الحميريين .

وفي سنة ٢٤ ق . م حاول والى الرومان على مصر (إليوس جالوس) أن يستولى على بلاد الحميريين ، فأعد جيشا كبيرا لذلك ، ولكنه عاد مكلا بال فشل الذريع .

وفي منتصف القرن الرابع الميلادى استطاع ملوك الحبشة أن يستولوا على بلاد الحميريين ، ويظفوا بها نحو عشرين عاما ، استعاد بعدها الحميريون دولتهم ، ولكنها عادت إليهم ضئيلة وانية ، يطمع فيها حيرانها ، فقد أخذ الشماليون فى الإمارة عليها ، كما اضطر كثير من أبائنا إلى الهجرة منها إلى الشمال .

ونمت ضئف الاضطهاد الرومانى الواقع على اليهود اندفعوا إلى الجزيرة العربية فى نحو القرن الأول الميلادى ، وفى الوقت نفسه تواتت البعثات الدينية المسيحية ، حتى اعتنقت نجران المسيحية ، فشب صراع بين متتقى الدينين ، وأحد للصراع أشكالاً مختلفة كان أبرزها مناهضة ملوك حمير تغلغل الصراية فى ديارهم خوفا من أن يكون وراء ذلك تحرك البيزنطيين . ولعل هذا كان من أهم الدوافع إلى أن يستق اليهودية ذونواس آخر ملوك حمير ، ويحول القضاء على المسيحيين فى نجران ، الأمر الذى دعا البيزنطيين إلى أن يوعزوا إلى النجاشى بفزو اليمن سنة ٥٢٥ م ، فاستولى عليها وضمها إلى الحبشة ، ولم تغل من قبضتهم إلا بعد نحو خمسين عاما بمعاونة الفرس أعداء بيزنطة ، فانتقلت بذلك إلى سلطات الفرس ، وظلت خاصة لهم حتى سنة ٦٢٨ م حيث اعتنق الإسلام (باذان) عامل الفرس عليها (١) .

* * *

وفى القسم الشمالى كان العرب المدنايون ، وكانوا يقيمون فى الحجاز ومجد وتمتد هشاثرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق . وكانوا يعيشون عيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والتم

ومن ثم لم يكن لهم - فى الغالب - سكنى دائمة إلا حيث توجد بعض الواحات

(١) انظر التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين ، نشر وزارة التربية والتعليم . وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ٢٧٥ ، ج ٢ ص ٨ وما بعدها ، و ج ٣ ص ١٣٦ - ٢١٤ .

في الحجاز ، ولعل هذا من أبرز العوامل التي تسببت في عدم تجمعهم في وحدة سياسية قبل الميلاد .

واقعد نشأت علاقات بين عرب الجنوب وعرب الشمال ؛ ففي تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح قامت مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق . م ، كما كان للمميين مستعمرة في ناحية « الملا » شمالي الحجاز ، نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة إلى غير ذلك من مظاهر الالتقاء التي نجد مجال بحثنا هنا لا يتسع لتناولها بالتفصيل .

الفصل الثالث

الوطن العربي

أقصد بالوطن العربي الأرض التي ضمت الجماعات السامية ، والتي عرفت باسم « الجزيرة العربية » ، أو على وجه الدقة « شبه الجزيرة العربية » ، وإعنا أطلق عليها قديما اسم « جزيرة » لإحاطة الماء بها ولأنه يحيط بها من ثلاث جهات بحسب هي الشرق والغرب والجنوب ، قيل هي « شبه جزيرة » .

وعلماء الجيولوجيا يرون أن شبه الجزيرة العربية في العصر الجليدي كانت تحرى بها بعض الأنهار ، وكانت تغطي بمض أجزائها مروج حضراء ، ولا يزال يشهد على ذلك وجود بعض الأودية الجافة العميقة بها .

كما يرون أن تلك الأرض كانت تتصل بالقارة الإفريقية في الزمن البعيد الموغل في القدم .

وشبه الجزيرة العربية تمتد لتشغل مساحة كبيرة لاتعادلها شبه جزيرة أخرى عرفت حتى الآن .

واشتهرت عند جغرافي اليونان والرومان بأقسامها الثلاثة « العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية ، والعربية السعيدة » .

فقد كانوا يطلقون اسم « العربية الصحراوية » على المنطقة الشمالية التي تقع بين بلاد العراق والحيرة من الشرق وبين بلاد الشام من الغرب . وفي قتالي هذا الإقليم قامت مملكة تدمر التي حكمتها أسرة « الرماء » المشهورة .

وكانوا يطلقون اسم « العربية الصخرية » على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها في شمالي الحجاز وحنوبي البحر الميت ، وفي هذه المنطقة قامت مملكة النبط ، وكانت حاصرتها مدينة سلع « بطرا » .

وكانوا يطلقون اسم « العربية السعيدة » على باقي شبه الجزيرة العربية ، وتشمل وسط الجزيرة وجوبيها .

لكن الجنراليين العرب قسموها خمسة أقسام هي (تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن) .

وحدوا تهامة بالمنطقة الساحلية الضيقة التي تطل على البحر الأحمر (بحر القلزم) المروفة بإقليم الحجاز ، وهي أرض منخفضة رملية شديدة الحرارة ، كانت تسمى النور - قديما - لانخفاض أرضها ويقع في شمالها ثغر صغير يعرف باسم (الوجه) يظن أنه كان ثغر مدينة الحجر المروفة الآن باسم (مدائن صالح) ، ويقع في جنوبي (الوجه) قرية الحوراء . وقد قامت بمنطقة تهامة بعض المرافق والنور مثل حدة ويبس في الحجاز ، والحديدة في اليمن وتكثر الأودية والمناطق البركانية والحقرات (١) في هذا الإقليم .

وفصل تهامة من هضبة نجد سلسلة جبال السراة التي تمتد في شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب .

وكما وجدت في هذه المنطقة آبار وعيون كانت دليلا على الحصب وقيام القرى الكبيرة ، مثل يثرب ووادي القرى - في شمالها - وهو يقع بينها وبين النور التي كانت تسمى قديما (دادان) ومن مدن هذا الوادي مدينة (قروح) وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ، ومدينة الحجر أو مدائن صالح وحبير وفدك التي نزل بها اليهود وامتدوا إلى تمام في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عذرة وبلي وجهينة وقضاعة .

أما الحجر وينبسط شرقا في هضبة نجد المسيجة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تنصل بأرض العروض - وهي بلاد اليمامة والبحرين - ويعرف الجزء المرتفع مما يلي الحجاز باسم (المالبة) ، بينما يعرف الجزء المنخفض مما يلي العراق باسم (السافلة) ، أما شرقها إلى اليمامة فيعرف باسم (الوشوم) ، ويعرف شمالها إلى جبل طيء - أحادس - باسم (تقصيم) ، وهو عند رميل الذي يدبت الغضا (١) ، وإليه ينسب أهل نجد يسمىون أهل الغضا وأهم مدن الحجاز مكة ، وطى بمدحمة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي

(١) الحرة : أرض رملية تملوها قمم الراكين .

(٢) الغضا ضرب من الأثيل .

من مكة تقع الطائف التي أقيمت على ظهر جبل (غزوان) وتحف بها كثير من الأودية والآبار ، مما أتاح للملكة النباتية من قديم أن تزدهر بها .

وتقع شمالى نجد صحراء للنفود مبتدئة من واحة تيماء حيث تمتد شرقا نحو ثلاثمائة ميل لتشغل مساحة واسعة تزهر بكثبان الرمال الحمراء ، وتخللها مراعي فسيحة ، حتى إذا اقربت من العراق مدت ذراعا لها نحو الجنوب فتفصل بين نجد والبحرين مسمية باسم (الدهناء) أو رملة عالج - وهي مزارق قبيلتي تميم وضبة - فإذا أحاطت باليمامة انبطحت في الربع الخالي - وهو صحراء واسعة قاحلة ، تفصل بين اليمامة ونجد وبين عمان ومهرة والشحر وحضرموت - وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز وهذه الصحارى التي تطرق نجد في الشمال والشرق والجنوب قفار متصمة ، يمتاز من بينها القسم الشمالى بأقطاره الكثيرة التي تسكوه حلة قشبية من النباتات والمراعى . وتقع وراء هذا القسم الشمالى بادية الشام بأوديتها وواحاتها الكثيرة وبادية العراق أو السهولة .

والمروض تشمل اليمامة والبحرين وما والاها ، والبحرين تمتد من البصرة إلى عمان - وهي المروفة اليوم بالكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر - وكانت تنزل بها قبيلة عبد القيس في الجاهلية .

وتكثر في هذا الإقليم الآبار واليناء خصوصا في الأحساء . ومن مدن هذا الإقليم القديمة مدينة (حجر) ، و (القطيف) وكانت تسمى (الخط) وإليها تنسب الرماح الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ، ومن مدنها (محار ودبا) ، وعرف سكان هذا الإقليم من قديم بالملاحه واستخراج اللآلئ .

واليمن يطلق على جنوبي شبه الجزيرة كله ، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر - وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة كما هو معروف اليوم - وتتألف من أقسام طبيعة ثلاثة أحدها ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن ، وثانيها جبال موارية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ، وثالثها هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالي ، ولغزارة الأمطار التي تهطل على هذه الهضبة بفضل الرياح الموسمية كثرت بها الأودية والسهول ، فالتعت بها المزارع الخصيبة ، وتنوعت الثمار ، فاجتذبت إليها

السكان المستقرين الذين أقاموا فيها دولا وحضارات منذ الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي .

والقسم الشمالى من اليمن الحياور للحجاز يسمى (عسير) ، وهو الذى كانت تقطنه قبيلة بجيلة فى الجاهلية .

ومن أشهر مدن اليمن عدن وصنماء وزيد ونجران وظفار ، ومن أشهر وديانها تبالة وبشة — وكانت به مأسدة — وحضرموت التى تمتد شرقى اليمن على ساحل بحر العرب ، إقليم مهرة ، والشعر^(١) ، وتتمو فى جباله أشجار الكندر وهو اللبان الذى اشتهر به جنوبى بلاد العرب فى الجاهلية .



وعلى العموم تمتاز شبه الجزيرة العربية بمناخ حار شديد الحرارة ، أما الرياح فألطفها الرياح الشرقية للمروفة بالصبا ، وأقساها ريج السهوم التى تهب صيفا على نجد فتشوى الوجوه ، وأبردها ريج الشمال التى تتحول إلى صقيع فى كثير من الأحيان خصوصا فى الشرق .

وأما مطار شبه الجزيرة قليلة إلا فى الشمال الغربى حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء ، وإلا فى الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية صيفا ، فتتحول فى كثير من الأحيان إلى سيول جارفة فى شمالى الحجاز واليمن ، أما فى الداخل فهى قليلة جدا ، يتشوف السكان لنزولها ، ويسعدون بها لأنها تحمل لهم أسباب الحياة ؛ ولذلك سموها الغيث والحيا ، واستنزلها الشعراء على ديار معشوقة انهم وقبور موتاهم . وأصبح احتباس المطر فى هذه المناطق نذير الخطر ، تهجر الأرض بسببه خشية الجذب المهلك ، فكثر لذلك عندهم الرحلة فى طلب العشب والسكلا ، حيث ترحل القبيلة — حين يحتبس المطر — بإبلها وأغنامها طلبا للمراع الجديدة ، يحلون بأرضها ويقيمون فيها .

وشبه جزيرة العرب خالية تماما من الغابات ، وليس بها أنهار جارفة ، ولا بحيرات إلا ما يقال من أن فى الربع الخالى بحيرة مالحة .

وتضم شبه الجزيرة أنواعا مختلفة من الحيوانات والطيور ، ردد الشعراء أسماء

(١) الشعر فى اللانة الجنوبية يعنى الساحل .

أكثرها في شعرهم فذكروا من الحيوانات الخيل والإبل والأغنام ، ومثل القطباء والأوعال والنعام وحمار الوحش والنزال والزراف ، ومثل الأسد والنمر والضبع والذئب والفهد ، ومن الطيور الصقر والنسر والغراب والحدأة والقطا ، وذكروا كثيرا من الجراد والنحل ، أما الزواحف فذكروا منها الضب والثعبان والعقرب والورل والحية (١) .

(١) لمزيد من التفصيل راجع تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد طي ج ١ ص ٨٦ وما بعدها طبع بنسداد ، وتاريخ العرب لفيليب حق ج ١ ص ١٥ وما بعدها الترجمة العربية وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

الفصل الرابع

اللغة العربية

الناظر في تاريخ الأمة العربية وعلاقتها بالجماعات السامية لا يصعب عليه تصور نشوء اللغة العربية ، وإدراك ما بينها وبين اللغات السامية من علاقات ، تبدو في توافق الاشتقاقات وتكون الأفعال والأسماء والحروف ، كما تبدو في الاشتراك في كثير من المفردات .

فاللغة العربية - وهي لغة واحدة من الجماعات السامية - لم تبدأ متميزة هكذا ، لأنها لم تبدأ منفصلة عن أخواتها ، إنما هي وأخواتها تفرعن عن لغة واحدة هي اللغة الأم للمرومة باللغة السامية .

ولا شك في أن هذه اللغة الأم قد تم نموها فتكونت أفعالها وأسماءها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل أن يتفرق أصحابها وتتوزعهم الأرض . ولما أخذت الجماعات السامية في النزوح عن شبه الجزيرة العربية - على ما سبق ذكره - ترحلت كل جماعة بلهجتها التي كانت فيما بعد لغة مستقلة متميزة فأصبح في العراق اللغة الأكديّة بسميها « البابلية والأشورية » ، وفي الشام اللغة الأجرينية - وهي لغة نقوش رأس شمرا - والفينيقية ، والعربية ، والآامية وفي شبه الجزيرة العربية بقيت اللغة العربية .

بيد أن هذه اللغة العربية لم تلبث أن كسبت إلى لهجات ولغات يختلف بعضها عن بعض تبعاً لاختلاف البيئات والطبائع ، وهي لغات الحجاز ، واليمن ، والحبشة وحتى هذه اللغات تفرغت إلى لهجات حيث كان لسكل قبيلة وبطن لهجة تناسب مميشتة وموطنة الأصغر .

والذي ينبغي منا من هذا كله أن نتحفظ في الحكم على بعض الألفاظ في اللغة بأنها ألفاظ دخلية ، وأن هذه الكلمة سريانية أو عبرية أو حبشية إلى آخر ما يواجهنا به بعض أسلافنا من الباحثين ؛ فما دامت هذه اللغات مبنية عن أم واحدة فليست واحدة

منها بأولى من غيرها بنسبة لفظة إليها، ومن ثم لا يصح من الباحث أن يتسرع في الحكم
فيذكر أن تلك الكلمة مأخوذة عن السريانية أو عن الحبشية أو عن العبرية .

* * *

وبالنظر فيما بين أيدينا من الشعر الجاهلي نبين أن الشعراء العرب - على اختلاف
قبائلهم ولهجاتهم الخاصة - قد اصطالحوا على لهجة من بين لهجاتهم هي اللهجة القرشية
لتكون لغة أدبية للعرب جميعاً ؛ وهذا يفسر ما نراه من توحد لغة الشعر الجاهلي
وقيامها على اللهجة القرشية .

ونبحث عن السر في تفوق اللهجة القرشية على سائر اللهجات فنجد لدى قريش
من الأسباب ما هو كفيلاً بأن يشد إليها أنظار وقلوب وعقول العرب جميعاً ؛ فقد
فرضت عليهم ديانتهم أن يخضعوا لنهوض قريش عليهم ؛ إذ كانت حارسة الكعبة بيت
عبادتهم كما فرضت عليهم المعاملات الاقتصادية أن تكون لقريش عليهم اليد الطولى ،
فقد كانت قوافلها التجارية تجوب أنحاء الجزيرة ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك
في قوله تعالى : « لإيلاف قريش . إيلافهم رحلتهم الشتاء والصيف .. » . وأعان على
ذلك ماجد من ظروف سياسية دامت مختلف القبايل العربية إلى الاتجاه نحو قريش ،
فقد رأت القبائل العربية ما يهددها من الدولتين المظلمتين المجاورتين (الفرس والروم)
ثم ما تحاول الحبشة من جهة ثالثة لفرض سلطانها وسيطرتها عليها ، في مواجهة مكشوفة
تارة ، وتارة أخرى في هجوم ديني على أجزاء من الأرض العربية يحلهم على دينهم
الوثني ، فلم يكن لهم بد إلا ذلك كله من أن يتجهوا إلى قريش بكل ما أوتوا من
الأسباب والوسائل ، مما هأأ للهجة القرشية السيادة والتسلط على كل اللهجات ، لتصبح
بعد ذلك اللغة الأدبية السائدة ، أو اللغة المفصحى لجميع العرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد طائفة من المستشرقين ومن سائر مساهم يحاولون أن
يخرجوا علينا بأراء أخرى قائمة على الافتراض والحدس دون إماسد معقول ، ولعل
الذي أمل على بعضهم هذا السلك عداوتهم للقرآن والإسلام ومحاولة السكيد له بشق
الأساليب ، على نحو ما زعم هارتمان وفولر من أن لغة الشعر لهجة أعراب نجد والنجامة ،
وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ثم يزعم (فولرز) أن بقية بلاد العرب كانت
تتكلم لغة مخالفة ، ليقرر ما يراه من أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية غير معربة

على لهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة - فيما يزعم - غير معربة ، تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو العربية ، وأن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو للعربية .

وهكذا يكشف هذا المستشرق عما يقصد إليه من وراء بحشه الخلف بالعلمية ، فيقيم على فروض وأحداث هي أقرب إلى شطحات الخرفين ، فليس له من سند علمي واحد ، ولهذا رفض رعم هذا رفضاً قاطعاً طائفة من المستشرقين في مقدمتهم (بوهل وتولدك وجاير)^(١) :

ويكفي أن نذكر (فولرز) بأن قراءات القرآن الكريم توقيفية نقلت كما سمعت من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا جهد لأحد فيها ، وأن للدين نقلوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم هم صحابته ، ولو كان الأمر على ما صور له وهم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على الاتجاه العربية من حوله .

هذا إلى أن (فولرز) وقع في خطأ آخر يكشف عن ضلال أوهامه ، إذ لم يعرف عن قبيلة من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة حالية من قواعد النحو والعربية .

ويبد أن (فولرز) وأمرأه من المستشرقين وجدوا اللغويين حين أخذوا في جمع مادتهم اللغوية في القرن الثاني الهجري يرحلون إلى قبائل نجدية دون قريش متوهموا أن ذلك كان لأن لهجة نجد هي اللهجة المختارة وأنها هي لغة الأدب العامة في العصر الجاهلي ، وفاتهم أن ذلك إنما كان حرصاً من اللغويين العرب ، فقد كان معلوماً أن اللهجة القرشية سادت وأصبحت لغة الأدب في كل المناطق العربية ، وكان معلوماً كذلك أن قبائل نجد ما زالت سليمة اللغة دون أخواتها اللاتي أثر في لغتها ما وجد عليها من لغات الأعاجم والموالي الذين كثروا في مكة بعد الإسلام كثرة مفرطة فسأثرها اللغويون من القبائل العربية ورحلوا إليها طلباً للغة العربية الخالصة . وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح بين الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس والدين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا مصطلحه ، وعليهم اتسكل في الغريب

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية « مادة قرآن » ، وكتاب العربية ليوهان فلك ص ٣ وما بعدها ، وتاريخ القرآن لتولدك .

وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين ، ولم يؤخذ عن
غيرهم من سائر قبائلهم . وبالمجمل فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري
ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ إلا من
لحم ولا من جذام لجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لجاورتهم
أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا
بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لجاورتهم للقيط والفرس ، ولا من عبد النيس
وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين محالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لخالطتهم
للهند والحشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لخالطتهم
تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادروهم
حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

(١) المزهري للسيوطي ج ١ ص ١٢٨ طبع صبيح بمصر .

الباب الأول

الأدب العربي

الفصل الأول

البيئة والأدب

نما لا جدال فيه أن الأدب مرآة تعكس صورة أصحابه ، وتكشف عن دخائل نفوسهم ، وتبين ما خفي من أسرار حياتهم ، وتعال لاتجاهاتهم التعبيرية ، وتلقى عما يتوقع في المستقبل لهم من اتجاهات منية ومكرمة . كما أنه القالب الذي يصب فيه ناشئة الأمة ، فيشكلهم ويهيئهم لما يتضمن من خلق وعادات سلوكية واتجاهات ومذاهب عقيدية .

ونما لا جدال فيه - كذلك - أن الأدب انعكاس لما يعتل في نفوس أصحابه ، وترديد لما يدور في أعماقهم ، وتعبير صادق عن كل ما أثر فيهم على المدى الطويل من أحداث كونية واقتصادية وسياسية وعقيدية . . . الخ .

فهو يعني - بالنسبة للإنسان - الشيء ومصدره ، إذ هو مرآة تعكس صورة البيئة ، وصورة تراءى على سطح مرآة هي البيئة التي تحيط بالأديب وتكتنفه . . . أى أن الأدب والبيئة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالأديب لا يستطيع أن يقطع نفسه عن بيئته التي يعيش فيها ، ولا أن يحول بين أبيه وبين ما يمر به من مواقف ، وما يمانى من مشاعر وانفعالات ، بل إن الأدب هو متنفس الأديب الذي يخفف عنه ضغط الحياة ، وما تنص به من أحداث ومشكلات ، فيقدم لمجتمعه مشكلاته التي يمانى منها مصحوبة بأماله وأمانيسه التي يسعى للوصول إليها ، أى أن الأديب يؤثر في تكوين الأدب كما يتأثر به .

حقا قد يستطيع الأديب أن يتحكم - إلى حد ما - في عبارته ليستر شيئا من خصائص نفسه ، ترما على الأحداث ، أو تأييا على مظهر من مظاهر الضعف البشري - وهو الظهور في ثوب الشاكي للتألم - ولكنه مع هذا كله لا يستطيع أن يتحكم في نفسه إلى الحد الذي لا ينم فيه أدبه عن حاله .

ومن ثم أصبح في مقدور بعض الدارسين أن يصلوا إلى الخطوط الرئيسية والمهمة في حياة الأديب الصادق من خلال أدبه ، كذلك أصبح في مقدور بعض الدارسين

أن يتعرفوا على طبيعة الحياة وما فيها من أحداث عامة في عصر ما من عصور الأدب من خلال الإلمام بمختلف الألوان والنون الأدبية التي قدمها أدباء هذا العصر .

وعلى العكس من ذلك أصبح على من يريد أن يتعرف على مسار الأدب في عصر ما أن يتعرف أولاً على ظروف الحياة في ذلك العصر ، وأن يقف على أبرز الأحداث التي وقعت فيه ، وأن يلم بطبيعة من بعضهم العصر ، وما صادفهم من مشكلات وأحداث ، وكيفية مواجهتهم لتلك المشكلات والأحداث ، ومدى تأثير هذه المشكلات والأحداث عليهم

وإنما لزم المدارس أن يتعرفوا على كل ذلك ليصبح بين يدي المدارس الباقد المحقق من وسائل التحقيق والضبط ما يقربه من الحقيقة وبدنيه منها إن لم يقدمها له بكامل هيئاتها وأبعادها ؛ إذ هو أمام النتاج الأدبي ، والتاريخ البيئي للجماعة كمن يضع بين يديه العملية الحسابية وميزانها ليتأكد من صحة ما يصل إليه .

وليتمكن هذا المدارس من الوقوف على التفسير المقنع لكثير من التعبيرات الأدبية ، والتعرف على ما يشتمل من صور وخيالات دنية يدهش لها بعض المدارس لما فيها من غرابة ، أو وحشية ، أو سذاجة نسبية .

من ثم كان لزاماً على من يتعرض لأي طور من أطوار الأدب العربي أياً كان أن يتعرف أولاً على طبيعة الحياة العربية في العصر الذي ضم هذا الطور بالقدر الذي يمينه على تصور الحركة الأدبية فيه ، ويطامسه على اتجاهات مسارها ، إذ من خلال ذلك يستطيع أن يستخلص العوامل التي كان لها التأثير المباشر في تقوس الأدباء العرب مقدموا أدبهم على هيئته التي قدموه عليها .

ولاريب في أن هذا النهج فيه من المشقة والجهد ما يربو على منهج الشك من أول الأمر في كل ما ينسب إلى عصر من العصور أو إلى أديب من الأدباء - شاعراً كان أو كاتباً - ثم البحث عما يثبت هذا التراث أو ينفيه ؛ لما يتضمن منهج الشك من شبهة وجود حكم مسبق يسمى صاحبه لإقراره .

يبد أن منهج التحقيق والاستقصاء القائم على البحث في ثمايا البيئة يقدم الباحث من الحقائق ما يشغله عن المشقات والصواب التي يتجشمها ويماني منها .

ونظرة إلى ما بين أيدينا من أدب الأمم للماضية تقرر ما ندعو إليه من أهمية التعرف على البيئة بكل أبعادها ليصدر حكما على أدب هذه البيئة صادقا أو قريبا من الصدق .

فالبينة - وليس العصر - هي المقياس الصادق ، والكشاف الدقيق للأدب المنسوب إلى أبنائها ؛ إذ العصر الواحد يضم ألوانا مختلفة من العاصر البشرية التي يتباين فيها كل لون عما عداه من الألوان تباينا غير مستقر ، فقد يضيق هذا التباين مشتركات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك ، كما قد يوسع هذا التباين ويرده اختلافات طبيعية أو سياسية أو نحو ذلك كذلك . بحيث تصبح الأمة الواحدة في العصر الواحد كأنها عديد من الأمم لكل جماعة منها من الدوازع والأذواق والمزاج ما يمنحها كيانا استقلاليا تميز به عن الأخرى بحيث نسمع صوت الفرد منها فلا تصدق أنه يندرج في المجموعة التي تضم أفراد الجماعة ؛ فبينما صوت الواحد هما يدوب رقة وسلاسة ، إذا صوت الواحد هناك يصك السمع بخشونة ألفاظه ووعورة تراكمه ، وقوة إيقاعه .

ولقد اعتاد الدارسون أن يقسموا الأدب إلى عصور ، يضم كل عصر طائفة من الأدباء الذين يمثلونه في أدبهم ، ويمبرون عن أحداثه واتجاهات الحركة الفنية فيه ، على الرغم مما قد يكون بين أبناء الجيل الواحد من اختلافات أصيلة توجه بعضهم جهة اليمن ، وتوجه البعض الآخر جهة اليسار . . . فإذا ما ووجه الدارس بمثل هذا التباين لجأ إلى البيئة الخاصة يطلب منها تفسيراً له وتعليلاً .

من ثم كان الطريق الأقرب إلى الواقع ، والأوضح في الكشف عن الاتجاهات الفنية لأمة من الأمم هو البحث في أدبها من خلال البيئات الأدبية ، لتكون الصورة أشمل وأوضح ، وليكون الخلاف البادى مسبوqa بما يفسره وبالله ، وليس محتاجا إلى تفسير وتعليل .

* * *

من هذا للنطق أقول - رر أن البيئة الأدبية هي المجتمع المحصوص الذي يفرض على أفرادها اتجاهها معينا موحدا أو متقاربا ، يلون أدبهم بلون خاص ويميزه من غيره بميزة يسير بها .

أو هي الوسط البشري الناقل ، الذي يستقبل أحداث العصر ويتأثر بها ، ويمتصها

ثم يتمثلها فيما يقدم من تعبيرات أدبية، ودون أن يخضع لحدود الزمان والمكان، إذ هو أهم منهما وأوسع انتشارا وتأثرا .

فالبيئة الأدبية ليست مقصورة على عصر، ولا محصورة بجبل، ولا محدودة بموطن، بل يمكن أن تراها ماثلة في أعصر عديدة ، وأجيال مختلفة ، ومواطن كثيرة .

أى أن البيئة الأدبية قد تكون مجاورة غيرها من البيئات الأخرى، كما قد تكون منفردة ، إذ هي تخضع بالدرجة الأولى - لنوع الثقافات ، وهراف الحياة وما يتولد عنها من أحداث ، ومدى اتصال الأديب بتلك الأحداث ، وكيفية تعامله معها أو استقبالها وتمثلها^(١)

فالأديب يخضع في مساره الأدبي لموامل ومؤثرات متشابكة تتماون جميعا في تشكيل أدبه وصبغه بالصبغة التي تتفق مع من يماثله في ظروفه ، على الرغم مما قد تكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم أدباء أى أمة، وتقديمهم في مجموعات بيئية متلائمة تكشف عن أدبهم ومدى استجابتهم به لتلك البيئة ، وتبين المؤثرات التي خضع لها كل منهم ، بلونت أدبه باللون المميز له من غيره من الآداب .

ولأن هذا المهج فيه من الشمول واتساع التناول ما يجعل النظر ممتدا بين عصور التاريخ على اتساع رقعتها ، ليرى أدب البيئة الواحدة في هذه العصور كلها . . . مما قد يصيب الدراسة بنوع من التراكات . . . لهذا رأيت أن أقدم البيئة في عصرها متميزة عن البيئة الأخرى في العصر ذاته ، حتى إذا استوعبنا بيئات العصر كله ، انتقلنا إلى بيئة العصر التالي . وبذا تتلأى ما قد يشأ من حلط أو اضطراب .

* * *

ولقد احتفاه الدارسون من قبل حول الأسس التي يقام عليها تقسيم الشعراء الجاهلين ، ويمرض من خلالها شعرهم .

فابن سلام نظر في شعرهم وقومه ، واحتار من الشعراء الجاهلين حولهم ، ثم صنف هؤلاء الفحول ، ووزعهم على طبقات رتبها ترتيبا تنازليا ، بناء تارة على ما يراه من

(١) راجع للمؤلف « في الأدب العربي للماصر » القسم الثاني ص ٧٩

هلوفى للشاعر، وتارة على كثرة ما روى من شعرهم وقلته، ومرة يعتبر الفن الشعري، وأخرى يعتبر الموقع الجغرافى حصرا لما قدمته بعض القرى للمربية^(١) من غول للشعراء، ثم فى النهاية عرج إلى العقيدة الديلية فجعلها أساسا لإحدى الطبقات .

ويلاحظ أنه على الأساس الأول والثانى والثالث قدم عشر طبقات ، ذكر فى كل طبقة أربعة شعراء، ثم على الأساس الرابع والخامس لم يلتزم بعدد محدد على ما التزمه فى الطبقات السابقة .

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والثابتة الديباني زياد بن معاوية ، وزهير ابن أبى سلمى المزنى ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

والطبقة الثانية : أوس بن حجر ، وبشر بن أبى خازم الأسدى ، وكعب بن زهير ، والحطيئة أبو مليكة جرول بن أوس .

والطبقة الثالثة : أبو ليلي نابنة بنى جمدة ، وأبو ذؤيب الهذلى، والشاخ بن ضرار، وليبد بن ربيعة .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدى ابن ريد . واستثنى هذه الطبقة من منهجه ، فقرر أن موضع شعرائها مع الأوائل ، وإنما أدخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة .

والطبقة الخامسة : حداد بن زهير ، والأسود بن يهر ، وأبو يزيد النخبل بن ربيعة ، وتميم بن أبى بن مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنزة بن شداد ، وسويد بن كاهل . وذكر لكل واحد منهم قصيده هى التى ألحقته بهذه الطبقة .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، وحسين بن الحجاج المرى، والتمس وهو جرير ابن عبد المسبح ، والمسبب بن علس . وذكر أن هؤلاء أربعة رهط محكمون^(٢) مقولون ، وفى أشعارهم قلة ، فذلك الذى أحرهم .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قيس ، والتمر بن قلوب ، وأوس بن خلفاء ، وعوف ابن عطية .

(١) المقصود بالقرى هما المدن والخواصر .

(٢) محكمون - بضم مكسور فكسر - من إحكام القول .

والطبقة التاسعة : ضائب بن الحارث البرجمي ، وسويد بن كراع العسكي ،
والحويدرة قطبة بن محسن ، وسحيم عبد بن الحسحاس .

والطبقة العاشرة ، أمية بن حرثان بن الأسكر ، وحريث بن عفيف ، والسكيت
ابن معروف ، وعمرو بن شاس .

ثم ألحق بتلك الطبقات طبقة أصحاب الثرائي ، وذكر فيها : متم بن نويرة ،
والخساء ، وأعشى باهلة ، وكعب بن سعد الغنوي .

وطبقة شعراء القرى العربية :

ذكر من شعراء المدينة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسات .

ومن شعراء مكة : عبد الله بن الزبيري . وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبوسفيان
ابن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضرار بن الخطاب القهري ، وأبو عزة الجمحي ،
وعبد الله بن حذافة السهمي ، وهبيرة بن أبي وهب .

ومن شعراء الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وابنه أمية بن أبي الصلت ،
وأبو عجمن الثقفي ، وغيلان بن سلمة ، وكفانة بن عبد ياليل .

ومن شعراء البحرين^(١) : المثقف^(٢) العبدى ، والممزق^(٣) العبدى ، والمفضل
ابن معشر السكري^(٤) .

ثم طبقة شعراء يهود : السموأل بن عادياء ، والربع بن أبي الحقيفة ، وكعب
ابن الأشرف ، وثريج بن عمران ، وسمية بن القريس ، وأبو قيس بن رفاعة ،
وأبو الذبال ، ودرهم بن زيد .

(١) البحرين : كانت قديما اسم مكان جامع لبلاد على ساحل الهند ، ما بين البصرة
وعمان ، وقسمتها هجر ، أما المعروفة الآن باسم البحرين فهي جزيرة يحيط بها البحر
في ناحية البحرين ، ركائز تعرف قديما باسم : « أوال » بضم الهمزة وفتحها « كان
فيها نخل كثير ربساتين .

(٢) بكسر القاف المشددة . (٣) بفتح الزاى المشددة .

(٤) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا لم يستقر ابن سلام في عمله على منهج واحد ، فاضطربت تقسيماته ، وتعذر عليها أن تعد الباحث المدارس بالرأى المحدد الواضح ، ولو استقام على واحدة من تلك الأسس لأعاد كثيرا .

أما أبو عبيدة فرأى أن أشعر الناس أهل الورح خاصة ، ورتبهم في ثلاث طبقات :
الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، وزهير ، والناطقة .

الطبقة الثانية : الأعشى ، ولبيد ، وطرفة .

والطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشمخ بن ضرار ، وعمر بن أحمد ، والمرقس الأمغر وعمر بن حرملة (١) .

وابن رشيق استعرض طائفة من الآراء التي تفضل شاعرا على الآخرين للمحظ عام تارة ، وتارة أخرى لخصوصية فنية . وعرف في إيجاز بشعراء بمص القبايل التي اشتهرت بالشعر مثل ربيعة وقيس وتبهم دون أن يرتبهم (٢) .



وإذا كان المدارسون من قبل قد اختلفوا هذا الاختلاف في تقسيم الشعراء العرب في العصر الجاهلي ، فهو ليس اختلافا في تقسيم الشعراء حسب ، وإنما هو شامل للأدباء عموما شعراء ونائرين ، لسكن لما كان الشعر هو الفن الغالب على الأدب في تلك الآونة دار التقسيم حول الشعراء دون غيرهم .

والملاحظ أن هذه التقسيمات على اختلافها لا تقوم على أساس ثابت ؛ فتارة ليجد التقسيم مبنيًا على المنهج الزماني ، وتارة أخرى نجده مبنيًا على المنهج المكاني ، و مرة ثالثة نجده مبنيًا على المنهج القبلي ، دون مراعاة للبيئة وأثرها في الأدب والأديب ، وعلى الرغم من وضوح أثر البيئة العربية — على اختلافها — في أدب العرب وضوحا لا يحق لدارس منصف أن ينازع فيه . حتى أصبح العصر الواحد يضم لونين من الأدب على طرفي تقيض ، فهذا لين قريب ، ودالا حوشى قريب ، بحيث ينظر الناظر إليهما مجتمعين فلا يتصور أن يكون هذان ابني عصر واحد .

(١) جمهرة أشعار العرب لإبي زيد بن الخطاب القرشي ص ٤٥ .

(٢) المدة ج ١ ص ٨٦ وما بعدها .

الفصل الثاني

أجناس الأدب العربي

من المقرر أن الأدب العربي - على اختلاف أنواعه وفنونه - يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف فيها فرد عن فرد من انفعالات وعواطف ونزعات ؛ ففي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان - أيا كان موطنه - في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تموجه عن مواصلة المسار . . . لا يختلف في ذلك أدب عن أدب . وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والمشاعر والانفعالات رضاها واحتفالا ، أو سخطا عليها ونفورا ، دفاعا عنها وتبشيرا بها أو برماها وتحذيرا منها .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أخها في أمور كثيرة، من أبرزها - في ميدان الأدب والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرتى والصورة الدركة إلى الآخرين . ثم الأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

فالأبوة والأمومة - مثلا - من العواطف الإنسانية المشتركة التي لا تختلف حول الاحتفاء بها أمة عن أمة ولا بيئة عن بيئة . بيد أن تصوير حرص الإنسان عليها ، أو الدعوة إليها ، أو أسلوب الاحتفاء بها يختلف من أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، بل من فرد لفرد ، وفقا للمزاج العقلي والخيالي الذي يشكل إدراكه التصوري لهذه العاطفة أو تلك .

من هذا يتقرر أن أدب بيئة ما له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى وهو تميز تفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها من اختلاف في المزاج العام الذي تقوم عليه اتجاهات أفرادها ، وتتشكل به منازعهم . فلا يصح - لذلك - أن يحدد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هذه الخصائص وتلك من

ضروريات البيئة التي لاجهد لأحد فيها . إنما يحاسب أدباء أمة أو جيل ويذم أدبهم إذا تجاوزوا ما تمليه عليه بيئتهم أو مجاهلوهم . فجاء أدبهم غير ممثل لتلك البيئة ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مسخا مصنوعا لا يعبر عن ذات أصحابه ، ولا يقيدهم في شيء بحيشته على نسق آخر ، بل جد التميز والجودة في بيئته .

* * *

ودارس الأدب العربي يلاحظ أنه يقوم على جنسيه المتعارف عليهما - الشعر والنثر - بيد أن ظاهر الأمر يوحي بأن هذين الجنسيتين لا يكونان على قدم المساوى في جميع البيئات الأدبية ، مينا يطنى أحدهما في عصر بحيث يبدو أنه الأثير عند أهل ذلك العصر نجد الجنس الثاني يبرز حتى يطنى على الجنس الأول في عصر آخر .

ولا ريب في أن إثار الشعر أو إثار النثر لا يقصد إليه الأديب قصداً ، ولكنه من فعل البيئة وعواملها للتغيرة ، وهي التي تميل بالأديب - من غير قصد منه أو تعمده - إلى أن يعبر عن مكنون نفسه ، وما يختلج بين جوانحه بهذا الجنس الأدبي أو ذاك . ولا يفي هذا أن يخلص أدب عصر أو جيل لهذا الجنس دون الجنس الآخر ، فهما دائماً موجودان مائلان في كل بيئة وجيل ، إلا أنهما - كما قررنا - لا يتساويان .

وقد يطرأ على عصر مامن الظروف والعوامل ما يدعو إلى اختفاء أحد هذين الجنسيتين من بين آدابه الماثورة ، سواء كانت هذه الظروف والعوامل أصيلة في البناء الأدبي أو كانت عوامل ناقلة مساعدة . . . فتثور الشكوك حول وجود هذا الجنس أو ذاك كما ثارت حول أدب العصر الجاهلي بجنسيه - الشكوك - .

* * *

النثر : ولقد نوهم بعض دارسى الأدب الجاهلي أن هذا العصر خلا تماماً من أدب يعبر بالنثر ، فكل ما أثر عن أدبائه قائم على جلس الشعر ، حتى [قرر بعض هؤلاء أن العربي في هذا العصر كان لا ينطق إلا بالشعر في جميع شؤونه ، وليس] فقط في مجال التعبير الفني .

كما تشكك بعض الدارسين فيما حفظته كتب الأدب العربي من نثر جاهلي ، وإن أقر بأن أدباء هذا العصر قد عرفوا فنونا من النثر عبروا من خلالها عما أرادوا التعبير عنه ، لكنهم قطعوا بأن شيئاً من هذا النثر لم يصلنا ، وكل ما وصلنا منه منه منقول

مصنوع ، قد يكون على نظام ما كان لهم في ذلك العصر ، يقول الله كتورطه حسين :
« وكل ما يمكننا أن نستخلصه من هذا النثر القدي يضاف إلى الجاهليين إما هو شيء
واحد ، وهو أن من الممكن أن يكون هذا النثر قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد
ما كان للعرب في جاهليتهم من نثر ، حفظ لنا صورة مامن هذا النثر الجاهلي ، دون
أن يحفظ لنا نصا من نصوصه » (١) .

وأنا لاشك في أن العصر الجاهلي قد عرف النثر الأدبي باعتباره وسيلة من
وسائل البيان . ولا أشك كذلك في أن ماعرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على
قرار ماعرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي
القول عندها — على ما قررنا — فلا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من مومن النثر
ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك ، كما لا يحق لنا أن نطلب في الأدب
الجاهلي من فنون النثر ما نجد في الأدب الإسلامي أو العباسي أو نحو ذلك من عصور
الأدب العربي ذات البيئة المختلفة ، والظروف المتباينة .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يرمعون فيها
أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجهلون النثر الفني
لما كان لتعليمهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتعدي للمعجز لا يكون عن فقر وجهل بما
سجل ميدانا للتعدي ، وإنما يكون عن مقدرة دائمة وتمكن مشهور في ذلك الحال .

هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا
البيان القرآني ويحلوه الحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام طائفة من أعلام
الأدب لديهم كما حدث في إسلام عمر بن الخطاب ، ويكون عاملا من عوامل التشكك
في نفوس طائفة أخرى على رأسها الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا
في القرآن ما يفهمهم إلى التروى في الحكيم عليه — ، ومعاودة النظر فيما يدعوم إليه ،
لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وخشيئتهم من ضعف سلطانهم المورث .

ولاعك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ،
ولمصادفته بالقرآن الكريم ، واشتغال العرب به — من أسلم منهم ومن لم يسلم — مما كان له

أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث « وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه ... ولعل ما حدث في العصر الإسلامي تجاه القرآن الكريم حين استعمر القتل في حفاظه أثناء حروب الردة .. يقرر ما أقول في هأنثر الجاهلي قبيل ذلك بأعوام قلائل ؛ إذ انتشار الإسلام ، واتجاه الكثيرين من أعلام العرب الجاهليين للدخول فيه أو مقاومته، وقتل من قتل منهم في الحروب التي نشبت بين الجاهليين والمسلمين ... كل هذا كان من أسباب الاشتغال عن النثر الجاهلي .

كما لا أشك في أن القليل القليل وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقي الضوء على هذا للجذس الأدبي عند الجاهليين ... على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغييرات في بعض عباراته ، وما قد أصابه من تحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو — مع كل ذلك — يطلعنا على الفنون السائدة بينهم ، ويعرفنا بكثير من قصاياهم التي كانت تشغل تفكيرهم ، كما يقفنا على منهجهم البياني في ذلك الفن .

والناظر فيما تناقله الرواة من نثر هذا العصر يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين :

أحدهما : محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البيانية ، والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصي ، دون إجهاد في بناء قصص أو في نقل خبرات الأديب بالحياة ، والتعبير عن خلاصة رأيه وعصارة فكره ... وهذا وذاك ماتناقله الرواة تحت اسم (الحكمة والمثل) .

والثاني : محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحمه ... وهذا هو المعروف بالخطب والوصايا والمحاورات والناشرات ؛ فهذا كله تعبير فني ، قصد به الإثارة والتأثير ؛ حاض في هذا وذال المزاج قائله وما تأصل في نفسه من مبادئ وأفكار ، وتأثر به من أحداث بيته . أما الكتابة الفنية فلم يكن لها دور ملموس في هذا المحور الخطابي ؛ فقد آثروا فيه الخطاب المباشر على الرسائل لصوبة وسائل الكتابة الفنية ومتطلباتها ، وليس لجلهم بها ، فقد استغنى عن الرسائل في غير الأدب من شئون الحياة ، كالسياسة والتجارة ، حيث كتبوا معاهداتهم ، ودونوا وثائقهم المالية والتجارية .

فالفنون الأدبية التي قدمها النثر الجاهلي هي : المثل والحكمة ، والخطابة ، والوصايا والمحاورات ، والناشرات . أما ما روى من القصص فلا يستطيع أن أسلكها في ضمن

فهو نثرهم ؛ لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية . . . فهي بسبب
غير جاهلي يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، أو هي أدب غير جاهلي يحوى مضمونا جاهليا .
يبد أنها — إلى ذلك — تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث في قصص ،
وتداولوها فيما بينهم ، متوسلين فيها بالقص والحكاية (١) .

ويلاحظ الناظر في النثر الجاهلي أن المثل والحكمة تعبير يائي موجز غير منسوب
لقائله في الغالب ، فهو تعبير سائر ، لا يرتبط بصاحبه قدر ارتباطه بمصره أى أنه تعبير
فى إخضاع لبيئة العامة التى نسب إليها ، أما البيان الخطائى — على تعدده — فهو فى الغالب
منسوب إلى من صدر عنه ، أى أنه تعبير فى إخضاع لبيئة قائله الخاصة ويتأثر بما تأثر
هو به منها ، على ما سنحاول أن نجليه إن شاء الله تعالى فى بحثنا هذا .

* * *

الشعر : أما الشعر الجاهلي فلقد كان أحسن حفظا من النثر ؛ إذ صادف من أسباب
الحفظ والانتقال ماضن له الخلود والبقاء ، وإن لم يسلم من معتد يصيبه بالتنكير
والتحريف ، أو شاك متعصب يهمل عليه ما شاء من الظنون والتراكبات محاولا
طمسه وإنكاره .

والشعر الذى وصلنا من العصر الجاهلي يرجع إلى نحو مائة وخمسين عاما قبل
الإسلام ، فليس هذا العصر مبتدأ قول الشعر العربى ؛ لأن ما وصلنا منه مثلا هذه
الفترة الزمنية شعر ناضج مستقيم ، يسير فيه الشاعر وفق منهج متعارف عليه الشعراء
من أقصى الجزيرة إلى أقصاها واستساغوه ومرنوا عليه ، وأقام القاد قواعدهم النقدية
على أصوله المرعية من الجميع ؛ سواء فى ذلك القالب العام — من بناء القصيدة على أبيات
فأنت وحدة ، واعتمادها على قافية ثابتة لا تنغير — والبناء الفنى للقصيدة الذى يلتم فيه
الشاعر غالبا بمطلع يسكى فيه ويصف الأطلال ، وينتقل منه إلى وصف الرحلة فى
الصعراء وما يتصل بذلك من حديث عن الناقة وقوتها وضخامة جسمها ، ووصف

(١) انظر ذلك فى نحو أمثال العرب المفضل لضبي ، والأغاني لأبى الفرج ، ومجمع
الأمثال للسيدانى ، وجمهرة الأمثال للمسكوى ، والبيان والتبيين .

للطريق وما فيه من مشقات . ثم يخرج من ذلك إلى الغرض من القصيدة - مدحا كان أو هجاء ، أو غفرا أو رثاء - فينبى القصيدة بالانتهاء من عرضه .

ولاشك فى أن هذا النظام الذى يقوم عليه الشعر الجاهلى ليس ابن يومه وليكنه ، فهو نظام من أطوار ومراحل هذبت فيها حواشيه ، وتساقطت منه كل معوقات العمل الأدبى ، حتى وصلنا إلى ما نراه اليوم من التكامل والتناسق .

لكن متى بدأت تلك الأطوار ؟ وكيف هذب الشعر فيها ؟ وما العوامل التى أثرت فيه ؟ ومن كان له الدور الواضح من الشعراء فى ذلك ؟ إلى غير تلك التساؤلات التى تفرض نفسها وتطفو على السطح فى مواجهة من يدرس من شعر هذا العصر .

الإجابة على مثل تلك التساؤلات من الأمور التى لا يستطيع المدارس الموضوعية أن يقف على جواب لها ، بل ولا يستطيع أن يسلم بالافتراضات التى يجاب بها ، فليس بين أيدينا ما يدل على شيء من ذلك أو يرجحه ، مما كان سبيلا إلى تجرؤ بعض المستشرقين ومن تابعهم من العرب فتشككوا فى صحة وما وصلنا من شعر هذه المرحلة وشككوا فيه - بل بلغ بعضهم الجراءة أن أنكروه - معتمدين على فقدان الأثر المادى الذى يقطع بتلك النسبة مستبعدين ما على الشعر الجاهلى من أعراف فنية معقدة فى المعانى والموضوعات ، وفى الأساليب والصياغات المحسنة ، وفى الوزن والقافية .

والملاحظ أن هؤلاء وأولئك بنوا قسما أو إنكارهم على افتقاد الشعر الجاهلى الوسيلة المادية التى تقطع بلسنته إلى عصره ، ويقصدون بذلك المكتوبات . . . وهم فى ذلك يريدون أن يخضعوا الجاهليين لأعرافهم فى العصر الحديث ؟ وفاتهم أن الجاهليين كانوا لا يثقون فى المدونات والمكتوبات ثقتهم فى الروايات ، لتقديرهم أن شعرهم فى توثقه الرواية أكثر مما توثقه الكتابة ، حتى لقد صرح ابن سلام فى طبقاته بأن وثقته الرواية لا ينفى بما أخذ عن صحيفة (١) .

وأنهم - كذلك - بنوا هذا الشك أو الإنكار على أن ما بين أيدينا من شعر الجاهليين يمثل المرحلة الأولى من هذا الشعر ، ومن ثم فليس مقبولا ، أن نكون تلك المرحلة الأولى على مثل هذا النضج . وفاتهم أن هذا يمثل مرحلة سبقت بمراحل ، غير أن نتاجها الأدبى طوى مع الزمن كما يقطع بذلك العقل السوى .

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق شاكرو .

وإذا كان منطق العقل السوى يقرر أن ما بين أيدينا من الشعر الجاهلى هو ابن
مرحلة سبقتها مراحل، فإن بعض شعراء الجاهلية أشار إلى ذلك فى حديثه عن سبقهم
من الشعراء . مثل امرئ القيس فى قوله :

عوجا على الطلل الحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خدام^(١)

فابن خدام هذا شاعر سبق امرأ القيس فى بكائه ووقوفه . بيد أننا لانعرف شيئاً
عن ابن خدام هذا أكثر من ذلك الذى جاء فى بيت امرئ القيس ، قد يكون أول
من بكى ، وقد يكون بمن تقدموا امرأ القيس إلى البكاء ، ولكنه ليس أولهم
ومثل زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ما أرابنا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

إذ يقرر أنه فى قوله يحتذى سابقه ويكرر ما قالوا، ويستعير منهم . . لكن ما هذا
الذى استعاره ؟ ومن هم الشعراء الذين سبقوه إلى القول على هذا الخط ؟ وكيف كانوا
يقولون ؟ ومتى وأين كانوا ؟ وبم اتصل هؤلاء بأولئك ؟

لما نجد إجابة شافية على هذه التساؤلات ونحوها ، لأننا حتى يومنا هذا لم نستطع
أن نجتاز بالتقصير هذا المعصر إلى ماسبقه . وكل مانعل إليه من ذلك هو أن زهيراً
يعترف بأنه سبق بشعراء عبيدين استقاموا على الطريقة ، وأنه ومعاصروه تتلمذوا على
هؤلاء السابقين المحيدين . وهذا يعنى - بالتبع - أن سابقى زهير المحيدين سبقواهم
أيضاً بمن تتلمذوا عليهم ، إذ لا يعقل فى تصور الأطوار الفنية إلا أن يكون الأمر هكذا.
حتى يصل بالشعر إلى مرحلته الأولى .

ومثل ذلك قرره عنتر بن شداد المسمى فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرمت الدار بعد قوم^(٢)

(١) عوجا : اعطما روا حلسكا : على الطلل الحيل : الطلل الذى أنى عليه حول
قتنير ، لأننا - بفتح اللام - . لعلنا . انظر ديوان امرئ القيس ص ١١٤ طبع دار
المعارف بمصر ، تحقيق محمد أبو الفضل .

(٢) المتردم : الموضع الذى يسترقع ويستصلح لما عراه من الوهن . يقول : هل
ترك الشعراء موضعاً مسترقعاً إلا وقد رقعه وأصلحوه . يعنى : لم يترك الشعراء السابقون
لنا شيئاً نقول فيه قولاً جديداً . شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٦٨ طبع صبيح بمصر .

ففترة يستنكر أن يكون الشعراء السابقون قد تركوا لمن لحق بهم - على عهده - شيئاً يقولون فيه ؛ فاللاحقون - ومن بينهم عترة - يحتذون سابقهم ، يأخذون عنهم ، ويتلمذون عليهم ؛ لأن السابقين بلغوا من أطوار الشعر - مرحلة مكنتهم من استيعاب الكثير من الفن الشعري ، بحيث يشعر التلميذ - من جيل عترة - بأنه عاجز عن الابتكار والانطلاق متحرراً من تقليد هؤلاء السابقين .

أى أن واقع الشعراء الجاهليين يبرز مآثره العقل والنطق في سنة التطور من أن العصر الجاهلي يمثل مرحلة ناضجة من مراحل الشعر العربي ، وأن تلك المرحلة سبقتها مراحل متوالية ، تدرج الشعر فيها حتى نأى واستقام قبل مبتدأ هذا العصر .

• • •

والناظر في أدب هذا العصر - على عمومه - يلاحظ أن الشعر قد احتل من النشاط العربي مكان الصدارة ، ونال منهم أرقى درجات التقدير ، وسائر الفروسية لديهم ؛ فقد كان لهم الديوان الذى يحفظ تاريخهم وأيامهم ، وكان جهاز الإعلام المتنقل الذى ينشر آراءهم ويديع أنبياءهم ، وكان المحمس لفرسانهم في المعارك ، واللؤنس لرائعهم وغاديتهم في وحشة الصحراء ، والمتنفس الذى يتمتع من أعصابهم السكد والإرهاق ، له يجتمعون [وبه يسكرون] .

من ثم كان الشعراء ذوى حظوة في القبيلة ، فهم الذين يسطقون بلسانها ، ويعبرون عن مشاعرها ، ويحفظون أمجادها ، ويدعمون الماديات عنها ، ويرهبون خصومها ، ولذلك حرصت كل قبيلة - لاهرق بين البداية في ذلك والحاصرة - على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين كسب الركبان بشعرهم ، ضاماً لاكتساع سطوتها ، وانتشار سلطتها فومرت للناشئة من أبنائها كل أسباب النبوغ والتفوق ، واحتفت بمولد الشاعر من بينها فسكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت للقبائل لتهنئتها بذلك ، ومدت الموائد واجتمع للنساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويقبشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإعادة بذكرهم ، وكانوا الالهة دون الإلام يولد ، أو شاعر يبيع فيهم ، أو مرس تلتج (١) . فلم تسكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة ، وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء ، وسيرورة الشعر .

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٦٥ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين طبع التجارية بمصر .

ولذلك يجد المدارس نفسه أمام فيض من الشعراء تابع من قبائل العرب - على اختلاف مواطنهم وبيئاتهم - لا يستطيع أن تحيط بهم . فقد كانوا كثيرين متنوعين ، تشرك الرجال فيه النساء ، ويتفوق فيه البدوي كما يتفوق الحضري ويدفع فيه الصعاليك كما يدفع السادة حتى يخيل له أن الشعر في هذا المصر كان شغل العرب الشاغل ، وأنه كان ميسورا للكثيرين ، يجري على كل لسان ؛ ولا يكاد يستصعب على أحد منهم

وهل كان العرب - في مجموعها - ما يشغلهم من الشعر ؟ لقد كانوا محاطين بظروف اجتماعية وسياسية وبيئية تجردهم للشعر ونحوه من فنون البيان ، وتحقيقا لذواتهم ، واستجابة لحاجاتهم الطبيعية . ولقد قرأ ابن قتيبة ذلك في قوله : « والشعراء للمروءون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف وراء عددهم واقف ولو أنشد عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ مجهم - وده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرّفه ، ولا قصيدة إلا رواها » (٢) وابن سلام في تنبيه له حول شعراء العرب قدم أربعة وسبعين شاعرا من حول الجاهليين والحضريين ، أربعين منهم في عشر طبقات ، كل طبقة يمثلها أربعة ، وخمسة في المدينة ، وتسعة في مكة ، وخمسة في الطائف ، وثلاثة في البحرين ، وثمانية من اليهود .

والناظر إلى هؤلاء الشعراء يلاحظ أنهم ينطون مختلف البيئات العربية - من بدوية وحضرية - بيد أن القبائل المضرية كان لها أومر نصيب من الشعراء . يتضح هذا من إلقاء النظر في نحو الأغاني والمفصليات والأصمعيات . كما يتضح أن القبائل - مضرية أو قحطانية - متفاوتة كذلك في حظها منهم .

لقد كان للشعر أثره البالغ في حياة العرب ، به يتوسل صاحب الحاجة ، وبواسطته تستل السخائم من النفوس ، وعليه تقوم العلاقات في المجتمع العربي ، روى أن الحارث ابن حمزة اليشكري - وكان أبرص - ارتحل بين يدي عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :
آذنتها بينما أسماء رب ثاور يمل منه التواء

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٦٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦

وكان يشد من وراء السجف للبرص الذى كان به ، فأمر عمرو برفع السجف بينه وبينه استحسنانا لها (١) . وروى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم ، وهو رجل مفوه ، محدود فى الشعر مامدح أحدا إلا رفعه ، ولا هجا أحدا إلا وصمه ، فلو سبقت للناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له لرجوت لك حسن العاقبة . فسبق إليه المحلق ، فأنزله ومحر له وسقاء وبالغ فى إكرامه ، ولكن الأعشى عرف بؤس حال مضيفه ، وكثرة بنائه ، فقال الأعشى : كفىت أمرهن ، وأصبح بمكاظ يشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى ممشق
وفىها يقول :

نفى الذم عن آل المحاق حفنة كجاية الشيخ العراقى تهوق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فما أتم القصيدة إلا والناس يسلون إلى المحلق يهشون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريا يخطبون بنائه ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهم واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبها ألف ضعف (٢) .

وقد يكون فى هذه الروايات مبالغة ، لكنها على أية حال تكشف عن تقدير العرب للشعر والشعراء ، حتى لو كانت هذه الروايات مختصرة ، فهي تبين عن تصور غزيرتها لمكانة الشعر لدى العرب الجاهليين .

* * *

ولا ريب فى أن شعراء العرب كانوا فى مسيرتهم الشعرية خاضعين لمؤثرات بيئتهم العربية العامة ومتطلباتها ، فتحقق بذلك لشعرهم التميز عن شعر غيرهم من الأمم - دون قصد إلى ذلك - فى قالبه ، وأنواعه ، وصوره ، وأخيلته ؛ وموضوعاته إلى غير ذلك من جوانب الاختلاف البيشى .

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٧ الطبعة السابقة ، والمعمدة ج ١ ص ٤٣

(٢) للمعمدة ج ١ ص ٤٨ ، ٤٩

وطى الرغم من توفر أسباب التميز تلك للشعر العربي في العصر الجاهلي ، نجد طائفة من الدارسين المعاصرين يحرمون على أن ينزوا هذا الشعر بموازين الشعر في البيئات الأخرى ؛ ويقيسوه - من ثم - بمقاييس غربية عليه ، مما يضطرهم إلى أن يطلبوا فيه مالا يحق لهم طلبه ، لأنه من نتاج بيئات غربية على البيئة العربية ، ولقد اشتهر عن الدارسين والنقاد الغربيين أنهم قسموا الشعر منذ اليونان أقساما ثلاثة هي الشعر الملحمي ، والتشيلي ، والغنائي ، ولكل قسم منهما سمة ومميزاته .

فالشعر الملحمي - طى ما رأى هؤلاء النقاد في شعر أسلافهم - قصة في قصيدة طويلة تتجاوز ألف بيت ، وتعرض أحداثا متوالية تدور حول بطل واحد ، أو يشاركه في أدوار ثانوية منها عدة أبطال آخرون ، مثل إلياذة هو ميروس من الأدب اليوناني وإنياذة فرجيل من الأدب الروماني ، والراما يانا وللهامبارانا من الأدب الهندى ، والشهنامة من الأدب الفارسي . وأحداث هذه الملاحم خيالية أسطورية ، تتسلى بالآفانال الغريبة ، والأمور الخارقة .

والشعر التشيلي لون من الشعر القصصي ، ولكنه يتميز عنه بقيامه طى الحوار بدلا من الحكاية ، كما يعتمد على مسرح تبرز قوة الأحداث والمواقف .

والشعر الغنائى هو الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن حلجاته النفسية ، ومشاعره للوجدانية ، وأحاسيسه الذاتية ، فهو شعر ذاتى يمثل صاحبه ، ويصور ما يعتل في داخله وما ينعكس على مرآة نفسه من الأحداث والمواقف التى يواجهها في حياته .

ومن الواضح البين أنهم أقاموا هذا التقسيم وتلك التعريفات على أساس ملأوا أمامهم من إنتاج شعري ، هي تقسيمات للشعر اليوناني والروماني وما تولد منهما . ولما انصلت دراساتهم وتناولت الأدب العربي - شعره ونثره - نظروا في الشعر العربي بالمنظار الذى نظروا به إلى شعرهم ، وقاسوه بالمقياس نفسه الذى قاسوا به الشعر العربي عديم ، ومن هذه النظرات والمقاييس قرروا أن الشعر العربي شعر ذاتى ليس غير ؛ إذ لم يجدوا فيه القصيدة التى تتجاوز فى طولها ألف بيت ، والتى تتكون من أحداث متوالية فى منطقية مقننة لتعرض الأساطير اليونانية وما شتمله من أمور خارقة بالغة الغرابة . كما لم يجدوا فيه الحوار التشيلي المشخص .

وحاء الدارسون والنقاد العرب طى أثر هؤلاء متعلميهم عليهم ، فسار بعضهم على

طريق الغربيين نفسه دون مراجعة وتفهم لطبيعة الشعر هنا وطبيعته هناك ، ومتطلبات القوم هنا ومتطلباتهم هناك ، وطبيعة الحياة هنا وطبيعة الحياة هناك . . إلى غير ذلك من العوامل المؤثرة في الأدب على عمومها ، وفي الشعر والشعراء بخاصة . . . فأجروا التقسيمات الشعرية عند اليونانيين والرومانيين على الشعر العربي ، ونفوا من الشعر العربي ما لم يتطابق مع التقسيمات ، ثم نظروا فلم يجدوا بين أيديهم سوى القسم الثالث - وهو الشعر الفنائى - فقررروا أن كل الشعر العربي يدخل في هذا القسم دون سواء .

وكان على الدارس الموضوعى المنصف أن ينظر إلى الأدب فوق أرضه ، ومن خلال أهله ، وفي إطار بيئته ، ثم يتخذ لنفسه مقاييس عامة يقيس بها العمل الفنى في كل بيئة على حسب ما يتناسب معها ، حتى يوفر لرؤيته المداخل الصادق الصادق ، ويضمن لقرارته المدالة والقرب من الصواب .

وإذا نحن سرنا في تفحصنا للشعر العربي في البيئة الجاهلية على هذا الدرب الموضوعى المنصف كنا خليقين بالمرف على طبيعة الشعر العربي في هذا العصر ؛ وبذلك نستطيع أن نتابع المسار في طريقنا إلى العصر الحديث لنكشف عن أطواره ، ومراحل نموه ، وتكيفاته في تلك الأطوار .

فإذا كان دارسو الأدب العربى القديم قد قسموا الشعر - وفق ما رأوا - ثلاثة أقسام ، فليس معنى ذلك أن الشعر في عمومها خاضع لهذه الأقسام الثلاثة لا يخرج عليها ؛ إذ هم إنما التزموا في تقسيماتهم ما تحت أنظارهم ، ومن ثم فليس حتما علينا أن ندور حيث داروا . ونخضع الأدب العربى لهذه الأقسام دون غيرها .

والذى أراء أن الشعر العربى الجاهلى - وإن يكن خاليا من الملحمة والتثيل - ليس غائيا فحسب ؛ لأنه لم يكن مقصورا على تنفى الشاعر بآلامه وآماله وتصوير أحاسيسه الذاتية - كما يقولون - بل كان منه الفنائى القدانى الذى يسير على هذا النهج ، ومنه القصصى - بالمفهوم العام للقصة - الذى يسير على النهج الموضوعى الخارجى ؛ ليقدم أحداثا متوالية ، ومنطقية في تحركاتها وانتقالاتها ، ليعرض الحكايا التى تلعب من بيئته ونفوسها على خياله وفكره قيم مجتمعه . وكان منه الوصفى القدانى المتمد فيه الشاعر على وصف مرآته من خلال ذاته ، ومنه الوصف الموضوعى الذى يبرز الصورة في دقة

الحاذق الداح . فالشاعر العربي كما توسل بالشعر لينقل لنا ما يهتم في داخله ، توسل به لينقل لنا ما ينعكس على صفحات نفسه من المرائي المحيطة به ، وتوسل به ليحكى لنا من أيام العرب ما يصور البطولات العربية ، مارجا فيه الحقيقة بالخيال . وتوسل به كذلك ليقص علينا من واقعه ما يبرز قيمه ومشله وفنائه ، لكنه - مع ذلك كله - لم يأخذ نفسه بما أخذ به شعراء اليونان والرومان لنفسهم لا اختلاف البيئات وملابساتها ، ولو صنع الشاعر العربي ما صنع هؤلاء وسار في محاذاتهم لافقد عمله الصدق وأسقط عن قبه أهم خصائصه ، ولـ كان مسخا من بناء غربي في زي عربي أو العكس

ونظرة إلى ما وصلنا من شعر هذا العصر بالمظار الموضوعي المتزن تؤكد ذلك الذي نقول ، ويكفي النظر في معلقة امرئ القيس لرى فيها أهم العناصر القصصية ؛ ففي هذه المعلقة لا تكاد تلمح شخصية الشاعر بقدر ما نرى فيها حياة طائفة من المجتمع الذي يعيش فيه . إذ بقص علينا طرفا من مغامراته التي كانت تملك عليه حياته ، وبخلص من ذلك إلى تصوير إحدى رحلات الصيد التي كانت امتدادا لبعض تلك المغامرات النسائية . وتبحث عن ذاتية الشاعر بين تلك الأحداث والواقف ، فلا تجدد إلا ما تخلفه قصة من إغراءات وإشارات توحى ما ينطوى عليه من معاناة .

وليس امرؤ القيس وحده هو الذي يمثل هذا الاتجاه ، فعلى غراره تجدد الكثرة من الشعراء الجاهليين في بعض ما قدموا ، مثل الأعشى في مقطوعاته التي تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ومثل لقيط بن يعمر الإيادي في عينيته التي نث بها إلى قومه يحذرهم من كسرى وما أعد لهم ، ويستنفرهم فيها ليستعدوا لمواجهة تلك الحرب ، وفي مطالعها يقول :

أبلغ إبادة وحلـل في سرائهم أنى أرى الراى إن لم أعص قد نصما
ومثل عمرو بن كلثوم في معلقته ، ومثل الشنفرى في تائيته التي يصف فيها إحدى غاراته ، والتي يقول في مطلعها :

واضحة حمر القسي أمثها ومن يغز يغتم مرة ويشمت (١)

(١) الباضعة : القاطعة ، ويريد بها رفاقه . أمثها : غزوت بها . حمر القسي : يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس ، ويشمت : يخفق .

وفى اللامية المنسوبة إليه . والى تتضمن قصة حياته بمراحلها المختلفة ، وفى مطلعها
يقول :

أقيموا بنى أى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق فى أعوار النفس البشرية فى لحظة من
لحظات صحتها، ويرز صورها والصراع الدائر فى داخلها فى قالب قصصى متمم، على نحو
ما صنع حاتم الطائي فى قوله :

وداع دعا بعد الهدو كأعما	يقاتل أهـوال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجبون وما به	جنون ، ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه	بصوت كريم الجدد حلو شمائله
فأبرزت نارى ، ثم انقبت ضوءها	وأخرجت كلى وهوفى البيت داخله
وقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا	رشدت ، ولم أهد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجان أعده	لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض حطت نعله حيث أدركت	من الأرض لم تخطل على حمائله
فقال قليلا وإقانى بخيره	سناما ، وأملاه من القى كاهله
نفر وظيف القرم فى نصف سافه	وذاك عقال لا ينشط عافله

وعلى نحو ما صنع الخطيئة الشاعر المخضرم فى قوله :

وطاوى ثلاث ، عاصب البطن مرمل	بيداء لم يمرف بها ساكن رسما
أخى جفوة ، فيه من الأنس وحشة	برى البؤس فيهم من شرارسته نعى
وأهـرد فى شعب عجوزا إزاءها	ثلاثة أشباح تخالهم إيهما
جفأة عراة ما اغتذوا خبز ملة	ولا عرفوا للبر مسد خلقوا طعما
رأى شبيحا وسط الظلام مراعه	فلما رأى ضيفا تشمر رواهما
فقال : هيا رباه اضيف ولاقرى ؟	بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحم
فقال ابنه — لا آه بحيرة — :	أيا أبت ! اذبحنى ويسر له طعما
ولا تتدريالهدم على الذى طرا	يظن لنا مالا فيوسمنا ذما
مروى قليلا ، ثم أحجم برهة	وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبينما عنت على البيد عانة	قد انتظمت من حلف مسجلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها	على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها - فأرسل فيها من كنانته سهما
 شغرت نحووس ذات جعش سمينة - قد اكثرت لها وقد طبقت شعما
 فبابشره إذ جرها نحو قومه - وبابشرهم لما رأوا كلها يدي
 ويانوا كراما قد قضاوا حق ضيقهم - وما غرموا غرما ، وقد عنموا عنا
 وبات أبوم من بشاشته أبا - لضيقهم ، والأم من بشرها أما

وما صنع تأبط ثرا (ثابت بن جابر الفهسي) في قصته مع الغول (١) :

تقول سليبي لجاراتها أرى ثابتا يفسا حوقلا (٢)
 لها الويل ، ما وجدت ثابتا ألف اليمين ولا زملا (٣)
 ولا رعن الساق عد الجراء إذا بادر الحملة الهضلا (٤)
 يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواديا القسطلا (٥)
 وأدم قد جيت جلبابه كما اجتات السكاعب الخيملا (٦)
 إلى أن أن حدا الصبح أثناءه ومزق جلبابه الأليلا (٧)
 على شيم نار تمورتها فبت لها مدبرا مقبلا (٨)
 فأصبحت والغول لى جارة فيا جارتا أنت أنت ما أهولا
 وطاليتها بضمها مالتوت بوجه تهول ماستقولا
 فقلت لها : يا انظري كي ترى فقلت فكنت لها أغولا

-
- (١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٣١٣ بتحقيق شاكر .
 (٢) اليفن — بفتح الفاء — الشبخ الغاني ، والحوقل : الشيخ إذا فتر عن الفكاح
 (٣) الزمل : الضعيف الجبان الرذل .
 (٤) الجراء : المحارة ، الهضل : الجيش الكثير .
 (٥) القسطل : النبار الساطع .
 (٦) الخيملا : القرو أو قيص لا كم له ، واجتات : لبسته ، يقال : اجتبت القميص
 والليل إذا دخلت فيه .
 (٧) الليل الأليل . شديد الطلعة .
 (٨) الشيم : النظر إلى الدار ، يقال : شام السحاب أو البرق شيا : نظر إليه أين
 يقصد وأين يعطر

فطار بحفف ابنه الجن ذو سفساق قد أخلق الحمل (١)
إذا كل أمهته بالصفاء حمد ولم أره صيلا (٢)
عطاة قمر لها حلتا ن من ورق الطلع لم تنزلا (٣)
فمن سال أين ثنوت جارتى فإن لها باللوى منزلا
وكنيت إذا ما هممت اعتزمت وأحر إذا قلت أن أملا

* * *

لا يستطيع دارس موضوعي بمعنى الحقيقة إلا أن يقرر بأن الشعر العربي في العصر
الجاهلي - شأنه شأن غيره من أشعار الأمم الأخرى - كان له مساره الخاص به، وسماته
التي تميزه من غيره ، والتي فرضتها عليه البيئة العربية ؛ بحيث تختلف أجناسه الفنية عن
أجناس الشعر العربي بالقدر الذي يربط كل شعر ببيئته .

من ثم لا يحق لدارس أن يطلب في الشعر العربي ما يطلبه في الشعر الغربي ، ولا أن
يطلب في الشعر الغربي ما يطلبه في الشعر العربي ولا يحق لدارس - بناء على ذلك - أن
يقارن شعر أمة بشعر أمة أخرى ولو في الجنس الواحد الذي يتفقان عليه ؛ إذ لمنشأ
الجنس في هذا الشعر ما ليس لمنشأه في ذلك . كما لا يحق لدارس أن يلزم شعراء أمة
بما ألزم به شعراء أمة أخرى ، ولا يحق لمنصف أن يقيس اتجاهات شعر أمة بما عليه
شعر أمة أخرى ، بل على المنصف أن يقيس هذا وذاك بمقياس عام محدد واضح ، ثم
يخص كل أمة بمقاييس تتلاءم مع متطلبات البيئة فيها بكل أبعادها . فبدلاً من أن
يطلب في الشعر العربي الهيئة القصصية التي كان عليها الشعر اليوناني ، يجب عليه أن

(١) القحف - بكسر القاف - المعظم فوق الدماغ وما انقلب من الجمجمة فبان ،
ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء ، ذو سفساق : السيف ، وهي طرائفه
التي يقال لها الفرند ، الواحدة سفسقة بكسر الهمزة .

(٢) أمهته : أحدوته ورقته ، يقال : أمهى الحديدية : سقاها الماء وأحدها .

(٣) العطاة : دويبة معروضة على خلقة سام أبرص ، أعظم منها شيئاً .

(٤) - الأدب العربي -

يلاحظ ما في الشعر العربي من الأجناس الفنية ، والطرائق البيانية دون مراعاة لما عليه غير الشعر العربي . . . فإذا وجد الشاعر يقص فلا يطلب منه أن يقص بهذه الطريقة أو تلك ، إنما عليه أن يتتبع قصصه وقصص غيره من أدباء أمته ، ثم يتفحص مساره فيها ، ليحدد منهجه ، ويبين أبعاد القصة لديه ، ويقارن بين القصة عنده والقصة عند غيره ، بحثاً عن الموامل والوثرات التي وجهت كلا وجهته الخاصة به^(١)

(١) أنظر الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام للمؤلف ص ٤٦ - ٥٦ .

الفصل الثالث

مصادر الأدب الجاهلي

لعبت البيئة العربية الجاهلية دورا فعالا في تحديد الوسائل التي تنقل أدبهم إلى الأجيال التالية ، بل لقد كان لها أثرها الواضح في تحديد الوسائل النافذة له من قبيلة إلى قبيلة في الوقت ذاته ؛ إذ طبيعة الحياة العربية في ذلك العصر لم تفرض على أهله الكتابة والقراءة إلا في أضيق الحدود ، حيث لم يشعروا بالحاجة إلى المكتوبات إلا في الأغراض السياسية والتجارية . أما ما عدا ذلك فلم تصادفهم فيه ضرورة تلجئهم إلى تدوينه وكتابته ، فالأديب منهم يعيش في كنف القبيلة بفننه البليغ الذي يعتمد على الإلقاء أكثر مما يعتمد على أية وسيلة أخرى ؛ لأن العربي كان يشعر بأن صوته بكل أساده يصفي على ما يقول كثيرا مما يريد أن يبلغه سامعيه ، ولا تستقل الحروف المركبة وحدها بإيصاله . وإذا حدث أمر طارئ ، واحتاجت القبيلة إلى إبلاغ صوتها لمن يقيم خارج حدودها أوفدت من بينها الأدباء من يؤدي هذا الدور بنفسه خطيبا كان أو شاعرا .

ودارس الأدب في هذا العصر حين يتدرج في سلم انتقال آدابهم إلينا من عصور التدوين إلى العصر الجاهلي . . . يلاحظ أن وسائل انتقال النثر تختلف بمصر الشيء عن وسائل انتقال الشعر بما يتناسب مع طبيعة كل جلس ومتطلباته ، بيد أنها لا تفرق في النثر بما يميزها عنها في الشعر .

فإذا كان الشعر سلك في طريقه إلينا سبيلين متصلين هيأتهما له مكانته في نفوس العرب ، هما سبيل الرواية ، وسبيل التدوين ، فإن النثر - بفنونه المختلفة - قد سلك هذين السبيلين مع شيء من الاختلاف يتضح في استعراضنا مصادره فيما يلي .
وإنما سلك الأدب الجاهلي - بحسبه - في طريقه إلينا هذين السبيلين ؛ لأن الكتابة لم تكن عند العرب الجاهليين - بدوهم وحضرم - قد أخذت مكانها معارفهم وآدابهم ، على الرغم من ثبوت معرفتهم بها وشيوعها بينهم في الجاهلية ، وإنما إلى الآن

لم تنف على دليل قاطع يؤكد أن الجاهليين اعتمدوا على الكتابة في حفظ آدابهم وسيورتها عبر الزمان والسكان ، ولم يعثر الباحثون والمقربون بعد على وثائق جاهلية صحيحة تتضمن شيئا من الفنون البيانية وكل ما وصلنا من أخبار عن وجود أدب جاهلي مكتوب - إن صحّت تلك الأخبار - إنما تتعلق بقطع شمريّة تكتب على رحل أو حجر أودق أو عظم لغاية من غايات الإبلاغ والتنبية ، أو تتعلق ببعض حكم وأمثال عما نسب إلى لقمان على ما روى ابن هشام من أن سويد بن الصامت قدم مكة حاحا ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلهذا الذي مملك مثل الذي ممي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذي مملك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها علي ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذي ممي أفضل من هذا ، قرآن أنزل الله على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن (١) .

قالنبر لا يفيد أكثر من أنه كان عند العرب في هذا العصر صحيفة بها بعض الحكم والأمثال مما كانوا ينسبونوه إلى لقمان ، ولكنه لا يدل على أنهم توسلوا بالكناية في إضاعة بيانهم ونشره . ومناقشة هذه القضية - نفيًا أو إثباتًا - تعتمد على الفرض والحدس ، وليس هناك ما يدعوننا إلى مثل ذلك في دراستنا مادامنا لن نستطيع أن نقدم الحقيقة من الواقع المقرر .

أي أننا لا نجد بدا من أن نقرر أن هذا الفيض الأدبي وصلنا من العصر الجاهلي أولا عن طريق الرواية المنطوقة ، وامتدت - في جملتها - حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين

* * *

والناظر في أثر هذا العصر يلاحظ أن رواه يدرون في ثلاثة محاور .
أحدها : العامة ، وهؤلاء هم رواة الحكم والأمثال الذين طوامم الشيوع ، فلم تنسب حكمة أو مثل إلى راوٍ بشخصه ، وإنما هي أقوال كثير دورانها على الألسنة

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٨ طبعة الحلبي .

لا يجازها ، ودقة تركيبها ، وسمو محتواها ، وقوة تأثيرها في نفوس سامعيها ، لما تنطوى عليه من خبرة بالحياة وصدق تجربة .

لقد كان عمل الرواة في نقل الأمثال والحكم لا يعد التمثل والاستشهاد في الموقف المشابه ، إذ هي - كما هو معروف - عبارات تصرب في حوادث مشابهة لحوادث الأصلية التي صدرت فيها عن قائلها . فهو يجري على السنة الممثلين كما جرى على السنة قائله ، بدون أى تنبير فيه ، مهما كانت دواعي التنفير ، كما هو الشأن في بعض الأمثلة التي رويت مخالفة لقواعد النحو والتصرف مثل قولهم . « أجناؤها أبناؤها »^(١) . وقولهم : « أعط القوس باريها »^(٢) وقولهم . « الصيف ضيعت اللبن » بكسر اللام يخاطب به المدكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ، دون تمييز ، من كل ما يقرر أن راوى المثل ملتزم بحرفه ومبناه ، مما ضمن لهذا الفن البياني انتشارا زمانيا ومكانيا مع الاحتفاظ بصورته الأصلية ، فأصبح - بذلك - أصدق فنون القول ، تمثيلا للأدب الجاهلي .

هذا إلى ما صادفه ذلك اللون الأدبي من اهتمام المدونين ، فكان في مقدمة مادونه العرب من الأجناس الأدبية ، حيث سارعوا إلى تدوين الحكم والأمثال ، وبدأوا ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الهجري الأول على نحو ما صنع صحر العبدى في عهد معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) ، وهو أحد النسابين العرب ، فقد ألف كتابا في الأمثال ، كما ألف معاوية عبيد بن شربة كتابا آخر في ذلك ، ذكره ابن النديم ، وقال إنه رآه في نحو خمسين ورقة^(٣) . فلما كان العصر العباسى ازداد إقبال العلماء والأدباء على جمع الأمثال والحكم وتدوينها ، والتفنن في عرضها ، وفروا لنا مجموعة من الكتب التي حفلت بالأمثال ، وقامت على ترتيبها وشرحها وتفسير إيماءاتها مثل كتاب أمثال العرب للمفضل الصبي ، وتلاه أبو عبيد القاسم بن سلام فألف كتابا في الأمثال ، شرحه من بعده أبو عبيد البكري تحت عنوان . « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » ثم لوات المؤلفات في هذا الباب ، وكان

(١) جمع جان وبان ، والقياس الصرفى . جناتها وبناتها ؛ لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

(٢) بتسكين الياء في باريها ، والأصل فتحها .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٣٢ .

من أبرز ما قدم فيه . كتاب « جبهة الأمثال » لأبي هلال العسكري ، وكتاب « مجمع الأمثال » للميداني ، الذي جمع مادته بالرجوع إلى ما يربو على خمسين كتاباً^(١) .

حقيقة كان للنهج الذي سار عليه أكثر المدونين في كتبهم أثر كبير في اختلاط الأمثال ، فأصبح من العسير تمييز أمثال الجاهل من أمثال العصر الإسلامي ، وذلك لأن مدوني الأمثال ركزوا جهدهم في ترتيبها في أبواب على حسب الترتيب الأبجدي دون الاهتمام بذكر عصرها . اللهم إلا ما نسب من الأمثال صراحة إلى قائله ، فإن هذه النسبة تحدد عصره مادام عصر قائله معروفاً .

أضف إلى هذا ما يصاحب الحكمة والمثل - في هذه الكتب - من قصص ترجع إلى العصر الجاهلي ، أو ما يأتي المثل في ثناياه من قصص جاهلي ، فقد ذكر الميداني ثمانية عشر مثلاً وردت في أنهاء قصة الزباء ، مثل : « يدي لا بيد عمرو » و « لا يطاع لقصير أمر » .

وأكثر من نسبت الأمثال إليهم صراحة كانوا من حكماء العصر الجاهلي ؛ إذ أن منهم من يوغل في القدم مثل لقمان عاد الذي رددت اسمه السنة عشرتهم وحكامهم ناسيين إليه الحلم والحكمة ، وبه يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والبكراء » ، لقمان عاد .^(٢) ، وهو غير لقمان الحكيم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم . كما نص على ذلك المفسرون^(٣) وصرح به الجاحظ^(٤) كما روى طرفاً من تعاليم لقمان الحكيم ذات الطابع الديني^(٥) ، واهتم - كذلك - تذكروا وصاياه وحكمه كتب الفقه والتفسير ، مثل موطأ مالك ومفسر أبي حيان . ومنهم من يدنو من العصر الإسلامي ، كما مر بن الظرب السدواني ، وأكرم ابن صفي التميمي ، وكان من العمرين ، حتى قيل إنه أدرك الإسلام ، ومات وهو في

(١) انظر مقدمة « مجمع الأمثال » للميداني .

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣) تفسير أبي حيان ج ٧ ص ١٨٦ ، وقصص الأنبياء للثعالبي ج ٣ ص ٣٤٠ طبعة القاهرة

وانظر في ذلك خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٧٧

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٩ .

طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامه^(١) وقد ذكر السيوطي طائفة من الأمثال والحكم المنسوبة إليه نقلا عن ابن دريد في أماليه^(٢)؛ مثل : « لا جاعة لمن احتاف » ، « شر المصرة التمدي » ، « كل ذات بعل ستئيم^(٣) » ، « لا تطمع في كل ما تسمع » .

• • •

ثانيها : القصص . وهؤلاء هم المسامرون الذين كان يجتمع إليهم أبناء القبيلة طلبا للسمر والتسلية حين يرخى الليل سدوله ، فينصتون إليهم ، ويتابعون ما تنبئ به عن غفاههم ، ولا ريب في أن القاص كلما رأى من الحاضرين إنسانا وإقبالا بذل المزيد من الجهد ليظل على تسلطه وتمسكه من السيطرة على الحاضرين ، فيفيض على القصة من خياله ما يهر به سامعيه ، ويتحرك بمواطنهم كيما شاء من الإعجاب إلى الإشفاق ، ومن الحوف إلى الأمان والاطمئنان ، ومن الشفقة إلى القسوة . . .

وظل هؤلاء للقصص على منهجهم يتوارثون ذلك الفن مع إضادة اللاحق على ما خلف السابق بالقدر الذي يلائم أذواق سامعيه ، وفقا لأطوار الحياة فلما كان العصر العباسي لجأ الرواة واللغويون إلى تدوين ما نحت أيديهم من قصص تتضمن في أكثرها أيام العرب ووقائعهم ، سواء فيما بين قبائلهم بعضهم مع بعض أو ما كان بين بعض القبائل العربية وغير العرب من الفرس أو الروم أو الأقباش ، مما نجده في السيرة النبوية لابن هشام ، وفي تاريخ الطبري ، والأغانى ، والأمالي ، وغير ذلك .

ولم يتوقفوا في قصص البطولات عند قصص البطولة العربية ، فقد قصوا - كذلك - عن بطولات من الأمم المجاورة غير العربية ، على نحو ما كان يقصه النضر بن الحارث

(١) أنظر مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ١٤٥ ، وجمهرة الأمثال للمسكري على هامش مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢٠ والعمرين للسجستاني ص ١٠ والأغانى ج ١٥ ص ٧٠ طبعة ساسي .

(٢) المزهر للسيوطي ج ١ ص ١ طبعة الحلبي .

(٣) تئيم : يهلك عنها زوجها .

في مكة بقصد صرف الناس عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تعلم في الحيرة أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس محمد صلى الله عليه وسلم مجلسا تذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خافه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن خديشا منه ، فهل إلي ، وأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار (١) . .

ولم تقتصر قصصهم على البطولات - العربية وغير العربية - فقد قصوا كذلك عن شمراتهم ، وساداتهم ، وكهانهم ، كقصة المرقش الأكبر مع أسماء بنت عوف ، وما حدث له حين تقدم لخطبتها من أبيها ، الذي طلب منه مالا يطيق ، فاحتمل في سبيلها المشقات ، ورحل ليحقق ما طلب منه ، حتى إذا عاد وجدها روجا لمبره . . الخ (٢) .

وقصوا عن الجن والعفاريت والشياطين والفيلان ، والحيات ، بل لقد صنعوا حرافات عن الحيوانات ، مثل خرافة الحية والفأس . فقد رعموا أن حية قتلت رجلا ، فطلبها أحوه ليقتلها ، فاحتالت حتى صالحها وعاهدته على أن تترك له الوادي ، وتمطيه كل يوم دينارا ، فلما كثر ماله ، وأصبح من أحسن الناس حالا ، ذكر أياه ، وما أصابه على يدي الحية ، فأتجه إلى قتلها ، وعمد إلى فأس فأحدها ، ثم قعد للحية ، فلما مرت به تبعتها ثم ضربها ، ولسكنه أخطأها ، فلما رآها تنجس من الصربة وتدخل الجعر رمى الفأس بالجبل فوقع فوق جعرها وأثر فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تمطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، وقال لها : هل لك في أن تتواثق وتعود إلى ما كنّا عليه ؟ فقالت ، كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ، وأنت فاجر لا تبالي بالمهد (٣) ؟

ولا ريب في أن هذه القصص لا تمثل القصة الجاهلية بكل أبعادها ؛ فقد تفسر أسلوبها ونسقها البياني من قاص إلى آخر ، فتصاري هذه القصص أنها تقدم مضمون القصة الجاهلية وروحها وجانبها كبيرا من ملاحظها وطبيعتها ؛ وما ذلك إلا لأن شيئا من

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ٣٣١ طبعة الحلبي .

(٢) راجع القصة في الأغاني ج ٦ ص ١٢٩ وما يمددها طبع دار الكتب

(٣) أنظر أمثال العرب للضي ص ١٠٦

هذه القصص التي تضاف إلى الجاهليين لم يصل إلى المدونين مكتوبة ، ولا بطريق السقفة في الرواية ؛ لأن وكذا القاص أن ينقل مضمون القصة في إطار من حياله وألوانه ، دون حرص منه على شيء أكثر من ذلك .

ثالثاً : الأمثلة ذاتها ؛ وذلك لأن كثيراً من هذه القصص اعتمد في روايته على الإيجاء والإشارة للبيئة من بعض الأمثلة ، فيمكن أن يذكر مثل من هذه الأمثلة لتتوارد الأحداث على خاطر السامع ، على نحو ما رأينا في قصة الحية والفأس ، وقيامها على المثل السائر . « كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك »

أي أن المثل يقوم في ذلك المجال بدور الراوي الذي يعتمد على الإيجاء والإيجاز . فهو يحزن تحزن طوالياً أحداث القصة

وهذا يعني أن المثل وظيفة أخرى إلى جانب وظيفة البيانية المهودة ، فمقد لجأ العرب الجاهليون إليه ، متوسلين به في نقل قصصهم وما تضمنته من أحداث ومواقف لم تتوفر لها في ذلك العصر من وسائل الإداعة سوى مثل ذلك .

أما ما عدا ذلك من فنون النثر كالخطابة والمداورة والوصايا فقد اعتمد في روايته على الرواة المخصوصين ، شأنه ذلك شأن الشعر ، بيد أن الشعر كان أيسر في روايته وانتقاله عبر الأزمان والأماكن . على ما سنرى في الصفحات التالية . أما فنون النثر تلك فلم يكن ميسوراً حفظها ونقلها بحالها كما نطق بها الخطيب أو الوصي ، وإعما كل ما حرص عليه الراوي . فما زى . أن ينقل لنا نظرة قائلها وأدكاره ، في قالب قريب الشبه بالقالب الأصلي . . .

من ثم نستطيع أن نقرر أن فنون الجاهلي توفّر لها من وسائل الرواية ما يناسب كل فن بحيث تمكن هؤلاء الرواة . على اختلافهم . من أن يربطوا العصر الجاهلي ونثره بما تلاه من العصر . وإن لم يكن بالنثر ذاته فهو . على أقل تقدير . بصورته العامة التي كان عليها . وعليه فلا حق لمن يزعمون هذا المجلس الأدبي أو يشككون فيه ، إلا في تلك الحدود التي أو ضمنت .

أما الشعر الجاهلي فقد سلك في طريقه إلينا من العصر الجاهلي طريق الرواية الشخصية المنطوقة ، التي امتدت حتى أخريات العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، حيث بدأت الرواية تلتقي بالتدوين .

ولأهمية الشعر في حياة العرب قام على الرواية طائفة من الشعراء أنفسهم ، فقد اعتبرت الرواية وسيلة من وسائل المran على صوغ الشعر ، وأصبح على من يريد التفوق في الشعر أن يلزم شاعراً أو أكثر يأخذ عنه ما يقول ، ويذيع بين العرب ما يأخذ ، ويظل هكذا حتى بلين الشعر على لسانه ويتمكن منه ، ويشتهر أمره ومذهبه فيأتي من يتلمذ عليه ، ويروي عنه ، وهكذا راو عن راو في سلسلة متصلة .

فكانت رواية الشعر لهؤلاء شغلهم الشاغل ، وعماهم القدي يقلون أنفسهم عليه ، والذي تدعمهم إليه القبيلة دفعا ، كما نرى اليوم في المدرسة الحديثة حيث تحتوي تلميذها بالتعليم والتلقين ، فإذا أتم تعلمه فيها ، تولى تعليم من يليه من الأجيال .

ولقد حرص العرب على ذكر الصلة بين الرواة في بعض الأحيان ، حتى استطاع الأصفهاني أن يقدم لنا في أغانيه بعض ما رقب عليه من تلك السلاسل ، مثل أوس بن حجر التميمي الذي روى شعره زهير بن أبي سلمى المزني ، حتى أجاد الشعر وبرز فيه ثم كان له رويان هما كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة روى الشعر هذبه بن حشرم القدري ، وعن هذبه أخذ جميل بن ممر صاحب ثنية ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة (١) .

وبينا نلاحظ أن الرواة في السلسلة السابقة كانوا من قبائل مختلفة ، نخدم مرة أخرى مرتبطين بشاعر القبيلة ، وقد ذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان واوية لحاله المسيب ابن علس (٢) ، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لمساعدة بن جؤية الهذلي (٣) .

فلما كان عهد عمر رضي الله تعالى عنه الخليفة الثاني وأنشأ الدواوين ، مست الحاجة إلى الرواية والرواة للتعرف على الأنساب لتحديد رواتب الجند على أساسها ، فبدأ

(١) الأغاني ج ٨ ص ٩١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٧٤ بتحقيق شاعر .

(٣) للرجع السابق ج ٣ ص ٦٥٣ نفس الطبعة .

الرواية تتحول إلى حرفة يخلص لها بعض الأفراد أنفسهم تماماً، ويجعلونها عملهم الذي تقوم عليه حياتهم ، وساعد على ذلك ما تميزت به الدولة الأموية ، فقد كانت ذات نزعة عربية متمسكة ، جعلت الخلفاء الأمويين حريصين على حفظ التراث الشعري ، وأقبلوا على الرواة ، وتبعوا وفود القبائل يسألونهم عن بعض الشعراء توطيداً لسلطانهم على تلك القبائل

ونجدهم مرة ثالثة مرتبطين بوحدة سلوكية تضم أطرافهم ، وتجمع بين أبنائهم ، كما نرى من بعض الصماليك ، حيث يأوى الشاعر السملوك إلى مثيله الذي ضمعه من نفسه موضع الأستاذ في الصملاكة وفي الشعر ، فيتوهم على رواية شعره ، ويأخذ نفسه بأسلوبه في الصملاكة ، ليكون من غير شعور حلقة في تلك للسلسلة الممتدة ، فقد كان الشفري يتلمذ على تأبط شرا ويصحبه في كثير من غاراته وما زال إلى حواره حتى أتم تدريسه ، وأصبح له في ذلك الميدان شأن (١) .

وكما نرى من الشعراء المرسان ، حيث يلزم أحدهم الآخر افتناناً بفروسية وجودة شعره ، فيأخذ نفسه بمنهجه وأسلوبه في حياته ، ويروي عنه ما يقول ، مثلما صنع زيد الحبل مع أبي دؤاد الإباري .

ويلاحظ الدارس أن رواية الشعر لم تسكن وفقاً على الشعراء وحدهم ، فقد كان يشارك الشعراء في ذلك - في كثير من القبائل - أفراد القبيلة عامة ، إذ كان الشاعر هو المتحدث بلسان القبيلة ، فما يقوله إنما هو تعبير عن القبيلة وإعلان عن مكانتها من تسجيل لمفاخر أبنائها وانتصاراتهم ، ومريص بأعدائهم ، وإبرار لما يشيهم من نقائص وممايب .

واستمرت الرواية حتى ظهر الإسلام، فلم يكن عائفاً، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يستنشدون الشعراء والرواة ويصفون إلى ما يشدون، قال الشريد ابن سويد الثقفي استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم عمر أمية بن أبي الصات فأثدته فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول هيه هيه ، حتى أثدته مأه قأيه (٢) . وكان

(١) راجع الاغانى ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وحرارة الادب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٧٦ ، وخزانة الادب ج ١ ص ٢٧٧ والمزهر

كثير من الصحابة يروون الشعر ويحفظون أنساب العرب وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق الذي كان يتمثل بالشعر في بعض خطبه كما صنع في خطبته يوم السقيفة . أما عمر بن الخطاب فكان حريصا على أن يلم بأجبار الشعراء ، وكان يسأل الوافدين من شتى مناحي الجزيرة عن شعرائهم ويستقصي أخبارهم ويردد أشعارهم حتى قال فيه ابن سلام : كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر (١) .

ومن ثم أصبح من مفاخر الشعراء في عصر صدر الإسلام وما تلاه أن يشتر الواحد منهم برواية الشعر ، فلم يكن هناك شاعر مبرر إلا وهو يعتمد على شعر الجاهليين رواية وإنشادا ونائرا ، حتى سمعنا صوت الفرزدق منتخرا بما ناله من هذا الشعر في قوله (٢) .

وهاب النضائد لي النوايح إذ مضوا	وأبو يزيد ، وذو القروح ، وجرويل (٣)
والفحل علقمة الذي كانت له	حال السالك كلامه لا ينحل (٤)
وأخو بني قيس وهن قتلته	ومهلل الشعراء ذاك الأول (٥)
والأعشيان كلاهما ومرقش	وأخو قضاة قوله يتمثل (٦)
وأخو بني أسد عبيد إذ معى	وأبو دؤاد قوله يتنحل (٧)
وابن أبي سلمى زهير وابنه	وابن الفريعة حين جد للقول (٨)

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الديوان ج ٢ ص ١٥٩ طبع بيروت .

(٣) النوايح : الناقة الديباني والجمدي والشيباني ، وأبو يزيد : المحجل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرويل : الخطيئة .

(٤) علقمة بن عبدة الملقب بالملكب بالفحل

(٥) أخو بني قيس : طرفة ، والمهلل بن ربيعة ، أخو كليب وائل ، وهن قتلته : يريد القوافي ، لأنه قتل بسبب أهاجيه .

(٦) الأعشيان : أعشى قيس ، وأعشى باهلة ، والمرقش الأكبر ، وأخو قضاة : أبو الطامحان القيني .

(٧) عبيد بن الأبرص ، وأبو دؤاد : جارية بن حمران الإباضي .

(٨) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .

والجعفرى وكان بشر قبله الى من قوائده الكتاب المجلد (١)
ولقد ورثت لآل أوس منطقاً كالم خالط جانيبه الخنظل (٢)
والخارنى أخو الحماس ورثته صدعا كما صدع الصفاة الممول (٣)

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر فى تلك الفترة وفقاً على العرب ، ولا مقصوراً على الشعراء ، فقد شارك فى هذا الميدان كثير من المسلمين غير العرب ، كما حرص على رواية الشعر من غير الشعراء كثير من أبناء هذا العصر ، خصوصاً أولئك الذين كانوا يروون الشعر فى أياما قصص صيغت من أخبار الجاهليين تقدم للطلاب فى حلقات المدرس المقامة فى المساجد الجامعة ، بقصد التعريف بالحدث التاريخى أو الكشف عن المدلول اللغوى لبعض الالفاظ

ومن ثم حرص هؤلاء الرواة على تتبع الشعر وأخبار العرب فى البيئات البدوية طلباً للدقة فى الرواية، وحرصاً على الاخذ من المبع فأبدى هؤلاء فى عملهم هذا مهارة وتفوقاً لم يعمد من قبل فى غيرهم

وإذا كانت الرواية فيما قبل الإسلام راجعة إلى حاجة القبيلة من الدعاية الإعلامية فإنها فيما بعد الإسلام كانت ترجع إلى دوافع أخرى من أبرزها حفظ اللغة، والوقوف على معنى الفاظها وطرائق استعمالها فى سبيلهم إلى تفسير القرآن الكريم ، والوقوف على مقاصده، كما صنع ابن عباس ومن مسار مساره من بعده فى تفسير القرآن الكريم . والاستشهاد بالشعر الجاهلى على ما يرى .

لقد حمل الشعر الجاهلى إلى الاحيال التالية رواية كثير من مختلفه الاغراض والوسائل متباينسو النزعات والمواطن ، برز من بينهم فى أواخر العصر الإسلامى طائفة الرواة المحترفين ، الذين ترددت معيشتهم بين الكوفة والبصرة غالباً ، فكانوا نواة اتجاهين فى الرواية مختلفين ومتصارعين ، مروا الكوفة فى الجملة متساهلون ، اشتهر من بينهم كثير من الناحلين والوضاعين ، وعلى رأسهم حماد . ولكن كان من بينهم رواية ثقات مثل الفضلى بن يعلى الصي ورواة البصرة فى الجملة متحفظون متشددون وعلى

(١) الجعفرى : لبى بن ربيعة ، وبشر : هو بشر بن أبى خازم .

(٢) أوس : هو أوس بن حجر .

(٣) الخارنى : هو أخو الحماس النجاشى .

راسهم أبو عمرو ابن العلاء (١) المشهور له بالأمانة والورع ، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم ، وأحد مؤسسي مدرسة البصرة النحوية ، ولكن كان من بينهم الرواة للتمهون ، مثل حنف الأحمر الذي أقر على نفسه في زعمه بأنه كان يخطى حمادا المتحول من الشعر ، وبزيف عليه فيزويه : يقره ول أبو الطيب اللعوى : « والشعر بالكوبة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومدرب إلى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم » (٢) .

وفي هذا الجو المتلاطم بمختلف الاتجاهات والزرعات نشأت طائفة ثالثة أحلصت نفسها وجهدها لخل ما يروى والتصدى لكل رواية يزيف أو يندخل كما كان شأن الأصمعي وأبي ريد الأنصاري .

هإذا كان بعض الرواة قد أدخل على الجاهيلين ما ليس لهم من الشعر ، ورور في الرواية فنسب إلى بعض الشعراء ما ليس لهم . .

إذ كان هذا حال بعض الرواة ، فقد أتبع الأئمة العربية من أبنائها من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتمحيصه ، فكتبوا للرواة بالمرصاد .

ومن ثم ألمسا في حاجة إلى الشك فيما وصلنا من الشعر الجاهلي — على ما دعا إليه الدكتور طه حسين — لأن سلفنا سبقونا إلى ذلك في فترة التحول من الرواية إلى التدوين ، وقاموا — عن قرب بمصور الشعراء — بما يريدنا الدكتور طه حسين تأثرا بفلسفة (ديكارت) أن نقوم به اليوم ، على بمد نحو خمسة عشر قرنا من الزمان

(١) ولد سنة ٧٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٤٠ هـ ، وقيل ١٥٩ هـ ، قال الجاحظ : « وكان أعلم الناس بالقرآن والعربية وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس ، وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيوتا إلى قريب من السقف . . . ثم إنه تقرأ — أي تدسك — فأحرقها » البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢١

(٢) مرآب النحويين ص ٧٤

٣ التدوين :

واضح بما بين أيدينا من المراجع الأدبية والعلمية أن تدوين الشعر - عموما - لم يبدأ إلا في أواخر العصر الأموي ، وأن التدوين بدأ في أول الأمر تدويها من التلاميذ لما يعلمه عليهم شيوخهم في الأدب أو في النحو أو في التفسير . ثم تلاه هؤلاء طائفة من الرواة المدونين حرصوا على أن يكون عملهم منهجيا قائما على أصول وقوانين ثابتة ، فألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنة ، كما التزموا بالارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الخاص ليوثقوا ما يدونونه على ما اشتهر من أمر الأصمعي للتوفى نحو سنة ٢١٥ هـ وأبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ .

أما فيما قبل العصر الأموي ، فقد كان اعتمادهم بالدرجة الأولى على الحافظة ؛ إذ لم يثبت أن الجاهليين اعتمدوا في حفظ شعرهم وغيره من الفنون الأدبية على الكتابة والتدوين .

وما روى من أن بعض المنقطوعات الشعرية كانت مكتوبة لا يعنى - على فرض التسليم بصحته - أكثر من أن ذلك كان بقصد الإبلagh ، وليس بقصد الحفظ والتدوين .

ولا ريب في أن الفارق كبير بين ما كتب إبلاغا وما كتب تدويها ؛ إذ الأول نوع من الرسائل والمكاتبات توجه من شخص إلى آخر أو من قبيلة إلى أخرى أو إلى بعض أمراءها للأنباء بما وقع أو سيقع من أحداث على نحو ما روى من رسالة لقيط بن يعمر الإباضي وهو في أرض فارس إلى قومه ينبشهم بما يمد لهم كسرى ، ويحذرهم من الغفلة ، تلك الرسالة التي ضمنها قصيدته المينية ، ومطلعها يقول :

أناغ إيابا وحلل في سراهم أي أرى الرأي إن لم أعص قد نصما

ولقد قرر الجاحظ ذلك في قوله : وكل شيء للعرب فلما هو بديهة وارتجال ، وكأله إلهام . . . فما هو إلا أن يصرف - يعنى العربي - وهمه إلى جملة المذهب وإلى المورد الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالا ، وتشتال عليه الألفاظ انبثالا ، ثم لا يقيده على نفسه (١)

ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن الكريم بدأت حاجة المسلمين إلى تعلم الكتابة تظهر، واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم من بين المسلمين من يقوم بالكتابة له، وخص من بينهم طائفة بتدوين ما ينزل من القرآن الكريم، وطائفة بكتابة الرسائل والمهاديات التي تدعو حاج -ة الدولة الناشئة إليها . . . فكان ذلك تمهيدا وتأسيسا لحركة التدوين التي وضحت معالمها في العصر الأموي، وإذا امتدت في جهات متعددة، وتناولت موضوعات شتى، ولم تقف عند الحد الذي بدأت فيه في عصر صدر الإسلام .

أما الشعر فقد استمر العرب في نقله وترديده على ما كان عليه أسلافهم في العصر الجاهلي، ولم يؤثر عنهم تقييده إلا في القليل النادر - على اختلاف الداعي إلى ذلك - فإذا كان في الجاهلية صارفهم عن التدوين الجهل بالكتابة وندرة الكتّابين والقارئین، فإن صارفهم عنه في صدر الإسلام قلّة اهتمامهم بالشعر، وإكبابهم على القرآن الكريم وكل ما يتصل بالدين الجديد .



كما يتضح من النظر في المدونات التي ظهرت منذ العصر الأموي أن مدونى الأدب اختلفوا عن مدونى اللغة والنحو، فلم يهتموا بالتدوين الشامل المستقصى، ولكنهم لجأوا إلى الاختيار والاتباع، ولكل منهجه في اختياره، كما صنع حماد في (السموط) أو (الملقات)، وكما صنع الفضل ابن محمد يعلى الضبي في مجموعته التي سماها (الاختيارات) والتي سميت فيما بعد بالمفضليات، وكما صنع الأصمعي في الأسمعيات، وكما صنع في جمهرة أشعار العرب الذي ينسب إلى ابن أبي ريد محمد بن أبي الخطاب القرشي، إلى غير ذلك .

ويلاحظ أن الذين كانوا يقومون بالتدوين في هذه الفترة لم يكتبوا - في الغالب - هم أصحاب المدونات، وإنما هم تلاميذهم الذين كانوا يدونون ما يلقون عنهم من مختلف العيون البيانية شعرا ونثرا، أديبا كان أو عالما .

وستطبع أن نرى في ذلك مرحلة انتقال تقوم بين عهدي الرواية الخالصة والتدوين الكامل . . . فهو مسار طبيعي يرينا التدرج من الرواية إلى التدوين؛ فقد ذكر صاحب

الفهرست أنه « لم ير لحاد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصفت الكتب بعده » (١) .

ولم يقتصر هذا على الشعر والأدب ، وإنما كان هو المنهج العام الذي شمل كل فروع المعرفة والفن المطوق ، فالذي دون أخبار محمد بن السائب الكلى هو ابن هشام ، ولم يعرف أن الخليل بن أحمد دون كتابا في النحو ، ولكنه أملئ إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور .

كما يلاحظ أن تدوين الشعر واجه في أول أمره مقاومة ؛ لما قد ينشأ عن ذلك من تحريف وتصحيف لاشك يسلم منها الشعر المروى مشاهة ؛ إذ الشعر يحتاج إلى تلقين وسماع حتى يسلم من اللحن ، ولذلك صنف ابن سلام رواية من يعتمدون على الكتب ، حيث يقول : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » (٢) .

ومعنى هذا أن تدوين الشعر في تلك المرحلة لم يتم على منهج محدد للعالم ، واضح الاتجاهات ، وإنما كان عملا تلقائيا ، يصدر عن صاحبه دون إعداد مسبق .

* * *

ولكن التدوين بعد ذلك يتخذ سماتا مختلفة عن هذا السمات ، حيث يقترب به المدونون من التأليف على نحو ما صنع أبو تمام في حماسته ، والجاحظ في البيان والتبيين ، والمبرد في السكامل ، وابن قتيبة في عبون الأخبار ، والشعر والشعراء ، وكما صنع أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني الذي يقع في واحد وعشرين مجلدا فقد حرص على أن يقدم الشعر الجاهلي - أو غيره - مسحوبا بالمادة التاريخية ، معتمدا على الأسانيد التي توضح المصدر ، مع تقييم روايته ، والتلبيه إلى ما اشتهروا به من صدق

(١) الفهرست لابن النديم ج ٣ ص ٣٠٢ طبع الرحمانية .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - الذي يأخذ عن صحيفة ، لم يمرض على العلماء ، ولم يتناق على الرواية . راجع طبقات حول الشعراء ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

أو كذب . وهو في ذلك كله يستند إلى ما قدمه رواة القرنين الثاني والثالث
المهجريين .

ومن ثم توسع المدارسون العرب في دراساتهم ، وتفننوا في تلوينها ، فكثر
التأليف ، وتمددت أشكاله واتجاهاته ، لكنه في الغالب لم يخرج على منهج الأصمعي
من الالتزام بذكر الأسانيد وتسلسلها ، كما فعل ابن دريد وابن الأنباري ، وأبو حنيفة
القاسمي ، والمرزباني .

قضية نحل الشعر وافتحاله

هذه القضية من أخطر القضايا التي تصادف دارس تاريخ الأدب - على وجه الخصوص - إذ لا يكاد عمل أدبي يسلم من دخیل یضاف إليه - واء في ذلك الأدب العربي والأدب غیر العربي ؛ لأن لعامل الزمن ، ووسائل النقل من الأجيال والأعصر الفائرة أثرها في إحداث مثل هذه الإضافات والتغيرات .

ولیس حتما أن حدوث هذه الإضافات يتم بدافع من سوء القصد المقصد يحدث هذا عن قصد ، وقد يحدث عن غير قصد .

وموطن الخطورة هو في نحل ما بین یدی دارس الأدب من نتاج أدبی للتعرف على الأصل منه والسخيل ، ولا ريب في أن مثل ذلك من أشق الأعمال التي تواجه النافذ في النتاج الأدبي المعاصر الذي يمايش أصحابه بظروفهم البيئية على اختلافها ، فإذا تباین زمان الدارس وزمان العمل الأدبي تضاعفت المشقات التي يواجهها في البحث ؛ لاحتفاء بعض معالم الحياة السابقة بين طوایا الزمن . أما إذا اختفت جل معالم تلك الحياة ، فإن الباحث عندئذ يصبح كمن يبحث عن غیظ في صحراء

فإذا اجتمع إلى هذا وذاك خلو الأجيال المجاورة لهذه الأعصر الفائرة من دارس يقوم بشمحيص ونحل النتاج الأدبي لمن تقدمه من الأدباء والشعراء ... فإن الوصول إلى حكم على ما بین أيدينا اليوم مما هو منسوب إليهم يصبح ضرباً من المحذور والتعصين ، يفتح أمام كل مدقق باب التشكك والحذر الشديد في قبول أو رفض ما ينسب إلى أبناء تلك المصور السالفة .

أما إذا وجد من علماء المصور المتاخمة لهذه المصور من تحمل عبء المسئولية ، وقام بفحص ما حله الرواة منسوباً إليهم ، مستعيناً في ذلك بالدهن والتحصيل بالوسائل العلمية المفضنة ... إذن فلا مكان للتشكك ، ولا مجال لإعادة البحث .

لا أقصد بذلك مصادرة الرأي الآخر ، ولا أريد أن أضع بين يدي الباحث المجدد .

عوائق أو موانع ، إنما أنا أقرر بذلك حقيقة واقعة ماثلة يلمسها كل باحث موضوعي ،
مجرد عن الغرس .

وذلك لأنني أرى أن من يتشكك فيما بين يدينا اليوم من شعر الجاهليين على مدى
نحو ألف وخمسمائة عام إنما هو منكسر لذلك كله يتستر خلف أسلوب علمي ليخلص منه
إلى تقرير مقرر لديه باسم العلم ، والعلم ومناهجه من مثل ذلك براء ؛ لأن الشك لا يصح
إلا بما يمكننا أن نستقل بالتعرف عليه إقراراً أو إنكاراً لقربنا من مثاليه ، وتمكننا
من التعرف على طبائهم ، وطبائع بيئاتهم الرمانية والمكانية والاجتماعية واللغوية
عندئذ يستطيع المدارس أن يتشكك فيما وصله عن هؤلاء ، ويقيسه بمقاييس تلك
الطبائع ويخلص من ذلك بما يصل إليه تقريراً أو إنكاراً

أما فيما انقطعت دونه السبل فهو إما عائد في تشككه ذلك إلى الشك في روايته أو
إلى الشك في دارسه المجاورين ولا ريب في أن هذا وذلك يعني من أول الأمر إنكار
كل ما ينسب إلى أسلافنا من أدب وعلم باسم المنهج العلمي أو الشك الديكارتي ، وذلك
لأن من يعطى نفسه الحق في أن يشك في رواية الأدب الجاهلي شكاً مطبقاً هكذا ، ويقوم
هو - على هذا البعد الزماني والمكاني - بتقييمهم ذاتياً وموضوعياً دون اعتداد على
معلومات الأسلاف من الدارسين والباحثين والعلماء . أقول إن من يعطى نفسه هذه
الحق يريد أن يومم الآخرين بأن مقرر مسبقاً في هذا الشأن من غير حجة ولا بينة
إنما هو ثمرة - واردة وبحت علمي مجرد ؛ إذ الذي يشك في أمر هو في الحقيقة يشك
فيمن نقل هذا الشيء ، كما يشك في كل ما قيل في شأنه من إقرار أو إنكار ، ولا يثق
إلا بما يصل إليه هو . . . وعندئذ السائل - مدهشاً - عن وسائله إلى ذلك .
اليس في كل ذلك يمتد على ما وصله من تاريخ العرب عن هؤلاء الرواة ومن جاء
بعدهم من الدارسين ؟

أنه إذا الحاجة في نفسه يقبل بعض ما روى عن هؤلاء ليتشكك في بعض ما روى
عنه ويتعبير أوضح يقبل من روايتهم ما يحقق غايته ، ويؤمن ببعض الكتاب ويكفر
ببعضه ، مثلاً أن المنهج العلمي الحق يقول بأن من يتقبل البعض لا بد من أن يتقبل
البعض الآخر إما أن أرفض كل ما جاءنا عن هؤلاء الدارسين ، وإما أن أتحرك بقلي
وعلى بين المختلف من آرائهم لأختار منه ما يقبله عقلي من خلال المأثور عنهم في جملة
أما ما أجمروا عليه فلا مجال لأن أتشكك فيه من جديد على هذا البعد ، لأن هذا لا ينبغي

سوى الإنكار والرفض لكل ما روى وينسب إليهم في شق المجالات فما ينطبق على الشعر لابد من أن ينطبق على اللغة والتاريخ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة .



إن علماء العرب وأدباءهم قد بكروا بتمحيص ما نقله الرواة من أشعار ووقائع ، وتزودوا في ذلك السبيل بأساليب علمية لا تقبل في قوتها ودقتها عن أسلوب للشك الديكارتي ، إن لم يكن هذا الأسلوب واحداً من أساليبهم في تلك المصور المتقدمة ، من كل ما يمنح الثقة لمجموع ماضته كتبهم من آراء في هذا الصدد وغيره ؛ فهم على قربهم القريب من الأعصر التي تنسب إليها تلك الرويات ، كانوا من الحرص على الوصول إلى الحقيقة بالدرجة التي تفوق حرصنا نحن في هذا العصر على بمد ألف وخمسة آلاف عام .

بل لا أبعد عن الحقيقة إذا قررت أن هؤلاء العلماء والدارسين هم الذين أوقفونا على ما أدخل على الشعر الجاهلي من نحل وتزييف ، ولولا ما ذكروه في ذلك الشأن لما تنبهنا إلى ذلك ماض من الغربيين للمستشرقين ، أو من الشرقيين المستقرئين فلقد طلما نهوا وألحوا في التنبيه - الذي ضمنوه كتبهم - إلى أن كثيراً من الشعر الجاهلي قد دخله التزييف والانتحال ، ووصحوا بين أيدينا قوائم بأسماء هؤلاء الوضعيين الزيفيين حتى نحذر في التلقي عنهم ، وقاموا هم بنحل كل ما وصل إليهم من الشعر قبل أن يدونوه ، ولم يكتفوا إلا عما اطمأنوا إليه ، ولم يذكروا شيئاً مشكوكاً فيه إلا وأشاروا إلى ما يساورهم في شأنه مقروناً بما يدفعهم إلى هذا الشك ، فهو ليس شكاً قائماً على العاطفة أو العصبية كما يتوهم البعض .

إن الناظر فيما بين أيدينا من كتب علمائنا هؤلاء يلاحظ أن الحرص بلغ بهم درجة أهملوا معها كل ما روى عن الرواة المتهمين من أمثال خالف وحاد . وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الأدباء الدارسين المفضل الضبي^(١) المتوفى سنة ٧٨٠ م والأصمعي^(٢) المتوفى

(١) المفضل نحوي وشاعر من أبناء الكوفة ، كان يكتب المصاحف تكفيراً عما كتبه يده من أهاجي الناس . له « المفضليات » . و « أمثال العرب » .
(٢) عبد الملك الأصمعي ٧٤٠ - ٨٢٨ م ولد في البصرة وتعلم فيها على الخليل وعيسى ابن عمر ، وأبي عمر بن الأعلى ، وعليه تعلم أبو الفضل الرياشي ، وأبو عبيدة السكري .

سنة ٨٢٨ م . ومحمد بن سلام الجمحي^(١) المتوفى سنة ٢٣١ هـ

ونظرة إلى ما ذكره ابن سلام في مقدمة كتابه (طبقات خول الشعراء) يتأكد ما أقرر هنا من ذلك قوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مدح رائع ، ولا هجاء مقنع ، ولا غر معجب ، ولا سبب مستطرف وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يمرضوه على العلماء . وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفى^(٢) . »

« وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه^(٣) . »

فابن سلام - على قربه من العصر الجاهلي - يسير في كتابه وفق منهج واضح محدد أملاء عليه دقة العالم الورع ، وبصر الأديب الشاعر ، حيث يملن في صراحة عما يراه في بعض الشعر العربي - في ذلك الوقت - من دحيل منحول ، دون أن يكتفى في ذلك بمجرد الإعلان ، ولكنه يمزج ذلك بالقرائن الفنية والعملية التي تثبت دعواه ؛ إذ هو شعر لا خير فيه ، ولا حجة في عريته ، ولا فائدة أدبية في مضمونه ، ولا يحتوى على معنى أو مثل يضرب . . الخ ذلك ثم ينبه إلى مصدر ذلك الدخيل ، وسبب اختلاطه

« حفظ لثة البدو ولهجاتها ، فأصبح من مشاهير لغوي العرب من « ولفاته » الفرس ، و « الإراجيز » ، و « الميسر » ، و « الأصميات » . »

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري ولد بالبصرة سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ٢٣١ هـ وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب ، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب ، من شيوحي الأصمعي ، والمفضل ، وبشار بن برد ، وهرسان ابن حفصة الشاعر ، والمسيب بن سميذ ، وسيدويه . ومن تلمذ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم ، والرباشي ، والمازني ، وأحمد بن حنبل ، وأبيه عبد الله بن أحمد وغيرهم كثير .

(٢) الصحفى - بضم الصاد والحاء - القدي يأخذ عن صحيفة ، لم يمرض على العلماء ولم يتلق علمه بالرواية .

(٣) الطبقات ج ١ ص ٤ بتحقيق وشرح محمود محمد شاكر .

بغيره ، وذهول بعض الدارسين عن حقيقته ، حيث يقدر أن السر في هذا الخلط إنما جاء من تداول الشعر مكتوبا ، دون مشافهة وسماع من أهل الثقة - وهم في الأدب واللغة في ذلك الوقت أهل البادية - ودون عرضه على العلماء المتخصصين الذين يقومون بدور الناقد البصير ، والقاضي العادل

ولا يفوته في هذا المجال أن ينبه إلى أن أهل العلم والرواية الصحيحة إذا أجموا على إبطال شيء من الشعر فليس لأحد أن يقبل منه ما يجده محطوطا في صحيفة ، ولا يرويه عن يمين يأخذ عن صحيفة .

أى أن الشعر يواجه العديد من نقاط التفتيش والفحص لا بد له من أن يجتازها قبل أن يعتمد ويوثق . . . حيث ينقل إلى الأجيال اللاحقة .

وابن سلام لا يرى في هذا ما يعيب الشعر العربي أو يمس قيمته الفنية من قريب أو من بعيد ؛ إذ الشك في بعضه ، ورد بعضه ليس خاصا به ، ولكن كل شيء لا يخلو من أن تثار حوله الشكوك مع مرور الأيام واختلاف الأماكن .

وهذا لا يعنى - في رأى ابن سلام - أنجرؤ على رفض ما اتفق عليه - من الشعر وغيره - وإنكاره

ومن هذا المنطلق لم يجد ابن سلام حرجا في أن يضع بين أيدينا أنواعا من الشعر المردود ، لكنه - وهو العالم الحريص على النهج العلمى - لا يضع ذلك خاليا من التعليل والتفسير .

يعهد لذلك أولا ، فيقرر أن الشعر - كغيره من صنوف العلم والصناعات - له أدوات ومقاييس تمكن العالم من وزنه وتقييمه ، ومعرفة صحبته من زائفه ، وذلك قوله : « وللشعر صناعة وثقافة ، يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما تثقفه اللسان » (١) ثم يأخذ في ضرب أمثلة من أصناف العلوم والمعارف ، قارنا كل صنف بمقاييسه وطرق نمده ، ينتهى إلى الشعر بقوله : « فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به » (٢) .

ولا يفوته في هذا الصدد أن يفتتح حوارا دار بين واحد من العلماء بالشعر ، وأحد رواة للشكوك في روايتهم ، وذلك قوله :

(١) الطبقات ج ١ ص ٥ . (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧ .

« قال خلاد بن يزيد الباهلي^(١) لخلف بن حيان أبي محرر^(٢) - وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقول - : بأى شيء ترد هذه الأشعار التي تروى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا حير فيه ؟ قال : نعم . قال : أتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم قال : ولا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت ،^(٣) .

ولم يقف ابن سلام عند حد التصريح بما أدخل على الشعر العربي من نحل ، كما لم يقف عند حد الإشارة إلى جهود العلماء ومناهجهم في بحث ما روى من الشعر وتمحيصه ، ورد ما نشور حوله شكوكهم لم يقف عند هذا الحد ، بل لقد أسهم بالفعل في هذا المجال ، فرد نحل الشعر إلى عاملين هما :

(أ) حرص بعض القبائل على التفوق والصدارة فاجأ طائفة من الشعراء إلى صنع شعر نسبوه إلى غيرهم ليسكون حجة فيما ضمن من وقائع ومآثرهم ومنافب .

(ب) وحرص طائفة من الرواة على وضع الشعر والإضافة إلى مروياتهم إرضاء لرغبات تلك القبائل أو لتبر ذلك من الدوافع . وفي ذلك يقول : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائهم وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على السن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيات »^(٤) .

ولم يكن التزبد مقصودا على القبائل - كما صنعت قريش في شعر حسان^(٥) - بل كان الأمراد يقومون بذلك من ذوات أنفسهم بحيث يخفى أمرهم عن مباشرهم . كما صنع ابن داود بن متمم بن نويرة في شعر أبيه ، قال ابن سلام : أحسن برني أبو عبيدة أن

(١) خلاد بن الأرقط ، بصرى مات سنة ٢٢٠ هـ .

(٢) هو خلف الأحمر ، توفي سنة ١٨٠ هـ تقريبا

(٣) الطبقات ج ١ ص ٧

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

(٥) أنظر ذلك في ابن سلام ج ١ ص ٢١٥ .

ابن دأود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة فنزل النخيت^(١) فأثبته أنا وابن نوح الطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفياه ضيقه ، فلما نقد شعر أبيه جميل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر الموضع التي ذكرها متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر الموضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علما أنه يقتله^(٢) ، وكان تمحيص هذا أشق على العلماء من تريد للقبيلة كلها في شعر الشاعر ، لقربه من الشاعر . وفي ذلك يقول ابن سلام : « وليس يشك على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولودون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال »^(٣) .

ويضيف ابن سلام طائفة أخرى لم يوثق بما روت من الشعر ، بل لقد اشتهرت بإفساد الشعر بما أضافت إليه دون نظر وتمحيص فيقول : « وكان ممن أسد الشعر وجهه وحمل كل غناء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخزومه بن المطالب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، قال الزهرى : لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخزومة وكان أكثر علمه بالمنازى والسير وغير ذلك ، فقل الناس عنه الأسماء ، وكان يستدر منها ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا ، فكاتب في السير أسماء الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأسماء النساء فضلاء الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكاتب لهم أسماء كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معتود بقواف »^(٤) .

فلم يكن الانتحال في الشعر العربي راجعا إلى سوء المقصد في كل أحواله ، بل كان هناك من يدفعه إلى المحل قصد الوضع والتزييف كما كان شأن الرواة الوضاعين

-
- (١) الجلب : ما يأتي به البدوى من الإبل والغنم في الأمصار . والميرة : الطعام ، والنخيت : من قرى البصرة الصغيرة الدانية .
 (٢) طبقات الشعراء ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .
 (٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .
 (٤) المرجع السابق ج ١ ص ٧ ، ٨ .

الذين كانوا يحسنون نظم الشعر وصوغه مثل حماد وجناد وحاف كما كان هناك من لا يحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولسكنها كانت تحمل كل عشاء وزيف في أثناء مروياتها من الأخبار والسير ، مثل ابن إسحاق راوى السيرة النبوية ، فقد اتخذها بعض آخر أداة لإذاعة ما يصنعون من الشعر فيدخله في أخباره دون تبحر أو تحفظ .

وكان موقف العلماء بالشعر ورواته الذين وقفوا أنفسهم على خص وتمحيص مروياتهم قبل إداعتها — من أمثال هؤلاء الرواة واضحا جليا ، فقد رفضوا كل ما روى عن أى من هاتين الطائفتين ، إلا أن يأتيهم من مصادر أخرى موثقة ، وإلا أن يتخلوه بمقاييسهم الشعرية التي استطاعوا بها كشف كل زيف

بل لقد لجئوا إلى التبحر ففضلوا إسقاط بعض الشعر الذي يخالفهم فيه شك على روايته يقول ابن سلام : « ولأبي سديان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعد ما روى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » (١) .



هذا ابن سلام أحد رواة الشعر العربي الثقات يكشف عن منهجه هو وصرباؤه — من مثل المفضل الصق والأصمعي وأبي عمرو بن الملاء — في رواية الشعر وتوثيقه منذ القرن الثامن الهجرى ، فهل بعد ذلك يجد باحث أو دارس محالا لقول يشكك به فيما رواه هؤلاء أو يشكك به ؟ !

يبد أن طائفة من المستشرقين أناروا هذه القضية حين اتصوا بالشعر الجاهلي . . وليس بعيدا أن يكون ذلك منهم تكرارا لمثل ما صادفوا من كلام ابن سلام اعتمادا على جهل المحيطين بهم بما قاله علماء العرب الأقدمون ، كما لا أستبعد أن يكون ذلك منهم ابتداء على غير علم منهم بما جاء على لسان العلماء العرب ، وأنهم بمقاييسهم تشككوا فيما بين أيديهم من شعر الجاهليين .

وكان في مقدمة من أثار قضية النحل تلك نولته سنة ١٨٦٤ ثم آلورد حين قام على نشر ديوان امرىء القيس ، والناطقة وطرقة وزهير وعمرة وعلقة ، فأبدى تشككه في صحة الشعر الجاهلي في عمومه ، وحلص من ذلك إلى أن قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته على شيء من الشك كذلك في ترتيب أبيات كل منها والفاظها . وتابع آلورد في ذلك طائفة من المستشرقين منهم موير ، وباسيه ، وبروكلان ، ومرحليوث (١) وعلى منهج هؤلاء المستشرقين سارت طائفة من العرب المستقرين ، وكان في مقدمتهم الدكتور طه حسين الذي ردد ما كتبه هؤلاء - خصوصا مرحليوث - دون روية أو تمحيص أو مراجعة في كتابه « الشعر الجاهلي » سنة ١٩٢٧ م .

وإذا كان للمستشرقين عذرهم فيما قد ينزلون إليه من آراء - إذ هم مهملون وانهم الاتصال بالعربية غرباء عليهم لا يستطيعون تعمق أسرارها ، ولا بحث أغوارها - فإنني لا أجد عذر العربي رل به القدم فيردد ما ردد غيره ، وبين يديه من أشباب الفحص والتحجيص ما يمكن أن يضعه في مصاف النضاة المدول .

ولقد سبقه في هذا الميدان مصطفى صادق الرافعي فعرض القضية بشيء من التفصيل والاستقصاء في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي نشره سنة ١٩١١ .

والمعجب من أمر الدكتور طه حسين الذي يكشف عن انزلاقه ومتابعته فيما كتب آراء المستشرقين - أنه بنى شكه في الشعر الجاهلي ورفضه للكثير منه على مدى تمثيل الشعر الجاهلي لحياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية واللغوية .



أما الحياة الدينية فيرى أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلي يرى أو كالبريء من الشعور الديني القوى والماطفة المتسلطة على النفس ، والذي يمثلها من جميع جوانبها تمثيلا قويا إنما هو القرآن الكريم ، حيث أرانا مسجده اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وحادلهم وهاجمهم كما هاجم الوثنيين ، مظهرا في ثنايا ذلك معتقداتهم (٢) .

(١) انظر تاريخ الادب العربي لبلاشير ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ٣٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر في الادب الجاهلي ص ٧٧ وما بعدها الطبعة الرابعة .

ولا ريب في أن هـ - ذا يكشف - من أول الأمر - خطأ طه حسين في اتجاهه ،
وينقصر عليه ما يقول ؛ إذ كيف يتأتى لإباحث مفكر أو أديب متذوق أن يقيس الشعر
على القرآن الكريم ، مهذا من واد وذاك من واد آخر ، ولا يمكن بحال أن يجتمعا .
ولا عذر له في ذلك بعد أن قرأ قوله تعالى في سورة الشعراء تمجيها للقرآن عن الشعر :
« وإنا أنزل رب العالمين نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين
بلسان عربي مبين » (١) . وقوله بعد ذلك في السورة نفسها : « وما ننزل به الشياطين
وما يلبثن لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع أمزولون » إلى قوله عز وجل : « هل
أبشركم على من ننزل الشياطين نزل على كل أنثى أنثى . يلقون السمع وأكثهم
كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تراهم في كل واد يهيمون وأهم يقولون
مالا يملكون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثير وانتصروا من بعد
ما ظلموا » (٢)

فالقرآن كتاب سماوى له رسالته وأسلوبه ومنهجه الذى لا يمكن لعالم أن يقيس
به أو عليه كلاما آخر إلا أن يكون كتابا مثله . فليس غريبا أن يعرض لكل ما يتصل
بديانات من أوحى به إليهم لهدايتهم ومجادلتهم ، إنما الغريب الذى لم يكن ليقبله عقل
ناقد أديب أن يرى في الشعر الجاهلى شيئا من ذلك ، إلا أن نقدر أن قائله رسلا
أو أنبياء مصاحين رصدوا شعرهم لهذا المرض .

إن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكتفى بما جاء في شعر الجاهليين من إشارات
دينية ، ويرى أن قلة ذلك أو ندرته في شعرهم دليل على ريب نسبة هذا الشعر إليهم .
والأمر على العكس مما يرى ؛ ولو أن ما نسب إلى الجاهليين من شعر تضمن تفصيلا
دينية أكثر مما جاء لكان دليلا على زيفه ومحله ؛ لأنه عندئذ يكون من صنع مغرض
صاحب غاية دينية جاء بعدهم .

* * *

وكذلك طالب في الشعر الجاهلى بسطا للحياة العقلية التى كان عليها عرب الجاهلية ،
فلما لم يجد ما يطلب أنكر أن يكون ذلك الشعر ممثلا للمصر وتشكك في نسبته
إلى الجاهليين

ولا أدري ماذا يقصد الدكتور طه بذلك ؟ أيطالب من الشاعر الجاهلي أن يحول شعره إلى كتاب أو بحث علمي يكشف به عن حياة عقلية منظمة يفترض وجودها في ذلك العصر ؟

ليس من شك في أن العرب في هذا العصر لم يكونوا ذوى فكر عقلى راق أو معقد بالصورة التى يطلب الدكتور طه أن يراها في شعرهم ، ولو أن شعرهم ضمن شيئا من ذلك لكان دليلا قاطعا على نمطه وتزييفه ؛ فقد كانوا في مجموعهم يعيشون أحد أطوار الحياة البدائية التى لا تقوم على فكر معقد منظم .



كما رأى أن الحياة السياسية للعرب لا تبدو في شعرهم صورتها كما أوضحها القرآن الكريم ، حين أظهر أن العرب في العصر الجاهلي انقسموا فريقين ، فريق يناصر الروم ، وآخر يناصر الفرس ، على ما جاء في سورة الروم .

وفاته أن هذا التقسيم والتوزيع السياسى لم يكن شاملا للعرب جميعا ، وإنما كان مقصورا على قريش التى كانت على صلة دائمة بالفرس والروم لارتباط تجارتها في رحلتها بهاتين الدولتين .

كما فاته أن يتنبه لما تضمنه شعرهم من تهديد وتوعد حين نشبت الحرب بين بكر وفارس ، أو أن يتنبه لما غص به شعر طائفة منهم في مدح التساسنة أتباع الروم وللناذرة أتباع الفرس ، وما في ذلك من إشارات لتلك العلاقات .



وعلى الوتر نفسه قدم دعواه من الجانب الاقتصادى ؛ فقد بحث في شعرهم عن اتجاهاتهم الاقتصادية فلم يظفر منه بما يفيد ، كل ظفر من القرآن الكريم الذى قدم لنا العرب أغنياء يستأثرون بالثروة ، وفقراء لا يملكون شيئا .

وكان الدكتور قد غفل عن شعر طرفة بن العبد الغنى المتلاف ، وشعر الصعاليك الثاثرين على ما فى المجتمع من ظلم ، والمنصبين أنفسهم موارد لإقامة العدل الاجتماعى بالسطور على الأغنياء ومساعدة الفقراء .

وأعجب ما فى هذا أن الدكتور يزعم أن شعر العرب لا يتضمن إلا ما يفيد أن العرب جميعا كرام أجواد ، وفاته أنهم إلى جوار ذلك يذمون البخل والبخلاء ، وينصلون من

الشع . . ولا يتصور أن يذم شاعر صفة غدير موجودة في قومه ، إذ لو لم تكن موجودة لما كان لدمها من داع .



ثم يحلص الدكتور طه حسين من ذلك كله إلى الحديث عن أمة العرب ، فيقرر أن البحث الحديث أنشأت خلالها جوهريا بين أمة الجنوبيين وأمة الشماليين ، ثم ينظر فيرى أن الشعر المأثور حميمه جاءنا بلغة الشماليين . . . مما يخطر عليه اليسليم بصحة الكثرة المطلقة منه .

وهو بهذا يذلل المهجرات التي نمت من الجنوب إلى الشمال في عصور ما قبل العصر النجاشي كما كان شأن قبيلة كندة اليمنية ، كما يذلل سيادة لهجة قريش سائر اللهجات الشمالية واتخاذها لغة أدبية يخضع لها الجميع ليشكل في صفة ما روى من أشعار هذه اللهجات باللهجة قريش .

إن الناظر فيما كتبه الدكتور طه حسين ليتأكد لديه أنه ما كتبه بروح العالم المذوق البعيد عن التحيز والمصيبة ، وإنما كتبه بروح المستشرق البصير الذي يبيت لأمة العربية وآدابها والقرآن الكريم ما يبيت ، مما يضيق بجحشنا هنا عن ثاوله بالتفصيل والتفديد .

الفصل الرابع

المقصود بالبادية والحاضرة

معلوم أن البادية - في مفهومها العام - تعنى السكان ذا القضاء الواسع ، والمرعى والماء ، أو البيئة التي لم تغير من أصل وجودها يد الكائن المخلوق ، فهي على هيئتها التي صادها عليها ساكنوها منذ القدم . وتوارثوها جيلا بعد جيل دون أن تمتد يدا لتعديل شيء فيها ؛ فهي من البدء كما هي اليوم على ما بدت في أعين أبنائها أرض مفتوحة لا حدود فيها تقيد حركة ساكنيها ، ولا حواجز تمنع عنها من هواهر السكون شيئا ، تستوى في ذلك الحدود والحواجز المادية والمعنوية ؛ مساكن البادية لا تقيد حركته الحدود المادية من منازل منقطة وقلاع محصنة ، كما لا تقيد حركته الحدود المعنوية من نظم وقوانين وحكومات .

فساكنو البادية هم ناس يعيشون فوق أرض لم تخضع لصنعة المخلوق ، وإنما هي أرض ما زالت على هيئتها الأولى التي خلقها الله تعالى عليها من أودية وجبال وكشبان ، وحيوانات ووحوش ، ومفارز وقفار ، تظلمها السماء بما تحوى من كائنات دون حجاب أو ستار ، تستهوى النفوس بجمالها ولذات نجومها ، وسطوع بدرها وإشراق شمسها ، وتملح القلوب بأهوالها وثوراتها ، وتضئ الأجسام بقائظ حرها وخوف بردها وجفاف أرض ، ووعورة مسالكها ، وخشونة الحياة فيها .

هذه البادية بجمالها الطبيعي الذي لا يكدره وسائط من صنعة المخلوق ، وبينها وقوتها التي تهون إزاء ما تقدمه لساكنها من شعور بالذات ؛ فبيننا الهدوء يسود كل شيء فيها إذا بالسما تبدد بالغيوم ، وصوت الرعد يدوي في آفاقها ، وومض البرق ينتشر في ضاحيتها ، وأزيز الرياح يلشع الرعب فيها ، وسقوط الأمطار يغمم أوديتها ويطنى غدرانها . . . وإذا بالحياة تعود من جديد كما كانت عليه من هدوء وسكون يحيم على كل البقاع .

هذه البادية بطبيعتها القاسية المتقلبة هي التي تضم البدوي وتستوى دؤاده ، حتى

لتسكاد تستعبده ، فهو لا يرضى بها بديلا ، ولا يجد في سواها راحة البال وأنس النفس ،
فهي بالنسبة له كالماء للسماك يموت إذا خرج منها .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى . وحرصه عليها هذا الحرص ، جعل منه
مرآة مجلوة تبدو على سطحها صورة البادية بكل ما فيها من تقلبات ، فأنت ترى هذه
البادية وفي علائق الناس بها ، وأخلاقهم ومعارفهم وتقاليدهم ، ونظام حياتهم ؛ فإذا
كانت الطبيعة فيها مكشوفة واضحة ، فالناس الذين يقطنونها صرحاء واضحو المقاصد
دون التواء . وإذا كانت الطبيعة فيها متفردة العناصر يتضح كيان كل عنصر منها على
الرغم مما بين عناصرها مجتمعة من روابط ، فإن الفرد أيها يشعر بذاته أكثر مما يشعر
بمجتمعه ، فذاته أولا ثم بعد ذلك يأتي الآخرون . وإذا كانت الطبيعة في البادية فائرة
هادئة . عابسة باسمه جانية رفيقة ، واجمة ناطقة ، غاضبة راضية ، مشرقة متجمعة ،
منيرة مظلمة . إن ساكنيها على هذا المثال يجتمع فيهم القيضان ، ويلقون على الضدين
ولذلك فهم يتسمون بالطبع الحاد ، لتستثيرهم الكلمة فتفيض بسببها الدماء ويستخفهم
الطيش فيندفعون دون أناء أو تعقل ، ويستفزهم أنفه الأسباب فتشتعل الحروب أعواما
بين الأخ وأخيه .

والتصاق البدوى ببيئته على هذا المستوى ، وحرصه عليها هذا الحرص جعله
لا يدسن إلا تبسنا له البادية مثل سقوط الأمطار ، وهدوء الرياح ، وكألا يضيق إلا
بما تضيق به البادية من حر قائلظ وبرد قارس .

إنه في بيئته تلك يدور في محور حاجاته البدوية ؛ هي التي تلفت نظره ، وتغذب
انتباهه ، فيتميل عليها واصفا ، ويعيش معها متفاعلا ، حتى يحيل إلينا أنه جمل منها
إنسانا يشارك الحياة ، ويتناسخ أهوالها ومتاعها .

وحاجاته البدوية قصرت نظره إلى تلك الأشياء ، فلم يتمدد السطح المنادى . ولم
يتجاوز النظرة المعجلى . اللوعة الخاطفة . دون تعمق في دحائل هذه المظاهر الكونية
أو محاولة للكشف عن أسرارها . . وأنى له ذلك وتسكويته البيئي . واستعداد
المنطري لا ينزع به إلى ما دون السطح من مثل عليا تقوم عليها تلك الظواهر ؟ !

ففي البيئة البدوية صفات توارثها ساكنوها ووقفوا أنفسهم للحفاظ عليها وضجروا

بالفيس والعال في سبيل الإبقاء عليها ، دون أن يقدموا تمليلًا لاعتراهم بهذه الصفة أو تلك ، بل إنهم قيا بينهم وبين أنفسهم لا يدركون تفسيرًا لاختلافهم بها ، سوى أنها من الصفات المحمودة التي توارثوها عن الأسلاف ، فالجود ، والسجدة ، والشهامة ، والجرأه ، والهمة صفات يتمدحون بها ويتفاخرون باحتيازها ، ويتهاجون باستلابها ، فإذا سألت واحدا منهم عن السر في ذلك لم تجد لديه جوابًا شاذًا يتعمق وراء الأسرار ، يعصل ويفسر ، ولكن قصارى ما تجده لديهم - في ذلك الصدد - أنها صفات محمودة ، وخلائق كريئة يعتر بها البدوى حكاما عن سلف ؛ فهم لا يسمون بالأسرار والعال قدر عنايتهم الآتار والمظاهر .



يبد أن ساكنى البادية لم يكونوا جميعا على مستوى واحد في النظر إلى ما يحيط بهم ، وانتأثر بيئتهم ، وذلك لأن الإقامة وحدها في البادية لا تسفى لتصبغ الإنسان بطابع البادية ؛ فقد يكون مقامه بالبادية لكنه يصنع لنفسه داخل البادية بيئة أخرى تعتمد على المقومات الحضرية بكل طبائنها وأعرافها وسجاياها ، كأولئك البدو الذين أنشأوا الإمارات في داخل البادية وشيدوا القصور وجموا إليها من أسباب الحياة الحضرية ما نقلهم من بيئتهم ، وإن كانوا مقيمين داخل الصحراء ، محاطين بأطرها ، خاضعين لأخلاقياتها ومقاييس الحياة فيها ، مثلما رأينا من قبيلة كندة حين أنشأ أنباؤها إمارة كدة في مقابلة إمارتى الحيرة والشام .

وليس من شك في أن مثل هذا الوسط - مع أن ساكنيه لم يخرجوا من البادية - لا يمكن أن يوفر لساكنيه ما توفره البادية الخالصة لساكنيها من طبائع وسجايا ؛ لأن المقصود بالبادية ليس هو الأرض لذاتها ، ولكن المقصود بها الأرض ذات الظروف والطبائع والأعراف البدوية الخالصة من العننة ، الخالية من التهذيب .

ومن ثم فإن المقصود بالآديب البدوى ذلك الآديب الذى يعيش داخل إطار العطرة السادجة في سلوكه وشماته وتفكيره ، وأخلاقياته ، وتصوراته ، بحيث لا يتعارض في شيء من ذلك مع ما تنص به الأرض التي يدرج عليها ، فكل ما يصدر عنه من سلوك أو فكر يدور في هذا المحور البدوى ، كما أن كل ما يمر به عن مكدون نفسه ، وبعض مشاعره لا يشد عن مكوناته النفسية ، ومقوماته الخلقية .

وإذا كنا لا نقصد بالأديب البدوى ذلك الأديب القدى يحيط نفسه داخل البادية بجو حضارى من ثقافة وفكر وعلم وعرف ، فإننا - على عكس ذلك تماما - نقصد بالأديب البدوى ذلك الأديب القدى يعيش داخل الإطار البدوى سواء كان يقطن البادية بالفعل ، أو كان يقطن الحاضرة ، لكنه بأبى إلا أن يعيش فى الحاضرة عيشة البدوى فى أعماق البادية .

فليس المقصود إذن بأدب البادية ذلك الأدب الصادر عن أدباء يقطنون البادية فحسب ؛ فقد يكون أدبا حضريا ما يصدر عن أديب يقيم فى البادية، وقد يكون أدبا بدويا ما يصدر عن أديب يقيم فى الحاضرة ؛ فليس الاعتداد فى هذا المجال بمقام الأديب فحسب ، بل الاعتداد بمقامه وما يحيطه من مؤثرات ومقومات .

إن أدباء البادية الذين نتحدث عنهم هنا ، ونبحث أدبهم ، ونتتبع خصائصه هم أولئك الأدباء الذين كنهتهم البيئة البدوية بخشوعتها وجفافها وقضاياها ومشكلاتها ، فأملت عليهم من الظروف ما يريهم عن ساكنى الحضر - سواء الحضر الطبيعى أو الحضر المصنوع - وواجهتهم بقضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيات لهم من الأساليب والوسائل فى معالجة أمورهم ما ينبع منها وما يتصل بمقوماتها . . . بل وفرضت عليهم معجما لغويا ، وتصورا للأحداث والمواقف منكمسا من طبيعتها بكل ما فيها من خصائص ومميزات .

ولا ريب فى أن الطريق مختلف ؛ وبدا الحاضرة تفرض على ساكنيها أن يتزايوا بزى تسوده الأناة والنزوى والانتقاء والظفر العميق فى تفهم الأشياء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تسكن أرباؤهم شامة عما فى نفوسهم دون خفاء ، صريحة فى الإنباء عن ضمائرهم دون اتواء ، بسيطة فى النظره إلى القضايا دون تعميق أو تعاليل أو تفسير ؛ إذ لا يجدون ما يدهو إلى التخفى والستر ؛ أو ما يقتضى المواربة والالتزام ؛ كما لا تعلمهم ظروف الحياة إلى البحث وراء الظواهر والتعاليل والتفسير .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تعيش فى جو حربى إنان العصر الجاهلى ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل فى ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم فى إمداد هذه الحروب بالفرسان المهيئين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اشتعالا ، وأحوى سعارا منها بين البيئات المتحصنة أو المتصلة بالحضر ، فلم

يكن لأبناء البادية من شاغل يصرفهم عن الحروب انتقاما أو ثأرا أو عدوانا ، إلى غير ذلك من دوافع الحرب التي كانوا ينزعون إليها نزوعا ، وينهأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل

وكان الأدب — خصوصا الشعر — عندهؤلاء هو التروم الملازم للفرسية ، فهو الوجه الثانى لها ، أو المرآة التي تمكس صديع الفارس ، وتراوى على سطحها أدواته ربية وطرق إعداده ، وكيفية هجومه كرا وفرا .

يبد أن هذه البيئة البدوية لم تكن على مستوى واحد ، بل كانت — في مجملها — متوزعة بين مستويين يتبايان أشد التباين — وإن لم يخرججا عن البداوة — ويختلفان أوسع الاختلاف في تمثل البيئة البدوية ، وذلك لأن ساكنى البادية كان منهم السادة المستقرون في أرضهم ، الغاضمون لما أقروه — على مدى الأجيال — من أعراف وقوانين غير مكتوبة ، القائمون على حياة يسودها نوع من النظام يتلاءم مع ظروف الحياة وكان مهم الشواذ الخارجون على النظم والأعراف ، الفارون من وجه العدالة والمحاسبة إلى شعاب الجبال ، يباشرون حيانهم كما يحلو لهم ، أو كما يتصورونه المسلك الأصلح وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم (الصماليك) .

ولا ريب في أن لسلك من الوسطين خصائصه التي تميز نسكوين ساكنيه من ساكن الوسط الآخر ، وتفرض عليه من المشاعر والانفعالات والأفكار ما يختلف عما يفرضه الوسط الآخر على ساكنيه ، أى أن لسلك من الوسطين آثاره التي فتجه بكل وجهة تتسق مع أبعادها وظروف الحياة فيها ؛ فتميز أدب هؤلاء عن أدب أولئك .

* * *

إذا حددنا مقصودنا بالبادية بأنها الوسط الذى يقوم على أخلاقيات البادية سواء كان في محيط البادية ذاتها أو خارج إطارها ، فإن باستطاعتنا أن نحدد المصرد بالحااضرة — كذلك — بأنها الوسط الحضرى الذى يقوم على أخلاقيات الحااضرة ، وأساليبها في السلوك والتفكير ؛ وما يفرضه ذلك الوسط على أبنائه من الفاظ يتسكون منها المعجم اللغوى لهم ، ونصور تبرز في أشكاله معانيهم ومدركاتهم للأمور والأحداث والمواقف وفنون تتلقى بها مشاعرهم وعواطفهم ، ويدور حولها بيانهم وتعبيرهم .

وليس حتماً أن يكون هذا الوسط الحضري خارج البادية ، فقد تشتمل البادية على مقومات الحاضرة دون الخروج عن حدودها المكانية كما أن الحاضرة قد تضم المقومات البدوية بكل مؤثراتها على معنى أن البيئة الحضرية ليست مكاناً يطلق عليه ذلك وإنما هي وسط ذو سمات ومقومات خاصة تلبيح من السكان أو يضيفها عليه الزمان وما يحمل من أحداث ، بحيث يمكن أن نرى الحاضرة . بهذا المفهوم . في أعماق الصحراء ، ماثلة في وسط مخصوص محاط بمجموعة من الناس ذوي اتجاهات وميول وثقافات تقطعهم عما يحيط بهم في الصحراء .

والناظر في الشعر العربي منذ الجاهلية يلاحظ أن هذا الوسط قد استحوذ . بما يحويه من مظاهر الترف ووسائل النعم وأسباب التحضر . على طائفة من شعراء العرب في العصر الجاهلي وما تلاه من عصور ، فشكل حياتهم بما ميزهم عن أبناء عموهم القديين يضمهم الوسط البدوي ، واتجه بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تباين وجهات أربابهم ومناصريهم في البيئة البدوية ، وصبغ أذواقهم الفنية بالأصباغ والألوان التي تمكسها حياة الترف والنعم ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلي حاجاتهم ، وداروا بمغانيمهم وأخيلتهم في محيط هذا الوسط الحضري وما يضيفه على أفكارهم وخيالهم من انطباعات . حتى بدانهم الشعرى غريباً أو كالغريب على مقاييس الشعر البدوي ، فكان مدعاة للهوين من شأنهم أو الطعن في صحة ما ينسب إليهم ، أو عدم الالتزام بمنهجهم والمظاهر ، أو حيرة الرواة في تفكيته من البخل لاختلاطه به وقربه منه .. الأمر الذي دفع ببعض الدارسين من أمثال الدكتور طه حسين إلى إنكار هذا الشعر والطعن في روايته ورواته ، بل وفي وجود المنسوب إليهم ، بحجة أنه خارج على المنهج الشعري . مصموناً وأسلوباً والفاظاً . المعروف للعرب البادين ، على تقدير أن هؤلاء البدو وحدهم هم يمثلوا الأدباء العرب شعراء ونأثرين .



حقاً لم يكن أبناء الوسط الحضري جميعاً على مستوى واحد في التأثر به ، والاستجابة لمتطلبات الحضارة ، بل إنهم لينفادون في ذلك تفاوتاً بيناً ، ويتبايزون تميزاً واضحاً . وإن لم يخرجوا عن الإطار العام للحاضرة . وفقاً لمكان الوسط من الحاضرة ، ولمكان الأديب ذاته من ذلك الوسط ، وتبعاً لطبيعة صلة الأديب بالوسط الحضري

وملابسته به ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تأثير هذا الوسط فيمن ولد فيه ودرج بين أهله مماثل لتأثيره فيمن نزع إليه - بعد أن نمت البذور الفنية لديه في ظلال البادية - طمعا فما يتوفر فيه من أسباب الترف والنعم ، وعظما وراءه البادية وما فيها ومن فيها . كما أنه ليس من المعقول أن يكون الوسط الحضري القائم في الحاضرة على المستوى التأثيري نفسه الذي يشتمل عليه الوسط الحضري المصنوع في البادية مهما تطاول به الزمان ، كما كان الحال بين إمارة الحيرة التي أصبحت قلعة من الأرض الفارسية وبين إمارة كندة القائمة في الجزيرة العربية تحيطها الصحراء العربية من كل جهة ، والوطن العربي في عمومه حين شمله الإسلام بمبادئه وأفكاره الحضارية .

الباب الثاني

الشعر البدوي

الفصل الأول

أعلام من شعراء البادية

أقصد بشعراء البادية أولئك الشعراء الذين كسفتهم البيئة البدوية ، بخشوتها وجفافها ، فأملت عليهم من الظروف ما يبرم عن ساكني الحاضرة ، وواجهتهم بقضايا غير ما واجهت به الحاضرة أبناءها ، وهيأت لهم من الأساليب والوسائل في معالجة أمورهم ما ينبع منها ويتصل بمقوماتها .

ولا ريب في أن الطريق مختلف ، فبينما الحاضرة تفرض على ساكني الحضر أو المتحضرين أن يتربوا بزي تسوده الأناة والترف والانتقاء ، تفرض البادية على ساكنيها أن تكون أزياءهم شامة عما في نفوسهم ، صريحة في الإنباء عن ضائرتهم ؛ إذ لا يجدون ما يدعو إلى التخفي والستر والمواربة .

وإذا كانت شبه الجزيرة العربية - على وجه التعميم - تمشي في جو حربي إبان العصر الجاهلي ، فإن البيئة البدوية كانت تتحمل في ذلك العبء الأكبر ، وتقوم بالدور الأعظم في إمداد هذه الحروب بالفرسان المبدئين . هذا إلى أن الحروب بين أبنائها كانت أشد اعتمالاً ، وأحمى سماراً منها بين البيئات المتحضرة أو القريية من الحضر ؛ فلم يكن لأبناء البادية من شاغل يعصرفهم عن الحروب انتقاماً أو ثأراً ، أو عدواناً إلى غير ذلك من دوافع الحروب التي كانوا ينزعون إليها نزوعاً ، وينتهيأون لها بكل ما أوتوا من الوسائل .

وكان الشعر عند هؤلاء هو القوس الملام للفروسية ، وهو الوجه الثاني لها أو المرآة التي تمسك صنيع الفارس ، ويترأى على سطحها أدواته الحربية وطرق إهداده ، وكيفية هجومه كراً ومراً .

* * *

ودارس الحياة الجاهلية يلاحظ أن أبناء البادية لم يكونوا جميعاً على مستوى واحد في الخضوع لقيم البادية وطوائعها ؛ فقد كان من أبناء البادية من تردد على الحاضرة ،

وخرج إلى المدينة ليقضى فيها بعض مرّات حياته بعد أن تسكّونت أحاسيسه ومشاعره بين أهله في أحضان البادية ، فأثّرت الحاضرة بمظاهرها المادية فيه فأصبح خاضعا لمؤثرين أحدهما بدأ معه منذ نمومة أظفاره فتغلّلت آثاره في ذات نفسه مكوبة أخيلته وممانيه ، والآخر بدأ معه بعد أن بضج فـكـره ونمت مدركاته ، فطنت آثاره على سطح نفسه معكسة على الشكل والمضمون .

وكان من أبناء البادية من ظل على نشأته مقيما في البادية ، لا يعرف إلا ماغلب عليه ، لمسكه استجاب للإسلام حين جاء بأفكاره ومبادئه ، واندمج إليه بقوة وإخلاص ، فتغيرت مفاهيمه ، وتبدلت أفكاره ، وهذبت ألفاظه ، لكنه لم يسلخ تماما من بيئته الأصلية ، على الرغم من تغير المعارف والأخيلة والشكل والمضمون لديه ؛ لأن الإسلام وكتابه الكريم لم يخرج في بعض تلك النواحي والمظاهر على البيئة البدوية الخالصة التي تمثلها البادية أدق تمثيل .

ولا ريب في أن هذا وذاك أصبح بدويا متحضرا ، يجمع بين مؤثرات البادية والحاضرة ؛ فضمه إلى شعراء الحاضرة أولى ليتضح الفارق بينه وبين الحضري بمولده ونشأته .

إذن الشاعر البدوي الذي نقصد إليه في بحثنا هذا هو الشاعر الذي لم يخرج على البادية بجسمه ولا بمقله وفكره ؛ فهو البدوي الخالص في أفكاره ، وفي ممانيه ، وفي أخيلته ، وفي ألفاظه ، وفي قوالبه الفنية ، سواء كان مقامه ظواهر القرى وأطراف الحضر أو كان مقامه في أعماق الصحراء .

بيد أن هذه البيئة البدوية الخالصة كانت تضم وسطين مختلفين ، فالإلى جوار السادة والفرسان البدويين الذين لم يشذوا على أعراف قبائلهم ، وقيم عشائهم ، وجد الصعاليك الثائرون الخارجون على عرف القبيلة ، وقيم العشيرة ، انقارون بما اعتنقوا من وجه الاؤاخذة والمحاسبة ، بعيدا عن مواطن القبيلة ومستقرها ، متخذين من الجبال والفلوات مكانا لهم ومنازل .

فالمقصود بالصعاليك إذن أولئك اللصوص ممن كانوا يتجردون في الجاهلية للنارات وقطع الطرق ، بقصد النار أو السلب والنهب ، فهم جميعا - على اختلاف مواطنهم

وأزمانهم - خاضعون لظروف قرينة الشبه من بعضها أثرت في منازعهم وتفكيرهم ، فوجهتهم إلى مسالك متميزة اختصوا بها من دون غيرهم في معالجة الأمور ، وفي التعبير عما يحيش بصدورهم ، وفي تقويم المواقف . . إلى غير ذلك من محلتب شئون الحياة . والمتابع لدشوء الصلابة في المجتمعات الجاهلية يلاحظ أن الدوافع لها تختلف من جماعة لأخرى ، وإن اتفقت في نتائجها .

فهناك رأى في الصلابة السبيل الأسير لتحقيق مآربه ، والوصول إلى الكسب من غير حاجة إلى عمل ، فالصلابة في رأى هؤلاء حرفة تدر عليهم ما يواجهون به متطلبات الحياة ، هذه النظرة يشترك فيه الأفراد والجماعات ، فقد عرفت شبه الحريرة قبائل تحترف الصلابة لهذه الماية مثل قبيلتي هذيل وفهم ، كما عرفت أفرادا مثل عروة بن الورد العنسى .

وهناك من رأى في الصلابة مجالا يشبعون فيه رغباتهم ، ويستجيبون فيه لوزوتهم . التي تتعارض مع نظام القبيلة ، مثل أبي الطمجان القيني ، وحاجز الازدي ، وقيس ابن الحدادية ، وغيرهم ممن لفظتهم قبائلهم لشذوذ سلوكهم ، وانحراف تفكيرهم . وهناك طائفة ثالثة رأت في الصلابة متنفسا لهم وميداا تحقق فيه ذاتها ، حين يذمهم محتتمهم لأسباب لايد لهم فيها مثل سواد أمهاتهم وغربتها عن البيئة العربية ، فقد كان الآباء يحذرون في إلحاق مثل هؤلاء الأبناء بنسبهم عارا ومساءة . وكان لابد لهؤلاء الأبناء من مخرج ، إما أن يهتبل الأحداث فيصطر آناه إلى إلحائه كما فعل عنزة ، وإما أن يخرج على القبيلة ويأجأ إلى الصلابة كما فعل تأبط شرا ، والسليك ابن السلسكة .

وأيا ما كان دافع الصلابة فقد كان الجميع يلتقون في الثورة الجارية على الأغنياء والأشعاع فيرددون دائما ما يمللون به مسلكتهم من صيحات الجرع والفر ، كما كان الجميع يمتاز بالقدرة للدائقة على تحمل المشاق ، والشجاعة البادرة في مواجهة الأخطار . ولذلك لم يخفضوا أنفسهم للوسائل التقليدية في ارتحالهم وانتقالاتهم وغاراتهم ، فاعتمدوا على أرحلهم كما اعتمدوا على خيولهم ، فامتازوا بالمدو حتى أطلق عليهم اسم المدائين ، وحتى ضربت ببعضهم الأمثال في سرعة المدو فقل : أعدى من السليك ، وذكر الرواة عنهم في ذلك أقاصيص تصور خصائصهم البدنية ، من ذلك ماروى عن تأبط من أنه كان أعدي ذي رجاين وذى ساقين وذى عيليين ، وكان إذا جاع لم تقم .

له قاعة ، فكان ينظر إلى الغطاء فيلتقي على نظره اسمها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوته
حق يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه بيا كله (١) .

وطبيعي أن يركز هؤلاء نشاطهم في المناطق القريبة من طرق القوافل الدينية
والتجارية ، فسكانوا ينتشرون في جبال السراة المحيطة بالطرق للوصول إلى مكة مقصد
الحجاج والتجار ، كما كانوا ينتشرون بالقرب من شمال اليمن ، وبالقرب من
الطائف والمدينة .

كما كان طبيعيا أن يتنق هؤلاء في أعمارهم بأرقى مناخر العربي من حراة وكرم
وترفع عما يرونه حسيسا دنيا .

أى أن كلا من هذين الوسطين اللذين ضمتها البادية العربية كان له آثاره التي
ميزت شعر أبنائه عن شعر الآخرين ، واتجهت بكل فريق وجهة تتسق مع أبعادها
وظروف الحياة فيها .

ولقد قدمت البادية بشعبتها شعراء كثيرين لا يمكن لدارس أن يلم بهم على
وجه العصر والاستقصاء . وكل ما يمكن تقديمه في ذلك هو طائفة منهم تمثل الاتجاه
الفني العام ، وليس لدافع آخر غير ذلك .

ومن بين هؤلاء الكثيرين وقع اختياري في هذا البحث على خمسة شعراء
هم عنترة ، والحارث بن حلزة ، وزهير بن أبي سلمى ، والشنفرى ، وعروة ، رأيت أنهم
يمثلون اتجاهات الشعر البدوي في العصر الجاهلي المتصل بمحضرة الإسلام

١ عنصرة

نشأته وحياته :

هو عنصرة بن شداد بن عمرو، وقيل : عنصرة ابن عمرو بن شداد بن معارية العبسي . قال ابن السكيت : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فنسب إليه وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنصرة نشأ في حجره ، ونسب إليه دون أبيه (١) . أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها السواد ، وكان أحد أعربة العرب المشهورين في الجاهلية أسودهم ، وهم ثلاثة : هنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي ، والسليك ابن السليكة . وكان عنصرة يلقب بعنصرة الفوارس لشجاعته ، وعنصرة الفاحاء (٢) لشغفه شغفه السفلى . ويكنى بأبي المفلح لماراته في الفلح .

ولأن أمه أمة لم يلقه أبوه بنسبه - طى عادة العرب في ذلك - إلى أن أغار بعض أحياء العرب على بني عبس فأصابوا منهم ، فتبعهم المبسيون لمحقوم فقاتلهم عما معهم ، وعنصرة فيهم ، فقال له أبوه : كر يا عنصرة ، فقال عنصرة : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن العجلاب والعمر ، فقال : كر وأنت حر ، مكر وهو يقول :

أنا المبحين عنصرة كل امرئ يحمي حره
أسوده وأحمره والشمرات المشمره
الواردات مشفره

وفانل يومئذ قتالا حسنا ، واستنقذ ما كان بأيدي عدوم من الذبيمة ، فادعاه أبوه بمد ذلك ، والحق به سبه

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٠ ، وطبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٥٢ ،
والأغاني ج ٨ ص ٢٣٧ وما بعدها ، والخزانة ج ١ ص ٥٩
(٢) الفاحاء مؤنث الأفلح : المشقوق الشفة السفلى .

واجتمع إليه صفات شتى ؛ فكان أحرأ معاصريه فؤاداً ، وأقواماً تحملاً ، وأسخداماً
يداً ، وأسرعهم إلى مواجهة الأخطار إقداماً ، ولكنه مع ذلك كله كان حليماً ، دمث
الخلق ، لين الطبع ، سميح المخالقة ، عما عن الدنيا .

روى صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول عنزة :
ولقد أبيت على الطوى وأظله حق أنا به كريم المسأكل
فقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنزة » :
ويبدو أن موقف أبيه وعشيرته منه كان له أثر في إعداداته وتكوينه ، فلم ويسلم
نفسه إلى الحقد على عشيرته ، ولكنه انصرف إلى بناء نفسه وإعدادها الإعداد القوي
يلفت الأنظار إليه ، ويفرض على الجميع احترامه وتقديره ، فكان الفارس ، والشاعر ،
والنبيل (١) .

وروى عن عمرو بن معد يكرب - وكان معاصراً له - أنه قال : لو سرت بظعينة
وحدى على مياء معد كلها ما حقت أن أعاب عليها ما لم يلقى حراها أو عبيداها . فأما
الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما المبدان فأسود بن عيسى
(يعنى عنزة) والسليك بن السليكة ، وكلهم لاقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرير الطمن
على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت ، وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة
فقليل الكبوة ، شديد الجلب ، وأما السليك فبعمد القارة كالكليث الضارى .

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنزة : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا . قيل :
فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا
رأيت الإحجام عزماً ، ولا أدخل موضعاً إلا أرى لى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد
الضعيف الجبان فأضربه الضربة المائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله .
ولقد أصبح عنزة - بعد أن ألحقه أبوه بنسبه - فارس عبس ، وشهد كثيراً من
المعارك المشهورة مثل حرب داحس والغبراء التى أبلى فيها أحسن البلاء ، وفيها قتل
ضمضها المرى أبا حصين وهرم ، وفى ذلك يقول :

ولقد خشيت بأن أموت ولم ندر للعرب دائرة على ابنى صمضم

الشامى عرضى ولم أشتهمها والناذرين إذا لم ألقاهما دى (١)
إن يفعلا فلقد زكت أباهما جزر السباع وكل سر قشعم (٢)

وعزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت بنو عدس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنزة ، ولحقهم كبسكة من الحيل فخاض عنزة عن الناس فلم يصب مدبر . وكان قيس بن زهير سيدهم ، فسأه ما صنع عنزة يومئذ ، فقال حين رجع : والله ما سمى الناس إلا ابن الموداء .

وأحب علة ابنة عمه مالك بن قراد ، ونظم فيها شعراً من أوراق الغزل الجاهلى ، ولكن أباء عمه أنكروا عليه هذا ، وأبوا أن يستجيبوا لرغبته ، وأصر على أن ينالها وغامر من أجلها ، وبدل الكثير حتى ألحقه أبوه بنسبه ، ولكن دون حدوى .

وهكذا توفر لعنزة دافعين من أهم دوافع الشعر ، هما الفروسية التى كان يمتيرها سبب تحريره وإلحاقه بنسب أبيه ، والحب العفيف لابنة عمه التى أبى أهلها عليه الزواج منها ، فارداد بها ملقاً وهياماً ، وأخذ يثبها لواعج شوقه ، وآلام نفسه .

ومارال الفارس المرموق فى ميدان الحرب وفى ميدان الحب حتى مات عن تسمين عاماً تقرباً ، وانتقلت أخباره ، فتزيد فيها الرواة ، وأضيف إليه من المواقف الحربية ما ليس له ، ونسب إليه من الشعر ما لم يقله ، حتى أشكبه الصحيح بالموضوع

وقد اختلف الرواة فى سبب وفاته ، فقيل : إنه قتل وهو شيخ كبير فى غارة له على بنى نهبان من على ، وقيل : إنه كان قد أسن وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له على رجل من غطفان بعير ، فخرج يتقاضاه إياه ، مهاجت عليه ربيع من سيف وهو بين شرج وباطرة ، فأصابته وقتلته .

شعره :

لقد كان لشاة عنزة وظروف يئته أثر بالغ فى ارتباطه بالفروسية العربية على اختلاف مظاهرها وكان للفروسية أثرها فى البناء الجسمى والنفسى والخلقى لعنزة ،

(١) يريد أنهما يتوعدانه بالقتل فى عيبته ، فإذا حضر لم يحرقا على الكلام .
(٢) جزر السباع : هرسنها . القشعم : السر للسن ، يقول : إن يتوعدانى أو يشتمانى فى غيبتي ، فلقد قتلت أباهما فليرباني ماذا هما فاعلان .

فقد أنامت نفسه على التسامح والترفع عن الدنيا ، والشعور بالمسؤولية الفردية والجماعية
فارتبطت في حياته بطائفة من الأخلاق الحميدة ، والحصال الطيبة ، ظلت له مصاحبة وظل
هو لها ملازماً فانبعث منها سلوكه ، وانظم فيها شعره ، فإذا هو عقد حياته الشجاعة
والكرم ، والوفاء ، والعلم ، والألفة ، والعزة ، والصر على الشدائد ، وتحمل المشاق
والحفاظ على العهد ، وحماية الجار ، والعفة . . إلى غير ذلك .

وهكذا تحولت المروسية عند عنزة من مدلولها المحدود إلى معناها الشامل لكل
ما فيه تفوق وتميز من حميد الحصال .

ومن ثم أصبحت المروسية بهذا المعنى الإطار الشعري لعنزة ، يدور بداحله ولا
يشد عنه ، تصفح ما وصلنا من شعره فتجده واصفاً للمرءة ، أو مفتخراً بانتصار ، أو
مصوراً حبه الطاهر العفيف . مثال ذلك ما عاله مفتخراً ، بجيب قيس بن رهير يدعس
حين أراد محقيره بسواده على ما تقدم ذكره ؛ إذ يحكى أن صاحبه بادرته نخوة بما يمرض
له نفسه من السكره بسبب تماثله على الحروب ، ولكنه يكر عليها ذلك مفنداً حاجتها
موضحاً أن السكره ليست وقفاً على من يشارك في الحرب ، وأن الموت كأس لا بد من
تجرعه موتاً أو قتلاً ، طالباً إليها أن تستحي بما تحاوله معه ، وأن يفضل الموت ماصلاً
شريعاً مدافعاً عن حماه . وحى عشيرته ، مزللاً ، ينمى عليهم الدمار والفناء ، بحيث
لو أمكن إبراز الموت في صورة مادية جسدية لكان على صورة عنزة . وعهد بذلك
للآخر شجاعته وفروسيته ، مشيراً إلى كرم أصله الأبوي ، لكنه لا يقف عند الموروث
بل هو ينطى بماله ما قد يباب من أصل أمه غير العربية فهو المقدام حين تحجم السكتية
حق أصبح أفضل من عمه وخاله عربي سيد ؛ إذ لا ينفي القبيلة أحد غناه ، ولا يقوم
أحد لها بمثل ما يقوم به ، ويكفي أن تسأل الخيل والوارس عما أوقعه بالاهداء فهو
لا يكون في أول المزمين ، بل إنه حامين وممذهم في وقت الشدة ، ويقترحم الصفوف
والخيل صامره متميرة من هول الحرب قد كلح فوارسها لشدة الحرب وأهوالها .
وقد مر عليه الليلة واليوم دون أن يطعم ما يسد حاجته حتى يطعم مالا يعاب به . فهو
كريم النفس ، نبيل الخلق .

بكرت مخوفى المحتوف كأننى أصبحت عن عرض المحتوف بمزل^(١)

(١) المحتوف : المهالك ، عن عرض : أى ما يمرض منها .

وأجبتهم إن المنية منهل فاقني حياءك - لا أبالك - واعلم
 إن المنية لو تمثل مثلث إلى امرؤ من حير عبس منصبا
 وإذا الكتبية أحجمت وتلاحظت والحيل تعلم والفرارسي أنى
 إذا لا أبادر في الضيق فوارسى إن ياحقرا أكرر، وإن يستلحموا
 حين النزول يسكون غاية مثلثا والخيل ساهمة الوجوه كأنما
 ولقد أبيت على الطوى وأظله لا بد أن أسقى بكأس المهل (١)
 إلى امرؤ سأموت إن لم أقتل (٢) مثلث إذا نزلوا بضنك المنزل (٣)
 شطري، واحمى سائرى بالانصل (٤) الفيت خيرا من معم مخول (٥)
 فرقت جمعهم بضربة فيصل (٦) أولا أو كل بالرعي - الأول (٧)
 أشدد وإن يلقوا بضنك أنزل (٨) وينسر كل مضلل مستوهل (٩)
 تسقى فوارسها فقيع الحظل (١٠) حتى أنال به كريم المأكل

أما غزله فهو فيه العفيف الذى يقدم المروءة ويقدم البروسية على إشباع عريضة،
 أو تلبية رغبة، ونظرة إلى ما قدمناه من شعره في فن الغزل توضح ذلك؛ فهو غزله
 الفارس المرمى الذى يتسامى في حبه كما يتسامى في خلقه. وله في ذلك الميدان شعر
 كثير، حتى لقد ربط بين حبه ومعاركه، فكان يقدم لقصائده الحربية بمحديت يبت فيه
 شكواه ولو أعجبه؛ فذكره لها لا ينقطع، ولا يشغله عنها شاغل في حرب أو سلم، بل
 إن تذكرها في معاركه لتجمله الأسد الضارى المستهين بالاهول.

-
- (١) المهل : المورد
 (٢) الضنك : الضيق . يقول : إن المنية لو حلقت مثالا لسكانت في مثل صورتي .
 (٣) النصب بكسر الصاد : الأصل . والمهل بهم وسكون فضم : السيف
 (٤) الكتبية : الجماعات إذا اجتمعت ولم تتأثر تلاحظت : نظرت من قد . على المدو .
 (٥) فيصل : الذى يفصل بين الناس .
 (٦) لا أبادر في الضيق فوارسى : لا أكون أول منهرم ولكنى أكون حاميتهم .
 الرعي : اللطامة من كل شيء
 (٧) يستلحموا بضم الياء وفتح الحاء : يدركوا .
 (٨) المستوهل بكسر الميم : الضعيف الفزع . (٩) ساهمة : ضامرة متعيرة .
 (١٠)

ومن ثم نجد عترة في شعره الموحه لآية عمه عبلة حريصا على الفخر بقيمه وأخلاقه ومثله العليا التي يدين بها؛ ففي ميميته يفخر بانصافه بكل خلق كريم ، فهو - إلى شجاعته ورسالته وجراته في الدفاع عن قومه - سمح الأخلاق وسهل المحالطة والمعاشرة ، لا يقبل أن يظلم أحدا كما لا يقبل أن يظلمه أحد ، فإذا اعتدى عليه أحد وناله بظلم أصبح نارا مؤحجة تحرق من اعتدى عليه ، وإذا اكتشفه السلام فهو في سلوكه على وعي دائم بما يحفظ عليه كيانه فقد يشرب الحمر ولكن بالقدر الذي لا يفسد مروءته ولا يصيب عرضه بأذى ، ومع هذا فهو لا يقصر عن العطاء ، ولا يتردد في مساعدة المحتاج ؛ فهو يجود بما يملك عن طيب نفس ، وذلك قوله :

أنى على بما علمت بإنفى سمح مخالفتى إذا لم أظلم
وإذا ظلمت فإن ظلمى بأسل مر مذاتته كطعم الملقم^(١)
وإذا شربت بإنفى مستهلك مالى ، وعرضى وادى لم يكلم^(٢)
وإذا صحت لما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتسكرومى

ويواصل الحديث إليهما عن مفاخره ؛ من مروءية ، وشجاعة ، وإقدام ورسالة ، ويصف لهما كيف يواجه الأعداء الشداد في المعركة كأزه القضاء النازل . ثم يعود إلى الحديث عن سجاياها الخلقية ، من عمه وكرم وشرف ، فهو لا يقصد بحروبه كسبا ماديا يجرى وراءه :

يحرك من شهد الوقائع أنفى أعشى الوعى وأعب عبد المنعم

ولا يترك فرصة تمر به دون أن يستعرض طرفا من قيمه البدوية التي تمرر مكانته بين قومه ، من ذلك موقفه بإزاء النساء - عموما سبيات وغير سبيات - ومحافظته على حرمانهن ، ولا يمس واحدة - مهما كانت - إلا إذا قدم صداقها لأهلها إذا لم تكن زوجة لغيره ، كما أنه قوى المزينة يتحكم في عواطفه ومشاعره :

ما اسمت أنفى نفسها في موطن حتى أوفى مهرها مولاها^(٣)

(١) بأسل : كريبه .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها ، والمواطن هنا : موطن القتال .

أغشى فتاة الحى عند خليلها وإذا غزا فى الحرب لأعشاها (١)
وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حق يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ سمع الحلقة ماجد لا أتبع - النفسى القجوج هواها

فشمر عشرة موسوعة لأخلاقيات البدو وقيمهم التى يمترون بها ، ويحرصون عليها فى كل تصرفاتهم ؛ لأنه حرص على أن يتجه إلى عبلة فى كل مناسبة مفتخرا بما تعرف عنه من أخلاقيات البادية ، فكلمة التقيا بشعره التقينا ببعض المعانى النبيلة التى يقوم عليها سلوكه وتفكيره ، بحيث يستطيع الدارس أن يرسم له صورة واضحة المعالم ، دقيقة التعبير ، تكشف عن حوارج نفسه ، وطوايا فكره ، ومكارم خلقه ، ولعل من أطرف ما نعرف عليه من أخلاقيات عنزة الفارس المقاتل ومشاعره أنه ينطوى على مشاعر الرحمة والحنان حتى على خصمه ، فهو - فى نظره - الكريم ذو القدر والمسكنة الذى يتخرج عنزة ويألم حين طمعه الرمح ، يذكر أن ماضيه به ليس محرما وإن يكن كريما :

وشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكرم على القنا بمحرم (٢)

كما يألم لفرسه الذى أجهد فى المركة وأصابه رماح الاعداء فكان يميل من طريقهما :

هازور من وقع القنا بلبائه وشكا إلى بكرة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى لو كان لو علم الكلام مكلمى

وبذلك يمكن أن يرى الدارس شعر عنزة ذا وجهين : أحدها غنائى وجدانى يصور فيه أحاسيس ومشاعره ويحسم معاناته وآلامه لبعد عبلة عنه وحرمانه منها ، كما يحسم فرحته وسعادته حين تقع عليها عيابه . والوجه الثانى قصصى ملحمى ، يصور فيه وقائمه ومفاحره وبطولاته ، بيد أن أحد الوجهين لا يكاد يفصل عن الوجه الآخر ، فهما وجهان ممتزجان ، لا يقوم أحدهما بدون الآخر .

من ثم يتضح لنا مدى تأثير بيئته فيه وفى شعره ، واتجاهها به متجها يختلف تماما عما كان عليه الشعراء الجاهليون فى البيئات الأخرى

(١) أعشى : أرور

(٢) يكى بالثياب عن الجسد والبدن .

(٣) ازور : مال وانحرف ، واللبان - بفتح اللام - الصدر ، والتحمحم : بههيل فيه شبه الأنين .

٢ الحارث بن حلزة

نشأته وحياته :

هو أبو ظليم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يشكر البكري ، لا نجد في أيدينا من مرويات التاريخ ما يكشف عنه سوى الحادثة التي حوت وقائمه في حضرة حمرو بن هند ملك الحيرة . وذلك أن عمرو بن هند أراد التوسط للإصلاح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس حين أهم التغلبيون بنى بكر بأهم تسبيوا في قتل بعض أبائهم وغضبوا لذلك وطلبوا الديات من بكر ، لحرقهم ماتمهدوا عليه على عهد للنذر . والد عمرو بن هند . ولكن البكريين أبوا الاستجابة لمطالب التغلبين واحتكموا إلى عمرو بن هند . ولما كان يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم ، وانتدبت بكر للدفاع عنها أحد أشرفها النعمان بن هرم . وكان عمرو بن هند يميل إلى التغلبين ، فجرى بينه وبين النعمان جدال غضب له عمرو بن هند وبأمره من حضرته . ولما أنشد عمرو بن كلثوم التعلية قصيدته المطولة ، تقدم الحارث بن حلزة وأنشد مطولته كذلك فكان لها في نفس الملك وقع حسن جملة يجيب بها ، ويدين الحارث منه ، ويقصى للبكريين .

شعره :

لم يصل إلينا من شعر الحارث غير القليل ، وفي مقدمة هذا القليل مطولته التي أنشدها في مجلس التقاضي أمام عمرو بن هند . ويبالغ بعض الرواة فيذكرون أنه ارتجلها ارتجالا ، كما يزعمون أن عمرو بن كلثوم ارتجل قصيدته ، ولكن الناظر في اتصالات الحارث يتقرر لديه أن ارتجلها غير ممكن عقلا ؛ لما فيها من إعمال وروية يبدو أن في ترتيب أمسكارها ترتيبا منسقا ، والبراعة في التعريض بالخصوم بطريقة تم هن دهاء وحسكة ، وسرد للحوادث التاريخية سردا يحمل من الدلالات ما يجعلنا نشطح بأن قائلها أعدها وأتم أدواتها .

وإذا رددنا نظرنا في هذه القصيدة تبين لنا أننا أمام شاعر على قدر كبير من

للشجاعة النفسية ، والدهاء السياسي ، وحدة العقل ، وقوة العارضة ، ورباطة الجأش . . فقد واجه بقصيدته تلك ميل الملك إلى التخليين القدي قواه ماحدث من النعمان بحضرته .

هذا إلى أن في اشتمزاز الملك من رؤية العارث ، وقيامه ملشدا من حاف ستور ما يكتفى لأن يفقده توازنه ولكن العارث الفارس نألك نفسه وتماسك حتى تمكن من أن يستحوذ على الملك ويستل من نفسه الغضب على البكريين ، ويستميله إليهم .

والشاعر في معلقته يتبدى - على ماعليه شعراء الجاهلية - بالفزول وذكر الفراق ولكيه لا يطيل فيه ، ثم ينتقل إلى ناقتة التي يستعين بها فيذكر من أوصافها - في إيجاز - مايمهد به إلى غايته التي يقصدها .

فيصور أثر الدعوى التي افترأها التخلييون عليهم إذ زعموا أن البكريين تقضوا عهد ، ويوضح أن هذا الزعم أصابهم بالساء وأساء إليهم ، ثم يذكر أن إحوالهم التخليين بهذا الزعم يظلمونهم ويبالغون في ظلمهم ، هم مازالوا يطوون نفوسهم على هدأوتهم . ولا يكتفى بذلك التعميم ، ولكنه يمرض لأوهامهم التي يؤسسون عليها دعواهم ، هم لا يفرقون بين برى ومذنب ، ويخلطون هذا بذاك ، يزعمون أن كل من أساء إليهم تابع لنا فيحملونا نيمة ماقدم ، ومن ذلك المنطلق في تصورهم قرروا نقض عهدنا ، وأخذوا في الإعداد للاقتنا فأصبحوا مستعدين لحربنا ، متأهين لقنالنا ، يحتل الجوبما يصدر عن المقاتلين وحيولهم من أصوات وضوء .

وفي هذا القسم يبدأ الشاعر باستعراض ما ادعته قلب على بكر واستمدادها ، للحرب وذلك قوله :

وأنا من الحوادث والأنا — بام خطب نمنى به ونساء^(١)
أن إخواننا الأرقام ينالون ن علينا ، في قيلهم إحقاء^(٢)
يخلطون البرى منا بذى القذ ب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) نمنى به ونساء : يصيبنا بسببه عناء وسوء .

(٢) الأرقام : بطون من قلب ، ينالون . يجاوزون الحد ، الإحقاء : شدة الإلحاق والاستقصاء .

زعموا أن كل من ضرب العيب ر - موال لنا ، وأنا الولاء
أحموا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ، ومن عجيب ، ومن تصهال حيل حلال ذلك رغاء

ثم ينتقل من تسفيه شكوى التغليبين إلى تهديدهم ملقيا بذلك تبعه الحرب
وويلاتها عليهم .

فيقول : أيها الناطق عند الملك الذي يرب القول ، ويفترى علينا الكذب لا تحسبنا
جازعين لإغرائك الملك بنا ، فإن ذلك لن يقدح في أمرنا كما لم يقدح إغراء غيرك فيه ،
فبقينا - على بنضك لنا - في عزة ثابتة وحصون منيعة تحمينا من أذاكم ومكركم ، ولقد
أعمت عزتنا قبل يومنا الذي نحن فيه عيون أعدائنا ، فنحن في منعة تجعل الدهر إذا
رمانا بأحداثه لا يؤثر فينا ولا ينال منا كأنما يرى جبلا عاليا بعيد المنال . فلتكونوا
واضحى المقاصد ، واكشفوا عن مرادكم ، وأى طريقة تجرون عليها في خصومتنا
فوضوا فيها سادنكم وسفراءكم وليأتوا إلينا لتبأحث فيها ، فإن أردتم أن تثيروا ما كان
بيننا وبينكم من القتل والأسر في المارك التي كانت بين أهل ملحة وأهل الصاف
ظهر لكم ماتكروهن ، وإن دققتم في البحث والاستقصاء في تلك الأحداث ، فإن ذلك
مع مافيه من المشقة والكلفة يفضي بنا إلى صلاح أمورنا ، إن سكتكم عن ذلك فإننا
فصكت كذلك وتناسى ما كان على مافيه من مرارة لأن الحق في جانبنا ، أما إن رفضتم
مالسألون فيه من الصالح والقراضى ظنا مسكم أن بمقدوركم إهانتنا فأنتم مخطئون فقد
علمتم معالنا وحفظنا لأنفسنا أيام كان الناس ينهب بعضهم بمضا وينير بعضهم على بعض
وفي كل حى صياح ، ولتدكروا مافلدا حين طويبا ما بين البحرين والحساء إشارة على
القبائل وأسرا النساء واتهايا لأموالهم ، فلم ينبج أحد منا ولم يوقفنا عن ذلك إلا
دخلونا في الأشهر الحرم :

أيها الناطق الرقش عنا عند عمرو ، وهى لداك بقاء (١)
لا تملنا على غرائك إنا قبل مافد وشى بنا الأعداء (٢)

(١) الرقش بكسر القاف المشددة : الزين القول بالباطل .

(٢) الغرات بفتح الغين والراء : اسم مصدر من الإغراء .

فبقينا على الشنأة تنميه نلحسون وعزة قساة (١)
 قبل ما اليوم بيضت بعيون ال ناس فيها تعيط وإباء (٢)
 وكان للنون تردى بنا أر عن جونا يجاب عنه القباء (٣)
 مكفهرًا على الحوادث لآر توه للدهر مؤيد صباء (٤)
 أيما خطلة أردتم فادو ها إلينا تمشى بها الأملاء (٥)
 إن نبشتم ما بين ملححة فالصا قبيه الأموات والأحياء (٦)
 أو نقشتم بالنقش يحشمه النا س، وفيه الصلاح والإبراء (٧)
 أو سكتم عنا: فكنا كمن أع مض عينا في جفنها أقداء
 أو منعتهم ما تسألون فن حد تموه له علينا الصلاء (٨)
 هل علمتم أيام ينتهب النا س غواراء، لكل حى عواء (٩)
 إذا رفعتنا من سقف البع رين سيرا حتى نهاها الحساء (٩)
 ثم ملنا على تميم فأحرم نا وفينا بنات مر إماء (١٠)

- (١) الشنأة: البنض، تنمينا: ترفنا، القساة: الثابتة .
 (٢) ما: زائدة، بيضت بعيون الناس: بيضتها أى أعنتها، والتعيط: بفتح العين
 وضيم الياء المشددة - الترمع والإباء .
 (٣) للنون: الدهر، تردى - بكسر الهمزة - ترمى، والأرعن: الجبل الذى له حدود
 وأطراف تخرج عن معظمه، والجون الأسود، يجاب عنه: ينشق عنه، السماء: السحاب الأبيض .
 (٤) المكفهر: الغليظ المتركب بعضه على بعض، لا ترفوه: لا تنفضه، والمؤيد بضم
 فسكون فكسر: الشديد الأيد أى القوة، ويؤى به الداهية .
 (٥) الخطلة: الأمر يقع بين القوم، الأملاء جمع ملأ: الأشراف والرؤساء .
 (٦) ملححة بكسر الميم: مكان، الماقب: جبل، إن نبشتم: إن أنزتم ما كان بيننا .
 (٧) نقشتم: استقصيتم، يحشمه بفتح الشين: يتكلفه على مشقة .
 (٨) غوار بكسر اللين: مغاورة بعض على بعض .
 (٩) رفعتنا أجال في السير: سرتنا سيراً رفيماً، والحساء جمع حصى: الرمل يكون
 الماء تحته قريباً، ويريد به مياه لبني فزارة .
 (١٠) أحرمتنا: دخلنا في الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم، مر: أبو تميم .

لا يقيم العزيز بانبيـه السم ل ، ولا ينفع القليل النجاء (١)
ليس يتجى موائل من حذار رأس طود وحره رجلاء (٢)

ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن المنذر بين ماء السماء وتماونهم معه ، منتقلا إلى استعراض مواقف التغليبين التي تحسب عليهم ، مذكرا بين الحين والحين بما كان لهم من مواقف في مؤازرة المنذر وعمرو بن هند ، موضحا بذلك صورة للتغليبين والبكرين التي تكشف عن غدر التغليبين وسوء مقصدهم وعداوتهم للملك ، في حين تكشف عن وفاء البكرين وحسن نواياهم وإخلاصهم للملك . وبذلك بلغ إلى ما يريد من نفس عمرو بن هند ، وتمكن من تحويله من جانب التغليبين إلى جانب قومه ، فكان المحامي البارع الذي عرف من أين تؤكل الكتف ، وسار في قصيدته بخطوات ثابتة على طريق واضح ، معتمداً على الحقائق والأحداث الواقعية في إقامة حججه وتقنيده آراء خصومه وتعداد مفاخره ومفاخر قومه ، والوصول إلى قلب وعقل عمرو بن هند .



نعم كانت خلائق الفروسية البدوية هي التي واجه بها الحارث بن حنظلة الموقف هنا فحق النصر وعاد مرفوع الرأس معززا مكروما . بيد أن مظاهر الفروسية لم تقتصر لديه على ذلك ؛ إذ نراه في موطن آخر فارس الصيد والحرب والجود ، وذلك في قوله :

طرق الخيال ولا كيلة مدج سدا بأرحلنا ولم يتعرج (٣)
أني اهتديت وكنت غير رجيلة والقوم قد قطعوا متان السجج (٤)

(١) النجاء : الإسراع والفرار .

(٢) الموائل : الذي يطلب موئلا يهرب إليه ، الحرة : كل موضع فيه حجارة سوداء ، والرجلاء : الصلبة الشديدة .

(٣) أدج القوم : ساروا ليلا ، سدا بفتح فسكسر : ملازما ، لم يتعرج : لم يعل .

(٤) الرجيلة : للقوية على المشي ، متان بكسر الميم : ظهر ، السجج : الأرض الواسعة ليست بسهولة ولا صلابة .

والقوم قد آثروا وكل مطبم	إلا مواشكة البجا بالهودج ^(١)
ومدامة قرعتها بمدامة	وطباء بحنية ذعرت بسمهج ^(٢)
فكأنهم لن لآلى وكأنه	صقر يلوذ حمامه بالموسج ^(٣)
صقر يصيد بظفره وجناحه	فإذا أصاب حمامة لم تدرج
ولئن سألت إذا الكتبية أجحمت	وتبينت رعة الجيمان الأهوج ^(٤)
وحسبت وقع سيفنا براء وسهم	وقع السحاب على الأطراف المشرح ^(٥)
وإذا اللقاح تروحت بعشية	رتك النعام إلى كنيف المرفج ^(٦)
الفيتنا للضيف خير عمارة	إن لم يكن لبن فمطف المدمج ^(٧)

والبيئة البدوية لا تظهر آثارها في أخلاقيات الحارث فحسب، بل هي إلى ذلك تظهر في صوره التي جمع فيها بين الصور الابتكارية من حيث العرض المستقصى للحدث ، وتقديم الموقف متحركا حيا ، كما رأينا ، في معلقته يمرض الأحداث والمواقف التي نشأت بين قومه وخصومهم - وبين الصور التفسيرية التي اعتمد فيها على التشبيه والاستمارة المنتزعة من البيئة البدوية ، ونظهر في ألفاظه الجزلة للقوية التي تتردد بين الحشونة والسهولة ، وفقا لما يتطلبه الموقف ، ولعل ذلك يتضح من ألفاظه في المعلقة وألفاظه في

(١) آن القوم يشينوا : تعبوا ، والمطى جمع مطبه : ما يركب من الدواب ، مواشكة مسرعة السير ، والنجا بفتح النون : الإسراع .
(٢) قرعتها : ثنيت كأسها بأخرى ، الحنية : منمطف الوادى ، السمهج : المفرس الطويل .

(٣) الموسج : شجر شائك .

(٤) أجحمت : أقدم على الحرب ، الرعة : الخوف ، الأهوج : الأحق الطائش .

(٥) الأطراف بكسر الطاء : بيت من آدم وهو من بيوت الأعراب . شرج الحباء أو الثوب وأشرجه : أدخل بعض عراها في بعض وشدها .

(٦) اللقاح جمع لقعة : الناقة الحلوب ، رتك النعام بفتح الراء وسكون التاء : خطو النعام ، وهو خطو متقارب ، الكنيف : السار ، والمرفج : شجر .

(٧) المارة بكسر الميم : لشعبة من القبيلة ، المدمج بضم فسكون ففتح : القدح بكسر القاف وسكون الدال ، يعنى إذا لم يكن لبن فيل إلى القدح تجمال على الجزور لتنحدر للضيف .

جيمته التي يمتد فيها ، كما تظهر في إيجازه الذي كان من أبرز خواص شعره ، ويكفي أن نردد النظر في شعره لنتأكد من ذلك ؛ إذ قلما نجد بيتا لا يحتاج إلى شرح مستفيض حتى إن علماء البيان يستشهدون بأحد أبياته على الإيجاز الخلل ، وهو قوله :

والعيش خير في ظلال النوك ممن عاش كدا^(١)

يريد أن يقول : « والعيش الناعم في ظلال النوك خير من العيش الشاق في ظلال النوك » ، ووضح أن ألفاظ البيت لا تنفي بالمعنى المراد .

(١) النوك بفتح فسكون : الحلق ، السكد : التعب .

٣ زهير بن أبي سلمي

نشأته وحياته :

هو زهير بن أبي سلمي ربيعة بن رياح المزني نسباً ، الفظفاني مولداً وموطناً ، فأبوه ربيعة من قبيلة مزينة ، وروى أن ربيعة هذا خرج وخاله في ناس من بني مرة بن عوف يغيرون على طيء ، فأصابوا نمراً كثيرة وأموالاً ، فرجعوا حتى انتهوا إلى أرضهم ، فقال أبو سلمي لخاله وابنه : أفردا لي سهمي ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، ففاضبهم وخرج بأمه إلى بني مزينة ، فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل في جماعة من مزينة مغيرة على بني ذبيان ، ولكنهم ما كادوا يتوسطون ديارهم حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل في بني عبد الله بن غطفان ، ومن ثم ولد له زهير وأولاده في بني غطفان (١) . ولعل في هذا تفسيراً لاضطراب الروايات في نسب زهير .

وكانت مزينة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية ، بين وادي القرى الواقع غربي نجد وبين نهضة الحجاز ، أي في الشمال الغربي من المدينة ، على مقربة من البحر الأحمر ، شرقي مدينة يلبع

أما غطفان فكانت في الجزء الشمالي من نجد في مكان يسمى العاجر (٢) .

ولا نستطيع أن نجزم بشيء عن مولد زهير وحياته الأولى ، وكل ما نستطيعه أن نتعرف على ميلاده على سبيل التقريب من بيت له في مملته يقول فيه :

سميت تكاليف الحياة ومن يمش ثمانين حسولا - لا أبالك - يسأم

فذلك يدل على أنه حين قال مملته تلك كان في نحو الثمانين من عمره ، فإذا لاحظنا أنه قالها في مدح من سميا في الصلح بين عيس وذبيان ، في أواخر حرب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة دار الكتب .

(٢) راجع كتاب الأصنام لابن السكبي .

داحس والنبراء التي يرجح أنها انتهت بين سنتي ٦٠٨ ، ٦١٠ م . كان باستطاعتنا أن نقدر ميلاد زهير في سنة ٥٣٠ م . وهذا يعني أنه نشأ في أخريات العصر الجاهلي .

وقد أقام زهير في بني مرة سيدا مكرما مسموعا الكلمة ، وكان كثير المال ، ومع ذلك فلم يؤثر عنه شيء يماز به في خلقه ومسلكه ، فلم يعرف عنه أنه قامر ، أو شرب خرا ، أو صاحب طائشا فارغا ، بل كان عيوفا عن كل ما يلتصق خلقه ، أو يماز به إلى حد المبالغة في الجد والتوقر .

ونبحث عن السر في ذلك ، ونقلب صفحات حياته ، فلا يستوقفنا منها في هذا الصدد إلا تتلذه على أوس بن حجر زوج أمه ، الذي يقول عنه الرواة بأنه كان كثير الوصف لمكارم الأخلاق^(١) . وإلا نشأته في ظل خاله بشامة بن الغدير الذي كان مقعدا ناضج الرأي ، حازما . يرجع إليه في المضلات ، ويؤخذ برأيه في الشدائد ، من هذين منح زهير خلقه المحمود ، فلم يؤثر فيه تراؤه ، ولم يخدمه عن واقعه مكانه من أهله وعشيرته .

ويبدو أنه إلى ذلك عاش مستقرا هادئا ، فلم ينفص عليه حياته منقص ، ولم يخرج منه عن أخلاقياته مؤثر ، وكما اختلف في تاريخ ميلاده ، اختلف في تاريخ وفاته ، فقد تضاربت الروايات في ذلك ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وله مائة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فلما لك بيتا حق مات^(٢) . وهذا يعني أنه أدرك سنة ٦٣٠ م الموافقة للسنة التاسعة للهجرة ، وذكر ابن قتيبة أنه كان جاهليا لم يدرك الإسلام^(٣) . وذكر البغدادي أنه مات قبل البعث بسنة ، والمرجح أنه لم يدرك الإسلام .

شعره :

أتبع زهير في ميدان الشعر ما لم يتبع لغيره ، بما كان له أبعد الأثر في طبعه على الشعر وصقله فنيا ؛ فقد أحيط في بيته بأسرة شاعرة حركت فيه نوازع الشعر ، وعملت

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٩١ . (٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٤١ .

على غرس موهبة الشعر فيه منذ طفولته، فقد كان أبوه شاعرا، وخاله بشامة بن الغدير النطفاي شاعرا، وكان أخته سلمى والحنساء شاعرتين . وكما أتبع له أن ينشأ تلك للنشأ الفنية أتبع له أن يصل تلك الموهبة ويهذبها ، فقد تزوجت أمه من أوس بن حجير ، فكان زهير أستاذا موجهها ، وكان زهير له تلميذا وراويه ، فلم يكن مجرد راويه ، ل كان التلميذ الناقد المتأثر المحتذى .

ولم يقف أمره عند ذلك الحد ، فقد أتجه إبنائه كعب ويحجر إلى الشعر ، وانتقل منهما إلى حفيده عقبة بن كعب المعروف بالضرب ، الذى أخذ عنه ابنه العوام ، فتحقق بذلك زهير اتصال الشعر فى بيته على مدى خمسة أجيال متوالية ، قال ابن قتيلة : يقال إنه لم يصل الشعر فى ولد أحد من النعمول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير (١) .

ومضى هذا أننا مع شاعر عاش للشعر ، بدأ حياته معه تلميذا ، وختما أستاذا سمعا ؛ كان من أبرز تلاميذها - غير ابنه - الخطيئة .



وطى الرغم من أن زهيراً نشأ وعاش فى بيئة بدوية إلا أن تراءه وفر له بيئة صرفة منعمة جمعت منه الإنسان المطمئن الهادئ الوادع المتوقر ، فلم يفلت من يده زمام لسانه ليقول ما يصح وما لا يصح ، أو ليقول ما قد قال ، ولكنه كان المتروى فيما يقول ، ينظر فيه ويسيد النظر ، ويرجع إليه بالتنقيح والتهذيب حتى لكأنه يتعبد فى محرابه ، الأمر الذى جعل النقاد يطلقون عليه وطى أمثاله لقب (عبيد الشعر) ، يقصدون بذلك البطء فى قول الشعر ، ومما ردة حقه ، وإطالة التفتيش فيه ، قبل أن يظهره للناس ويذمه فهم ؛ ولذلك قال القدماء عنه : إنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين فكأنه كسى حوليات زهير ؛ لأنه كان يحوى القصيدة فى سنة (٢) . ونسب الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فقال : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده بالحوليات ، ولذلك قال الخطيئة : خير الشعر الحولى المحكك ، وقال الأصمى :

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٣٢٤ طبع دار الكتب المصرية .

زهير بن أبي سلمة والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جـود في شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة » (١) .

وهذا المسالك من زهير في شعره يعني أنه إنسان يشعر بمسئوليته عما ينبغي إليه . فهو يقدر المسئولية قدرها ، ويعمل كل ما وسعه العمل لينخرج عمله صحيحا مستقيما .

* * *

ولم يكن منهج زهير في شعره هو كل ما أُرثه بيئته الخاصة فيه ، فقد ، وضع أثر بيئته كذلك في فنونه الشعرية ، فلم يقل إلا في الأغراض التي تتلاءم مع ذوقه الخاص ، فسكاد يقصرها على المديح والوصف والحكمة .

وهو في مديحه يختلف عن غيره ، فهو لا يمدح إلا على مسلك محمود ، أو خلق كريم ، أو موقف فيه بطولة ؛ ولذا لم يخرج بمدائحه عن موطنه العربي ، فلم يتصل بملوك العراق أو الشام ، ولم يمدح إلا من وجه خيره إلى صالح قبيلته ، ولذلك كانت أكثر مدائحه وأفضلها في هرم بن سنان ، لأنه كان يحبه ويحمله ، وكان هرم يبره ويجزل له العطاء . وكذلك كان شأنه في مدح الحارث بن عوف حين آزر هرمًا وسميًا في الصلح بين عيسى وذيان ، وإنهاء الحرب التي طال مداها بينهما ، فأعلننا تحملا ديات القتلى من القبلتين حتى تضع الحرب أوزارها ، وتهدا النفوس النائرة ، وتصادف في أثناء ذلك أن قتل الحسين بن ضمضم عبيسًا ليثأر لأخيه هرم بن ضمضم الذي كان قد قتله ورد بن حابس العبسي ، فنارت عبس من جديد ، وشهرت سيوفها ، ولكن الحارث بن عوف أسرع إليهم وقدم مائة من الإبل مع ابنه ليختاروا إما الهدية وإما قتل ابنه ثأرا لقتيلهم ، فقبلوا الهدية ، وواصلوا إتمام الصلح ، حتى أخدمت النيران السمرة ، وعملك هذا الموقف على زهير حسه ، فينتلق أسانه بمقلته مشيدا بذلك المسلك النبيل ، لا هجاء بالثناء على السيدين لما قدما للقبيلة من فعال تذكر لهما ، مسترضيا للحرب وأخطارها ، كاشفا عما تنطوي عليه من كوارث لكلا الطرفين المتحاربين .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

سمى ساعيا غيظ بن مرة يمهدها تبرل ما بين المشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال نوه من قریش وجرم
يمينا لنعم السيدان . وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم (٢)
تدار كما عبسا وذبيان بعدما فانوا ودقوا بينهم عطر ملثم (٣)
وقد قلتما : إن فدرك السلم واسما عبال ومعروف من الأمر نسلم
فأصيحتما منها على خير موطن بيدين فهما من عقوق ومأثم (٤)
عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كرامن المجدي نظم (٥)
فأصبح يجرى بينهم من تلادكم منانم شتى من إفال المرسم (٦)
تمنى السكوم بالثين فأصبحت ينجدها من ليس فيها بمجرم (٧)
يجمها قوم لقوم نغرامة ولم يهريقوا بينهم ماء عجم

ثم يحض الأحلاف (أسد وغطمان وطىء) على الإخلاص في الصلح ، والتوفيق بين باطنهم وظاهرهم ، واصنأ الحرب وما تجره عليهم ما مبرزا إياها في صورة مرعجة مخيلة ، تبدو في صورة وحش مفترس ، وفي هيئة نار مشتعلة ، وفي صورة رحي تمر ك الاس ، ثم في سورة امرأة ولود ، واسكنها لا تلب إلا الشؤم الذين يجرون على القبيلة الحمار والبوار .

-
- (١) الساعيان الحارث بن عسوف ، وهرم بن سنان ، سعييا في الحلالة ، وغيظ ابن مرة : حى من غطمان ، وتبرل بالدم : تشقق .
(٢) السحيل : غير البروم .
(٣) ملثم : قيل هي امرأة عطارة من حزاعة غمس قوم أيديهم في عطرها وتماهدوا على القتال حق يموتوا ، نصار هؤلاء مثل أولئك في شدة الأمر .
(٤) خير موطن : خير منزلة ، والمهوق : قطعة الرحم .
(٥) عليا معد : رؤساؤها وأشرافها ، ويعظم بضم الياء وكسر الظاء : يجيء بأمر عظيم ، وروى ويعظم بفتح وضم : يصير عظيما .
(٦) الإفال جمع أفيل : الفصلان . والمزمن : المعلم .
(٧) تمنى : تمنى ، السكوم : الجراحات ، والثين : الإبل .

ثُمَّ مَبْلَغُ الْأَحْلَافِ عَلَى رَسُولِهِ وَذِيَانِ : هَلْ أَقْتَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمٍ
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَكْشِفْ
يُؤْخِرُ مَبِوضِعَ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَمْجَلُ فَيَنْقِمُ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ (١)
مَقَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَقْصُرُ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضْرِبُ (٢)
فَتَمْرِكُكُمْ عَرَكُ الرِّحَى بِثَقَالِهَا وَتَلْقَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَحْمِلُ فَتَنْثَمُ (٣)
فَتَنْتِجُ لَكُمْ عَلَافًا أَشَامًا ، كَلَكُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَنْقَطُمُ (٤)
وَتَنْتَلِ لَكُمْ مَا لَا تَنْتَلِ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالرَّاقِ مِنْ قَبِيرٍ وَدَرَاهِمُ (٥)

وَلَا يَقِفُ الشَّاعِرُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ مِنَ التَّصْوِيرِ الْمُنْمَرِّ مِنَ الْحَرْبِ ، الْكَاشِفِ عَنْ
قَصَلِ هَذَيْنِ السَّيِّدَيْنِ فِيهَا صَمًا ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَقِلُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ ذَلِكَ الشَّادِ الْخَارِجِ عَنْ
الْجَمَاعَةِ مَبِينًا مَا سَيَجْرُ إِلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ وَحْمِ الْعَاقِبَةِ

تَمَّ يَخْلُصُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الصَّرِيحِ عَنْ مَدْرَجِيهِ ثَانِيَةً ، مَظْهَرًا مَا لَمْ يَنْجُزْ
فَضْلَ عَلَى الْقَبِيلَتَيْنِ فِيهَا قَدَمُوا ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي الْأَمْرِ سَبَبٌ أَوْ نَسَبٌ ، فَهُمْ
مَتَطَوِّعُونَ مَتَبَرِّعُونَ .

وَفِي سَبِيلِهِ إِلَى التَّأثيرِ عَلَى سَامِعِهِ ، وَالْوَصُولِ بِمَا قَرَّرَ إِلَى أَعْمَاقِ أَنْفُسِهِمْ ، يَخْتَمُ
مَطْوَلُهُ بِالْكَاشِفِ عَنْ وَصُولِهِ إِلَى سِنِّ الْحِكْمَةِ ، وَالتَّجَرُّبَةِ ، دَانِرًا فِي أُنْثَاءِ ذَلِكَ طَائِفَةٍ
مِنْ حِكْمَةِ التَّحْقِيقِ حَلَاصَةَ آرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ وَتَجَارِبِهِ :

سَمِيتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَدِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - بِإِسَامِ

(١) الْمَرْجُمُ : الْمَطْوُونُ .

(٢) تَبْعَثُوهَا : تَهَيِّجُوهَا ، تَضْرِبُ : مِنْ ضَرَبَ الْأَسَدَ إِذَا تَهَيَّأَ لِلْفَرِيصَةِ ، تَضْرِبُ : تَشْتَعِلُ .

(٣) تَمْرِكُكُمْ : تَطْحَسِكُمْ ، الثَّقَالُ بِكَسْرِ الثَّاءِ : جِلْدٌ يَحْمِلُ تَحْتَ الرِّحَى حِينَ تَطْحَنُ

تَلْقَحُ كَشَافًا : تَحْمِلُ كُلَّ عَامٍ ، تَنْثَمُ : تَلِدُ تَوَامًا .

(٤) أَشَامٌ : مَشْتُومٌ . (٥) الْقَفِيرُ : مَكْيَالٌ عِرَاقِي .

رأيت المدايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تحطىء يصمر فيهم (١)
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله لكنني عن علم ما في غد عم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بنفس (٢)
ومن يك ذا فضل ويخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يحمل المروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (٣)
ومن لا يزد عن حوضه سلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينله ولو نال أسباب السماء يسلم
ومن يهص أطراف الزجاج فإنه يطيع الموالي ركبت كل لهدم (٤)
ومن يوف لا يذممهم ومن يفض قلبه إلى مطائن البر لا يتجمع (٥)
ومن يغترب بحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومها تأسكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم (٦)
ومن لا يزال يستحمل للناس نفسه ولم يغنها يوطأ من الناس يسأم (٧)

لقد كان زهير في مدائح السيد الشريف السري القدي لا يمدح إلا على شريف ؛
فهو في مدحه لا يناق ، وإنما هو يخدم مبدأ يؤمن به ، ويحرص على ذبوعه وانتشاره
أى أنه يمدح سلوكا مثالا فيمن يقوم به حاضا بذلك من يقوم بهذا المسلك على الاستمرار
عليه ، وحاشا غيره على التقليد فيه ؛ فهو صاحب رسالة أكثر منه تاجرا يتكسب بمناقته
من يستحق المدح ومن لا يستحقه .

(١) خبط عشواء : تأتى على غير بصيرة .

(٢) يضرس بتشديد الراء المفتوحة : يعض ، والمسم بفتح الليم وكسر الحين :
البحير مثل الظفر للانسان .

(٣) يفره مضارع وفر عرضه : حماه وصانه

(٤) الأرج بضم الراء : مالا يطمئن به من الرمح ، واللهزم : بفتح اللام والقاد ،
الماضى ، يقول : من عصى الأمر الصغير صار إلى الأمر الكبير .

(٥) البر : الصلاح ، والتجمع : التردد .

(٦) الحليقة : الطبيعة والسليقة .

(٧) يريد : من لا يزل يثقل على الناس ويستحملهم أموره استثقلوه وسثموه .

ومن ثم فهو في مديحه حريص على الاعتدال في ثنائه ، دقيق في التعبير عما في نفسه ، واضح في إبراز ما يرضيه وما يسخطه ، مقتصد في القول فلا يسرف ولا يخلو . وهذا ما لاحظته قديما عمر بن الخطاب فقال : هو أشعر الشعراء لأنه كان لا يماطل (١) في الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه (٢) .

وكذلك كان في وصفه الدقيق المتمكن من لئته ، البصير بأبعاد ما يصف الذى يقع من الصفات على ما يتطلبه الموقف ، فيقدمه في عبارات مصورة تجمع بين الخيال الابتكاري والخيال الوصفى أو الإضافى ، ونظرة إلى وصفه للحرب في مطولته الذى سبق ذكر أبيانه - اتريك الشاعر في هذا المنهج الوصفى ، كما تراه في وصف بعض مظاهر الطبيعة .

حيث يصف مطرا تساقط على بعض المرتفعات ، بينما هو مقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، شديد قوى لم يصبه مرض يحوجه إلى علاج البيطرى . وينقلنا في حركة قصصية إلى مشهد الصيد، فيصور كيف جاء الغلام الذى كلف باستطلاع الحيوانات متخفيا مستترا لينقذ بالصيد الذى رآه ، ومن ذلك يأخذ في وصف الصيد الذى رآه الغلام غير بعيد : ثلاث آتن وحشية ، ضامرة كأقواس السراء ، ومعها حمارها الذى أقبل على الطعام من الثبات حتى اخضرت مشامره . ثم ينتقل من ذلك إلى وصف رفاقه معه قبل مواجهة الصيد في دقة دقيقة لا تنفصل هاجسة من هواجسهم في هذا الموقف المتأهب المتحفز المتخفى ، فهم منذ أجبرهم الغلام يسيطرو عليهم الحرس على اقتناص الصيد ، وقد أحس الفرس بذلك منهم وانتقل إليه منهم ما هم فيه فأصابه الاضطراب كذلك وأخذوا يجاهدونه وهو يجاهدهم حتى تمكنوا منه وأحضموه ، فبدأ - من هيئته الجسدية - مطمئنا ، لكنه ما زال يستحود عليه الفزع والخوف الشديد؛ فاصلا بذلك بين الهيئات الجسدية والأحوال النفسية وكما صور أحوالهم وأحوال جوادهم ، صور حال الغلام وكشف ما يعمل في نفسه فيشغله عن وصاته له في مطاردة الصيد ،

(١) يماطل الكلام : يحمل بعضه على بعض ، ويتسكلم بالرحيغ من القول ، ويكترز اللفظ والمعنى ، أو يعقده ويوالى بعضه على بعض ، وكل شيء ركب شيئا فقد عاظه .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٩

ثم يرينا صورته وهو منصب على الأتني وحارها انصباب الشؤبوب ، ولكن الآن
تثير الحمى في وجهه فرارا منه ، غير أن ذلك لا يموق عن اللعاق بها وتمكنه من
إفراد الحمار من صواحيبه ، وعوده به جريحا ينزف دمه :

وغيث من الوسمى هو تلاحه	أجابت روايته النجاء هو اطلة ^(١)
صبحت بمسود النواشر سابح	بمر أسيل الخدنهد مراكله ^(٢)
أمين شظاه لم يخرق صفاه	بمنقبه ولم تقطع أباجله ^(٣)
قليل علفناه فأكل صنعه	فتم وعزته يدها وكاهله ^(٤)
إذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة	متى نره فإننا لا نحائله ^(٥)
فبيننا نبغى الوحش حاء غلامنا	يدب ويخفي شخصه ويضائله ^(٦)
فقال : شياه راتعات بقرة	بمتأسد القران حومسايه ^(٧)
ثلاث كأقواس السراء ومسحل	قد احضر من لس الغمير جعائله ^(٨)

(١) الوسمى : أول المطر ، هو بضم الحاء : تضرب إلى السواد من شدة خضرة
نبتها ، والتلاع : مسيل ما ارتفع من الأرض إلى بطن الوادي ، النجاء بكسر النون
جمع بجوة : المكان المرتفع ؛ الموائل جمع هائلة : الموائل .
(٢) صبحت : أنبت غدوة ، المسود : شديد القتل ، النواشر جمع باشرة : عروق
باطن الأذراع ، تمر : شديد القتل ، أسيل : ناعم أو طويل ، نهذ : ضخم ، المراكل
جمع مركل : جنيا الفرس حيث يركله الفارس بركله .
(٣) الشظى : عظم مازق بالأذراع ، الصفاق بكسر الصاد : الجلد السفلى تحت
الجلد الذي عليه الشعر ، والمنقبه : حديدة ينقب بها البيطار ، الأباجل جمع أبجل :
عروق في اليد .

(٤) عزته : قوته ، السكاهل : مجتمع السكتفين في أصل العنق .
(٥) محائله : تحذره (٦) نبتى بضم النون وفتح الباء : نبتغى ، يضائل : يصغر .
(٧) الشياه هنا : الحمار ، الميت المستأسد . الذي طال وتم ، والقران بضم القاف
جمع قرى بفتح القاف وكسر الراء : مجارى الماء إلى الرياض ، الحدو : الضارب إلى السواد .
(٨) السراء بفتح السين : شجر تصنع منه القسي ، ناشط : يخرج من بلد إلى بلد ،
الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر فيخرج تحته نبت أحضر فيكون غميرا لهذا الطويل
أى منمورا ، واللس بفتح اللام : الأخذ بمقدم الغم .

وقد خرم الطراد عنه جمحاشه
وقال أميري: ما ترى رأى ما ترى
فبتنا عراة عند رأس جوادنا
منضربه حتى اطمأن قذاله
وما جئنا ما إن ينال قذاله
فلا يا بلأى ما حملنا وليدنا
وقلت له: سدد وأبصر طريقه
وقلت: تعلم أن للصيد غرة
فأتبع آثار الشياه وليدنا
نظرت إليه نظرة قرأته
يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق
فرد علينا المير من دون إلهه
فلم يبق إلا نفسه وحلائله (١)
أنخثله عن نفسه أم نساوله (٢)
يزاولنا عن نفسه ونزاوله (٣)
ولم يطمئن قلبه وخصائله (٤)
ولا قدماء الأرض إلا أنامله
على ظهر محبوبك ظماء مفاصله (٥)
وما هو فيه عن وصاتي شاغله (٦)
وإلا تضييعه فإنك قائله (٧)
كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله (٨)
على كل حال مرة هو حامله (٩)
سراع تواليه، صياب أوائله (١٠)
على رعه يدعى نساء وفائله (١١)

-
- (١) حرم: فرق. الطراد: الميادون، حلائله: زوجته من الآن.
(٢) أميري: الذي يؤمرني ويستشيرني. نساوله: نجاهمه.
(٣) عراة: متجردين للفرس من صهوة، يزاولنا: يجذبنا.
(٤) القذال بفتح القاف: موضع العذار وهو أرفع مكان في رأسه، والخصائل جمع خصلة بفتح الخاء.
(٥) محبوبك: مدمج، ظماء مفاصله: ليست مترهلة.
(٦) سدد: قوم صدره لا تمل ينة ولا يسرة.
(٧) غرة: عقلة.
(٨) الشؤبوب: الدفعة الأولى من المطر، يحفش: يسيل ما فيها ويخرجه.
(٩) يقول: نظرت إلى الفرس فرأيتَه والسلام يحمله من السير على كل حال مما أحب أو كره.
(١٠) التوالى: الأواخر يريد رجله وعجزه، والأوائل: يدها وصدره وصيابه جمع صائب: قاصدة.
(١١) رد المير: قطعة من إلهه، نساء: عرق في رجله، والفائل: عرق في الفم.

وهو كما ترى وصف قصصى ، يعتمد فيه الشاعر على حس دقيق ، ونظر متفحص .
فيقدم لوحة حية ، ترى فيها الحركات ومشاهد الطبيعة بألوانها ، وتسمع الخمس كما تسمع
الصياح ، بل تسمع حديث النفس وتلمح الأحاسيس والمشاعر بادية على الوجوه ،
ظاهرة في التحركات .

والناظر في هذه اللوحة يرى دقة الشاعر وبراعته في ملاحظة للمشاهد والأحداث .
والوقوع على المواقف ، وإدراك الأحوال النفسية ، وحشد ذلك كله مستخدما في ذلك
كل وسائل التصوير التي كانت تسبغها قريحة فنية متيقظة ، وذهن متوقد لماح يهديه
إلى مكنونات الصورة ، ونظمه في سلك واحد فيرسمها كما يراها ، أو يبرزها من خلال
نظيرها وعيبتها .

ولعل أناة زهير ورويته لها دخل كبير في تميزه في ذلك السبيل .
كما أفاضته طرونة البيئية على هذا المسار الوصفى ، مكنته كذلك من تحويل المعنويات
إلى مادة فلس وتري . فيبش لها أو ينفر منها ، كما بدا ذلك في حكمة التي لا تسكاد
تخلو منها قصيدة من قصائده ، والتي استطاع بها أوتيه من مقدرة فنية أن ينفث
خبراته الكثيرة المتنوعة في الكلمات المحدودة فإذا بها حبة تركزت فيها كل
هناصر العلاج .

تلك كانت أهم فنون زهير الشعرية ، أو بتعبير أدق : كانت الفنون التي قال فيها عن
طبع وسجية ، بيد أنه إلى ذلك اضطر إلى الهجاء فانبعث يسه على تردد وتوفر ، فلم
يلجأ باب الهجاء إلا دليما لمعتد ينوشه .

من ذلك ما روى أن الحارث بن ورفاء الصيقلوى من بني أسد أغار هو وقومه
على بني عبد الله بن خطمان وأخذوا إبل زهير وراعيه يسارا ، فأندبهم زهير في
شئ غير قليل من اللعين وضبط النفس ، وضمن إنذاره ذلك كافيته المشهورة التي
يقول فيها :

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يلبها سوقة قسلى ولا
فأردد يسارا ، ولا تعنف على ولا تمك برضائك (١) (بأذن الملك)

(١) الملك يسكون العين : المثل ، وبكسرهما : المطول .

ولا تكونن كأفـوام علمتهم يلوون ما عندهم حتى إذا نهكوا (١)
طابت نفوسهم عن حق خصمهم عخافة الشر فارتدوا لما تركوا (٢)
تعلماً ها لعمر الله ذا قسما فاقصد بذرعك وانظر أين تملك (٣)
لئن حلت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فذلك (٤)
ليأتينك منى منطق قدزع باق ، كادنس القبطية الودك (٥)

وكما كان في مديحه واقعياً لا يمدح إلا بما هو كائن في الشخص ، كان كذلك في هجائه لا يتعرض إلا لما يعيبه في مهجو ، وهجاء من أجله ، فهو ليس إلا وسيلة لتحقيق بها غرضاً شريعياً ومقصداً نبيلاً ، كما رأينا في موقفه من الحارث ، وكما صنع مع بني حليم أحد أحياء كلب ، فقد روى أن رجلاً من بني عبد الله بن غطفان رل بهم وكان مولماً بالقار ، فهو عـه فأبى إلا المقامرة فقمر مرتين ، فردوا عليه ، ثم فمر الثالثة ، فلم يردوا عليه ، فانطلق إلى قومه زاعماً أنهم أغاروا عليه ، فقال زهير بهم همزيتة المشهورة في هجائهم وفيها يستخف بهم ويتوعددهم في مثل قوله :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فإن قالوا النساء محببات فحق لكل محصنة هـداء

قال الأصمعي : فلما بلغهم قول زهير بعثوا الإبل إليه ، وأرسلوا إلى زهير يخبرونه بخبر صاحبه ، ويمتدرون إليه ، ولاموه على ما فرط منه ، فأرسل إليهم زهير : والله لقد فعلت ومحبات ، وأيم الله لا أجو أهل بيت من العرب أبدا .

-
- (١) نهك بضم فسكسر : شتم وبلغ منه في الهجاء .
(٢) لما أودوا بالهجاء دفعوا الحق إلى صاحبه وارتدوا إلى إعطاء ما كانوا تركوه .
(٣) تعلمنا منونة : اعلمنا لعمر الله ذا قسما ، وها : للتنبيه ، الدرع : الاستطاعة ، والآنسلاك : الدخول في الأمر ، كأنه يقول : اقصد الأمر بما تملكه أنت لا بما يملكه غيرك .
(٤) جو : واد في بني أسد ، وعمرو : ابن هند بن المنذر بن ماء السماء ، ودين عمرو : طاعته ، فذلك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة بسير الإبل .
(٥) القدع : القبيح ، والقبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم ، يريد : لئن حلت بحيث لا أدركك تحت راية هذا الملك العظيم ليردن عليك هجري ، ولادنس من مرصتك كما يدنس الودك القبطية .

وهكذا يتقرر لدينا بما لا يدع مجالا للشك ، أن زهيراً جعل من شعره وسيلة لإقرار السلام والحق والخير ، كما جملة مرضاهم للذوق الرفيع ، والجمال الساحر .

* * *

وبماودة النظر في شعر زهير ، يتبين لنا أن شاعرنا كما كان متناسقاً في فنونه وأفكاره مع طبعه وسجيته وبيئته ، كان متناسقاً في أساليبه والفاظه وصوره وموسيقاه . وفي سبيله إلى ذلك وجدنا الشاعر متمكناً من لغته ، مسيطراً عليها ، يلتقي منها أنسب اللفظ والمباراة ، حتى تصبح عباراته ماسقة منضدة ، تتراعى أخاذاً رائعة . وكما كان متمكناً من لغته كان متمكناً من موسيقاه ، فاستوفى من ضروبها ما يتلاءم مع موضوعه ، فلا تجدد في موسيقاه لشاراً من إقواء ، ولا نحس فيها إكراهاً يصيب الشعر بالجمود أو الاضطراب .

ومن ثم يجد الدارس في شعر زهير كثيراً من التناسق اللفظي الذي عرّفه علماء البيان فيما بعد باسم البديع من جناس وطباق كما في قوله :

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينسكسون إذا ما استلحموا وحموا^(١)

حيث جانس بين كلتي (استلحموا) ، و (حموا) ، وكما في قوله :

كان عني وقد سال السليل بهم وجيرة مام لو أنهم أمم

فقد جانس بين (سال) ، و (السليل) ، وكما في قوله :

تقي نقي لم يكثر عنيمة بنهكة ذى القربى ولا بحفلة^(٢)

وقوله: وقد قلنا: إن ندرك السلم واسما

وقوله: رأى الله بالإحسان ما فعلنا بكم

وقوله: متى تبشوها نبشوها ذميمة وتضر إذا صريرتها فتضرم

(١) الحبيك - بفتح الحاء - الطرائق ، والبيض : الخوذة المستعملة في الحرب .

استلحموا : من التلاحم والمخالطة في القتال ، وحموا : اشتد غضبهم .

(٢) النهمكة : الإضرار ، والحفلة - بفتح الحاء والقاف - البغيل السوء الخلق .

يقول : إنه لا ينمى ماله بإضرار أقربائه وظلمهم ، وليس ببغيل لثيم .

وحيث طابق وقابل في قوله :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولسكنه قد يهلك المال نائله
وقوله: رأيت المنايا خبط عشواء من نصب تمته ، ومن تخطى يعمر فيهرم
وقوله: يميننا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
وقوله: وقد كنت من سلمى سلينا ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو (١)

بيد أن ذلك كله في شعر زهير لا يشعر بأنه هناك إكراها للفظ ، ولا شذوذا
عن مألوف في التعبير ، فأنت مع زهير تشعر بالعفوية في التصوير أو التجميل .
وفي الحق : أن شعر زهير يحتاج إلى دراسة مستوعبة فاحصة ، ليرى أسرار التفوق
الغني لديه ، وتعرف على مظاهر ذلك في دقة واستقصاء .

(١) صير الأمر : مفتاه وما يسير إليه .

الشنفرى

نشأته وحياته :

هو ثابت بن أوس الأزدي ، ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه ، وهو من عشيرة الإواس بن الحجر بن الهنء بن الأزد اليمنية ، وقيل إنه لم ينشأ بطنيا ، فقد وقع أسيرا وهو صبي في بني شيبانة بن فهم ، فانتسب إليهم ، ولم يزل فيهم حتى أسر بنو سلامان ابن مفرج - من الأزد - رجلا من بني شيبانة ، فلبثت بنو شيبانة هذا الرجل بالشنفرى ، وكان في بني سلامان لا تحسبه إلا واحدا منهم ، حتى أساء إليه رجل كان الشنفرى خطب إليه ابنته ، فثار عليهم ، ورجع إلى بني فهم ، وواصل إغاراته على بني سلامان حتى قتل منهم كثير .

وقيل إن سبب ثورته على بني سلامان أنهم قتلوا أباه ، فقرر أن يثأر له منهم ، وما زال على ذلك الحال حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، فرصدوا له كميناً وقع فيه فقتل ومثلوا به .

وكان يصاحبه في كثير من غاراته تأبط شرا ، حتى قبل إنه هو الذى درب الشنفرى على الصلابة وقطع الطريق ، وما زال إلى جواره حتى أصبح له شأنه في ذلك الميدان (١) وتسكاد الروايات التى بين أيدينا تتفق في عدم تحديد زمن ولادته وزمن وفاته ، بل الجيل الذى عاش فيه ، بيد أن هناك من الشواهد التاريخية ما يرجع أنه عاش في الفترة القريبة من مجيء الإسلام في العصر الجاهلى .

ويردد الباحث نظره في منشأ الشنفرى فيجد أن المنشأ السكاني له كان في المنطقة

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٨٧ طبع الساسى ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ١٤ ، وذيل الأمالي ص ٢٠٨ وما بعدها ، وشرح المفضليات لابن الأنبارى ص ١٩٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى لبر وكران ج ١ ص ١٠٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

الجبيلية الواقعة بين مكة والمدينة ، والمعروفة بجمال السراة . ويجد أن اللشأ الاجتماعي له كان بين قوم لا تعرفون به واحدا منهم ، فكان مكانه منهم نابيا ؛ فهو منذ طفولته تضطرب ظروفه ثم مجتمعه إلى أن يتقلب بين الحرمان والامتهان ، فأحس بمسراة الحياة ، وقسوة النل منذ صباه .

وهكذا تتجمع المؤثرات التي تفرض على الشفري تفكيره وقيمته وسلوكه ، وتفرض عليه أسلوبه في معالجة الأمور ، وأسلوبه في التعبير عما يجيش بصدرة ، وما يضطرب على حسه وشعوره .

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه صادف من ألوان القسوة وضروب الحشونة ما جعله يأوى إلى الجبال ، ويشذ على حياة الجماعة ، ويأنس إلى الصخر الأصم فرارا من صخر القلوب إلى لفظته ، ويرتاح إلى القرب من وحوش الفلارات ؛ فهو ثورة عارمة على كل ما ورث وتعلم في صباه ليس في منهج الحياة فحسب ، بل في منهج التعبير . من ثم يلاحظ الناظر في شعره أنه أمام شعر ذى سمات وخصائص تختلف كثيرا عن شعر معاصريه .

فهو شعر بدوى خشن غليظ الطبع ، يستمد معانيه وخیالاته من طباعه وأخلاقه ومن بيئة الحشنة الوحشة التي آثر الحياة الحرة فيها على حياة النل والحرمان في مجتمع مستأنس .

وهو شعر فرد حر جرىء ، لا بهاب أحدا ، ولا يخضع لقانون جاعة ، ولا يلتزم إلا بما تمليه عليه حياته هو من قيود وعادات ، فهو في ألفاظه ساذج لا يلجأ إلى التهذيب ، ولا يضطر إلى الانتقاء ، وهو في عباراته فطري لا يعتمد التلسيق أو التزيين .

وهو شعر تأثر خارج على ما اعتاده الناس من تقاليد مأثورة ، وعادات متوارثة ، فهو في أسلوبه الشعري متجاوز ما الرمه الآخرون من مطالع يبدأون بها مسائلهم ، أو أفكار بنتقلون بواسطتها إلى غرضهم الأصل . . . ولكنه بتأثير ثوريته وفطريته لا يجد ما يدعو إلى التمهيد والتقديم ، بل هو - في الغالب - يواجهك بموضوعه صريحا في غير موارد ، واضحا في غير عمل أو تصنع .

ثم هو شعر صملوك فانك ، يقتل ويملك ، فهو لا يفخر إلا بما يمارس ، ولا يمتز
إلا بما تقوم عليه حياته ، فهو إن وصف حياته ، وما يتصل بجزائمه من غارات ومفاجآت
وقتل وتشريد وتأليم نساء ، وتبقيم أطفال . وهو إن خسر ، خسر بقيمة وبما ارتضاه
لنفسه من ألوان السلوك ؟ فهو يفخر بفقره وجوعه ، وحربته وإبائه وعزة نفسه ، وبما
اضطرته إليه حياته من إهمال لنظافة جسمه حتى أصبح مشعث الشعر تعلق به الاوساخ
وأبمار الإبل ،

وقد نما فلت كتب الأدب أشعارا متفرقة له في الفخر والحماة ، ومن أشهرها
قصيدته اللامية المروفة بلامية العرب ، وفي نسبتها إليه شك فقد نقل أبو علي الفاي
عن ابن دريد أنها من صنع حالف الأحمر (١) ، وقد كاف بشرحها كثير من الدارسين
العرب مثل اللبرد ، وثعلب ، والزمخشري ، والتمريزي ، والمكبري ، وفيها يقدم
صورة حية ترى فيها حياته البدوية الوحشية ، فتشعر أنك تصاحبه في مهامراته ومفاجآته ،
وليست اللامية هي القصيدة الوحيدة التي تقدم هذه الصورة من بين شعره ، بل هكذا
شعره كله ، مثال ذلك ما قاله في ثابته الطويلة التي جاءت في المفضليات يصف إحدى
غاراته التي قام بها في جمع من الصماليك على سلامان :

وباضمة حمر القسي بمشها ومن يفتز يفتز مرة ويشث (٢)
خرجنا من الوادي الذي بين مشمل وبين الجبا، هيات أنشأت سريتي (٣)
أمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنسكي قوما ، أو أصادف حتى (٤)
أمشي على أين الغزاة وبسدها يقربني منها رواحي وغدوتي (٥)

(١) الأملالي ج ١ ص ١٥٧

(٢) الباضمة : القاطمة . ويريد بها رفاقه ، بمشها : غزوت بها ، حمر القسي : يقال
إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس : يخفق .

(٣) أنشأت : أظهرت من مكان بعيد ، السرية بضم السين وسكون الراء : الجماعة .

(٤) أنسكي العدو بفتح فسكون مكسر : أهرمه ، الحمة بضم الحاء : المسية .

(٥) الأين : التعب :

يشير في مبتدأ حديثه إلى أنه كان يقود الجماعة ويعرفهم الطريق الذي سلكوه ، كما يشير إلى أنهم كانوا في تلك الغارة راجلين • ولا يجد غضاظة في أن يعترف بأن الغارة مرة له وأخرى عليه ، فهذا من السمات ، ولذلك فإخفاقهم في غزوة لا يعنى إحجامهم عن معاودتها ، بل إن ذلك يدعمهم إلى إعادة الغارة ، لتحقيق المراد ، دون أن يكون لمشقات الطريق ولا لتوقع للوت أثر ، ثم يصف بعض ألوان الحياة التي تنتظم جماعتهم في أثناء تحركهم للغارة في صورة تكشف عن ترابطهم الأسرى بحيث يقوم أحدهم وهو تأبط شرا بدور الأم في البيت :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم	إذا أطعمتهم أو تحت وأفأت (١)
تخاف عليا الميل إن هي أكرت	ونحن جياع ، أى آل تألت (٢)
مصمكة لا يقصر الستر دونها	ولا ترجى للبيت إن لم تبيت (٣)
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفاً	إذا آنست أولى المدى أقشمت (٤)
وتأنى المدى بارزا نصف ساقها	تجول كعير العانة المتألت (٥)
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم	ورامت بما في جفرها ثم سلت (٦)
حسام كلون الملح صاف حديده	جراز كأقطع الغدير النمت (٧)

- (١) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أرتحت : قنرت وأفأت •
 (٢) الميل بالفتح : الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة ساست ، من آله بمعنى : ساسه •
 (٣) مصمكة بكسر اللام : صاحبة صماليك • لا يقصر الستر دونها : لا يغطي أمرها .
 (٤) الوفضة بفتح فسكون : الجعبة ، السحف بفتح السين والحاء : السهم عريض النصل ، المدى بفتح فكسر : العداءون ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، أقشمت : تهيأت للقتال •
 (٥) بارزا نصف ساقها : كناية عن الجدد في الأمر ، عير العانة : حمار الوحش في الآن •
 (٦) الجفر بفتح فسكون : الجعبة ، رامت بما في الجعبة : أى بسهامها •
 (٧) جراز بضم الجيم : قاطع ، أقطع الغدير : الماء فيه •

تراها كأذناب الحسبل صوادرا وقد نهات من الدماء وعلت^(١)

يذكر أنهم في أنساء معامراتهم يخضعون لنظام قاس تفرضه ظروف معيشتهم ،
فيصور مايقوم به تأبط شرا - الذي كفى عنه بأم العيال مداعبة - من توريع الطعام
بقدر خشية أن تطول بهم أيام الفسادة فينضب زادهم ، وينتقل من ذلك إلى توضيح
حقيقة تلك الأم ، فيبين أنها ليست أما حقيقية تستر وتبيت في الحيام ، بل هي صاحبة
صعاليك ، لها جمبة سهام - تواجه بها المعتدين - في جد وعدة .

ويواصل الشفري حديثه ، فيقلنا على مقصدهم من تلك الفارة ، وهو الثأر لأبيه
من بني سلامان :

جزينا سلامان بن مفرج قرضا	بما قدمت أيديهم وأزلت ^(٢)
وهيء بي قوم وما إن هنأتهم	وأصبحت في قوم وليسوا بمنبى ^(٣)
عفيننا بعبد الله بعض غليلنا	وعوف لدى الممدى أو ان استهات ^(٤)
إذا ما أتتني ميتى لم أبالها	ولم تذر خلاقي الدموع وعمى
وإني لحلو إن أريدت حلوتي	ومر إذا نفس المزوف استمرت ^(٥)
أبي لما آبي سريع مباءتي	إلى كل نفس تلتحى في مسرتى ^(٦)

يفخر بأنه قام على رأس جماعته فثأر لأبيه من بني سلامان ، ورد لهم دينهم ،
وذلك بقتل رجلين من أهم رجالهم هما عبد الله وعوف ، فشقى بعض غايله . ثم يوضح

(١) الحسبل جمع حسيطة : أولاد البقر ، النمل : الشرب الأول ، والعمل الشرب المكرر .

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) يعنى أن قوى الأزديثون بشجاعتي ، بينا أنا لا أهتوهم لأنهم لا يهتمون بي ،
فأنا أعيش بين قوم ليسوا أهلى ، إشارة إلى نزوله في بني قهم .

(٤) الغليل : العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ، الممدى : موضع العدو ،
ويريد به : ساحة المعركة ، أو ان استهات : في وقت ابتدائها .

(٥) العروف : المنصرف عن الشيء ، استمرت : من المראה .

(٦) المباءة : الرجوع ، تلتحى في مسرتى : تجد في سرورى .

آنه لایماب الموت ، ولا یشفق علی من یبکیه من خاله أو عمه ، لأن أحدا من هؤلاء لن یبکیه ، وأنه لیس بفطرته محبا للقتل ، وإنما هو علی حسب من یماملونه ، یحلون یرید حلاوته فلا یمتدی علیه ، ویر إذا أهین أو مست کرامته ، لا یقبل ما یکره ، ولکنه سریع الرجوع إلى من یسمى یجد فی مسرته .

وهكذا سار الشنفری فیما وصلنا من عمره یصور غاراته ، ویفخر بما ارتضاه الصالح من قیم ، وما تخلقوا به من خلال ، معبرا عن ثورة نفسه علی مجتمعه ، مصورا ما یمتاز به من صفات جسمیة اکتسبها من نظام حیاته ، وتطلبها ما ارتبط به فیها .

٥ عروة بن الورد

أشأته وحياته :

هو عروة بن الورد بن ريد العسري ، لقب بعروة الصماليك لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أحققوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مفزى . وقيل : بل لقب بذلك لقوله :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليلته مصافى المشاش آلفا كل معجزر (١)
يمد الغنى من دهره كل ليلته أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
ولله صعلوك صنيعة وجهه كضوء شهاب القابض المنتور (٣)

كان لأبيه دور كبير في نشوب الحرب بين عبس وفزارة (حرب ذاحس والغبراء) فهو الذى راهن حذيفة (٤) أما أمه فكانت من نهد من قصاعة ، وكانت عشيرة وضيفة ، لم تعرف بشرف ولا خطر ، فأذى ذلك عروة ، وأحس بأن عاراً يلحقه من قبلها ، فغار (٥) :

وما من من عار إخال علمته سوى أن أحوالى - إذا نسبوا - نهد

ونبحث عن السر الذى دفع عروة إلى الصعلكة ، فلا نعثر على ما يشفى ، إذ نلاحظ أن أمه كان من أشراف قبيلته ، فهو لم يكن الصعلوك عن فقر واحتياج ، ولا كان عن شذوذ في الخلق والسلوك ، ولا كان عن غربة من قبيلته يدم بها وبعماب . ولكنه على ما يبدو - اتجه إلى الصعلكة استجابة لثوره في نفسه على مسلك بعض الأعياء

(١) لحى الله فلانا : قبضه ولعنه ، المصافى بضم الميم : الملازم المؤالف المشاش بضم

الميم وفتح الشين : كل عظيم هش دسم .

(٢) يسر الرجل بفتح السين الضمعة : سهات ولادة إبله وعنمه .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٧٣ . (٤) الرجوع السابق ج ٣ ص ٨٨

(٥) الديوان ص ١٥٧ .

في مجتمعه ، فاحترف الصلابة باعتبارها وسيلة لاداية هي في ذاتها أبرز مظاهر البطولة والفروسية ، فيما ينال من مال الذي ما يلبى مطالبه ومطالب ذوي الحاجة ممن تقصر أيديهم عن الوصول إليها ، وكان يجمع الفقراء الصعاليك ويتنوم بشأنهم ، يصحب القادر منهم في غاراته ، ويؤوى الآخرين في مأمن يمدد إليهم فيسه بنصيبهم من مقامراته (١) .

وهكذا قضى عروة حياته في حماية الفقراء والمرضى والمستضعفين من غائلة الفقر وعناء الحاجة ، متخيرا مريسته - في أغلب الأحيان - من بين من عرفوا بالشج والبخل والقسوة ؛ فالصلابة في رأيه وسيلة من وسائل التكافل الاجتماعي ، يأخذ بواسطتها ممن لا يفكر إلا في نفسه حقوق الضعفاء والمحتاجين ، وبهذا فارق غيره من الصعاليك .

شعره :

يتضح من شعر عروة مذهبه في صلابته ؛ فهو دائم التردد لمبادئه ، حريص على الإشارة إلى عايتته من غاراته ، حتى نال إعجاب من جاءوا بعده ، كما نال إعجاب معاصريه ؛ سمي منا معاوية (٢) : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وسمي عبد الملك بن مروان يقول : ما يسرى أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله

إني امرؤ عافى إناثي شركة وأنت امرؤ عافى إناثك واحد (٣)
أنهزأ مني إن سميت وأن ترى يجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٤)

فهو إنسان كريم يؤثر على نفسه ، ويشرك معه غيره في طعامه بل قد يكتفي بشرب للماء الخالص ، مؤثرا غيره بكل طعامه حتى أصبح كمن يفرق جسمه على أجسام الآخرين

(١) الأغاني ج ٣ ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٧٥

(٣) المافي : طالب للمعرف ، وأنت امرؤ عافى إناثك واحد كناية عن أكله وحده .

(٤) أحسو : أشرب شيئا بعد شيء ، القراح بفتح القاف : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

ومن جيد شعره رائيته التي رواها له الأصمعي (١) ، يحكى فيها ما دار بينه وبين امرأته سلمى ، ليصور في أثناء ذلك همته ونبل خلقه :

تقول : لك الوليات هل أنت تارك ضبوءا برجل تارة وبمسر (٢)

يقول إن سلمى تستعنى على ترك الصلابة والكف عن الفارات ، وتملن عن ضيقها باستمرارى في ذلك ، وخوفها من أن ألقى حتفى في إحدى تلك الفارات . فأجيبها بقولى .

أبى الخفض من يفشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تمرى (٣)
ومستغنى ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدمما ، فاقى حياءك واصبرى (٤)

إن روجك لا يرضى بلين الميش والدعة لشموره بأن عاياه لأقربائه المحتاجين واجبات لا بد له من أدائها لهم ، فالزى حياءك واصبرى على ما أحمل ، لاني لا أعزو إلا وفاء بحقوق هؤلاء ، فأنا لست من هؤلاء الصماليك الذين لا يهمهم من مجتمعهم أحد ، بهذا بذلك لتقديم صورتين لتموذجين مختلفين من الصماليك .

أولها صيف الهممة ، يرمى بالهدون ، حامل ذليل ، يمشى عالة على الآخرين .

لحى الله صملوكا إذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجرر
مد القى من دهره كل ليله أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح قاعدا يبحث الحصا عن جنبه المتعفر (٥)
يعين نساء الحسى ما يستعنه ويصمى طليحا كاليمير المحسر (٦)

(١) الأصمعيات ص ٣٥ طبع دار المعارف .

(٢) الضبوء بضم الصاد . الغزو ، والرجل بفتح الراء جمع راجل . ضد الرأكب ،
المفسر كعجل وسنبر . الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .
(٣) الخفض . الدعة ولين الميش ، سوداء المعاصم يريد به التى أحدها الجوع
والهزال ، تمرى . تغشى .

(٤) مستغنى . طالب المنه وهو المطاع ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه ،
لقى حياءك . الرمية . (٥) بحث . يحرك .

(٦) الطليح . المعنى ، ومثله المحسر بضم الميم وفتح الحاء

والصورة الثانية ترى الصلوك الشريف القدى يعجب به عروة ، أعماله مجيدة ،
يظفر من أهدائه بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به ، وبعدم عنه . . ومثل
هذا الصلوك محمود الذكرى ، جدير بأن يشجعه الآخرون ويثنوا عليه :

ولله صلوك صعيدة وجهه كضوء شهاب القابس التنوير
مطالا على أهدائه يحرره بساحتهم زجر الميبح المشهر^(١)
وإن يمدوا لايأمنون اقترا به تشوف أهل العائب المتظر^(٢)
وذلك إن يلقى الميعة ياقها حميدا ، وإن يستغن يوما وأجدر

ثم يقرر أنه من المذهب الثاوى ، فهو لا يقبل أن يرى عشيرتى معتم وزيد تهلك
ولا يخاطر من أجهامها ، لذلك هو يفتح مع بعض رفاقه حمى بعض القبائل ليسوقوا
منها ما يقومون به على حاجة الأضياف والمحتاجين :

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على نذب يوما ولى نفس مخطر^(٣)
ستفرع بعد اليأس من لا يخاف كواسع فى أخرى السوام المقر^(٤)
طاعن عنها أول القوم بالقنا ويض حفاف ذات لون مشهر
ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بأرض ذات شت وعرع^(٥)
يربح على الليل أضياف ماجد كريم ومالى سارحا ، ال مقر^(٦)

وصفة القول كان عروة صلوكا شريفا ، جعل من الصداقة سبيلا للسيادة والمروءة ،

(١) اللطل : المشرف ، يجرونه . يصيحون به ، الميبح بفتح الميم ، قدح سريع
الخروج ولا نصيب له المشهر : المذهور .

(٢) التشوف : التطلع ، المتنظر بفتح الظاء : المتنظر قدومه .

(٣) معتم وزيد : بطنان من بطون عبس الذنب : بفتح النون والعدال : الخطر .

(٤) الكواسع : الخيول تطرد الإبل وتسكسها ، السوام : الإبل السائمة ، المقر

بفتح القاء : المذهور .

(٥) الشت بفتح الشين ، والمرعر بفتح العينين : من أشجار البادية .

(٦) يربح . يرد ، ويكس بالمجد الكريم عن نفسه ، السارح : السائم فى المرعى ،

المقر : المغير المقل .

ومظهرا من مظاهر الفروسية ، حقق بها ما كان يصبو إليه من ارتفاع بمستوى
الثقراء ، وما كان ينطوى عليه من إبطار للأهل والعشيرة ، وما كان ينزع إليه من حياة
إجتماعية تقوم على التكافل والتعاون . ولقد استطاع عروة أن يقرر كل ذلك في
شعره ، إذ كان وسيطته التي يصور فيها مبادئه ومفاهيمه . بحيث تسكاد لانتشار في شعره
على غير ذلك من فنون الشعر . كما كان صريحا في الكشف عن مكنون نفسه ، واضحا
في عرض أفكاره ، دون التواء أو إبهام ؛ فشعره نموذج للأدب الإنساني في قيمه
وأخلاقياته ، وفي منهجه في عرض أفكاره ، وبناء صورته ، وتركيب عباراته ؛ فشعره
مرآة صادقة تمكس صورة نفسه وأسلوب حياته .

الفصل الثاني

فنون الشعر البدوي

الناظر في الشعر البدوي يلاحظ أن الشعراء استجابوا فيه لمتطلبات البادية وأخلاقياتها ، بحيث لا تجد خروجها من الشاعر على وسطه الذي يخاطبه ، أو يستجيب لمؤثراته ؛ فهو ملتصق تماما بمن يردد شعره على آذانهم ، حريص كل الحرص على أن يكون متلائما مع ما يرضيهم .

والناظر في متطلبات البادية وأخلاقياتها يلاحظ أن ظروف الحياة في العصر الجاهلي فرضت عليها أن تعيش في جو حربي شبه دائم ، فالقبيلة لا تخرج من حرب إلا لتفزع في أخرى ، إن لم يكن لدفع عدو فهي لفرض سلطان ، أو انتقاما من معتمد إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت وراء اتصال الحرب بين ساكني البادية في تلك الفترة؛ فالحرب وما يتصل بها هي الشغل الشاغل للبدوي ، حتى في وقت السلم - على ضيقه - هو في استعداد وتأهب ، يقتنص السيف الماضي ، ويسمى بالحصول على الرمح القوي ، ويمتز بالجواد المدرب . فإذا خرج من ذلك الإطار لم يجد لإقليم قبيلته وأعرافها مأخذ يدور حولها ، يستمرضا ويفخر بها ، ويصف أبنائها . وأقصى ما يخرج به شاعر البادية عن جو الحرب أن يصطحب امرأة يعيل إليها ليجعل منها مثالا يتعبد في محرابه ، ويدور في فلسكه ، فهي سماء يتطلع إليها . وهي طهر يحمية من أي دنس يمسها ، وهي رمز بندقع بسره إلى الموت غير مبال ولا هياب ، وإذا غابت عنه أو ارتحلت استوقف النوق أمام ديارها ليجتمع النفس بالحياة في كنف منازلها ومواضها أصابها من فرانها .

ولقد نظر الآقدمون في الشعر العربي للعرف على فونه وموضوعاته وتسميتها ووضع كل منها تحت العنوان الذي يناسبه فاحتلوا اختلافا كبيرا لاختلاف المنهج .

فأبو تمام - مثلا - يقدم الشعر العربي من خلال عشرة موضوعات هي الحماسة ، والمرائي ، والأدب ، والنسب ، والهجاء ، والأضياف ومهم المديح ، والصفات ، والسير والبغاس ، والملح ، ومذمة النساء .

وصاحب البرهان يقدمه في أصناف أربعة هي : المديح ، والمهجاء ، والحسكة ،
واللمو ، ثم يفرع عن كل صنف منها فنونا (١) .

أما صاحب العمدة فينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هي : المدح
والمهجاء والنسب والثناء (٢) . وجعل أبو هلال العسكري أبرزها ستة هي المدح ،
والمهجاء ، والوصف ، والنسب والمرأى ، والفخر (٣) .

يبد أن الناظر في مظاهر ذلك الاختلاف يدرك أنه اختلاف شكلي يرجع إلى
الإجمال والتفصيل ، وليس مرجعه إلى إنكار غرض نسب إليهم ، أو إضافة غرض
إيس لهم . حق إن باستطاعتنا أن نرجع كل هذه الفنون إلى غرضين اثنين هما :
المديح والمهجاء ، على عدد الحماسة والنسب والمرأى وبعض الوصف وبعض الاعتذار
مديحا ، وعد بعض الوصف وبعض الاعتذار مهجاء لكن إذا كان التفصيل المبسوط
غير مقبول لما فيه من التصنيع والتريد ، فإن الإجمال كذلك غير مقبول لما فيه من
الإخلال بصورة الشعر ، والطريق الأمثل فيما أرى هو أن نراعى في التقسيم مبعث
الشعر ومسار الشاعر فيه وغايته التي يريد أن يصل إليها من تعبير . ومن هذا المطلق
وبالنظر فيما أتبع لي من الشعر البدوي أستطيع أن أنزل أن فنون الشعر البدوي قد
العصر الجاهلي هي الفخر . والمهجاء ، والمدح ، والثناء ، والغزل ، والوصف وذلك
لأن باءت الشاعر البدوي إلى قول الشعر لا يكاد يخرج عن هذه الفنون الستة ؛ حيث
ينطلق لسانه مادحا قومه ونمسه مفتخرا بما فيهم من قبائل وصفات ومالهم من مكانة
وعزة بين غيرهم من قبائل البادية ، والشاعر في أثناء ذلك يحس ديسان قومه ويحتم
على الانتفاض في وجه عدو أو لشجدة مظلوم ، أو للتأثر من ممتد . أو هاجيا خصما
تعداد مثالبه وعيوبه ، أو باكيا عزيزا مات أو قتل ، أو باسطا القول في امرأة نشأت
بينه روابط عاطفية ، أو مقبلا على ما يلفت النظر ويجتذب الانتباه بالوصف .
والشاعر البدوي في تناول كل من أسلوبه الذي يتناسب مع وسطه الفنى ، ويحقق له
البلاؤم الفنى ، على اختلاف بين الشعراء في ذلك .

(١) البرهان في وجوه البيان لابن وهب السكاكيب ص ١٣٥ بتحقيق الدكتور حفي شرف

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ بتحقيق الشيخ محمد عى الدين .

(٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٣٧ بتحقيق على محمد البجاوى .

الفخر :

الفخر تعداد ما يشتمل عليه الإنسان من الفضائل والحمد ، والتباهى بمميزه بين أفراد قبيلته أو مجتمعه بذلك . وميدان الفخر أمام الشاعر أرحب ، وخوض الشاعر فيه أسره إذ هو فيه متابع للصفات التي يوجب بها ماضيه ليفخر بانصافه بها أو انصاف قومه ، مستقص للثمائل التي يحتفل بها مجتمعه ليفخر باشتياله عليها أو باشتياله قومه :

من ثم كان الفخر مرآة تمكس على صفحتها قيم الشاعر ومجتمعه ، وأبرز الصفات السائدة ، والفضائل التي يسمى القوم إلى كسبها والحمد التي يودون الانصاف بها .

فإذا نظرنا في شعر الفخر البدوي ، وجدنا من أبرز الصفات التي يحرص كل شاعر بدوي على الفخر بانصافه بها هو وقيلته :

١ - الفروسية وما يتصل بها من إقدام وشجاعة وقوة وتمكن من الأساليب الحربية ؛ وذلك لأن ظروف الحياة في البادية فرضت على ساكنيها لونا من الصراع الدائم مع الوحش ، ومع الطبيعة ، ومع الإنسان ، فهو لا يخرج من معركة إلا ليدخل في أخرى .

ولا ريب في أن الصفة المثل التي تسود مثل هذه البيئة هي الصفة التي يمسكها هذا اللون من الحياة :

ولا ريب في أن كل مرد في هذه البيئة متعلق منذ الطفولة بكل صفة تتطلبها تلك الصراعات والحروب ، والتي تجتمع في صفة الفروسية والإقدام .

فهذا عمرو بن كلثوم يفخر بشجاعة قومه - في قصيدته المعلقة - ويمجد فرسان قبيلته ، فيصف ما يحدته هؤلاء الفرسان الأبطال في حصومهم من دمار وهلاك ، ويقرر أن مثل هذا ليس بغير على قوم مدرين على الحرب أحسن تدريب ، حياتهم سلسلة من الحروب لا تتوقف ، وأسلحتهم من أجود الأسلحة .

وفي سبيله إلى ذلك يذكر الشاعر لنا أحداث معركة وقعت بين قومه وبين خصومهم

في قالب قصصى يكشف فيه عن شجاعتهم في مواجهه خصمهم العنيد المدحج بالسلاح،
مثل قوله فيها :

أيا هسد فلا تمسجل علينا وأنظرنا تخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدر هن حمرا قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحسى الهجريننا^(١)
تركنا الحيل ما كفة عليه مقسدة أعنتها صفونا^(٢)

* * *

مى نقبل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء طحيننا^(٣)
يكون ثمالها شرقى نجد ولطوتها قضاة أجمعينا^(٤)
نزلم منزل الأضياف منا فأعجلا القرى أن تشتمونا
قريننا كم فمجاننا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا^(٥)
نعم أناسنا ونعم عهم ونحمل عنهم ما حملونا
وطاعن ماتراخي الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشنا
بسر من قنا الخطى لن ذرايل أو بيض يختلينا
كان جهاجم الأبطال فيها وسوق بالأماز برغمينا^(٦)
نشق بها رؤوس القوم شقا ونحتلب الرقاب فتخلينا^(٧)

-
- (١) الهجر - بضم الميم وفتح الجيم - الملجأ ، يقال : أحجرتك إذا لجأته .
(٢) المكوف : الإقامة ، والصفون جمع صافن : الفرس إذا قام على ثلاث قوائم
وثنى سلبكه الرابع .
(٣) الرحى : أراد بها الحرب .
(٤) الثفال : خرقه تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، اللهوة : القبض من الحب
تلقى في فم الرحى .
(٥) المرادة - بكسر الميم - الصخرة التي يكسر بها الصخور .
(٦) الوسوق جمع وسق : حمل البعير ، والأماز جمع أمةز : السكان كثير الحجارة
(٧) نحتلب : نقطع بالخلب .

وإن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفين
كأن سيوفنا مينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعبين
كأن ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

والناظر في هذه الأبيات يلاحظ أن الشاعر فيها يعتمد في عرض مفاخره ومفاخر
قومه على الأسلوب الوصفي والأسلوب القصصي ، فهي قصة وصفية ، يميل الشاعر في
تقديم أحداثها إلى الإيجاز النسي القائم على الإيجاءات والاستدعاءات ، والتذكير
بالمضى المشهور ، فيكفي أن يوجه إلى أحداث الماضي في قوله : (وأيام لنا غر
طوال . . الخ) ليستحضر المخاطب أحداث تلك الأيام ووقائعها ، ويقف على ما كان
فيها من فرسان قوم الشاعر .

* * *

وهذا دريد بن الصمة يملن في قصيدته البالية بصوت جهورى أنه ثار لأخيه
عبد الله ، فأتزاح السكابوس الذى طالما كنتم أنفاسه ، ولكنه لم يسترح تماما ، فما زال
في نفسه أشياء لا يشفيها إلا مواصلة الانتقام .

فالشاعر يذكر أنه وجمع من قبيلته ظفروا بأعدائه من مرارة ، فأعملوا فيهم
السيف من كل جهة ، وبكل كيفية ، حتى ثار لأخيه عبد الله بقتل أفضل رجل يقاربه
في السن ، وأوقعوا بخصومهم جميعا ، حتى أشبعوا الوحوش الجائعة من جثثهم ، ولا يكتفى
بما صنع ، بل يواصل بعد ذلك تهديده ويملن أن سوف يعيد الكرة عليهم متى سنحت
الفرصة ، وذلك في قوله :

وبارا كبا إما عرضت فباثن أبا غالب أن ثأرنا بنـالـب (١)
قتلت بعبد الله خير لداه ذؤاب بن أسماء بن ريد بن قارب (٢)
فلأيوم سميتم فزارة فاصبروا لوقع القنا تنزون نرو الجنادب (٣)

(١) عرضت : أتيت المروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .

(٢) اللدات جمع لدة : من ولد مملك في وقت واحد .

(٣) النرو : اللوثب . والجنادب جمع جندب : ضرب صنير من الجراد

تسكر عليهم رجائي وفوارسي وأكره فيهم صمدتي غيرنا كب^(١)
 فإن تدبروا يأخذنكم في ظهوركم وإن تقبلوا يأخذنكم في الترائب
 وإن أسهلوا للخييل أسهل عليكم بطعن كبايزاغ الخاض الضوارب^(٢)
 ومرة قد أخرجهم فتركهم يروغون بالصلماء روع الثملالب^(٣)
 وأشجع قد أدر كنهم فتركهم يخافون خطف الطير من كل جانب
 وتعلبة الخنثى تركنا شر يدهم نعل لاه في البلاد ولاعب
 فليت قبورا بالخاضة أحبرت فتخير عنا الخضر خضر محارب^(٤)
 رد سناهم بالخييل حتى تملأت عوافي الضباع والذئاب السواغب^(٥)
 خريفي أطوف في البلاد لعاني ألقى بإثر نلة من محارب

* * *

ومثل قول عترة مفتخرا بنفسه ، معترزا بقوة وجراته وشجاعته ؛ مقررأ أنه من
 أفضل قبائمه ، وكأنه يرد بذلك احتقارهم إياه لسواد لونه :

إني امرؤ من خير عبس^(٦) منصبا شطري ، وأحمى سائري بالمنصل^(٧)
 وإذا السكتبة أحجمت وتلاحظت ألقيت خيرا من معمم محول^(٨)
 والخييل تعلم والفوارس أنى درقت جمهم بضربة فيصل^(٩)

(١) الرجل جمع راجل : المشاة ، والصددة : القناة ، وغير ذاكب : غير عادل عنهم .
 (٢) أسهل : نزل السهل من الأرض ، والخاض : الحوامل من الذوق ، والضوارب :
 الواقع ، وإيزاغها : أن ترمى بيولها ، شبه رشاش المدم من الطمينة برشاش بولها .
 (٣) يروغون : يذهبون هنا وهناك * والصلماء : مكان معركة مع مرة .
 (٤) الخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب - بضم الحاء وسكون
 الضاد قبيلة .

(٥) رد سناهم : رميناهم ، والضباع العوافي : الجوائح ، وكذلك الذئاب السواغب .
 (٦) المنصب - تكسر الصاد - الأصل ، والمنصل - بضم فسكون وضم - السيف .
 (٧) السكتبية : الجماعة إذا اجتمعت ولم تنتشر ، وتلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .
 (٨) القيصل : الذي يفصل بين الداس .

وكثيرا ماتحولوا بشعرهم الفخري فخصموه لوصف آلات الحرب ، من رماح
وسيوف وحياد ، على نحو ما صنع أوس بن حجر في لاميته المشهورة ، وسوف نعرض
لتلك في دراستنا للفن الوصف إن شاء الله تعالى .

* * *

٢ - السكرم ، وعفة النفس ، والجدة ، وفي الغالب يجمعون هذه الصفات أو
بعضها إلى الفروسية ، حيث لا يفرقون بين الفخر بالفروسية وهذه الشئائل ؛ إذ كل
هذه الشئائل في تصورهم مظاهر للفروسية لا انفصل عنها .

والشاعر البدوي كما يخصص نفسه بفخر بهذه الصفات ، يفخر باتصاف قومه جميعا
بها ، فهو لا يقطع نفسه من قبيلته ، وإذا حذر بنفسه فهو إنما يفخر بفرد من قبيلة ، وإذا
فخر بقبيلته فهو إنما يفخر بأصل نبت هو منه . ولم يشذ من ذلك سوى عترة في الفترة
التي أنكر نسبته فيها قومه وأبوه ، فقد ركر فيها شجره بنفسه فروسية وعفة نفس
وسخاء وجمدة إلى غير ذلك . كما في قوله يخاطب ابنة عمه مالك ، ممددا مفاخره ،
مباهيا بما السم به من شجاعة وعفة نفس ، وذلك قوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تملئ
يخبرك من شهد الوقائع أنى	أغشى الوعى وأعف عند المنعم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم	يتدامرون كررت غير مدمم (١)
يدعون عنتر والرماح كأنها	أشطان بشرى لبيان الأدم (٢)
مازلت أرميهم بغرة وجهه	ولبانه حق تسربل بالدم
هازور من وقع القسا بلبانه	وشكا إلى بمسيرة وتحمم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرا سقمها	قبل الفوارس: ويك عنتر أقدم (٤)

(١) يتدامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) الأشطان جمع شطن - بفتحين - جبل البئر شبه الرمح به لطوله، والبيان
- بفتح الهمزة - الصدر ، والأدم : الفرس الأسود .

(٣) ازور : مال ، والتحمم : الصوت المقطع دون الصهيل

(٤) ويل : كلمة يقولها المتقدم إذا ندم على ما فرط منه ، واستكثر استعمالها ألحقت

بها السكاف . وقيل : (وى) بمعنى أعجب أو عجب لك يا عنتر .

ويلاحظ أن الشاعر في تصوير فروسيته هنا دقيق الحس ، يقطر للمشاعر ، متمكن من مادته الشعرية ؛ إذ يستخدم من أساليب التصوير ما يضمن للصورة الحياة والصدق ، ويحقق لها السطوة والقدرة على جذب الأنظار ؛ فقد استخدم فيها الحركة المختلفة على حسب الأشخاص الصادرة عنهم ، وأرانا قوة أعدائه في رماحهم الطويلة التي بلغت صدر فرسه . ثم أرانا كذلك مواجهته لأعدائه وقسوته على حصانه الذي تتبعهم به حتى اكتسى بالدم ، ومال بمنقه من شدة ما أصابه ، واتجه إليه شاكيا ما يعاني بصوت الحال . وماهدأت نفسه وارتاحت إلا حين سمع الفوارس يملنون - في عجب ودهشة - عن إقدامه وحسن بلائه .

فإذا كان عنزة يمدد مفاخره الشخصية على هذا النحو - لظرومه الخاصة - فإن عمرو بن الإطنابة يفخر بقومه وما يقومون عليه من أخلاق ، وما يعتزون به من شمائل ، حيث يتجهون وجهة إنسانية في سلوكهم ، وذلك قوله :

إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائل (١)
المانعين من الحنا جارائهم والحاشرين على طمام النار (٢)
والخالطين فقيرهم بنعيمهم والباذلين عطاءهم للسائل
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن المنيعة من وراء الوائل (٣)

وعلى هذا النحو يسير ربيعة بن مقرم في ميميته التي يتغنى فيها بصفاته وصفات قومه من كرم ، وإباء ، وفروسية ، ووفاء ونجدة ، كما في قوله (٤) :

وإن تسألني فإني امرؤ أهين اللثيم وأحبو الكريما
وأبني المصالي بالمكرمات وأرضي الخليل وأروى البديما

(١) انتدى القوم : جلسوا في النادي ، والنائل : كثرة العطية ، يريد أنهم يؤدون الواجب ثم النفل .

(٢) الحنا : الفحش من الكلام ، يعني أنهم يحفظون جارائهم ويوفون بحق الضيف .

(٣) وأل : لجأ ورجع ، يريد الفرار من الحرب ، يعني إن الفرار من الحرب لا ينجي من الموت .

(٤) المفضليات ص ١٨٣ .

وبحمد بذلى له معتف إذا ذم من يعتفيه اللثام^(١)
وأجزى القروض وفاء بها بيؤسى ببئسى ونعمى نعميا^(٢)
وقوى وإن أنت كذبتى بقسولى فاسأل بقوى علما
يهينون فى الحق أموالهم إذا اللزبات انتحين المسيا^(٣)
طوال الرماح غداة الصباح ذوو نجدة يمنعون الحرما

وكذلك سار الحارث بن حنزة فى جيميته التى ذكرنا جزءا منها فى ترجمته .

وصلوة القول أن الشعراء البدويين فى العصر الجاهلى عكسوا لنا صورة مجتمعهم
البدوى فى أخلاقياته التى يمتاز بها وينفخ باتصافهم بها وقيامهم عليها ، دون تكاف
أو مغالاة ، ودون تخرج أو تردد ؛ إذ الفخر فى البيئة البدوية كان أسلوبا من أساليب
الحياة التى تقرررت فى ذلك العصر ، أو أصبحت عرفا سائدا يمثل أعاط الحياة لديهم .

(١) المعتى : السائل فى غير طالب .

(٢) البؤسى والبئسى بمعنى واحد ، يقول إنه يجزى بالسيئة مثما ، وكذلك
الحسنة والنعمى .

(٣) اللزبات : الشدائد ، وانتحين : قصدن ، والمسيم : الكثير الإبل والغنم .

الهجاء :

الهجاء مصدر هجا يهجو : يعنى السب وتمديد المايب ، واستتلال المناخر ، وهو على النقيض من الفخر والمدح ، وكل هذه الفنون تضرب بمحور في النفس البشرية ، وترجع إلى الصفات الطبيعية فيها ؛ إذ هي استجابة لمناطق الرضا والسخط لدى الإنسان الفطرى ومن ثم كان فن الهجاء واحداً من فنون الشعر العربى البدوى فى العصر الجاهلى .

والناظر فيما أثر من شعر البدويين فى هذا الفن يلاحظ أنهم كانوا يعتمدون على سلب الفضائل البدوية ، والرمى بالقائص البدوية ، والرمى بالقائص المتعارف عليها بين أهل البادية من الجبن والبخل والتعاس عن مجددة اللأند ، والامتناع عن حماية الضعيف ، والتمدى على المحارم ، والتعرض للنساء . . إلى غير ذلك مما يأنف منه البدوى ، وتأباه الفطرة الساذجة .

لقد كان الهجاء سلاحاً يضارع أسلحة الحرب الأخرى مضاء وقوة ، وكانت القبائل فى البادية تحرص على أن توفر لنفسها منه ما تنذود به عن محارمها وأبنائها كما تحرص على أن توفر من أسلحة الحرب التقليدية ما يمكنها من الدفاع عن محارمها وأبنائها . يوضح ذلك عبد قيس بن خفاف البرجمى فى أبياته التى يفخر فيها بأسلحته التى أعدها لمواجهة الخصوم والأعداء ، من لسان ماض ، ورمح طويل القناة ، ودروع سابغة جيدة تحمى من صرب السيوف (١) :

وأصبحت أعددت للسائبات	عرضاً بريثاً وعضباً صقيلاً (٢)
ووقع لسان كعبد السنان	ورمحاً طويل القناة عسولاً (٣)
وسابغة من جيساد الدرو	ع نسمع للسيف فيها صليلاً

(١) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٢) العضب : السيف اللقاطع ، والصقييل : المصقول الحاد .

(٣) العسول : اللين المسمى .

كأه الغدير زفته الديور بحر المدجج منها فضولا (١)

وكانوا يتوعدون خصومهم بالهجوم في ميادين القول كما يتوعدونه بالضراب في ميادين الحرب ، وكانت ميادين القول عندهم تتمثل في الأسواق وغيرها من أماكن الاجتماع التي يلتقي فيها القوم ، وإلى ذلك أشار راشد بن شهاب اليشكري في قوله لقيس ابن مسعود الشيباني (٢) :

ولا توعدني إنني إن تلاقى معي مشرفي في مضاربة فقم (٣)
وذم يثنى للره خزيا ورهطه لدى السرحة المشاء في ظلها الأدم (٤)

كما يلاحظ أن شعراء البادية في هذا العصر لم يكونوا يبالغون بهذا الفن إلا في معرض الفخر بالفروسية ، حيث يتناولون خصومهم بالطمع والدم ، كأنهم يمتدنون موازنة بين سحما ما يتفنون به من فمائل ، وما عليه هؤلاء الخصوم من ضعة وحفارة وحسة . ونظرة مما قدمنا من شعر عمرو بن كاثوم ، ودريد بن الصمة في الفخر بالفروسية تكشف طائفة من الصفات الهجائية التي يحرص الشاعر على أن يلمصها بمجوه أو يهتبهها . ويقرر ذلك قصيدة ربيعة بن قروم التي يتغنى فيها بأعجاد قبيلته وما صنموه في أيام براخة واللسار وطخفة والكلاب وذات السليم ، وفيها يقول :

وكذاك بشر بن أبي حازم الأسدي في قصائده التي يتحدث فيها عن حروب قومه مع بني عامر في يوم اللسار ، ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار ، والتي يتغنى فيها بانتصارات قومه على كثير من القبائل مثل جرم ، والرباب ، وجدام ، وبني سليم ، وبني كلاب ، وبني أشجع ، ومرة بن ذبيان . مثل قوله :

(١) زفته - بفتحين - حر كته ، والدبور : ريح غربية تقابل العبا ، والمدجج : قام السلاح ، ويجر منها فضولا : كناية عن أن هذه الدروع سائفة تنطى الفارس وتفضل عن أطرافه .

(٢) المفصليات ص ٣٠٨ .

(٣) المشرفي : السيف ، والقضم - بالتحريك - الملول من كثرة الطعن مصدر لضمق السن فقم بفتح الضاد .

(٤) السرحة : الشجرة ، وهو يشير بذلك إلى شجرة عظيمة كانت بمكاطوالمشاء الخفيفة يبحث عن معنى المشاء يناسب المقام غير الخفيفة .

على أن من هؤلاء البدو من كان يسخره موقف قومه منه في بعض الأحداث أو في بعض الأحيان ، فينبغي في حدة البدوى ها جيا قومه ، كما فعل قريظ بن أنيف العنبرى حين لم ينهض قومه لنجدته ومعاونته في استنقاذ إبله من أيدي الشيبانيين ، حيث عرض بمجدح أعداء قومه وهم بنو مازن ، فقال إنه لو كان من بنى مازن هؤلاء لحاقهم هؤلاء الشيبانيون ولما استباحوا إبلى ، وإلا لقتلهم فرسانهم الأشداء الأقوياء بمعاونتى في استرداد مالى ، دون أن يطلبوا منى برهانا على ما أقول كما طلب قومي منى :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بدو الحفيظة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بعصرى معشر خشن	عبد الحفيظة إن ذو لؤثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحشانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في الدائبات على ما قال برها
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
كأن ربك لم يخاق لحشيتيه	سوام من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا	عدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وكأنه بذلك يذم على قومه حتى ينصروا لنجدته ومعاونته ، أو يحاسبهم على ما كان منهم .

فالمجاء - كما ترى - يكاد لا ينفك عن الفخر والحماسة في شعر البدو الجاهلين ، والشاعر فيه يعتمد على مقومات قريية من مقومات الفخر - التي سبق الإشارة إليها - ومقومات المدح التي ستعرف عليها عند الحديث عن فن المدح .

المدح :

برز من فنون الشعر البدوى فى العصر الجاهلى - على تحفظ - فن المدح . والمدح إبراز فضائل إنسان آخر ، وتمداد مماقيه ومحامده .

وإنما قلت إن هذا الفن برز فى الشعر البدوى على تحفظ ؛ لأن البدوى بطبيعته الفطرية خاضع لشعور بالهزة والألفة يجعله دائماً يتأبى على الخضوع للغير ، ويرفض الاعتراف بالقصور أو النقص ؛ فهو دائماً يرى نفسه فى المكان الأرفع . من ثم كان من الصعب عليه أن يتحول من تلك الطبيعة إلى إنسان يقر لغيره بالسبق إلى المكرمات ، بله الإفصاح عنها فى شعره ، وإخلاص النفس لتمدادها والتغنى بها .

من ثم حرص البدوى فى هذا الفن أن يلائم بين هاتين الوجهتين المتقابلتين - الرغبة فى ذكر مآلفته من الفضائل فى مسلك الآخرين ، والرغبة فى الحفاظ على الألفة والمظمة الشخصية - فلم يتجه بمداخحه لشخص مفرد ، ولكنه كاد يقصر مدحه على الجماعات من قبائل وعشائر - التى اشتهرت بمحمدة من الحماد من حصال كريهة ، وأخلاق رقيمة ، وقيم سامية ، ومبادئ عظيمة كالكرم والشجاعة والهزة والألفة أو التى قامت بعمل تحمد عليه من رعاية للجار ، أو نجدة لمستغيث ، أو حماية لمظلوم ، على نحو ما قاله ابن دارة - أحد بنى عبد الله بن غطفان - فى مدح طيء (١) :

جزى الله خيراً طيئاً من عشيرة ومن ناصر تلقى بهم كل مجمع
هم خلطونى بالنفوس ودانوا ورأى بركن ذى مناكب مدفع
وقالوا : قلم أن مالك إن يصب تمدك ، وإن محبس نرك ونشفع

فإذا اضطر إلى مدح فرد فلا يهمل أحد السادة الذين يقومون على مثل تلك القبيلة العظيمة ، ويرعون شئونها ، ويحافظون على أخلاقياتها ؛ فهو يمدح القبيلة ممثلة فى هذا السيد الذى مارس السلوك الخلقى الحميد ، أو هو يمدح إنساناً قدم ما يمدح عليه من

(١) الوحشيات لأبى تمام ص ٢٤٩ بتحقيق عبد العزيز الميمنى .

طبيب الأعمال ، على نحو ما قال للشعب للعبدى فى مدح خالد بن أنمار الذى انتك شاسا
ابن أخت الثقب (١) :

إنما جاء بشاس خالد بمدح ما حافت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسين به بيتدرن الزول من لحم ودم (٢)
مترع الجفنة ربيعى للنسدى حسن مجلسه عـير لطم (٣)
يجعل المال عطايا جملة إن بعض المال فى المرض أمم (٤)
لا يبالى - طبيب النفس به - تلف المال إذا المرض سلم

وقد يمدح الفرد لامل كبير يحقق طابشه الشاعر من قيم ، وما يصبو إليه من
مسلك محمود أو حلق كريم ، أو موقف بطولى ، كما صنع زهير بن أبى سلمى مع هرم بن
سان والشارث بن عوف حين تماونا فى المسمى الحميد ليصلحا بين عبس وذبيان ،
وينها الحرب التى طال مداها بينهما ، فأعلنا تحملهما ديات القتلى من القبيلتين ، حتى
تضع الحرب أوزارها ، وتهدأ النفوس الثائرة ، وكان ثمرة ذلك من زهير مملقته
للشبهة التى يقول فيها :

سمى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبرز ما بين المشيرة بالدم (٥)
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رحال بسوء من قريش وجرم
يعيا لنعم السيدان . وحسبنا على كل حال من سحرل ومبرم (٦)

(١) المفضيات ص ١٤١ بشرح حسن السدوى .

(٢) يتخاسين : يترامين ، الزول : الشجاع الداهى .

(٣) مترع الجملة : تمتلئ القدر ، ربيعى الندى : باكره

(٤) الأمم : القصد .

(٥) الساعيان : هرم بن سان ، والشارث بن عوف ، وغيظ بن مرة من ولد
عبد الله بن غطفان ، وقبرل : تشقق .

(٦) السحريل : حيط واحد لا يضم إليه آخره ، والمبرم : حيطان يفتلان حتى يصيرا
خيطا واحدا ، معنى : على كل حال من شدة الأمر وسهولته .

نداركنا عسا وديان، مدما قفانوا ودقوا بينهم عطر مدشم
وقد قلنا : إن مدرك السلم واسما عال ومروف من القول نسلم

فهو مدح لمسك - وإن كان موحها لشخص - يعلن به الشاعر عن إعجابه بما
صدر عن هذين الشخصين من مكررات ، وأيس مدحا لذات المدح ، ولا رعية في
تحقيق كسب ، أو الحصول على موال

من ثم عبرت مدائح زهير بتجنب المبالغات المقتولة ، والتزام الحقائق الواقعة في
اعتدال بين ، فهو ينظر في صفات الشخص ، ويتفحصها بحس الشاعر المهذب ،
ويلتقي منها الصفات التي يمتاز بها البدوي ويحتفل بمن ينعت بها ، ليقدم الصورة المثالية لها
من خلال رؤيته تلك .

ويشهد لذلك أن الشاعر لما رأى بني حارثة قوم هرم لا يقلون عن هرم في مسك
عمرود قال فيهم :

هنالك إن يستخبوا للال يخيلوا وإن يسألوا يمتطوا، وإن ييسروا ينلوا(١)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية يلتابها القول والفعل(٢)
قال صاحب الصاعيتين(٣): ولما استتم وصفهم بحسن المقال ، وتصديق القول بالفعل،
وصفهم بحسن الوجوه ، ثم قال :

على مسكثهم حق من يمتريهم وعند المقلين الساحة والبدل
فلم يحل مكثرا ولا مقلا منهم من بر وفضل ثم قال :

بأن جثثهم ألفيت حول بوتهم محالس قد يشقى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم قائم قال قاعد : رشدت فلاغرم عليك ولا حدل

(١) الاستخبال : أن يسألهم شيئا فيملكهم إياه ، وييسروا : يقامروا بالميسر ،
ويفلوا : يقامروا على غوالي الجزر .

(٢) المقامات المجالس ، وملتابها القول والفعل : يقال فيها الجليل ويعمل

(٣) كتاب الصاعيتين ص ١٠٧ بتحقيق البجاوي وأبو الفضل إبراهيم ، وانظر

للمدة ج ٢ ص ١٣٤ بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين .

(١٠ - الأدب العربي)

فوصفهم بالحلم وبالتضافر والتعاون ، فلما آتاهم هذه الصفات النفسية ذكر فضل آباءهم فقال :

ومايك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يلبث الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في مناقبها للنخل^(١)

فالدح - في الشعر البدوي - لا يخرج عن الوطنية الاجتماعية ، شأنه شأن للفنون
التي سبق الحديث عنها ، يستجيب الشاعر البدوي به لحاجة قومية ، ويسير فيه وفق
ما تمليه عليه البيئة ، دون انحراف أو تجاوز .

(١) الخطى : الرماح الخطية، نسبة إلى الخط وهي جزيرة بالبحرين، والوشيج: القنا.

الرثاء :

ومن الفنون التي تشغل جانباً عظيماً من شعر البادية في العصر الجاهلي فن الرثاء .
والرثاء من الفنون الشعرية التي تميزت فيها البادية عن الحاضرة ، سواء في شيوعه أوفي
منهجه ، وذلك لأن الرثاء - في عمومته - بكاء الميت ، والتفجع عليه ، والالتئاع لفراقه ،
وذلك بتمداد مناقبه ، والإشادة بخلاله للكرامة ، بيد أن الجو النفسي للشاعر ، والموقف
الاجتماعي الذي تقوم عليه العلاقة بينه وبين الميت يؤثر في مسار الشاعر في رثائه ، من
ثم صبت الرثية بألوان ثلاثة تمكن من تمييز كل منها عن غيرها ؛ فالرثاء يتردد بين
الندب والتأبين والعزاء ؛ ولكل مقوماته التي يعتمد عليها ؛ إذ الندب يقوم على تفجع
الشاعر وتحسره لفقد الميت ، والتأبين يقوم على تمديد مآثره وأفضاله على القبيلة أو
الأسرة أو المحيطين به ، والعزاء يقوم على التسلى والتعزى والنظرة التأبينية المتألمة في
الكون ونظام الحياة .

ولا ريب في أن الشاعر المطبوع يقع في مجالته فن الرثاء على اللون الملائم مع
الموقف الذي يضمه ، دون قصد إلى لون لداته :

والناظر في مرثي البدر الجاهليين يلاحظ أن أكثر مرثيهم كانت ندبا وتأبيناً .
كما يلاحظ أن صوت الشعراء إنما يملو ويمتد بالرثاء في الغالب إذا كان المرثى مقتولاً ؛
فهم في البادية إنما يتخذون من الرثاء وسيلة إثارة وتحسيس للشار والانتقام .

ومن ثم شارك في هذا الفن نساء كثيرات ، وكان لهن دور واضح ملموس في إثارة
الحروب وإشمال نارها ، ونفرة الجيوش لملاقاة خصومهم والانتقام لمن قتل منهم ، فما
زال المرأة تنوح على القتيل ، وتبكي فيه الشجاعة والنجدة والفروسية ، حتى تنهض
القبيلة وتثار له وما صنيع النساء شاعرة بنى سليم يخاف على أحد ، ومادافمها إلى
هذا البكاء المتواصل بمجهول لأحد ؛ فقد كانت تخرج إلى عكاظ تندب أخويها صخر
وممازية وتمدد مآثرهما ، وتبحث بين سامعها عن فارس مقدم بشفي نفسها بالتأثر لهما .
وحاكنها في ذلك هند بنت عتبة في بكاء أبيها (١) .

(١) راجع الأغاني ج ٤ ص ٢١٠ طبع دار الكتب .

ولم تكن المرأة تسكت في بكاء ميتها يوما أو أياما ، بلى قد يمتد بها الزمان أعواما .
تظل على ، حالها ، حتى يتحقق لها ما تهفو إليه من الثأر والانتقام .

وكان للنساء في ذلك وسائلهن اللاتي يقصدن بها إثارة المشاعر ، واستنفار الهمم ؛
فكُن يحملن شموههن ، ويقفن على القبر ، ويدرن على مجالس القبيحة ، ويشهدن
المواسم والأسواق ، يلطمن خدودهن بأيديهن وبالعمال والجلود . وقد تحصل من
هراشي الحنساء ديوان شعر يدور كله حول رثاء إخوانها . ومما قالته في ندب
صخر وبكائه ،

قذى بمينيك أم بالمين عوار أم ذرفت إذ خافت من أهلها الدار (١)
كأن عيني قد كراه إذا خطرت فيض يسيل على الحدين مدرار (٢)
فالمين تبسكي على صخر ، وحق لها ودونه من جديد الأرض أستار (٣)
تبسكي حناس ، وما تفك ما عمرت لها عليه رنين وهي مقتار (٤)
بكاء والهمة ضلت اليتمها لها حنينان : إسغار وإكبار (٥)
ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت بما عا هي إقبال وإدبار
وان صخرنا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار (٦)

ومن ذلك ما قالته جليسة بنت مرة - أخت جساس وامرأة كليب - حين قتل
أخوها جساس زوجها كليبا (٧) :

يا بنة القوم إن لم تـ فلا تمجلى بالـوم حتى كسألى
فإذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم ولوى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على شفق منها عليه فاهلى

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطرا متتابعًا .

(٢) المدرار : الكثير .

(٣) الأستار : الإحجار ، وفي قولها : جديد الأرض كناية عن حداثة موته .

(٤) مقتار : ضئيلة . (٥) الإسغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل . (٧) الوحشيات لأبي تمام ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتحقيق عبد العزيز الميمني

جل عندي وهل جساس ، فيا حسرتي عما أنجأت أو تنجلى
فمسل جساس على وجدى به قاطع ظهري ومـدن أحلى
يا قتيلا قوضت صرغته ستف يبق جيبا من عل
قوضت يبق الذى استحدثته واتثنت فى هـدم يبق الأول
خفى قتل كليب بالظى من ورأى ولظى مستقبل
درك الثمار يشفيه وى دركى ثأرى ثكل المشكل
إنى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرقح لى

والشاعرة تدرك أن نكاهها زوجها يعنى استنراض قومها للنار من قاتله ، وتدرك
ماذا يعنى الثأر من قاتل زوجها هى ملئعة حائرة لا اختصاصها من دون الرائيات
بهذه الحالة .

ومن ذلك أيضا ماقاله دريد بن الصمة فى رثاء أخته :

دعاني أخى ، والخيال يبنى وبينه فلما دعاني ، لم يجدنى بقعد
أخ أرضعتنى أمه من لبنها بشدى صفاء بيننا لم يجد
جئت إليه والرماح تنوشه كوقع الصياح فى النسيج الممدد
وإن يك عبد الله حلى مكانه فما كان وقاما ، ولا طائش اليد
قايـل التشكى للمصيات ذا كر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
تراه خيمس البطن والزاد حاصر عتيد ، ويندو فى القميص المقدد
وإن مسه الإقواء والجهـد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليد
صبا ما صبا حتى علا للشيب رأسه فلما علاه قال للباطل : أبعد
وطيب نفسى أنى . لم أقو له كدبت ، ولم أبخل بما ملكت يدي

ولعل أوضح مثال لذلك ماقاله العباس بن مرداس فى رثاء أخيه عمارة ، حين قتل
فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيدا عن موطنه ، فقام يرثيه ويتهدد قاتليه ويتوعدهم بالنار
صنهم ، ومنها :

أبعد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
فلا وضعت عندي حصان خمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله

فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويعلى بن سعد من تؤور يرا-له
بأنى سأرمى الحقل يوما بنارة لها منسكب حاب تدوى زلازله

فالرثاء البدوى يكاد يكون أسلوبا تميميا ، يشير به الشاعر سامعيه أو يهيه نفسه
للإقدام على عمل حربى يثار به لقتيله الذى يبكيه ، ويلتقم من اعتدى على الأخلاق
والقيم والصفات الحميدة التى كان يمثلها القتل أدق تمثيل .

من ثم يلاحظ أن الرثاء فى البادية كان أكثره مصروما إلى سادات العشيرة
وفرسانها الذين لهم عليها اليد الطولى فى حمايتها وقيادتها والقيام على مصالحها ؛ فهم الذين
يستحقون البكاء بهذا الصوت العالى ؛ شجعا لهمم الأحياء ، وتحريكا للقبيلة حتى
تثار لهم .

ولعل هذا يفسر لنا قلعة رثاء من يموت حتف أنفه فى الشعر البدوى . وهو على
قلته يدور حول الملاصقين من الأهل والأصدقاء - خصوصا الأبناء - وينال عليه
التفجع والتحصير المصحوب بالمواساة والنعزية والتسلى ، فهو فى الغالب يقوم عليه عنصرى
الغضب والمزاء . من ذلك ما قاله أبو ذؤيب الهذلى فى أبنائه الخمسة الذين فقدهم فى
عام واحد (١) :

أمن المنون وريها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع (٢)
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا منذ ابتذات ومثل مالك يفع (٣)
أم ما لجيبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع (٤)
فأجبتها أن ما لجسمى أنه أودى بنى من البلاد فودعوا (٥)
أودى بنى وأعقبوني غصة بعد الرقاء وعبرة لا تقلع (٦)

(١) ديوان الهذليين ص ١ طبع دار للكتب المصرية .

(٢) المنون : النية ، وريها : حواشيها ، ليس بمعتب : ليس بمرض .

(٣) ابتذل : امتحن نفسه فى الأعمال لموت من كان يكفيه .

(٤) أقض المضجع : صار كأن به حجارة صغيرة . (٥) أودى : هلك .

(٦) يشير بقوله « بعد الرقاد » إلى أن حزنه يمنعه النوم حين ينام الناس .

سبقوا هوى وأعقوا لهوام فتخرموا ولكل جنب مصرع^(١)
 فغرت بدمعهم بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع^(٢)
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المية أقبلت لا تدفع
 وإذا النية أنشبت أظفارها أليت كل تيممة لا تنفع
 فالعين بدمعهم كأن حذاقها سملت بشوك فهي عور تدمع^(٣)
 لا بد من تلف مقيم فانتظر أبارض قومك أم بأخرى المصراع
 ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يفجع
 وليأتين عليك يوم مرة ييـسـى عليك مقنعا لا تسمع^(٤)
 كم من جميع الشمل ملتئم الهوى باتوا بعيش ناعم فتصدعوا
 فلئن بهم جمع الزمان وريبه إني بأهل مودتى المفجع

والشاعر البدوي أمام ميتة غيره أمام قتيله ؛ إذ الدافع إلى الرثاء هنا غيره هناك ،
 وهو في كلتا الحالتين يمبر عن مكنون نفسه في صدق ، غير أنه في رثاء القتلى يدرك أن
 لراثه وظيفة اجتماعية تتمثل في الإثارة والتحميس ، وبضمن رثاءه ما يحقق ذلك ، ويدرك
 أنه في بكاء اللوتى حتف أنوفهم إنما يصور مشاعره الذاتية ، وانفعالاته الوجدانية .

(١) أعقوا : أسرعوا ، فتخرموا : أخذوا واحدا .

(٢) غرت : بقيت ، ناصب : ذى تعب ، مستتبع - بفتح الباء - مستلحق ، يقال :
 استتبع فلان ذهب به .

(٣) الحذاق . جمع حذقة ، وسملت : فقتت ، وعور - بضم معين - جمع عوراء
 من العوار بضم أوله وكشديد ثانية وهو ما يصيب العين من رمد أو قذى .

(٤) مقنعا : ملففا بأ كفائك .

الغزل :

حديث الشاعر عن المرأة يطلق عليه (غزل) ، وهذا الحديث يتنوع ويختلف من شاعر إلى شاعر ومن بيئة إلى بيئة ، فتارة يقف الشاعر بحديثه عن المرأة عند حد اجترار ذكرياته الماضية في علاقاته بالمرأة ، وتارة يخلص حديثه لوصف محاسن المرأة ، وبيان مفاتنها التي استهوته ، ومرة أخرى نراه يخاطب المرأة مستطفاً ، يكشف لها عن حبه لها ، وافتتانه بها ، ويذكر ما يفعله فيه بمدحها عنه من لو أعج الشوق ، وما يكابده من جراء ذلك . والشاعر أمام هذه الأحوال الثلاثة خاضع لظروف بيئته وأخلاقيات مجتمعه بحيث لا يستطيع أن يتجاوز أعراف قومه وقيمهم ؛ إذ المرأة عند العربي تمثل الحرم الذي يجب على الصغير والكبير أن يبذل حياته في حمايته والإبقاء عليه نظيفاً من كل ما يشين ؛ فليس الشاعر مطلق الحرية في الحديث عن المرأة ، إنما هو - على خلاف للفنون الأخرى - هماً ملتزم بالالتزام التام بما تقره القبيلة من ذلك .

والناظر في الشعر البدوي في العصر الجاهلي يلاحظ أن الشاعر البدوي - في الجملة - يتحفظ في الحديث عن المرأة دائماً ؛ فهي في نظره أمل مقدس لا يحق له أن يكشف من مفاتنها إلا الأشياء العامة التي تليق عن سر تعلقه بها دون أن يمس حرمانها المقررة ، إلا أن تكون أمة لا حرمة لها .

فالغزل البدوي - في جملة - غزل عفيف ، لا يخرج على إطار القيم البدوية ، حتى لقد أطلق رواة الأدب العربي على هؤلاء الغزليين البدويين اسم (التيميين) تمييزاً لهم من المشاق الماديين ، وأصبح قرين كل اسم منهم فتاة عرفت به وعرف بها كالمرقش الأكبر وأسماء ، والمرقش الأصغر وهاطمة ، والحبل وميلاء ، وعبد الله بن المعجلان وهند ، ومالك بن الصمصامة وجوب ، وقيس بن الخدادية ونعم ، وعبد الله بن علقمة وحبيشة ، وعمرو بن كعب وعقيلة . وكان أشهر هؤلاء جميعاً عنزة وعيلة .

* * *

ومن نماذج الشعر التي توضح ذلك ما قاله المرقش الأكبر مصوراً حيرته النفسية ،

وصراعه الحاد ، وما يمانيه من قلق وعذاب ؛ إذ يسائل نفسه عن مدى صموده أمام
صبوات قلبه وهيامه بأسماء التي أصبحت كل شيء في حياته ، فهي الأمل الذي يرتجيه ،
ونجوى الفؤاد التي يمشي معها ، كلما ذكرها اضطرب جسده وتملكته الرعدة كأعما
مسته حى شديدة :

أغالبك القلب اللاجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهم ولا يعبأ بأسماء قلبه كذاك الهوى إمراره وعواقبه (١)
وأسماء هم النفس إن كنت عالماً وبأدى أحاديث الفؤاد وغالبه
إذا ذكرتها النفس طلت كأنى يزعر عى قففاف ورد وصالبه (٢)

وما قاله عمرو بن كعب يصور فيه إقبال الليل عليه بميدا عن محبوبته ، وما يمانيه
فيه من أحزان تذيب مهجته ، وتسيل دموعه ، وتنتزع الزهرات الحارة من صدره :

إذا جن ليلى فاضت العين أدما على الحد كالغدران أو كالسحاب
وما أسفى إلا على ذوب مهجى ولم أدر يوما كيف حال الجباب

وما قاله ابن العجلان مصورا استسلامه - على الرغم من شدة بأسه وعلو همته -
أمام لحاظها إلى ترسل سهامها لتصيب قلبه ، دون أن يستطيع لها دوما :

لقد كنت دأ بأس شديد وهمة إذا شئت لسا للسماء استها
أتقى سهام من لحاظ فأرشتت بقلى ، ولو أستطيع ردا رددتها

وما قاله قيس بن الحداية مصورا الغضم للتلاطم من الأحزان الذى يطويه حين
تبعد عنه ، حتى يفضل الموت العاجل على الحياة وحيدا مع أحراره وهمومه .

فليت المنايا صبيحتى عدية بدسح ولم أسمع لبين مناديا
وود أيقنت نفسى عشية مارقوا بأسفل وادى الدوح أن لا تلاقيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشان المنايا القاصدات وشانيا

(١) إمرار الهوى : مرارته أو شدته .

(٢) الورد - بكسر الواو - الحمى ، والقفاف : الرعشة ، والصاب : شدة

الحرارة مع رعدة .

وما قاله عنثرة مصورا لواعيج نفسه ، كاشفا عن الالهواء المتدفقة فيها ، وما يعانى من الفراق ومرارة الحرمان ، حين ارتحل أهل عبلة إلى بني شيدان :

يا طائر البان قد هيجت أحزاني وزدتنى طربا يا طائر البان (١)
 إن كنت تندب إلنا قد فجمت به فقد شجاك الذى بالبين أشجاني
 زدنى من الفرح واسعدنى على حزنى حق ترى عجباً من فيض أجناني
 وقف لتنظر ما بى لا تسكن عجلا واحذر لنفسك من أنفاس نيرانى
 وطر لملك فى أرض الحجاز ترى ركبا على عاجل أو دون نعمان (٢)
 يسرى بجارية تنهل أدمعها شوقا إلى وطن ناء وجيران
 ناشدتك الله يا طير الحمام إذا رأيت يوما حول القوم فأنماني (٣)
 وقل : طربحا تركناه ، وقد فنيت دموعه وهو يـيـىـكى بالدم القانى

بيد أن الناظر فى شعر عنثرة يلاحظ أنه - على الإجمال - يمزج فيه بين الغزل والفخر ووصف معاركه الحربية وهروسيته وإقدامه ، وكأنه جعل من كل ذلك وسيلة إلى قلب عبلة يصل إليه عن طريقها ، أو كأنه جعل من حب عبلة دافعا إلى جلائل الأعمال وحافزا إلى محمود الأعمال من عفة ونجدة وشجاعة وتضحية ، يوضح ذلك قوله :

سلى يا عبـل قومك عن معالى ومن حضر الواقعة والطراد (٤)
 وردت الحرب والأبطال حولى تهـز أ كفهـا السـمر الصمـاد (٥)
 وخضت بمهجنى بحر المنايا ونار الحرب تنقد انقـاد
 وعدت مخضبا بدم الأعادى وكر الحرب قد حضب الجواد

وقوله عازيا لعبلة الفضل فى لقائه الصباب ، وصموده أمام عمرات الحروب ،

(١) البان : اسم شجر يشبه المصنصف .

(٢) عاجل ونعمان : مكانان .

(٣) حمولة - بضم الحاء - جمع حمل : الهودج أو البعير الذى عليه الهودج .

فأنماني أصلها فأنننى ، وهو تجوز للشعر .

(٤) الواقعة : القتال ، ويجمع على وقائع . والطراد : المطاردة .

(٥) السمر : الرماح ، والصماد - بكسر الصاد - جمع صعدة وهى القناة المستوية ،

يريد بها الرماح

مفتخرا بأنه لم ينهزم في أية معركة خاضها بقوة دعمها التي يرجو من ورثتها النظر إليه
بمعين الرضا :

يا عبل لولا أن أراك بنسأهري ما كنت ألقى كل صعب منكسر
يا عبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوائم أسمر
يا عبل هل بلغت يوما أنفى وليت مهزما هـ زيمة مدبر
يا عبل دونك كل حي فأسألى إن كان عندك شبهة في عنتر

* * *

غير أن الغزل البدوي لم يكن وفقا لهذا الاتجاه الماعطف الميف . فقد كان
من شعراء البادية من أباح لنفسه أن يتحدث عن خلال المرأة الحبيبة ، وصفاتها
الكريمة ، ناظيا بنفسه عن أن يعس جسدها وما يتصل به لأن لهذا الجسد حرمة أن
ترعى وتسان ، كقول الشنفرى في امرأته أميمة :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها إذا مامشت ، ولا بذات تالت
قبيت - بميد النوم - تهدى غبوقها لجاراتها إذا الهدية قات (١)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما يوت بالمذمة حلت
كأن لها في الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبت (٢)
أميمة لا يحزى نشاها حليم - إذا ذكر النسوان عفت وجات (٣)

لقد نال من الغزل عناية الشعراء البدويين ، وشد اهتمامهم ، وأقبلوا عليه يصبون
فيه مشاعرهم ، ويمرضون من خلاله رؤيتهم للمرأة ، حتى فرضوه على فنون الشعر
المختلفة ، وجعلوه تمهيدا ينقلون به سامعيهم من حياتهم العامة إلى ما يقصدون إليه ؛
فأصبح من أعرافهم الفنية أن يلقانا الشاعر مع مطلع القصيدة منتزعا يبكي ديار أحبابه

(١) النبوق : اللبن الذي يشرب في العشى .

(٢) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتمتع أثره ، أمها - بنتع الحمزة -

قصدها ، تبت : - بفتح فسكون - أوجزت .

(٣) نشاها : ذكرها وما ذاع عنها .

الذين ارتحلوا ، ويقف على أطلالهم الدارسة بعد أن تركوها ، مستعيدا في هذا الوقوف ذكريات الشباب وأحلام الصبا ، ثم ينتقل من ذلك إلى غرضه الأصيل من مدح أو رثاء أو سخر . . الخ .

ولا ريب في أن هذه المقدمة الغزلية لا تعد الدارس برؤية ذاتية للمرأة بقدر ما تعد برؤية عامة لها ، فلولا احتفال المجتمع الفنى بالمرأة وبالحديث عنها لما أفر هذا المنهج الشعري ، الذي أصبح تقليدا يستعين به الشاعر على الوصول إلى غرضه ، وإن لم يتم على واقع حقيقي . إنما الذي يعد الدارس برؤية الشاعر للمرأة هو الشعر الذاتى الذى يصور لواعجه وأحزانه ، وأفراحه فى البعد عن المرأة أو القرب منها .

الوصف :

تكاد تنون الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - تقوم على الوصف؛ فالوصف هو الوسيلة المثلى لدى شعراء البادية، حتى إنهم اعتمدوا عليه في أعمالهم القصصية، وأسسوا عليه نمو الأحداث فيها، وتطور المواقف، وبنوا عليه الحركة القصصية (الدرامية)، مما دعا كثيرا من الدارسين إلى أن ينفوا عن الشعر الجاهلي من القصة، متوهمين أن هذا الوصف جميعه نابع من تنفى الشاعر وميله إلى القاتية .

وفي الحق أن دارس الشعر البدوي في هذه الفترة يجد فيه وصفا للذاتيات، كما يجد فيه وصفا للموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها، وتباين أشكالها وهيئاتها . ويجد فيه وصفا للمعنويات والمدرجات العقلية والخيالية، كما يجد فيه وصفا للماديات والمدرجات البصرية والحسية

تري الوصف القاتى في نحو قول المرقش الأكبر يصف ما يمتل في داخله، وما شعر به حين مر به طيف محبوبته سليمى ليلا، فأبرز هذه الانفعالات النفسية في صورة مادية تعكس ما تضرب به نفسه، معتمدا على المقابلة بين مظهره الخارجى ومظهر أصحابه الذين لا يمانون مثل معاناته (١) .

سرى ليلا خيال من سليمى	فأرقى وأصعابى هجود
مبت أدير أرى كل حال	وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرى لنار	يشب لها بذى الأوطى وقود (٢)
حواليها مها جم الدراقى	وأرآم وغزلان رقود (٣)

(١) المنضليات ص ١٠٤ بشرح السندوبى .

(٢) الأوطى جمع أوطاة : نبات شجيرى ينبت في الرمل، ويخرج من أصل واحد، ورقه دقيق، وثمره كالعنب .

(٣) المها جمع مهاة : بقرة الوحش . وأرآم جمع رثم : ولد الظبي أو الغلي خالص البياض .

نواعم لا تلج بؤس عيش أواس لا تروح ولا ترود
يرحن ممأ بطاء المشى بدا عليهن المجاسد والبرود^(١)
سكن ببلدة وسكت أخرى وقطعت المواقق والمهود
فما بالى أى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد ١٩

وترى وصف الموضوعيات في نحو ثائية للشنفرى الى يصف فيها عارته في جمع من الصعاليك على سلامان ، فيقدم صورة حية واقعية ترى فيها تحركه ومن معه بأسلحتهم للانتقام من سلامان ، حتى يجعلك تصاحبهم وتميش معهم أدق تحركاتهم وحياتهم ، وفيها يقول واصفا طرقا من حياتهم الاجتماعية في أثناء تحركهم للغارة ، وكيف أن رابطة أسرية قوية تشدهم إلى بعض ، بحيث يقوم على خدمتهم واحد منهم - وهو تأبط شرا - فيقدمه في صورة الأم التي تقوم على رعاية أبنائها ، ويخضعهم لطام قاس ، تفرضه ظروف معيشتهم حتى لا ينضب زادهم :

وأم عيال - قد شهدت - تقوتهم إذا أطعمتهم ، أو تحت وأقلت^(٢)
يخاف علينا للميل إن هي أكثرت ونحن جياع ، أى آل تألت^(٣)
مصمكة لا يقصر الستر دونها ولا ترنحى للبيت إن لم تبيت^(٤)
لها وفه فيها ثلاثون سيحما إذا آست أولى المدى اقشمرت^(٥)

وترى الوصف المعنوى التجريدى في كثير من الحكم التي امتلأ بها شعرهم ، والتي يمثلها قول رهير في معلقته عارضا رأيه في الحياة وحلاصة تجاربه فيها ، ووصاياهم ونصائحهم المنزعة من هذه المعرفة المخبرة :

(١) المجاسد جمع مجسد - بكسر الميم - الثوب الملامس للجسد ، والبرود جمع برد : كداء مخطط يلتحف به .

(٢) أم عيال : يقصد تأبط شرا ، أو تحت : قنرت وأقلت

(٣) الميل - بفتح الميم وسكون الياء - الفقر ، أى آل تألت : أى سياسة نسوسنا ،

يقال : آله : ساسه .

(٤) مصمكة - بكسر اللام - صاحبة صعاليك ، لا يقصر الستر دونها : لا يغطي أمرها .

(٥) الوصة - بفتح فسكون - الجعبة ، والسيحف - بفتح السين والحاء - السهم

عريض النصل ، وأولى المدى : طلائع الأعداء ، واقشمرت : تهيأت للقتال .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب نمته ومن تحطىء يمرر فيهم - رم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يفتس بأنساب ويوطأ بعنسم
ومن هاب أسباب المنايا يملسه وإن برق أسباب السماء يسلم
ومن يفترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يزل يستحمل الناس أمره ولا ينفها يوما من الدهر يسأم

هذه طائفة من الحقائق المهردة تراءت أمام عقل زهير فتقدمها في ثوب مادي من
الشعر لتصبح أمام متلقي شعره ماثلة ، لا تتحوج إلى مماناة فكرية ، ولا إلى جهد
عقلي ، بل تصل إلى نفس المتلقي في يسر ؛ لوضوحها ودقة وصفها .

وترى الوصف المادي الذي يصور فيه الشاعر ما تقع عليه عينه من أسباب الحياة
التي تشتمل عليها البادية ، من مفاوز لميدة يجوبونها مسا فيها من انقطاع عن أسباب
الحياة ، وإبل يقطعون بها تلك اليا في ، وجياد يواجهون بها الحصوص في حروبهم بين
كروفر ، وأدوات حرب من سيوف ورماح ودروع ؛ فهذا الشنفري يصف سلاح تأبط
شرا أحد أصحابه وقد شبهه بالأم في إدارة شئون الجماعة ، فالسيف أبيض صارم يشبه
الملح في لونه ، حديده صاف كأنه الماء الصافي :

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلت (١)
حسام كلون الملح صاف حديده جرار كأقطع المدير المنمت (٢)

وهذا زهير يصور رحلة صواحيبه في الصحراء ، يلفت الأنظار إليهن وهن رااحلات
يصعدن الروابي ، وهبطن الوديان ، في هودج مكحلة ووردية الحواشي كأنها الدم ،
فإذا كن في وادي السوبان من ديار تميم ثنين أرجلهن للراحة بادية عليهن آثار النعمة
والترف . بدأن الرحلة في الصباح ، ورحلن في السحر ، دون أن يخطئن وادي الرس

(١) فزعوا : دهمهم محاربون ونهبأوا لقتالهم ، وأبيض صارم : سيف قاطع ، الجفرة :
الجمعة ، رامت بما فيه أى بسهامه ، سلت السيف : شهرته .
(٢) جراز ، بضم الجيم وفتح الراء - قاطع ، أقطع المدير : قطع الماء فيه ، شبه
السيف بها في اللعنان والبريق .

الذى قصدن ، فقد حملن جبل القمان ومن أرضه الصلبة عن يمينهن قطعن هذه الرحلة
من وادى السوبان على رحل جديد واسع رحب ، وكلما زلن بأرض للاستراحة خلفن
وراءهن فتات الصوف التى تشبه غنب الثعلب ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه
للإقامة ألقين عصا الرحال ونزلن به :

- تبصر حايلى هلى ترى من ظمائن نحملى بالعلياء من ورق حرثم (١)
علون بأنماط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكبه الدم (٢)
وركن فى السوبان يعلون متته عليهن دل الناعم المتوسم (٣)
وميهن ملهى للصديق ومنظر أذيق لعين الماظر المتوسم (٤)
بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن لوادى الرس كاليد للقم (٥)
حملن القمان عن يمين وحزنه ومن بالقمان من محل ومحرم (٦)
ظهرن من السوبان ثم جزعنه على كل قبى قشيب ومأم (٧)
كأن فتات المعن فى كل منزل زلن به حب القما لم يحطم (٨)
ولما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم (٩)

- (١) الظمائن : النساء الراحلات فى الهوادج ، والعلياء : اسم موضع ، وجرثم ،
- بضم الجيم - ماء لبى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : السائر على الهوادج ، وراد - بكسر الواو - حمر ، ومشاكبه : مشابهة ،
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة ، والسوبان : واد فى ديار بنى تميم والثن :
الظهر ، ودل الناعم : أثر البعثة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن . رحلن فى الصباح الباكر ، واستحرن : رحان - حمر ، كاليد للقم :
أى إن ما يقصدنه لا يحطئنه كما لا تخطئ اليد القم .
(٦) القمان - متج القاف - جبل لبى أسد ، والحزن : الأرض المصيبة المليظة ،
والحل - بضم الميم - الحليف صد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعه ، والقبى : الرحل ، والمأم - بضم الميم - الواسع الرحب .
(٨) المعن : الصوف ، وحب القما : غنب الثعلب .
(٩) الحمام - بكسر الجيم - السطح والمجتمع ، ووضع المعنى كناية عن الإقامة

وزهير في استقصائه وصف رحلة صواحيه هنا قريب الشبه بأستاذة أوس بن حجر في وصف القوس، حيث تتبع القوس مذكأن غصنا في شجرة بعيدة للنال وذلك قوله :

ومبضوعة من رأس مرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظمـر صفوان كأن متونه علقن بدهن يراق التثرلا
يطيف بها راع يحشم نفسه ليكلاً فيها طوره متأمـلا
على حير ما أبصرتها من بضاعة للتمس بيما بها أو تبـكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن لتبناه حتى تسكل وتمـلا

إلى آخر القصيدة ، ولما لقاء بها في موطن آخر من بحثنا هذا إن شاء الله .

وترى الوصف المادى لما يحيط بالشاعر في يئته مائلا - كذلك - في وصف البقرة الوحشية التي شبه به ليبد بن ربيعة المامري ناقتة ، تلك البقرة التي افترس السبع ولدها لما خذلته وذهبت ترضى مع صواحيها ، وأخذت تبحث عنه طائلة صائحة بين الرمال ، فلما لم تجده اشتد حزنها وبانت في مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف علاظها في تلك الليلة التي احتفت فيها النجوم ، فاشتد الظلام ، فاولت الاستتار من البرد والمطر بأغصان الشجر ، ولكنها كانت تنقص وتنال كشيان الرمل عليها فلا تحميها من البرد والمطر ، وتمدو في قاق تميدو في الظلام كأنها لؤلؤة سل نظامها ، حتى إذا انكشف ظلام الليل بكوت البقرة من مأواها تبحث عن إبنها ، ولكن قوائمها نزل عن التراب للندى لكثرة المطر الذي أصابه ليلا ، تتمعن في الجرع ، وتتردد متحيرة في وهاد هذا الموضع ومواضع عذاره سع ليال بآيامها ، حتى إذا يئست البقرة من العثور على ولدها وصار ضرعها الممتلئ لبنا خلفا لا تقطاع الابن لمدم إرضاعها ، سمعت صوتا ولم تر صاحبه خفامت ، فعدت فزعة مذعورة لا تعرف منجأها من مهلكها ، عندئذ يئس الرماة من وصولهم لها ، فأرسلوا كلابهم في طلبها ، فلاحقت بها ، ولكن البقرة تصدت لتلك الكلاب وطمنتها بقرها الذي يشبه الرمح دفاعا عن نفسها :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها(١)

(١) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، والصوار : القطيع من بقر الوحش .

خلساء ضيقت الفرير فلم يرم	عرض الشقائق طوفها وبنامها (١)
للمرقد قد تنازع علوه	غس كواسب لا يمن طامها (٢)
صادق منها غيرة فأصبتها	إن المنايا لانطيش سهامها
بانت وأسبل واكف من ديمة	يروى الخائل دائماً تسجامها (٣)
يملو طريقة متنها متواتر	في ليلة كفر النجوم ظلامها (٤)
تجتاف أصلا قالصا متنبذا	بمعجوب أنقاء يميل هيامها (٥)
وتغى في وجهه الطلسم مضمرة	كجامة البحري سل نظامها (٦)
حق إذا حصر الظلام وأسفرت	بكرت نزل عن الثرى أرامها (٧)
علمت تردد في نهاء صمائد	سبعا تؤاما كاملا أيامها (٨)
حق إذا يئست وأسحق حلق	لم ييله إرضاعها ومطامها (٩)
فتوجست در الأيس فراعها	عن ظهر غيب والأيس مقامها (١٠)
فقدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى الخافة خلفها وأمامها (١١)

- (١) الفرير : ولد البقرة الوحشية ، فلم يرم : فلم يدرج ، والشقائق جمع شقيقة : الأرض الصلبة بين رملتين ، والبنام - بضم الباء - صوت رقيق .
- (٢) المرقد - بفتح القاف - الأبيض ، والشلو : العضو ، والغبس - بضم الغين - جمع أعبس : لون كالرماد .
- (٣) الواكف : القطر ، والديمة : السحابة التي يدوم مطرها ما لا يقل عن نصف يوم .
- (٤) المتن : الظهر ، كفر النجوم : سترها .
- (٥) الاجتفاف : الدخول في جوف الشيء ، والتنهى : التجنب ، والمعجوب جمع عجب : أصل الدنب ، وهو هنا أصل الماء ، والنقا : كثبان الرمل ، والهيام : مالاتماسك به من الرمل .
- (٦) الجامة : درة مصوغة من الفضة .
- (٧) الازلام : القوائم . (٨) الملة والحلع : الانهماك في الجزع ، والنهاء - بضم النون - جمع نهى : التقدير ، وصمائد - بضم الصاد - موضع ، والتؤام جمع تؤم .
- (٩) أسحق : حاق ، والحالق : الضرع المتلى لبنا .
- (١٠) الرز - بكسر الراء - للصوت الخفي . (١١) تفرج : الواسع من الأرض ، أخبر أنها خائفة من كلا جبينها ، مولى الخافة : للموضع الذي فيه الخافة .

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قافلا أعصامها (١)
فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدها وتماها (٢)
لئلا نودهن وأيقنت إن لم تزد أن قد أحرم من الحقوف حمامها (٣)
تقصدت منها كساب فضرجت بدم وعود في المكر سخامها (٤)

وصفة القول ، لقد وصف البدويون في أشعارهم كل شيء وقمت عليه أعينهم
أو مريحاً لهم ، أو أحسوا به من خلال مشاعرهم في براعة فنية ودقة ، كما توجهوا
بنظرهم الفاحص إلى دخائل نفوسهم ومحصول عقولهم معكسوه على مرآة شعرهم في
صدق وبساطة .

-
- (١) الكلاب الفضب : المسترجية الآذان ، والدواجن : الملمات ، والقفول : اليبس ،
والأعصام : البطون .
- (٢) اعتكر : عطف ، والمدرية : طرف قرننها ، والسمهرية من الرماح : الرماح
المنسوبة إلى سمير رجل اشتهر بمحذق صنمها من قرية خطا بالبحرين .
- (٣) الدود : الكف ، والإحمام : القرب ، والحتوف : قضاء الموت ، والحمام :
تقدير الموت .
- (٤) كساب : اسم كلبة ، وكذلك سخام .

البَابُ الثَّالِثُ

الشَّعْرُ الحَضْرِي

الفصل الأول

أعلام من شعراء الحاضرة

أقصد بشعراء الحاضرة أولئك الشعراء الذين مرضت عليهم ظروف حياتهم أن يعيشوا في الحاضرة فترة من الزمان مكنت لقيمها وأخلاقياتها ومظاهرها وعاداتها أو لبعض ذلك من تقوسهم، جعلت منهم عربا غير العرب المجاورين لهم في البادية حسا وهمورا، ومكرا واعتقادا، وأسلوبا في الحياة، وتصورا وخيالا... إلى غير ذلك من الآثار التي تفرضا الحاضرة على قاطنينا أو من ينزلون بها.

ولعلنا نذكر مما قدمنا أننا نرى شاعر الحضر واحدا من ثلاثة هم الذين تصورهم واقعين تحت سطوة الحاضرة بمؤثراتها وقيمها.

أولهم : ذلك الشاعر العربي الذي ولد في كنف الحاضرة سواء كانت حاضرة عربية خالصة، وهي التي تستقي حضاراتها من بقايا الحضارة العربية القديمة المزوجة بما يصلها من الحضارات المجاورة عن طريق الرحلات التجارية، والجلاليات الأجنبية الوافدة إلى أرض العرب، والجماعات العربية الزائرة لبـلاد فارس والروم والحبشة ومصر على اختلاف الدوام إلى ذلك - مثل يثرب، والطائف ومكة، وما بين النهرين، وحمّان، والبحرين، واليمن، وكندة، أو كانت حاضرة عربية تكاد تذوب في جيرانها من غير العرب - وهي التي تقتبس حضارتها من الحضارات المجاورة لشبه الجزيرة العربية من فارسية، ورومية، ومصرية، وحبشية... إلخ - مثل الحيرة والشام.

وثانيهم : ذلك الشاعر البدوي الذي خرج من باديته إلى إحدى الحواضر العربية بعد أن شب ونما حسه وتكوّنت أفكاره ومشاعره، خلفت مظاهر الحضارة الطارئة ليه، لكنه لم يستطع أن يتلاءم معها تماما، ولم تتمكن آثارها منه تمكنا يسلخه من بيئته الأصلية، فوقف في تأثره بالحضارة الجديدة عند حد الشكل والضمون، أما المعارف والأخيلة والماني فظلت عربية بدوية خالصة.

ثالثهم : ذلك الشاعر العربي الذي أدرك الإسلام - بدويا كان أو حضريا -
فاستجاب له ، واندفع إليه بقوة وإخلاص ، مؤمنا بأفكاره ، مكبا على كتابه ، أو ماسرنا
رافضا ، فاندفع في مقاومته متأثرا بمنهج شعرائه ، فإذا مفاهيم غير المفاهيم ، وأمكار
غير الأمكار ، وأساليب غير الأساليب ، والفاظ غير الألفاظ ، وأخيلة غير الأخيلة ،
ومعان غير المعاني ، وإن لم تسكن غريبة عن سابقاتها ؛ لأن الجديد عربي هذبته حضارة
الإسلام ، التي اعتزت بالمرية المهدبة سواء كانت بدوية أو حضرية .

* * *

لقد كان حياة الحاضرة وما تحتويه من مظاهر الترف ، ووسائل النعيم ، وأسباب
التحضر للمادية والفكرية - أكر الأثر في الشعر الجاهلي ؛ فقد استحوذت هذه الحياة
على طائفة من شعراء هذا العصر - على امتداده - فشككت حياتهم بشكل يختلف عن
طبيعة الحياة في البيئة الجاهلية عامة ، واتجهت بهم وجهة نفسية وعقلية وسلوكية تنابر
وجهات أقاربهم وإخوانهم في البيئات الربية الأخرى ، وصبغت أذواقهم الفنية بالأصاغ
والألوان التي تمكسها حياة الترف والتنعم في الحضارة المادية ، وحياة التسامى والترقي
في الحضارة الإسلامية ، فلم يهتموا إلا بالأغراض التي تستجيب لها نفوسهم تلك ، ولم
يقصدوا إلا إلى الفنون الشعرية التي تلى حاجاتهم ، وداروا بمآلهم وأحيلتهم في محيط
الحاضرة التي تضمهم وما تضيفه على أمكارهم وخيالاتهم من انطباعات .

فلم يكن شعراء الحاضرة هؤلاء على مستوى واحد في درجة تأثرهم بتلك البيئة ،
بل إنهم ليتفاوتون في ذلك تفاوتا كبيرا - وإن لم يخرج عن إطار البيئة - يرجع إلى
صلة الشاعر بالحضر وطبيعة تلك الصلة وملاساتها وطبيعة الحضارة وأبعادها ؛ إذ ليس
من المعقول أن يكون تأثير البيئة فيمن ولد ودرج بين أهلها مماثلا لتأثيرها فيمن نزع
إليها ، طمعا فيما تقدم له من أسباب الترف والنعم ، خلفا وراءه بيئته الأصلية وما فيها
ومن فيها ، وليس من المعقول أن يكون تأثير الحضارة المادية مساويا لتأثير الحضارة
الفكرية والمقيدة .

وكان من أشهر شعراء هذه البيئة عدى بن زيد ، وأبو داود الإيادي وأمرؤ القيس
وطرفة بن العبد ، والمبابة الدياني ، والأعشى ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص
والباس بن مرداس ، والمثقف العبدى ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وأمّية بن أبي الصّات ، والسموأل بن عادياء ،
وكعب بن الأشرف . . إلخ غير أننا سنتناول بالمرض ستة شعراء من هؤلاء يمثلون
الاتجاهات المختلفة التي وضحت في شعرهم تأثرا بظروفهم البيئية الخاصة ، وهؤلاء
الشعراء الستة هم عدي بن زيد ، وامرؤ القيس ، والنابغة ، والعباس بن مرداس ،
وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .

لقد جاء الإسلام فبدأ اثره واضحا على عقل العربي وسلوكه ، بحيث أصبح كل
دارس متخصص يرى تأثيره من وجهة تخصصه أبرز التأثيرات ؛ ودارس الديانات
يرى في الإسلام مؤثرا هائلا في الحياة الدينية حول العرب من الشرك إلى التوحيد ،
ومن الوثنية المادية إلى التجريد . ودارس الاجتماع يرى الرؤية نفسها في المجال الاجتماعي ؛
فقد تحول به العرب من القبلية إلى الدولية ، ومن المصيبة الأسرية إلى المصيبة الروحية ،
ودارس الثقافة يلمس التأثير ذاته ؛ فقد تنازل العربي بالإسلام عن الخيال المجهول
تمبيراته وأفسكاره وانتقل إلى أسلوب آخر في التعبير والتفكير يمتزج فيه الخيال بالواقع ،
والمحافظة بالفسك ، والشعور بالمقل . وقد رأينا مظاهر ذلك التأثير في النثر العربي على
اختلاف موانه .

والناظر في القرآن الكريم ، وشعر صدر الإسلام ، يخيل إليه أنه أمام مخاضة
من القرآن للشعر ، خصوصا حين يقرأ قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر
أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (١) . حتى لقد بلغ الوهم ببعض
الدارسين أن قرروا أن الإسلام يحرم الشعر أو يكرهه ، مغفلين ما كان من رسول الله
صلى الله عليه وسلم من تقدير للشعر إلى حد جملة يحلج برده على الشاعر كعب بن زهير
أثر إنشاده قصيدته (بابت سعاد) ، قائلا : « إن من الشعر لحكمة » (٢) ، وما روى
من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا بقتل النخع بن الحارث أحد أسرى بدر
الذين طالما آذوا الرسول ، فلما قتل عرضت ابنته (قتيلة) لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو بطوف ، فاستوقفته وحذت رداءه حتى انكشف منكبه ، فأشدهت أبيضاتا
جاء في آخرها :

(١) الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٢) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٥ .

أحمد ولأنت ضنء نجيبسة في قومها ، والفعل فحل معرق
ماكان ضر لو مننت ورعا من الفقى وهو المفيظ المحقق
والضر أقرب من أخذت برلة واحقهم إن كان عنق يعتق
لو كنت قابل مدية لفسديته بأعز مايفدى به من ينفق

فلما مرغت قال صلى الله عليه وسلم : لو سميت هذا قبل أن أقتله ماقتلته إلى غير
ذلك من الرويات الى تكشف عن احتمائه صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء ،
ولو كان ماجاء به القرآن الكريم حصومة للشعر وتحريما له أو كراهية لما قابل
الرسول الأمين الشعر والشعراء بهذا الاحتفاء .

ومن يتأمل الآيات الكريمة يحمد القضية التي يعرضها القرآن تبدأ قبل ذلك حيث
يليه تعالى إلى الفرق بين الشعر والقرآن ، ردا على زعم المشركين وادعائهم بأن ماجاء به
محمد شعرا أو كهانة أو سحرا تنزلت به الشياطين ، فقال جل شأنه معرفا بالقرآن الكريم :
« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين .
بلسان عربي مبين » (١) . ثم قال تعالى : « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم
وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (٢) . إلى أن يقول موضحا الفرق بين
القرآن والشعر : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثم . يلقون
السمع وأكثهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون .
وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا
واشتغلوا من بعد ما ظلموا » فالوارنة صريحة بين القرآن والشعر ، أجاب بها تعالى
على دعوى أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من قبيل الشعر الذى يلعب بالعواطف ،
ويستحوذ على المشاعر . وضع فيها أن القرآن ليس من ذلك الضرب الخادع ، القائم
على الباطنة ، وإنما هو كلام صريح بلسان عربي لبيان الحقيقة ، ويكشف الطريق لدوى
العقول التى تقدر على وزن الأمور ، وتسعى لاختيار الحق منها ، فهو وسيلة إنذار
وتبيين ، لا استحواذ وتأثير . كما وضع فيها الفرق بين طائفتين من الناس ، إحداها
تهم وراء ما يابى بمشاعرها وعواطفها ، أم سماتها الغواية والخيال المنح حيث يقولون

(١) سورة الشعراء آية ٢١٠ ، ٢١٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ ، ٢٢٧ .

ملايفملون ، والثانية تقف على أرض صلبة تطلق منها في تفكيرها ، وتسير عليها في سلوكها ، هي أقرب إلى الواقع ، وألصق بالحقيقة ، فهم مؤمنون ، يعملون الصالحات ، ويذكرون الله ، ويتصرون من بمد ظلم ، ليسوا محذرين ولا مستسلمين لأوهام الخيال .

فالقضية ليست قضية الشعر ، بحيث نقبين منها موقف الإسلام من الشعر ، ولكنها قضية الإدعاء بأن ما جاء به محمد شعرا ، ففرق سبحانه بين الشعر وآثاره والقرآن ورسائله وآثاره ، وفرق بين الشعراء المستسلمين لخيالات الشعر واتجاهاته ، وبين الشعراء المؤمنين الذين لا يبعدهم الخيال الشعري عن الواقع .

ويقرر هذا أنهم كانوا حريصين على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالشاعر ، إيماناً إلى أن دعوته تلك رهن بحياته ، فإذا مات خبا سلطانه على النفوس وضعف حتى أصبح أثراً لا تأثير له ، ومن ثم فهم يتوقعون أن الموقف سيتغير حين يموت محمد ، ولا يكون نعمة ذلك التأثير الشعري الساحر : « مذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نترصد به ريب للنون . قل ربصوا فإني معكم من المترصدين » (١) هذا وهم المشركين بنوه على حسب تصورهم في القرآن واعتقادهم أنه نمط من الشعر لا يابث أن تنطفئ جذوته ؛ فإنهم لما رأوا للقرآن ذلك التأثير البالغ على السامع والناظر — ومادروا أن هناك قولا غير الشعر يبلغ في التأثير هذا المبلغ — لم يكن أمامهم إلا أن يضيفوا على القرآن صفة الشعر وإن كان غير مطابق في الشكل لما عهدوا وعرفوا من الشعر ، فهو في وهمهم شعر بتأثيره وليس ببائث وشكله . ولو كانوا — في ذلك — يريدونه شعرا من كل الوجوه لما كانوا في حاجة إلى ذلك الإعلان المتكرر ؛ إذا لعل يعرف فيه تلك الصفة ، إنما هم فكروا وقدروا فلم يصلوا إلى غير ذلك .

من هذا المنطلق الواضح بمقاصد القرآن الكريم احتفل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر والشعراء دون أن يجد في ذلك عضاضة أو كراهية ، واحتفل معه الصحابة وسائر المسلمين شعراء وغير شعراء .

فالشعر في ظلال الإسلام وسيلة من وسائل متعبير يخضع لما خضع له سائر الوسائل

التعبيرية من مبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقياته . والشعراء في ظلال الإسلام كالشعراء في كل عصر وبيئة منبهثون للتأثر بما يظلمهم من موجبات المواطن والتفكير والخيال .

* * *

لا ريب في أن العصر الإسلامي إمتداد زماني للعصر الجاهلي ، فما كان عليه الشعر في العصر الجاهلي لا يمكن أن يتغير طغرة ، وإنما هو خاضع لقوانين الفطرة التي تقوم على التدرج في الانتقال والتنير فالعرب - حين بدأت الدعوة الإسلامية - هم عرب الجاهلية شعرا وحلقا وسلوكا . إلى غير ذلك وإنما بدأ أثر الإسلام في شعرهم حين دأبت دعوته : خلقت في السماء .

العربية مبادئ غير المبادئ ، وقيم غير القيم ، وجدت على الأرض العربية ظروف وملابسات غيرت شكلها أو كادت . وقد وضع ذلك كله بعد الهجرة إلى المدينة ، حيث اشتعلت نار الحرب بين مشركي مكة ومسلمي المدينة ، وكما شرعت الرماح واستلقت السيوف في هذه الحرب ، سلت الألسنة ، وأذيعت القصائد من الجانبين . وقد لمع في هذه الحرب من حارب مكة أسماء شعراء كثيرين لم يكن لهم قبل ذلك ذكر - مثل صرار بن الخطاب الفهري ، وعبدالله بن الزبيري ، وأبي عزة الحمصي ، وأبي سفيان ابن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب المخرومي - وجهوا شعرهم لهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وللصد عن الدين الجديد ، فوقف من شعراء المدينة حسان بن ثابت يرد عليهم ، مدافعا عن الرسول وعن الإسلام ، ومعه كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت معركة حامية الوطيس قدمت كثيرا من الشعر ، بيد أن الذي وصلنا منه قليل مشكوك في صحته ، لأن رواية ابن إسحاق لم يكن دقيقة في الرواية والنقل ، وقد نبه إلى ذلك ابن سلام في قوله عنه : « كان بمن أفسد الشعر وهجته وحمل كل غشاء منه (١) » ،

وتضامن جماعة من شعراء اليهود مع شعراء مكة هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ودعوا العرب إلى الإعراض عنهم ، وكان في مقدمتهم كعب بن الأشرف ، الذي بكى قتلى بدر ، واشتط في عداوته وشبب بدعاء الرسول وساء المسلمين ، بما دفع

محمد بن مسلمة إلى قتله^(١) وإلى جرار هؤلاء وأولئك وقف كثير من شعراء العرب مع قريش ليكون قتلاهم ، وبهجون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وبمحرضون قريشا على مواصلة الحرب ، ومكافحة هذه الدعوة ، مثل أمية بن أبي الصلت القدي رثى قتلى بدر من قريش^(٢) ، والأسود بن يقرب بن عبد الأسود القدي مدح قريشا وأشاد بانتصارهم في أحد^(٣) .

ولما فتحت مكة أقبل كثير من شعراء العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين معتذرين عما بدر منهم . طالبين العفو عما قالوا ، مثل كعب بن زهير ، وأبو ابن زهير ، وأبو سفيان بن الحارث ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضيعه ، وكان شديد المداوة لرسول الله ، ثم أسلم عام الفتح ، وشهد حميدا فأبلى فيها بلاء حسنا ، وبما قاله بعد إسلامه^(٤) :

لمـمـرك إني يوم أحمل راية لتغلب حيل اللات خيل محمد
لـسـكـالـه لـج الحيران أظلم ليله مهذا أوان حين أهدى وأهتدى

* * *

واستمرت الحرب بلونها العسكري والكلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اختلاف الخصوم ، وفي عهد الصديق كانت بين المسلمين والمرتدين من قبائل العرب مثل أسد وغطفان رعيم وحنيفة ، وفي عهد عمر كانت الحرب بين المسلمين ، وبين الفرس والروم ، حيث أقبل المسلمون جميعا على تلك الحروب . وكان من يتخلف عن الحرب لضرورة يحس في نفسه بأثم وضيق ، فخرج كثير من الشبان تاركين وراءهم آباء شيوخا يمولونهم ، مما دعا عمر إلى أن يسترجع أمثال هؤلاء ، من ذاك ما رواه صاحب الأغاني أن الخليل السعدي جزع حزنا شديدا حين خرج ابنه شيبان مع سعد ابن أبي وقاص ، وكان قد أش وصف ، فمضى إلى عمر وأنشده أبياتا منها :

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(٢) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ٢٦٣

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٧

أيها كفى شيان في كل ليلة لقاي من خوف الفراق وجيب
 وإن يك عصي أصبح اليوم ذاويا وغصنك من ماء الشباب رطيب
 فإني خنت ظهري خطوب تتابعت فمضى ضعيف في الرجال ديب
 إذا قال صهي : ياربيع ألا ترى ؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
 وبخبرني شيان أن لن يعمي تمسق إذا هارقتني ونحسوب^(١)
 فلا تدخلن الدهر قـرك حوبة يقوم بها يوما عليك حبيب

بمكي عمر ورق له وكتب إلى سعد يأمره برد شيان على أبيه ، فعاد إليه مكرها ،
 ولم يزل عنده حتى مات^(٢) . وذكر ابن سلام أن أمية ابن حرثان بن الأسكر هاجر
 ابنه كلاب وأحده إلى البصرة بعد ما كبر وكف بصره فقال لعمر :

لمن شيخان قد شـددا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتاب^(٣)
 إذا هتفت حمامة بطين وج طي بيضاتها ذكرا كلابا^(٤)
 تركت أباك مرعشة يـداه وأمك مالمسيخ لها شرابا

فـكتب عمر إلى أبي موسى بإعـضاضه إلى أبيه^(٥) . وقال النابغة الجعدي لامرأته
 حين أظهرت تأثرها لخروجه في حرب الفرس^(٦) :

بانت تذكري بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنهما شبالا
 يا ابنة عمي كتاب الله أخرجي كرها ، وهل أمنن الله ما سلا
 فإن رجعت رب الناس يرجعني وإن لحقت بربي فابتغى بدلا
 ما كنت أعرج أو أعمى فيمذرني أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

(١) محبوب : تأثم (٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) لمن شيخان : يعني لمن ترك شيخين كبيرين ، نشدا كلابا كتاب الله : استعملها
 كلابا بكتاب الله ، حفظ الكتاب : رعى له حرمة وأطاعه .

(٤) وج - بفتح الواو - اللطائف .

(٥) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٦) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٩٣ .

ولما تولى عثمان الخلافة راحل سياسة عمر ، فأتم فتح إيران وإفريقية ، وفي أثناء ذلك اندلعت الثورة ضده ، وكانت فتنة راح الخليفة ضحيتها ، فبكاه كثير من شعراء المسلمين ، وتولى على رضى الله عنه الخلافة من بعده ، ولم يقر له قرار ، إذ خرج عليه طلحة والزبير ومعاوية ، وآررتهم السيدة عائشة أم المؤمنين ، واشتدت اللعن وتوالت ، والتقى المسلمون في عدة معارك طاحمة ، لم تتوقف حتى قتل على فبكاه أصحابه وقد كانت هذه الحرب ميدانا لتداول الشعراء ، وتقنينهم في إسقاط المسلمين على الطرف الآخر ، واستشارتهم ضده ، وكل طائفة تحاول أن تقيم الحجة على الآخر .

(١)

إمرؤ القيس

نشأته :

إمرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو السكندی . ذكرت كتب الأدب له أكثر من إسم ، فاسمه حندج - بضم فسكون - وعدى ، ومليكة - بضم ففتح - وكما تعددت أسماؤه تعددت كناه ، فقيل : أبو وهب ؛ وأبو زيد ، وأبو الحارث . ولقب بإمرؤ القيس ، ودى القروح ، والملك الضليل . ولقد اتخذ بعض الدارسين هذا التمدد سبيلا إلى التشكيك في وجوده . مغفلين أن ذلك من طبيعة العرب ، إذ يطلقون على الشخص من الأسماء والكنى والألقاب ما يتناسب مع الأحداث والمواقف التي يمر بها ، والصفات التي يكون عليها . هذا إلى أن كثيرا من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان للواحد منهم من الأسماء والكنى والألقاب ما يفوق الذي أثر لإمرؤ القيس بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى بعشرات الأسماء .

لم تعرف سنة مولده ، ويقدر أنه ولد مع مطلع القرن السادس الميلادي .

ولد في بيت الملك مآبوه وأجداده ملكوا كندة النجدية ، تلك الإمارة العربية التي أقيمت في مقابلة إمارة المناذرة في الحيرة الخاضعة لسلطان الفرس ، وإمارة الغساسنة في الشام الخاضعة لسلطان الروم .

ويعتبر الحارث جد إمرؤ القيس أهم أمراء الأسرة ، فقد كان حريصا على الساع نفوذها ، فأكثر من الإمارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته أبناء حجر ومعد يكرب ، ومن بين غاراته تلك غارتان على فلسطين الخاضعة للدولة الرومانية في عامي ٤٩٧ ، ٥٠١ الميلاديين (١) .

وسنحت له فرصة التوسع حين غصب (قباذ) ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة لرفضه مذهب المزدكية ، فعزله وولى الحارث مكانه ، الذي حرص بدوره

على أن يحمى نفسه ، وينشر سلطانه ، قولى ابناءه على القبائل ، فحمل حجرا على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر وحظلة والرباب ، ومعد يكرب على تغلب والتمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حظلة والصنائع وهم بنو رقية قوم كانوا يكونون مع الملوك ، وسلمة على قيس^(١) . ولكن الحارث لم يهأ بما وصل إليه طويلا ، فقد توفى قباض وخلفه كسرى أنو شروان الذى كان يكره المزدكية : فعزل الحارث . وأعاد المنذر إلى الحيرة ، مدارت بينه وبين الحارث حروب طاحنة انتهت بمقتل الحارث وتبع المنذر ابناءه بالإيقاع بينهم والهدس ، وتآليب القبائل عليهم ، فسقط شرحبيل فى معركة بينه وبين أخيه سلمة ، وسقط معد يكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أواره الأول^(٢) . أما حجر فقتلته قبيلة بنى أسد ، على اختلاف فى أسباب ذلك وكيفية ، فقد ذكر صاحب الأغاني فى ذلك أربع روايات مختلفات ، روى الأولى عن هشام بن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وميها يرجع مقتله إلى أن كان له على بنى أسد إناوة ، فلما تل أبوه منعوها وضربوا جياته ، فإر إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكساعة ، فاستسلموا له ، ولكنه أساء إلى سادتهم وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرمة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاهرهم عبيد بن الأبرص فاستمطانه عبيد بن مسعدة يقول فيها :

يا عين فابكى ما بنى أسد فهم أهل الدامة
أهل القباب الحمر والد سقم المؤبل والمدامة^(٣)
حالا أبيت الله من حـ لا إن فيما قلت آمة^(٤)
إما تركت تركت عـ وا أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأغاني ج ٩ ص ٩٠ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نقائص جرير والفرزدق ص ٨٨٧ طبعة بيجان ، وابن الأثير ج ١ ص ٢٢٨

(٣) المؤبل بضم الميم وفتح الهمزة : المقتنى .

(٤) حالا : أى تحال من يمينك ، والآمة : العيب

ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامه (١)

فاستجاب حجر لهم ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمرُوا له الانتقام ، ولما سمحت لهم الفرصة قتلوه ، وانهبوا أمواله .

وروى الثانية عن أبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وتلخص في أن حجرا لما حاف من بني أسد استجار بموير بن شجنة التيمي لبنته هند وأهلها ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدي وغابله وقتله .

وروى الثالثة عن أبي الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وفيها أن حجرا لما استجار بموير بن شجنة تحول عن بني أسد وأقام في كندة مدة ، جمع منهم حمما عظيما سار به إلى بني أسد ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقررت مهاجمته ، فساروا للقائه ، فاقتتلوا قتالا عسيفا ، فحمل صاحب أمرهم علباء ابن الحارث على حجر فقتله ، وانهمزت كندة ، وهيم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس له أشقر ، ولكنهم قتلوا من أهل بيته طائفة ، وأسروا أخرى ، ونهبوا أموالهم .

ونقل أبو الفرج الرواية الرابعة عن ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، وتقول إن حجرا رجع بعد موت أبيه إلى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم فاجتمع أمر بني أسد على محاربته والخروج عليه ، فخرج إليه بعض شجعانهم ، وقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانهم وسبوا جواريه ، ولما علم حجر بما صنعوا قاتلهم مهزموه وأسروه ، ووثب بقى منهم كان له عندئذ ثأر فقتله (٢) .

* * *

ولقد كثرت الروايات والأقاصيص التي تناولت حياته بالوصف والتعليل ، ولكننا لا نجد رواية منها تسلم من الطعن أو الشك فيها ، وما ساعد على ذلك تشابه اسمه مع غيره من شعراء الجاهلية ، فقد روى أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعرا كلهم يسمى امرؤ القيس .

(١) الأشيقر تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ؛ والخزامة حلقة من شعر تيجل في وثرة أنف البعير يشد بها الزمام ، فإن كانت من صقر فهي برة .
(٢) الأعشى ج ٩ ص ٨٣ وما بعدها طبعة دار الكتب المصرية .

وتسكاد تلتقى الروايات على أنه لم ينشأ في كنف أبيه ، فابن قتيبة يروي (١) أنه رأى من أبيه جفوة فلهق بعمه شر حبيب ، فأقام في بني دارم حيناً ، ويذكر مرة أخرى أن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة حلجل ما كان فقال : (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ حجرا أتاه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس واثني بمينيه ، مذبح جوذرا وأتاه بمينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن إني لم أقتله ، قال : فأمتى فانطلق فإذا هو قد قال شعرا في رأس جبل ، فرده إلى أبيه . فنهاه عن قول ، الشعر ، ثم إنه قال : (ألا أنعم صياحا أيها اللطال البالي) مبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه وهو يتمون

وصاحب الأغاني يروي عن ابن السكلي أن حجرا كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه ألفة من قوله الشعر ، وكانت للوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء ، وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام مذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقام ، وغنته قيانة ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره ، وظل على هذا الحال إلى أن بلغه مقتل أبيه (٢) :

وكان لشأنه هكذا ، بعيدا عن رعاية أبيه أثر بالغ في انحراف سلوكه ، وحلوده إلى اللهو والبث ، وبعده عن مسؤوليات الحكم والحياة ، حتى إنه حين بلغه مقتل أبيه وجه إليه اللوم على ما كان منه في شأنه ، إذ أهمل إعداده وإشرافه في معالجة المشكلات فافتقد الخبرة بالحياة ، والتجربة ، فقال : ضيعي صغيرا ، وحملني دمة كبيرا (٣) .

وسواء صححت هذه الرواية أو تلك ، أو لم تصح واحدة منها ، فإن حياته تشير إلى أنه حرم التوجيه والإعداد ، وترك حبله على غاربه دون رعاية أو تقويم ، فاطلق يحرر يد مستندا إلى حاهه وبراء أسرته الذي يجد فيه للمعين الثر ، فسار ومن خلفه طائفة من الشذاذ يلقفون للثمة من حوله ، ويتسقطون الدميم في جواره .

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ ، ص ١٢٢ بتحقيق أحمد محمد شاكر .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٨٨ ، الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٧ .

ومارال طى هذا الحال إلى أن قتل أبوه ، فأسقط فى يده ، وحال أن يجد لنفسه
سيلا ايتاز لآيه أو يحتفظ بكيانه وسلطانه ، فكأنح فى سبيل ذلك وجاهد ، وظل
ينتقل بين القبائل يطلب منها العون على بنى أسد ، ولكن دون جدوى إلى أن مات ،
ويقال على الظن أن موته كان فى الفترة بين سنتى ٥٣٠ و ٥٤٠ م

شعره :

على الرغم مما أحاط بشعر امرئ القيس من ملايسات تشكك فيه ، وتشير إلى أن
من بينه الكثير المنحول . فإن فيما نطعن إلى سبته إليه من ذلك الشعر ما يمس حياة
صاحبه ، ويبين ما كان عليه قبل مقتل آيه ، وما آل إليه أمره بعد ذلك : فإنه تقسم
شعره قسمين ترى فى أحدهما الميث واللاهو ، وترى فى الآخر الحزن والجهد
والخيرة والقلق

ومع هذا التنير الطارىء على حياة الشاعر ؛ تنظر فى شعره فلا تكاد تجد فيه
خروجا على مؤثرات بيئته الحضرية المترمة الفارغة ، التى وقفت بخبراته عند حد معين
ضيق لا يكاد يتجاوزه .

يتمثل ذلك فى معانيه وأخيلته المكررة المعادة من قصيدة لأخرى ، حتى كأنه
مقد القدرة الشعرية ، أو نصب فكره فلم يعد يقع على الجديد من المعانى ، وفى الحقيقة
أنه ما كان هذا ولا داك ، بل إنه كسل للترف المنصرف عما دون لذائذه عن تحريك
عقله وإعمال فكره اعتمادا منه على ما سبق له . مثال ذلك قوله فى معلقته :

وقد أعتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وقوله فى مطولته الثانية اللامية .

وقد اعتدى والطير فى وكناتها لنيت من الوسمى رائده خال
وقوله فى بائيته :

وقد أعتدى والطير فى كنانها وماء الندى يجرى على كل مذهب
بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوى كل شأ ومغرب

وقوله في ضاديته :

وقد أغتدى والطير في وكرانها بمجرد عبل البدين قبيض (١)
ومثال ذلك - كذلك - قوله في مملته :

فعاذى عدا بين ثور ونعجة درا كا ولم ينضج بماء فيفسل
وقوله في مطولته اللامية :

فعاذى عدا بين ثور ونعجة وكان عدا الوحش منى طى بال
وقوله في البائية :

فعاذى عدا بين ثور ونعجة وبين شبوب كالقضية قريه (٢)
ومثال ذلك قوله في مملته :

فمن لنا سرب كان نعاجه عداى دوار فى السلام المديل
وقوله في لامية :

ذمرت بها سربا نقياً جلوده وأكرعه وشى البرود من الخال
وقوله في بائية :

فبينا نعاج يرتمين خيالة كفى العذارى فى الملاء المهدب
وقوله في ضاديته :

ذمرت به سرباً نقياً جلوده كما ذعر السرحان جنب الريض (٣)
ومثال ذلك قوله فى المعلقة ه وصف فرسه :

له أبطلا ظبي وساقا نعاما وإرخاء سرحان وتقريب تتفل
وقوله فى البائية :

له أبطلا ظبي وساقا نعاما وصهوة غير قائم فوق مرقب

* * *

وتتلقى محدودية امرئ القيس فى موه الشعرية التى وقف بها عند حد

(١) اللبل : الضخم ، والقبيض : الشديد ، وقيل : السريع .

(٢) الشبوب : الشباب ، والقضية : الصحيفة البيضاء ، والقريه : فتحة فسكون

فلتفتح : المسن

(٣) السرحان بكسر السين : الدئب ، والريض : الغنم .

الاستعدادات الحيوية ، فأنت في المرحلة اللاهية من حياته لا تسكادتمش في شمره إلا على صورة الالهى العايت المفرد من مجتمعه القدي لا تشارك عشيرته مشا كلها ، بل ولا يحس بما يدور حوله ، فهو في شمر تلك المرحلة مقصور على مطاردة امرأة يستعطفها ويستميلها بشق الوسائل ، فتارة ياجأ إلى وصف مفاخراته النسائية وطورا يلجأ إلى الحديث عن اشتغاله بها ، والسهر معها ، والتفكير الدائم فيها ، وثالثة يستمر من ملاحيه وسياحاته العابثة وما يحدث فيها من لهو وإمتاع جسمي ؛ سكان بحق المايق إلى هذا الغزل الفاحش صريح الذي دار بالبطولة في نطاق المرأة ومتع الجسم وغير ذلك من الماديات .

ومطولته المشهورة بالمعلقة خير ما يمثل شعر تلك المرحلة وقد سار فيها مسارا خاصا . فقد بدأها بمطلع عده القدماء من مبتكراته ، استوقف فيه من معه ليستعيدوا ذكريات الأحباب ومنازلهم ، ومستعرضا هذه المنازل وما آلت إليه بعد ارتحال أهلها ، متذكرا حاله يوم ارتحلوا ، منتقلا من ذلك إلى تعداد مواقفه النسائية المائلة ، مستثيرا بذلك عيرة صاحبه فاطمة لملها تستجيب له .

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل^(١)
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل^(٢)
ترى بمر الآرام في عرصاتها وقيمانها كأنه حب فلفل^(٣)
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل^(٤)

(١) السقط : منقطع الرمل ، واللوى بكسر اللام : حيث يلتوى ويرق ، وإنما خص منقطع الرمل والرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض ليسكون ذلك أثبت لاؤتاد الأبنية ، وأمكن لحفر النوى . والدخول وحومل : موضعان .

(٢) توضح والمقراة : موضعان ، لم يعف : لم يدرس ، والرسم : الأثر ، والجنوب : الريح القبلية نسبة إلى القبلة ، والشمأل : الريح الجوفية نسبة إلى الجوف في شمال مكة .
(٣) الآرام : الظباء البيض : وعروة للدار ساحتها ، والقيمان جمع قاع : المستوى من الأرض .

(٤) السمرات جمع سمرة بضم الميم : شجر الصمغ العربي . والناقف : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حراره تدمع منها المين .

وقوفا بها محمى على مطيهم يقولون : لانهك أسي وتجمـل
وإن شفاؤى عبرة إن سفعنها وهل عند رسم دارس من ممول^(١)
كدينك من أم الحويرث قبلها وحارثها أم الرباب بمأسـل^(٢)
فماضت دموع للمين من صباية على النحر حتى بل دمعى عجمى^(٣)

ويواصل الشاعر في ذلك السيل ، فيذكر ما كان في دارة جلجل بينه وبين عزيزة
وصواجها ، ثم يخلص من ذلك ليتجه إلى صاحبتة معانبا في رقة ، مذكرا بما يكنه لها
من هوى ، متقربا منها بشئ الوسائل معترفا بصيواته وما في سلوكه من ضعف أمام
للنساء ، طالبا منها قبوله على علاقته ، وذلك في قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التـدللى وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجملى^(٤)
وإن كنت قد ساءتلك مى حليقة سلى ثيابى من ثيابك تنسل^(٥)
أغرك منى أن حبك قاتلى وألك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرقت عيناك إلا لتقدحى سهميك فى أعشار قلب مـقتل^(٦)
وبيضـة خدر لا يرام خباؤها تنمت من لها بها غير معجل^(٧)

(١) الممول : المعتمد ، من التعويل على الشيء ؛ أى إن البكاء عند رسم دارس
لا يجدى شيئا .

(٢) الدين بكسر الهمزة : للدأب والعادة ، مأسل بفتح السين : اسم جبل ، وبكسر
السين اسم ماء .

(٣) الحمل : سير يحمل به السيف .

(٤) بعض هذا التـدللى : كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت والعزم : القطع
والفراق ، فأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقيح .

(٥) سلى ثيابى من ثيابك : أخرجى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٦) ذرقت : سال دمعها ، والقـدح : الحرق والتأثير فى الشيء ، والأعشار جمع
عشر بكسر العين : القطع والأجزاء .

(٧) شبه صاحبتة بالبيضة لبياضها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر لأنها مكنونة غير
متبدلة . غير معجل : لم أهمل عنها بغيرها .

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشرون مقتلى (١)
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)
فجئت وقد نضت ليوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفصل (٣)

ويواصل حديثه ، فيذكر خوفها عليه وعلى نفسها الفضيحة وانكشاف الأمر ، وكيف خرج بها من البيوت منتحيا مكانا مأمونا ، ويفصل ما كان بينه وبينها في تلك النجوة ، واصفا محاسنها ، ومصادر الإثارة فيها ، ومظاهر جمالها ، ومناخ جسمها وأطرافها ، ويخلص من ذلك إلى أن تلك التي أذكر لا تستطيع أن تنزعني من حبك والاشتغال بك ، إني على الرغم مما أسمعه عنك من الخصوم ، لا أنقطع عن التفكير بك ، والاهتمام بأمرك ، فليلى مظلم ثقيل يحتوي على أنواع الموم ويمتد بي فلا أكاد أجد ما ينقذني عن نهايته ، وماطرأ على الليل طول ولا ثقل ، ولكنها هموم الحب وشقوته تجلس أشعر بما لا يشعر به غيري وهكذا اظل ليلى قلنا أقرب زوالة وهو لا يتحرك ، حتى حيل إلى أن بجومه شدت إلى الجبال والاحجار الكبيرة فأصبحت ممنوعة من الحركة والزوال :

الارب خصم فيك ألوى رددته نصبح على تعذله غير مؤتل (٤)
وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم ليبتلى (٥)
مقات له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل (٦)
إلا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(١) يشرون بكسر الشين وتشديد الراء : يظهرون .
(٢) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمنيب فأرتك جانباً منها
مثلاً ترى من جانب الوشاح حين يتلفاك بباحية مه ، والمفصل : الذي حمل بين كل خرزتين فيه أولوة .

(٣) نضت : نزع ، لبسة بكسر اللام : هيئة اللبس ، والمفضل : من يلبس ثوباً واحداً .

(٤) الألوى : شديد الخصومة ، وللوئلى : المقصر .

(٥) السدول : الستور

(٦) تمطى : امتد ، والصلب : الظهر ، وناء : بكل كل : نهض بصدريه .

فيالك من ليل كأن نجومه بكل منار القتل شدت يذبيل^(١)
 كأن الشثيا علفت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل^(٢)

ومع هذا السهر الطويل المضي ، ومع هذا الألم الممعن ، وإني قد أباكر الصيد
 قبل خروج الطير من أعشاشها بفرس قوى عنيف ، لا يملك زمامه إلا فارس مدرب ،
 فلا يتصور من يراني على هذا الحال أني قضيت ليلي مؤرقا مسهدا ؛ وأنا مع ما أعاني
 قوى فتي :

وقد اغتدى والطير في وكساتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(٣)
 مكر مفر متبيل مدبر مما كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٤)
 كبيت يرل الابد عن حال متنه كا رلت الصفواء بالمتزل^(٥)
 مسح إذا ما السابحات على الونى أرن عباراً بالكديد المركل^(٦)
 على العقب حياش كأن اهترامه إذا جاش فيه حميه على مرجل^(٧)

-
- (١) المنار : شديد القتل ، ويدبل : اسم جبل .
 (٢) المصام : مكاتها الذي لا تبرحه . والأمراس جمع مرس بفتحين : الحبل ،
 والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم جمع أصم : الصلب الشديد .
 (٣) الوكنات جمع وكمة بضم الواو : مواقع الطير ، والمنجرد : العرس قصير
 الشعر ، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيك : الضخم .
 (٤) الجلمود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : أسقطه .
 (٥) الكبيت : الفرس الأحمر في سواد ، يرل : يسقط ، المتن : الظهر ، الصفواء :
 الصخرة البيضاء ، المتزل : النازل عليها .
 (٦) مسح : يسح المدو مثل سح المطر ، السابحات : الخيل المسرعة ، الونى :
 الفتور ، الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الدلى وكلته الخيل بحوارها . يعنى
 أنه في جريه لا يثير غبارا كما تصنع السابحات لأن حوارها لا تسكاد تلمس الأرض .
 (٧) العقب بفتح العين وسكون القاف : جرى بعد جرى ، حياش : يحيش في
 جريه كما تحبش القدر على النار ، الاهترام : صوت الجوف عند الجرى ، والحمى بفتح
 الحاء وسكون الميم : الغلى ، والمرجل : القدر .

يطير الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المنقل (١)
 دربر كخذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل (٢)
 له أبطلا طى وساقا زمامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل (٣)
 كأن طى الكتفين منه إذا انتحى مدالك عروس أو صراية حنظل (٤)
 فمن لنا سرب كأن زمامه عذارى دوار فى الملاء المذيل (٥)
 فأدبرن كالجزع للفصل بينه يجيد مسم فى العشرة محول (٦)
 فالحق بالهدايا ودونه جواهرها فى صرة لم تزيل (٧)

ويصف مشهد الصيد وما يشتمله من صراع بين مرسه هذا وبين جماعة البقر ينتهى
 بصيد ثور ونمجة يقوم الطهاة بإعداد لحومها للطعام .

ثم ينتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألت بهم فى رحلهم تلك ،
 وكيف بدأ وميض البرق الذى يشبه انتشاره وتشعبه فى السحاب المتراكم حركته اليدى

(١) يطير : يسقط ، والصهوات جمع صهوة : موضع اللبد من ظهره ، يلوى
 بأثواب العنيف : يذهب بها ، والعنيف : الأخرق ، والمنقل : الثقل الذى لا يحسن الركوب .
 (٢) دربر : سرب ، الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل الصبيان فيها خيطا يديرها ،
 وجمل حيط الخذروف موصلا لأنه قد لذب به كثيرا حتى حب وأخلق وتقطع خيطه
 فوصل ، فذلك أسرع لدورانه .

(٣) الأبطل : الخاضرة ، والسرحان : الذئب ، تنقل : الثعلب ، والإرخاء : المدو ،
 والتقريب : التقفز .

(٤) مدالك العروس بفتح الميم : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق . والصراية : بفتح
 الصاد : الحنظلة الصفراء البراقة . شبه حارك الفرس إذا اعترض بهدين فى الملاسة والبريق .
 (٥) عن : ظهر ، دوار بضم الدال : صنم يدورون حوله ، الملاء الملاحف ،
 المذيل : الطويل المذهب .

(٦) الجزع : الخرز البمانى ، الجيد : العنق ، مسم محول : كرم العم والحال ، شبه
 بقر الوحش فى بريقه وما فيه من البياض والسواد بالخرز المفصل بالؤلؤ النفيس فى
 عنق صى كرم أعمامه وأخواله .

(٧) الهدايا : المتقدّمات من البقر ، الجواهر : المنخلفات منها ، والعرة : الجماعة
 التزيل : التفرق .

وتقليهما أو يشبه مصاييح راهب منقطع في الصحراء يتوهج نورها في الظلام الدامس بما يمدّها من زيت . وكيف قعد هو وأصحابه ضارج والمذيب يتأملون ، وميض البرق وثألقه في السحاب متعجبين من بعد ما يتأملون . ثم كيف أضحى هذا السحاب يسح الماء للمرة بعد المرة في غزارة فيقتلع الأشجار العظام ويسقطها على رؤوسها ، ولم يدع هذا السيل بقرية تباء شيئا من جذوع النخل ولا شيئا من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعا بالصخور أو محصا . والتفت السيول وما تحمل من عثاء بجبل المحيّر في أرض فزارة فبدا كأنه ملكة مغزل ، أما الجبل أنان فبدا من هذا السيل والثناء كشخ ملتف في كساء محطط ، وألقى هذا المطر ثقله بصحراء الغميط فأثبت السكّال وضروب الأدهار مبدت من خرفة زاهية كأنها الثياب التي ينشر التاجر النجاني حين يعرضها للبيع . وأصبح للناس فوجدوا السباع غرقى في المياه تبدو رؤوسها فيها من بعيد كأنها جذور البصل البرى . وقد راكمت السحاب وأحاطت بنا من كل جانب ، حتى يمتد من يتأمله أن أيمنه على الجبل قطن في ديار بى أسد ، وأن أيسره على جبل الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين . ولقد عم المطر جبل بسبان حتى اضطرب الأوعال المستقرة فيه إلى الدزول منه :

أحار ترى برقاً كأن وميضه	كلمع اليدين في حى مكلل ^(١)
يضى سناه أو مصاييح راهب	أهان السليط في النمل المفتل ^(٢)
قعدت له ومجنى بين حاصر	وبين إكام بعد ما متأمل ^(٣)
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة	يكب على الأذقان دوح الكههل ^(٤)
وتبأ لم يترك بها جذع نخلة	ولا أظما إلا مشيدا بجحدل ^(٥)

- (١) حار : ترخيم حارث ، يعنى يا حارث ، الوميض : لمع البرق ، الحى : معارض من السحاب وارتفع ، والمكّال : السحاب في جوانب السماء يشبه الإكليل .
- (٢) السا : الضوء ، السليط : الزيت ، والذبال : الفتائل : وأهان السليط : كثر منه
- (٣) حاصر ، وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : بضم الباء : يريد بعد ما تأملته ، أى تأملته من مكان بعيد .
- (٤) الفيقة بكسر الفاء : ما بين الحلبتين ، الكههل : ما عظم من شجر الغضاء ، والدوح جمع دوحة : الشجرة كثيرة الورد والأغصان .
- (٥) الأظام بضمين : البيت المسطح .

كأن طمية الحجير غدوة من السيل والماء فلكة منزل^(١)
 كأن أنا في أمانين ودقة كبير أناس في بجاد منزل^(٢)
 والقي بصحراء الغبيط بماعة نزول اليماني ذي العياب الخول^(٣)
 كأن سباعا فيه غرق غدية بأرجائه القصوى أنا يش عنهل^(٤)
 على قطن بالشيم أين صوبه وأيسره على الستار فيذبل^(٥)
 والقي بيسان مع الليل بركة فأنزل منه العصم من كل منزل^(٦)

* * *

كما تترأى تلك المحدودية في صورته البيانية التي قامت على التفسير والإضافة في أكثر شعره ، بحيث أصبح التشبيه من معالم امرئ القيس المميرة له عن غيره من معاصريه ، فكان - على ما قال ابن سلام - أحسن طبقة تشبيها^(٧) . ففي شعر امرئ القيس نجد التشبيهات متلاحقة متوالية ، حتى يخيل إليك أنه ما قال الشعر إلى لية - دم هذه التشبيهات المتراكمة .

-
- (١) طمية : اسم جبل ، والحجير : أرض لبني فرارة ، النشاء : ما حمله السيل ، وفلكة المنزل بفتح الفاء : ما استدار فوق رأسه .
- (٢) أبان : اسم جبل ، أمانين : الودق : ضروب المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومنزل : نعمت لكبير أناس ، يعنى هو ملتف بديابه .
- (٣) الغبيط : موضع ، البعاع بفتح الباء : الثقل واستعاره لكثرة المطر ، العياب بكسر العين : الحقائق ، الخول بالواو المشددة المفتوحة : كثير المتاع والقلدان الذين يصحبونه .
- (٤) غدية بضم الغين وفتح الدال : حين يصبح الناس ، الأنايش جمع أنبوش : أصول البت ، والعنصل بضم العين والصاد : البصل البرى .
- (٥) قطن : جبل في ديار بني أسد ، الشيم بفتح الشين المشددة : النظر إلى البرق والمطر ، والستار ويذبل : جيلان مما يلي البحرين .
- (٦) بيسان بضم الباء : جبل ، والبرك بفتح الباء وسكون الراء : الصدر : العصم بضم العين وسكون الصاد : الأوعال .
- (٧) راجع طبقات حول الشعراء ج ١ ص ٥٥ بتحقيق شاكر .

وقد لفتت كثرة التشبيهات في شعر امرئ القيس وجودتها أنظار الباحثين القدماء ، حتى لقد أفرد ابن سلام للمستحسن منها فصلا في طبقاته^(١) ، بيد أنه لم يبين نواحي الحسن فيما ذكر ، وإنما اكتفى بسردها ، على نحو يشير إلى كثرتها في شعره كثرة ملفنة ، والذي أداه في تلك السكثرة التشبيهية أنها أمارات من أمارات محدودية امرئ القيس ، فقد رأى فيما لديه من معارف يئنه ما يكفي لاستغلاله في تفسير أخيلته وتقديمتها إلى الآخرين ، ومن ثم ركز عليها ، ودار في محورها ، حتى لا يرهق نفسه بكبد الخواطر في التصوير والابتسكار وما يتطلبه من نظر محص مستقص متابع ليرسم الصورة من مكنها الحقيقي .

ويلاحظ أن امرأ القيس يستمد تشبيهاته من واقعه المادى المألوف ، ومن يئنه للحرية المتحضرة ، بحيث تجد في تشبيهاته البدوى القفح إلى جوار الحضري الطارىء فالمرأة عنده تشبه البقرة الوحشية في جمال عيونها ، وتشبه البضة في رنمها ولونها ، وشعرها يشبه عذق النخلة المتداخل في غزارته ، وحصرها كالزمام في اللين ، وتربتها كالمرآة ، وسافها كالبردى في بياضه ، وأصابها كساويك شجر الاسحل . والفرس عنده يشبه مدالك المروس ، والصخرة الملساء تسقط من عل ، وحذروف الوليد ، وصراية الحنظل والمقاب وحاصرتها تشبه خاصرة الطي ، وساقاه تشبه النماطة . ولم يقف في تشبيهاته عند حد المرأة والفرس فقد شبه دم الوحش الذي لطح صدر فرسه حين صادم بمصاراة حناء صبيغ بها شيب في قوله :

كأن دماء الهاديات بحره عمارة حناء بشيب مرجل

شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب وقلوبها اليابسة بالتر الرديء الجاف ، مطروحة أمام وكر العناب بمد أن يأكل لحم الطيور التي يصيدها .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

* * *

هذا ويلاحظ المدارس أن أمراً القيس لم يصر صوره على التشبيه ، فقد استعار وجانس وطابق كما في قوله .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
وقوله مجانسا :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقوله : وإن كنت قد ساءت لك مني خليفة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
وكتوبه مطابقا :

مسكر مفر مقبل مدبر معا كجملود صخر حطه السيل من علل
وقوله : غداؤه مستشزرات إلى العلا تضل المدارى في مثني ومرسل

* * *

وفي المرحلة الثانية بعد مقتل أبيه تجدد فيه الحزين المهموم الحائر الذي لا يجد من خبراته ما يبعده بخروج لازمته التي فوجيء بها على غير توقع ؛ فهو طالب للتأثر ، يسعى بين القبائل في تجنيد قوة يحقق بها غايته ، يمدح هذا لأنه استجاب لمطلبه ، ويهجو ذلك لأنه سخر منه ، ويفخر بأجاده وفروسيته لإصراره على التأثر لأبيه . مثل قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطام وبالشراب (١)
عصاهـير وذبان ودود وأجرا من مجلحة القذاب (٢)
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همق وبه اكتسابي
فبعض اللوم عاذلني فلني ستسكيني التجارب واتسابي

(١) موضعين بكسر الفـاء والهمزة : مسرعين ، لأمر غيب : يريد به الموت ، ونسحر : نلهم ونخدع .

(٢) القذاب المجلحة : المصمة على الشيء التي لا ترجع عما تريد . يعنى : نحن في الضعف مثل هذه المخلوقات ، وفي ركوب الآثام أجرا من مجلحة القذاب .

إلى عرق الترى وشجعت عروقي وهذا الموت يسلبني تيباني (١)
ونفى سوف يسلمها وحرى ويلحقني وشيكاً بالتراب (٢)
ألم أبيض المطى بكل خرق أمق الطول لماع السراب (٣)
وأركب في اللهام المحر حتى أنال ما كل القمح الرغاب (٤)
وقد طوقت في الآفاق حتى رصيت من الغنيممة بالإياب (٥)
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبمد الحير حجر دى القاب (٦)
أرجى من صروف الدهر لنا ولم تغفل دن الصم الهضاب (٧)
وأعلم أنى عما قليل سأنشب في شبا ظفر وناب (٨)
كما لاقى أبى حجر وحسدى ولا أسى قتيلاً بالكلاب (٩)

يضاف إلى هذا ما يتضح في شعر امرئ القيس من ميله إلى الصورة التفسيرية أو الإصامية وهي القائمة على ربط شيء بشيء، في هيئة تشبيه أو استمارة؛ إذ ذلك يتلاءم مع ظروف حياته وما فيها من ترف يدعو إلى الدعة والراحة ولا ريب في أن الصورة المسيرية أبسر من الصورة الابتكارية التي يضطر معها المصور على الرجوع إلى العناصر المخزنة في الذهن ليكون منها مجموعة ويلبها من شتات ليصنع منها صورة تكشف عن إحساسه الداخلي تجاه الموقف أو المشهد.

حقيقة هذه السمة التصويرية تكاد تلازم أكثر شعراء الجاهلية، ولكن كل شاعر يحيط به من الظروف ما يبتعثه على سلوك هذا الطريق دون غيره والذي أراه دفع

-
- (١) وشجعت عروقي : اعتبرت واتصلت ، يقول : إن أصله في حسبه ثابت راسخ
(٢) الجرم : البدن ، والوشيك : السريع .
(٣) أبيض المطى : أهزلها ، الخرق : العلاء ، الأمق : واسع الطول .
(٤) اللهام بضم اللام الجيش الكثير الذى يسير كل شيء لكثرة فكأنه يلهمه ويبتلمه ، والمجر : الكثير ، والقمح بضم القاف وفتح الحاء جمع قمحه دومة من شرف ومنزلة ينالها وهي من الافتحام وهو التزاحم في شدة ، والرغاب : الواسعة المكيئة .
(٥) طومت . أكثرت الطواف ، والمشى فى نواحى الأرض حق شق على ذلك .
(٦) الصم . جبال ليسب بالشوامخ ، والهضاب : الصلبة .
(٧) شبا كل شيء حده ، سأنشب . أى أعلق وأثبت بأظفار المنية .
(٨) الكلاب بضم الكاف . اسم واد كانت فيه رقعة قل فيها عمه شر حليل .

امراً القيس إلى هذا المسلك التصويرى بالإضافة إلى الدوافع العامة ، هو ميله إلى السهل الميسور الذى يحقق له التفوق والامتياز .

وإذا ذكرنا أن امرأ القيس من أوائل شعراء العصر ، وذكرنا ما كان عليه في مساره الشعرى ، اتضح لنا أنه تسنم كرسى الأستاذية لمن أتى بعده من الشعراء ، فملكوا مسلكه ، فأصبحوا مقتدين به في الأغراض ، أو في التصوير . وفي ذلك يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف محبته ، والبكاء في الديار ، ورقة اللبس وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالمقبان والمصى ، وقيد الأوابد وأحادي التشبيه ، ووصل بين النسب وبين المعنى ، وكان أحسن أهل طبقة تشبيها » (١)

وصفوة القول أن امرأة القيس على الرغم من محدوديته التي اضطرتته إليها ظروف بيئته كان شاعراً أوتي من أسباب التعبير والتصوير ما جعله في مقدمة شعراء الجاهلية .

(١) طبقات خول الشعراء - ١ ص ٥٥ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١١٠

عدى بن زيد

عدى بن زيد المبادى التيمى ، وهو إنما يشتر بالنسبة الأولى ، وهى نسبة دينية لا عرقية أطلقت على طائفة من العرب - على اختلاف قبائلهم - اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فسموا عبادا لأنهم عباد الله تميزا لهم من الوثنيين أو أفنة من أن يطلق عليهم « عبيد » إلى غير ذلك من التعليلات التى زخرت بها كتب الأدب القديمة والحديثة (١) .

أما النسب الثانية فهى نسبة عرقية قبلية تشير إلى أنه من تميم ، وبعض المؤرخين يقف به عند ذلك ، والبعض الآخر يصل منها إلى مضر بن نزار .

ولد ونشأ بالحيرة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى فى أسرة ذات علاقات وطيدة بالأكاسرة ملوك فارس والناذرة عمالهم على الحيرة فقد تولى جده حماد الكتابة للنعمان الأكبر ، واستطاع أبوه زيد بن حماد أن يحذق الكتابة العربية فى حياة أبيه ، فلما توفى حماد انتقل زيد إلى رعاية صديق والده من الدهاقين المرازبة المظلم (٢) فعلمه الفارسية ، ومكن له من أن يكون على البريد لكسرى ، فكثرت تولى ذلك زمانا .

ولما مات النعمان الأكبر والى كسرى على الحيرة واحتلف أهل الحيرة حول من يملكونه عليهم حتى يختار كسرى ملكا آخر ، أشار عليهم الدهقان أن يختاروا زيد ابن حماد ، فملكوه عليهم إلى أن عقد كسرى للسدر بن ماء السماء .

(١) راجع فى ذلك الأغاني ص ١٥٦ ج ١ ، ومعجم البكرى ج ١ ص ٢٣ وما بعدها وسمط اللالى للبكرى ص ٢٢١ والاشتقاق لابن دريد ص ١١ والمعصر الجاهلى لشوقي ضيف ص ١٠٠ الطبعة السابعة .

(٢) الدهقان فارسى يعنى التاجر ، والمرازبة جمع صرهبان وهو المارس الشجاع .

ملكه ويريه عطعته ، وكان من بين البلاد التي طاف بها بلاد الشام ، ولكنه لم يجد فيها ما يشغله عن الحيرة فقال مواربا بين دمشق والحيرة مفضلا الأخيرة على الأولى :

رب دار بأسفل الجزع من دو مة أشهى إلى من جيرون
ونداحى لا يفرحون بما لنا لوا ، ولا يرهبون صرف اللون
قد سقيت الشمول في دار بشر قهوة مزنة بماء سخين (١)

وبينا كان عدى في سفارته بالشام ، تبرم أهل الحيرة بالمدبر حاكمهم من قبل كسرى وعزموا على قتله لجوره وظلمه ، فلما أحس المدبر بالخطر بعث إلى زيد بن حماد والد عدى مستنجدا ، فحدثه بما بلغه وعرض عليه تنازله عن الملك له ، فرفض زيد واستمهله حتى يكشف الحقيقة ، فلما التقى بالناس ووجد منهم الإصرار على التخلص من المدبر هدا من ثأرتهم ، وأشار عليهم برأى يكشف عن دهائه وحيلته السياسية أرضى به الثأرين وطمان الملك إلى احلاصه وحبه له ، فقال لهم : تدعون المدبر على حاله فإنه من أهل بيت ملك ، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة قد احتاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون غزو أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور ، فرضى أهل الحيرة بذلك وولوا زيدا على كل شيء سوى اسم الملك ، فإتهم أقروه للسدر ومرح المدبر بذلك الحل لأنه حفظ عليه كيانه ، وشكر زيدا عليه ، واعتبره يدا له عليه أقسم أن يحفظها له في قوله : إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت حق سبد (٢) .

وكان من أبرر مظاهر حفظ المدبر لهذا الصنيع أنه بعد أن مات زيد وصاحبه الدهقان ورجع عدى إلى المدائن من سفارته إلى الشام استأذن كسرى في الالتصام بالحيرة فأذن له ، فتوجه إليها ، ولما بلغ المدبر خبر قدومه خرج في جمع من الناس لاستقباله والترحيب به .

ولما أراد المدبر أن يختار مرييا بعد ابنه الزمان الأصغر ليتزوج ملكا بعده لم

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٣٠ وسبد صنم كان لأهل الحيرة

يُجَدُّ أَفْضَلَ مِنْ عَدِي يَقُومُ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ، لِمَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْخَلْقِ الطَّيِّبِ
وَالْهَدَايَةِ بِأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَالسِّيَاسَةِ ، وَلِقُرْبِهِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَإِدْرَاكِهِ أَقْرَبِ السَّبِيلِ
إِلَيْهِمْ ، فَكَانَ عَدِي بِذَلِكَ أَسْتَاذَ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ وَمُرِييَهُ وَمُؤَدِّيَهُ وَمَعْلَمَهُ .

حَقٌّ إِذَا مَاتَ الْمُنْذَرُ وَتَنَافَسَ أَبْنَاؤُهُ عَلَى خِلَافَتِهِ احْتَالَ عَدِي لِلنُّعْمَانِ فَوَلَاهُ كَسْرِي
مَكَانَ أَبِيهِ ، وَضَمَّ عَدِي بِذَلِكَ فَضْلًا إِلَى أَوْضَالِهِ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ ، فَلَمْ يَكُنْ غَرِيبًا
أَنْ يَصْبِيحَ عَدِي الْإِثِيرَ عِنْدَ النُّعْمَانِ ، يَحْجَالِسُهُ وَيُنَادِمُهُ وَيَصْحَبُهُ فِي رِحَالَتِ صَبْدِهِ ،
كَمَا لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يُؤْغَرَ بِدَلِّكَ صَدُورُ شَائِئِهِ مَنْ يَطْعَمُونَ فِي الْمَجْدِ وَالْمَكَانَةِ حَصُوصًا
بَنِي مَرْيَا الَّذِينَ كَانُوا يَصْرُونَ رَبِّبَهُمْ وَرَضِيَهُمْ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُنْذَرِ ، وَيَسْمَعُونَ لِنُتُولِيَتِهِ
مَلِكَ الْحِيرَةِ حَلْفًا لِأَبِيهِ فَأَفْسَدَ عَدِي تَنْدِيرَهُ تَنْدِيرَهُمْ ، فَنَفَسُوا عَلَيْهِ ، وَظَلُّوا وَرَاءَهُ حَتَّى
أَثَارُوا عَلَيْهِ حَقْدَ النُّعْمَانِ وَسَجَنَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ فِي سَجَنِهِ حِينَ عَلِمَ بِرِسَالَةِ كَسْرِي لِإِطْلَاقِ سِرَاحِهِ .

* * *

تِلْكَ هِيَ بَيْتُهُ عَدِي بْنُ رَيْدٍ وَظُرُوفُ حَيَاتِهِ الَّتِي أَرَى أَنَّ لَهَا عِلَاقَاتَ مُؤَثَّرَةً فِي
اتِّجَاهَاتِهِ الْعَمِيَّةِ عَلَى أَجْمَالٍ لَا يَخْلُ بِمَا وَاجَهُ وَبِتَعْبِيرٍ أَوْضَحَ أَقُولُ : تِلْكَ هِيَ مَقُومَاتُ
عَدِي الْخَارِجِيَّةِ .

أَمَّا مَقُومَاتُهُ لِلدَّخَالِيَةِ الدَّائِيَّةِ فَلَا نَسْتَطِيعُ — عَلَى هَذَا الْبَعْدِ الزَّمَنِ وَالْمَكَانِ — إِلَّا أَنْ
نَتَّبِعَهَا فِي سِيرَتِهِ وَأَحْبَارِهِ لِنَلْمَ عَلَى قَدْرِ الْإِمْكَانِ بِصُورَةٍ قَرِيبَةٍ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ لَهَا
عِلَاقَةً — كَذَلِكَ — تَوْثُرُ فِي فَمِهِ وَاتِّجَاهَاتِهِ .

وَقَالَ صَاحِبُ الْأُغْنَى : « كَانَ عَدِي حَسَنَ الْوَجْهِ » مَدِيدَ الْقَامَةِ ، حُلُوَ الْعَيْنَيْنِ ،
حَسَنَ الْمِسْمِ ، بَقِيَ الثُّغْرُ (١) . إِذَا قُرِنَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ بِمَا حَقَّقَهُ لَجَسَمِهِ وَنَفْسِهِ مِنْ مَرَانٍ
وَتَدْرِيبٍ فِي سَبِيلِهِ لَتَعْلَمَ الْفَرُوسِيَّةُ وَجْهَهُ بَيْنَ صُرُوبِهَا الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ . . . أَمَّا كُنْ
أَنْ تَدْرِكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَأَنْفَاقَةٍ وَحِمَالٍ بِمَا جَعَلَهُ مَهْوًى أَهْمْدِهِ الْعَتِيَّاتِ ، وَحَمْرُكَ
قُلُوبَ الدَّسَاءِ ، وَمَوْضِعَ اعْتِجَابِ بَنِي

وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ يَدْرِكُ هَذِهِ السَّمَاتِ فِي نَفْسِهِ وَيَحْسُ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى تِلْكَ النُّعْمَتِ ، فَمَالَ
إِلَى مَجَالِسِ اللَّهِوِ وَالتَّرَفِ ، وَهَفَا قَلْبَهُ إِلَى مَعَاشِرَةِ الْغَيْدِ الْحَسَانِ هِيَ ظِلَالُ مَا أَقْبَحَ لَهُ مِنْ
شَبَابٍ وَمَكَانَةِ وَحَاهِ وَثَرَاءٍ ، بِصُورِ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

(١) الْأُغْنَى ج ٢ ص ١٣٠

أيها القلب تعال بدون أن همى في سماع وأذن (١)
 وشراب خسروانى إذا ذاقه الشيخ تنفى وارجحن (٢)
 وقوله وأصى طباء في الدمقس خواصما
 بنات كرام لم يربن بضرة دى شرفات بالعير رواوعا (٣)
 لهوت لمن بين سر ورشده ولم آل عن عهد الأحية خادعا
 يسار بن من الأسفار طرفا مفترا ويررن من تتق الحدود الأصابعا

يبد أنه سرعان ما يجذب نفسه من ذلك المطق ، ويسيدها إلى التوفر والتحشم على
 الرغم منها حشية العواقب فيقول :

قد آن أن تصحو أو تنصبر وقد آنى لما عهدت عصر
 عن مبرقات بالبرين وتب دوى الاكف اللامعات سور (٤)
 بض عليهن الدمقس وفى الأ عناق من تحت الأكفة در (٥)
 كالبيص فى الروض للنور قد أفضى بها إلى السكثيب نهر
 يأرج من أردانهن معك لك الزكى زنبق وقطر (٦)
 حاريتهم فى الشباب واد قلى بأحكام الحوادث غر

ولعل سرعته فى معاودة نفسه ، والتأنى عن الانحراف فى تيار اللهو والعبث ..
 راجعة إلى ما كان يشعر به الشاعر من أنه غريب يعيش فى غير موطنه وبين ناس ليسوا
 أهله وعشيرته ، لهم من الأخلاق والأعراف والمادات ما يدعو إلى التحفظ فى
 القول والمسلوك .

(١) الدون - بفتح دال - اللهو والعبث : والأذن - بفتح ذال - الاستماع .

(٢) ارجحن : مال واهتز .

(٣) شرفات بالعير : ممتلكات به . والرواوع جمع راوعة : المتدهنة بالطيب .

(٤) البرين جمع برة : الخللخال ، وسور - بضم سين - جمع سوار .

(٥) الاكفة جمع كفاف : وهو من الشيء الحرف الذى يحيط به .

(٦) يأرج : يفوح . قطر : العود الذى يتبخر به .

وما كان يدركه من أنه يعيش في جو مليء بالهدس والمؤامرات يتطلب التحسين والتوجس والترقب والاحتراس في كل حركة وسكنة ، حتى لا يعطى الفرصة لمن يسعى لضربه والتخلص منه .

اجتمعت هذه القومات وتلك إلى عدى بن زيد فصاعت شخصيته الفنية صياغة ميزتها عن الشخصيات المجاورة له والقريبة منه في الزمان والمكان ، بحيث تفرد في فنونه الشعرية التي تناولها شعره ، وفي منهجه وأسلوبه ، وفي معانيه وأفكاره ، فلم يرض بالوقوف عند الحد الذي رأى سابقه من الشعراء العرب الجاهلين عليه ، بل لقد كان لما صادف من أحداث وماترود به من ثقافات مختلفة وعلوم ومعارف متعددة ، وما اطلع عليه من طبائع وعادات شتى تختلف من موطن إلى موطن . . لقد كان لذلك وغيره أبعاد الأثر في اختلافه عن الشعراء الجاهلين من تقدمه ومن عاصره .

لئن يجهد الباحث نفسه كثيرا في التعرف على مظاهر التميز في ميون الشعر لدى عدى بن زيد ، إذ يكفي أن يتصفح شعره ليلمس ما فيه من ميون شعرية جديدة أو فنون شعرية جديدة تكاد تكون جديدة في الشعر العربي الجاهلي .

وأول ما يلتفت نظر الدارس من تلك الفنون الشعر الدينية والوعظي :

وشعر المواعظ والدينيات عند عدى يوحى بأننا أمام صاحب رسالة دينية يستغل كل ساحة ليقيم فيها ما يرى أنه ضروري ، فأنت في شعره تجد القصائد الخاصة لهذا الغرض تماما ، كما تجد القصائد التي لوها الشاعر بالعظة يشد بها أسماع المتلقين عنه ، وبدا من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وقف بالمتلقى على المصائر والنهايات العامة للسكون ولفت نظره إلى ما في الحياة من أطوار يحمل كل طور منها طابعا خاصا ، لينتهي من ذلك إلى عرض ما يريد من مواعظ وحكم . من ذلك ابتداءه بوصف معاناته وآلامه وأرقه في قوله :

طال ليلى أراقب التنويرا أرقب الليل بالصباح بصيرا
شط وصل القدي تريدني مي وصير الأمور بجي الكبرا

وتوجيه حبيته إلى العقل ، والتأني في الاختيار ، لتير بين الأعرار والعقلاء .
فتحسن الاتجاه في قوله :

ألقى الفتيان مالكة نصحة منى وأخبرارا
أنسى رمت الخطوب فـقى موجدت العيش أطوارا
ولفت التلقى إلى نهاية كل حى ، ومصير كل مخلوق فى قوله :
أرواح مـودع أم بكور لك ؟ فاعمد لآلى حال نصير

والناظر فى هذا الفن الشعرى يجد أن الشاعر فيه لم يكتف بتأملاته الخاصة ونظراته
للشخصية ، ليقم عليها بناءه الفنى ، بل لقد جمع إلى ذلك حصيلة من المعارف الدينية ،
والمعلومات التاريخية ، فأصبحت دعائم ثلاثة لشعر المواعظ والدينيات . ولعلنا نذكر
أنه جمع فى ذلك الميدان الدينى بين المعارف المسيحية التى كان يدينها والمجوسية التى يدين
بها حكام البلاد وملوكها ، والوثنية التى يدين بها أكثر العرب . ولا ريب فى أن لكل
من هذه الديانات أعرافه وحدوده وقوانينه ، كما أن لكل من هذه الديانات
مقوماته وانكساراته .

وهو فى ذلك يعتمد على التصوير الدقيق .

١ - إما عن طريق الاستفهام الذى يقبل الماضى إلى الحاضر ليرى التلقى ماوقع
فيه من مواطن العبرة والعظة ، فيذكر ماكاد ينسى مثل قوله :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بسدم ونمود
أين آباؤنا وأين بنوم أين آباؤهم وأين الجدود
سلوكوا مهيج المنايا مبادوا وأرانا قد حان مما ورود

٢ - وإما عن طريق إبراز الخطوط المتناقضة بحاسة الشاعر من أحداث الماضى
لتشكل منها الصورة التى يريد تقديمها مثل قوله :

فبت أعدى كم أسافت وغيرت وقوع المنون من مسود وسائد^(١)
صرعن قبـاذا رب فارس كلها وحشت بأيديهما بوارق آمد^(٢)

(١) أهدى : أعدد بعد إبدال الدال الأخيرة ياء . وأسافت : أهلك .

(٢) قباد : ملك من ملوك الفرس . حشت : قطعت . بوارق آمد : أعظم مدن
ديار بكر .

وغصن على الحيقار وسط جنوده وبين في لقائه رب مارد^(١)
 وجئن بترك من قرار بلادهم يسير بجمع كالهنا المتساعد^(٢)
 وأخرجن يوم الحوض سيد حمير بحربة جنى من الحبش حارد^(٣)
 ومك سليمان بن داود زلّات ويريدان قد ألحقته بالصمائد^(٤)
 وخلف بني الناصور لم يبق منهم بقية مولود ولا ذكر والد
 وكان ملوك الروم يحسب إليهم قناطير مال من خراج وزائد
 ولا تضبطن إنا بشيء يناله من الدهر، لا مال ولا عيش واجد

أو إرار الخطوط المنتهية بحاسة الشاعر من المؤلف الواقع الذي تعود الناس
 رؤيته فنفلوا عما يحمل من عظات مثل قوله :

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قسرن روال
 وصروف الدهر لا يبق لها ولما تأتي به صم الجبال
 رب ركب قد أناخوا حولنا يمزجون الخمر بالماء الزلال
 والأباريق عليها قدم وجياد الخيل تردى في الجلال
 عمروا دهرنا بعيش نضر آمق دهرهم غير عجال
 ثم أضحوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرحال
 وكذلك الدهر يرمى بالقي في طلاب العيش حالا بعد حال

٣ - وإما عن طريق الوقوع على مفارقات الحياة وإبرازها المتناقض ، فإذا بها مرآة
 تنمكس عليها صورة الحياة على الأرض كما يراها الشاعر من خلال تجاربه الشخصية
 ومعارفه الدينية ومعلوماته التاريخية ، مثل قوله :

فأسأل الناس : أين آل قبيس طحطح الدهر قبلهم سابورا^(٥)

-
- (١) الحيقار : ملك من ملوك فارس . مارد : حصن بدومة الجندل .
 (٢) الدبا بفتح الدال : أصفر الجراد والنحل .
 (٣) الحارد : النضبان . (٤) ريدان : حصن في قنسرين .
 (٥) آل قبيس : بطن من قبيلة . طحطح : بدو وأهلك . سابور : ملك من
 ملوك الفرس .

ولقد عاش ذا جنود وتاج تهرب الأسد صوته أن تزيروا
خطفته منية وتردى وهو في الملك يأمل التعميرا
وسو الأصغر الملوك كذالم يترك الدهر منهم مذكورا
أين أين الفرار مما سيأتي لا أرى طائرا نجا أن يطيرا

ومثل قوله :

ما بعد صنماء كان يعمرها ولاية ملك جزل مواهبها
رغمها من بني لدى قزع الـ وزن وتندى مسكا محاربها
محفوفة الجبال دون عرى الكي د فـا ترتقى غواربها (١)
يأس فيها صوت النعام إذا حاوبها بالمشى قاصبها (٢)
سأقت إليها الأسباب حند بني الأح رار فرسانها مواكبها (٣)
وكان يوم باقي الحديث وزا لت أمة ثابت مراتبها

حق صنماء المدينة المامرة بأهلها وخيراتهما ، الزاهية بمضاربتها ومكائنها . أصابتهما نوب الرمان وتقلبات الأيام في هيئة جيش فارسي غاز ، هزال عنها مظاهر النعم والخير ، وأصبحت اطلالا . ومثل قوله يقارن بين حالي الإنسان في حياته وبعد مماته :

بيننا هم على الأسرة والأند ما ط أوضت إلى التراب الخدود (٤)

٤ - وإما عن طريق البساء القصصى حيث يقدم تأملاته الواعظة في ثنايا قصة تاريخية تنوع مادتها من أحداث التاريخ الكثيرة التي يترأى على صفحتها الملوك والسادة مطعونين بين حجري الزمان الذي لا يجامل سيذا ولا ملكا . مثل قوله :

أبن كسرى ، كسرى الملوك أنوشىر وان أم أبن قبله سابور (٥)

(١) غواربها : أعاليها .

(٢) النعام - بضم النون - ضرب من الطير والقاصب : الناصب فى القصب أى الرامز

(٣) بنو الأحرار : يريد الفرس .

(٤) الأتباط جمع نبط : ضرب من البسط .

(٥) سابور الجنود هو ابن أردشير وسابور ذو الأكتاف وهو ابن هرمز ، وكلاهما

من ملوك المعجم .

وثنو الأصغر الكرام، ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور ١
وأخو الحضرة إذ بناء وإذ ده لة تحي إليه والخابور (١)
شاده مرمرًا وجله كل. ساً للطير في دراه وكور (٢)
لم يهبه ريب المنون بباد ال لك عنه فبياه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أش رف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ماء. لك واليحر مرضا والسدير (٣)
فارعوى قلبه فقل وماغب. طة حى إلى المات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمة. ة وارنهم هناك القبور (٤)
ثم صاروا كأنهم ورق ح. ف فألوت به للصبا والدبور (٥)

نماذج من الحياة يقدمها الشاعر في صور حية من خلال تساؤلات منبهة ،
ومعارقات مشيرة ، وقصص منسقة لينفذ بها إلى المتلقي فيذكره بالصبر المحتوم ، ويقف به
على حافة الحياة الدنيا ليرى ما ينتظره في عاجله أو آجله .

* * *

ولم يحقق عدى لنفسه التميز والتفوق في الدينيات واللواعظ حسب ، بل إن له في
ميدان التفوق جولات أخريات ، نرى في مقدمتها ما روى له من اعتذاريات
وخمريات وقصص .

لقد أصبح أقرب إلى المسلمات أن رأس فن الاعتذار - وربما مبتكره في الشعر
العربي - نابعة بنى ذبيان أبو أمانة زياد بن معاوية ، لكن دراسة عدى ، والوقوف

-
- (١) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجريرة .
(٢) الكلس : الصاروج وهي النورة وأحلامها التي تصرج (تطل) بها الدازل ،
وهو بالفارسية جاروف عرب ثقيل : صاروج .
(٣) ممرض : متسع ، ومنه أعرض الثوب أى السع وعرض .
(٤) الأمة - بالكسر - النعمة .
(٥) ألوت به : ذهب به ، والصبا - بفتح الصاد - ربح نهب من المشرق ، والدبور :
رياح تقابلها .

أمام اعتذاره للنعمان بن المنذر واستعطائه تفرض على مؤرخ الأدب أن يعيد النظر فيما شاع واشهر وقارب المسلمات في هذا السدد . وذلك لأن عديا تقدم النابغة في السن ، وصحبه للنعمان تسبق صحبة النابغة ، فقد أسلفنا أن المنذر والدة النعمان أسند إلى عدى أمر تنشئة ابنه النعمان وتربيته وإعداد له ليخلفه في حكم البلاد لما رأى في عدى من صلاحيات لذلك ، وأن عدى بن زيد هو الذى وقب وراء النعمان حتى ولاه ملك الحيرة بعد أبيه .

وهذا يعنى أن عدى بن زيد كان في صحبة النعمان قبل أن يلتقى به النابغة الذى لم يلتق به إلا وهو ملك يمدح ويمطى على مدائمه .

كما يبنى أن عديا كان يصحب النعمان بشعور الربى ذى الفضل ، في حين كان يصحبه النابغة بشعور المتفجع للتطلع إلى تعطف سيده ورضاه ، فقد كان وسيلة قومه لدى النعمان ليتمكن لهم .

* * *

والذى أوقف عدى بن زيد في موقف المتذمر المستعطف يختلف عن الذى دهم بالنابغة إلى الموقف ذاته على ما سنوضحه في الحديث عنه .

وقد انطلق لسان عدى بالاعتذار للنعمان لما ألقى به في السجن حين دس له منافسوه وأثاروا عليه حقد النعمان ، وهكذا رأى عدى نفسه بين لحظة وأخرى ينتقل من حياة الدعة والعميم إلى خشونة السجن وذلة وقسوته فكان الألم على نفسه أقسى مما يحتمل من في مثل مكانه وأحس المسئلة والضياع ينهشان في كيانه نهشاً فتفجرت بين حناياه أنات الألم ، وترددت في نفسه أصدااء الشكوى ، فانطلق لسانه شاكياً في حيرة مما وقع به ، متعسراً متمنياً أن لو سبق الموت إلى اختطافه قبل أن يقع به ما وقع من صديقه وتلميذه .

ويذكر الأصمغاني أن أول ما قاله عدى وهو محبوس من الشعر لا ميتة ألقى منها (١) :

ليت شعري عن الهمام ويأتيك بخير الأبياء عطف السؤال

ابن عنا أخطارنا المال والأب - نفس إذا همدوا ليوم الحال (١)
ونضالى فى جيبك الناس يرمو - بن وأرمى وكلنا غير آلى (٢)
فأصيب الذى تريد بسلا غش - وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أخذت حتى بكفى - ولم ألق ميتة الأتال (٣)
عجلوا محلمهم لصبر عتسا العا - م فقد أوقموا الرحا بالثقال (٤)

وهى قصيدة طويلة يتضح من مطلعها أن الشاعر مارال على شيء من تماسك النفس ورباطة الجأش فى مواجهة ما نزل به، إذا بدأ تمنيات ولساؤلات متحصرة متألة، تذكر بما كان منه من عون بالنفس والنفيس حتى حقق للنعمان ما أراد من غير خداع ولا غش، وينتهى من ذلك المقطع بتمنيه أن لو كان قتل نفسه بيده حتى لا يلقى من صديقه الذى ضحى فى سبيله ما لى فيموت فى السجن كما يموت العدو :
ليت أنى أخذت حتى بكفى ولم ألق ميتة الأتال

ويرز مادبر حصومهما لهما من كيد فى صورة بارعة تكشف عن مدى ضيقه وألمه لنجاحهم فى الوقيدة بهما مما، مشيراً بذلك إلى أن الايقاع به هو فى الحقيقة إيقاع بالنعمان كذلك، لأن من غيبة عدو يسهل عليهم اقتراس النعمان والقضاء عليه :
عجلوا محلمهم لصبر عتسا العا م فقد أوقموا الرحا بالثقال

وليست الروعة فى كنياته البدوية عن الوقيدة حسب، بل فى الإيحاء بتقاربه مع النعمان ومساواته إياه حيث جعل الوقيدة يدينه وبين النعمان إيقاعاً بين الرحا وثمالها .
ويستمر على تمويحه فى اعتذاراته، ونائها على ما قدم من مساعدات للنعمان حتى أقامه على ملك أبيه، فيلسى ميميته التى يستلها بتصوير ما يمانى من وق، وما أصابه من هموم وأهوال أقضت مضجعه، وأدهبت النوم عنه :

-
- (١) أخطار المال والنفس : بدلها وجملها خطراً والمناهدة فى الحرب : المناهضة والمحال - بكسر الميم - السكبد والمسكر .
(٢) غير آلى : غير مقصر .
(٣) الأتال جمع قتل - بكسر القاف - العدو .
(٤) محل ملان بصاحبه : سعى به إلى السلطان والثقال : الجلد الذى يبسط تحت رحا اليد ليقى الطاحين من التراب، وقد يطلق على الحجر الأسفل من الرحا

قد نام صحي وبث الليل لم أنم من غير عشق تمناني ولا سقم
إلا تأوب هم قبل أدغمه والهم يأمر حين الكرب بالآلم

وفيما يتجه إلى النعمان ملقاعا مسكروبا بما ألم به يتودده ويستعطفه ، مذكرا إياه
بريب الزمان ، وتقابلات الأيام ، مشيرا إلى أنها سنة تصيب كل إنسان راس إنسانا بعينه
وأنها قد أصابت من قبلنا من الآباء والأمم محاولا بذلك أن يبعث فيه نبض الرحمة
والاشفاق الذي حرص - أبان صحبته - على أن يفرسه في قلبه بمواعظه التي طالما
رددتها على سمعه . وذلك قوله :

أبا شريح فلا تحزبك عثرنا طارء رهن لريب الدهر والحسم
إن الأسى قبلنا جم ونعلمه فيما أزيل من الأجساد والأهم
منهم رأيت ديانا ، أو تحدنه وما تنبأ عن عاد وعن إرم
وقبل ذلك من ملك ومنبطة نادوا ، فكانوا كفى الظل والحلم

ولا يكتفى بتلك الايقاعات النفسية التي يسببها الغافل من عواطف النعمان تجاهه ،
فيواصل السير على المنهج نفسه ، ويوصى إلى ما بينهما من أواصر تكاد تماثل الأخوة
حتى لساكنهما ابنا أم واحدة :

إن ابن أمك لم تغظر قنيتيه لما نوارى ورامى الناس بالكلم^(١)

وإذا قرأ لديه أن النعمان هو نفسيا للسمع منه أخذ يمدد ما تحمل في سبيل توليه الملك
دون إحوته في إخلاص يعلم الله وحده مداه ، مرتكزا على تعداد خلاله وصفاته التي
تأبى عليه أن يخون من اصطنع - معوزا ذلك كله مشهدا الله على ذلك مقبها برب الحل
والحرم على صدقه وبره فيما يقول :

فالله يعلم في رسل وفي أزف والله أعلم بالآلاء والنعم^(٢)
بل رب عبء تقايل قد نهضت به لما نزل إذا عديته قد مضى

(١) القفية : الكرامه . رامي الناس بالكلم : ظنوا به .

(٢) الأزف : المجلة

وإربه قد علا كبدي معاقها ليست بفورة مأفون ولا برم (١)
وما بدأت خليلا أو أخاقت بخنعة ، لا ورب الحل والحرم (٢)
يأبى لى الله خون الأصفياء وإن خانوا ودادى ، لأنى حاحزى كرمى
ولا بخلت بمالى هن مذهب فى حاجة الرء إن كانت ولا الذمم

أنه يمتدثر فى عزة ، ويأسف لأخ قبل أن يكون ملكا ، ويحرص على ودلا على
عطاء ، ويأمل ألا يبال خصومه منه ويشمتوا به ، فإذا وجد من النعمان إصرارا على
سجنه ، وانصراما عن النظر فى أمره . فأصم أدنيه عن صرخاته للتواليه المتناعة ،
ولم تحدث قرعاته النفسية أثرا ، كرر المحاولة وعاد الشكوى ، وصعد التآلمات
والتحسرات ، حريصا على تبرئة نفسه مما ألصق بها فى بائته التى يبتدئها بقوله :

أرقت لكفومات فيه بوارق يرتقين رءوس شيب
تلوح المشرفية فى ذراه ويحلو صفح دخدار قشيب (٣)

إذا أعلن عن أرقه ومماناته النفسية أنجه مباشرة إلى الحديث عن أعدائه ومساعدتهم
للايقاع به حتى يتخلصوا منه وينتقموا لهميتهم بتقويض النعمان دون من يباصرون من
إخوته ، حيث يقول :

سمى الأعداء لا يألون شرا على ورب مكة والصليب
أرادوا كي تمهل عن عدى ليسجن أو يدهده فى القليب (٤)
وكننت لزار خصمك لم أعرد وقد سلكوك فى يوم عصيب (٥)
أعالهم وأبطن كل سر كما بين اللحاء إلى العسب (٦)

-
- (١) الإربة : الحاجة . والمأفون : المأفون . والمأفون : ضعيف الرأى . والبرم :
الليثم البخیل . (٢) الخنعة : الرية .
(٣) الدخدار - فارسية معربة - الثوب المصون .
(٤) يدهده : يحذر من علو إلى سفلى تدحرجا .
(٥) لزار خصمك : لا أدته يخالف أو يعاند ، والتعريد : الإحجام وسلكوك : أدخلوك
(٦) اللحاء : ما على اللود من القشر ، والعسب : جريد النخل إذا نحى عنه حوصه

فهرزت عليهم لما التقينا بتاجك ووزة القدح الأريب (١)
وما دهرى بأن كدرت فضلا ولكن ما لقيت من العجيب (٢)

وبخلص من ذلك فيتمنى أن يصادف من يبلغ النعمان شكواه وتحذيره ممن يكيدون
له ، مستكرا أن تكون مكافأته - بمد تضحياته - سلسلة وقيدا وعلا وأمرضا
تحتاج إلى طبيب . . . ثم إهمالا لاعتدالاته التي تتوالى . وشكواه التي لم تقطع
حيث يقول :

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدي النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقييدا وعلا ، والبيان لدى الطبيب
أنك بأننى قد طال حبسى ولم تسأم بسجون حريب (٣)

ثم يعود إلى تحريك نفسه ، فيصف في اسكسار ما آل إليه بيته وآله بمد غيبته
تلك ، أملا في أن يوظف فيه عاطفة الاشفاق بمد أن قسى عليه هذه القسوة التي لم يكن
يتوقعها أو ينتظرها منه فقال :

ويبقى مقفر إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
بيادرن الدموع على عسدى كشن خانه حرز الريب (٤)

فإذا رجا أن يقبل النعمان عليه ، ويستمع إلى شكواه هدا صوته بمض الشيء ،
وسلك طريق الدافئة البجادة المتأنية في منطقية رجو الصفع عما قد يكون أخذ عليه ،
وتعلن عن تمازله عما قد يكون أصابه من ظلم وصر :

هإن أخطأت أو أهمت أمرا فقد يهـ المصافى بالحبيب
وإن أظلم فقد عاقبتمونى وإن أظلم فذلك من نصيبى
وإن أهلك نجد فعدى وتحذل إذا التقت الموالى فى الحروب

(١) الأريب : ذو الدهاء والفطنة .

(٢) وما دهرى : ما إرادتى وغايتى .

(٣) الحريب : الذى سلب ماله وعقاره .

(٤) الشن : الخلق من كل آية سمعت من جلد . والريب : المصالح .

غفل لك أن تدارك ما لدينا ولا تظلم على الراى المصيب
فإني قد وكلت اليوم أمرى إلى رب قـريب مستجيب

وطى هذا المنهج سار عدى فى اعتذاراته إلى السمان بن المنذر، لم يذكره بما كان له من أباد، وشكا مرارة ما يقاسى فى السجن، وصور قلق نفسه على أهله ونسائه المائحات، ونبهه إلى ما يكيدده المحيطون به له وللسمان، وأقسم له أيماننا بعد إيمان على برأته بما ألحق به وإخلاصه له . . . فتلون أسلوبه بذلك، وبدأ تارة رقيقا هادئا حين يستسلم ويستكين ويستعطف وتارة أخرى يبدو جزلا خفيا حين يذكر مكاته وما قدم من تصحيات فى سبيل تولى ملك الحيرة، وحين يتحدث عن نفسه وحلاله انتهى كان يمتز بها وبذلك ترى عديا فى اعتذاراته - كما رأينا فى مواعظه وديبانه - للشاعر المصور البارع فى التصوير، الصادق البين الصدق، الأصل الذى يتمتع من نفس شاعرة .



وعدى فى خمرياته يقدم لنا لونا جديدا فى هذا الفن يعلن به تميزه - كذلك فيه . بيد أن تميزه فى الخمريات ليس فى السبق إليه كما رأينا فى مواعظه واعتذاراته، ولكن فى إيراد القصيدة أو القطعة الشعرية للخمر، وعدم إثراك غرض آخر معها فيه، على ما كان معروف فى الشعر الجاهلى، فقد كان الشاعر يتناول الخمر فى أثناء القصيدة باعتبارها حزمية من جزئيات موضوعه .

أضف إلى هذا أن خمريات عدى تتميز كذلك عن غيرها بالحديث المستفيض الذى يتناول فيه كل ما يتصل بالخمر من ألوان وتمتيق، وطعم، وشكل، وهيشة، وأكواب، وزجاج، ومجالس، وندمان، وأجواء وما فيها من أحوال إلى غير ذلك مما يكشف عن حس شاعر، واستقصاء ماهر، وتمكن من العبارة، واقتدار على التصوير والتعبير .

ولعل من أجمل شعر عدى وأرقه وأجوده قافية الخمرية التى يقول فيها :

بكر الماذلون فى وضع الصب ح يقولون لى ألا تستفيق
ويلومون فيك يا أبة عبد الله والقلب عندكم موهوق

لست أدري إذا كثروا المذل عندى أعدو يلومنى أم صديق
 زانها حسنها وهرع عميم وأثيث ملت الجبين أنيق
 وثنايا مملجات عذاب لا قصار ترى ولا هن روق
 ثم ادوا إلى الصبوح فقامت قينة فى يمينها إبريق
 قدمته على عقار كمين الد يك صبي سلافها الراووق
 صامها التاجر اليهودى حوايه من فأركى من نشرها التعبيق
 فوق عليها لا يسال ذراها يلغى الدر دونها والآووق
 مزة قبل مزجها فإذا ما مزجت لد طعمها من يذوق
 وطفا فوقها فقايع كاليسا قوت حمر يثيرها التصبيق
 ثم كان المراج ماء سماء غير ما آجن ولا مطروق

مشهد رائع بصورة الشاعر، فتسمع صخب الماذلين مجتمعين حول فراشه يوقظونه من سكره، ثم يبدأ التصوير مجلس الشراب، حيث ترى القينة تحمل فى يمينها إبريق الخمر الممتلئة التى اخبرها اليهودى حولين، ليصنى عليها الشر الركي العبق، فإذا مزجت لد طعمها، وطمت الفقافيع على سطح الكأس بلونها الأحمر الذى يشبه لون الياقوت.

ولا يقل عنه زوعة ذلك المشهد الذى يقدمه عدى من حلال صاديته التى قال فيها للمعري (١): «إنها بديعة فى أشعار العرب، والتى يبتدئها بالحسين إلى مجالس الأُنس والشراب التى كان ينهل فيها اللذات فى مطلع حياته، وفيها يقول:

أبلغ حليلى عبد هند مـلا زلت قريبا من سواد الحصوس (٢)
 موازى القرة أو دونها غير بعيد من عمير اللصوص (٣)
 يحفى لك السكأة ربعة بالحب تئدى فى أصول القصيص (٤)

(١) رسالة الغفران ص ٧٠ .

(٢) الحصوس : موضع فى الحيرة .

(٣) القرة وعمير اللصوص : قرىتان من قرى الحيرة .

(٤) الربعة : أول ما يجتنى، والحب — بفتح الحاء — سهل بين حزنين تكون فيه السكأة . والقصيص جمع قصبة : شجرة تنبت السكأة فى أصلها .

- تقنعك الخيل وتصطادك للظير ، ولا تسكع لهُم القنيس (١)
 تأكل ما شئت ، وتمتأها حمراء من الخس كالون الفصوص (٢)
 غيت عن عيني في ساعة الشمر وحببت أوان المويص (٣)
 لا تسين ذكرى على لذة الدكأس وطوف بالخذوف النحوص (٤)
 إنك ذو عهد ودو مصدق محالف عهد الكذوب اللدوص (٥)

في هذا الشهد الراحر باللوحات الحية المتحركة يريفا الشاعر الجري وراء الصيد ،
 والطوف حول الكأس المترعة بمتأها الشارب من الخس حمراء كالون الفصوص ، ويظل
 الشاعر في رسم لوحات المشهد فريفا في بقية أبيات القصيدة تجمع الشرب في بيت خمار
 شيد من الدمان العارغة ، وظلال بالخوص والزيد الحسن فيه يشين رويدا في استحياء
 كأن في أرجلن صدوعا ، وقد حسرن عن سواعدهن البضة ، وتساعدت من أرداهن
 روائح المسك والوبر والعود . بينما الكأس يدور على الشرب السامر ملاهى مترعا
 بالخر الأخضر اللون المروج البارد . في قوله :

- يأليت شمري وان دو عجة مق أرى شربا حوالى أصيص (٦)
 بيت جلوف بارد ظله فيه طباء ودواحيل حوص (٧)
 والربرب المسكوف أرداته يمشى رويدا كمشى الرهيص (٨)

- (١) وتقنعك : تصيدك ، ومثأها تصطادك ، على الخذف والايصال مثل : رحبتك
 الدار أى رحبت بك . ولا تسكع : لا تمنع
 (٢) الخس : حيد الخمر (٣) المويص : الشديد من كل شيء .
 (٤) الخدوف : الأتبان الوحشية السعينة والنحوص من الائن : القى لا ولد لها ولا لبن .
 (٥) اللدوص : الخداع .
 (٦) وأن : وأما ، واصل همزة القطع ، وحذف الألف التى بعد النون ، والمعجة
 بفتح العين : الحدين ، والأصيص : أسهل دون مكسور .
 (٧) الجلوف بصم الجيم جمع جاب : الدن الفارغ ، والطباء جمع ظبية ويصدها
 هذا الأباريق الضخام ، والدواحيل جمع دوحلة : سقفة من خوص يوضع فيها البمر والرطب .
 (٨) الربرب : القطيع من بقر الوحش وتشبه به النساء ، والرهيص : المصدوع .

ينفخ من أردائه المسك ، والد منبر ، والفلوى ، ولبنى قفوص^(١)
والشرف المندى نسقى به أخضر ، مطوئا بماء حريص^(٢)

ويبدو من جملة الألفاظ ، وما تخلل الأبيدة من حكم أن الشاعر قالها في لحظة
اجترار الماضي وهو في سجنه . . . أيا ما كان فلقد مرض الشاعر بخمرياته تلك وغيرها
— فما يضيق بذكره البحث — استأديته لشعراء البحر الذين جاءوا بعده سواء في الجاهلية
أو بعد الإسلام مثل الأعشى والأخطل والوايد بن يزيد وأبي نواس وغيرهم ، ويقرر
هذا ما ذكره صاحب الأغاني^(٣) من أن الوايد بن يزيد شاعر البحر الأول في العصر
الإسلامي كان على صلة بشعر عدى بن زيد من نديه القاسم بن طويل العبدي الذي
كان ينشده شعر عدى ، ويغنيه للمعزون في مجالسه ، وأن مبدأ غي القافية أمامه ذات
يوم فاستحسنها وأحب بها ، وجعل يشرب على أنغامها مدسحا متشيا طربا .

والملاحظ في خمريات عدى أنها تجمع بين اللوحات المتعددة المشاهد والمواقف .
وبين اللوحة التي تعرض الصورة الجزئية في سرعة حافلة . . واللونان من الصور
يشهدان لمدى بالغة في جمع أطراف الصورة والتركيز منها على الجانب المطلوب ، في
خفة وشفافة كما يليه الدارس أنه أمام مصور عربي نشأ وشب في بيئة حضارية ناعمة ،
ويذكر دائما بأنه في صحبة رجل مثقف نال من الثقافات المختلفة ما جعله يتميز على
معاصريه في مختلف الاتجاهات . ونظرة إلى تلك الصورة تبرز ما نقول :

هذا ورب مسرين سقينهم من خمر بابل لذة للشارب
بكروا على بسحرة نصبحنهم من ذات كرب مثل قعب الحالب^(٤)

(١) الفلوى : أخلاط من الطيب تفل ، ولبنى : عود طيب الرائحة ، وقفوص :
بلد يجلب منه هذا العود .

(٢) المشرف : أناء كانوا يشربون به ، والمطوئ : الممسوس ، وأراد به الممزق ،
والحريص : البارد .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٥ ، ٦٦

(٤) القعب : القدح الضخم الجافي .

بزحاجة ملء اليدين كأنها قدبيل مصح في كنية راهب

* * *

نراه - أولا - في دوران القصة حول موضوع واحد . تسلسل أحداثه ، وترتيب ترتيبها منطقيا في هيئته تبرر القصة متكاملة ، لتؤدي النهاية . بها ، وتخصه - في الغالب - يقدم العبرة والعظة من خلال واقع تاريخي أو ديني فالقصة في شعر عدى امتداد لشعره الوعظي أو هي موعظة في ثوب القصة .

نراه - ثانيا - في منهجه القصصي الذي اعتمد عليه في تقديم الحوادث ، فإنه يعتمد في قصه على ما توفر له من معلومات تاريخية ودينية ، وما ناله من ثقافات حضارية عميقة حصل عليها من مناسبات ثقافية متعددة متباعدة جمع فيها بين ثقافات العرب والفرس والروم . في حين اعتمد سابقوه ومناصروه من الشعراء الجاهليين في شرح القصص على المشاهد الواقعية ، والملاحظ الحسية ، فأصبحت القصة مجموعة من اللوحات الوصفية والاشارات التاريخية التي يعتمد فيها على ذاكرة التلقي ليتكامل البناء القصصي . ومن أبرز قصصه الدينية قصة الخلق ، التي تناول فيها خلق آدم وحواء وهبوطهما من الجنة ، وفيها يقول :

أسمع حديثا كما يوما تحدثه	عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
إن كيف أبدى إله الخلق نعمته	فيما ، وعرفنا آياته الأولا
كانت رياح وماء ذو عرائية	وظلمة لم تدع فتقا ولا حلا (١)
فأمر الظلمة للسوداء فأنكشفت	وعزل الماء عما كان قد شلا
وبسط الأرض بسطا ثم قدرها	تحت السماء سواء مثل ما فعلنا
وحمل الشمس مصرا لاختفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا (٢)
قضى لستة أيام خلقته	وكان آخرها أن صور الرجال

وهكذا في تسلسل تاريخي - استقواء مما توفر له من كتب دينية ، ومعارف ثقافية حصروا التوراة والإنجيل - يحكي قصة خلق آدم وادخاله الجنة هو وزوجه التي خلقها من ضامه ، وكيف أطلق له حرية الاستمتاع باستثناء شجرة واحدة . . . الخ

(١) ماء ذو عرائية - بضم العين والراء المخففة - ماء كثير مرتفع

(٢) المص : الحد .

ولولا ما عرفناه عن عدى بن زيد في نشأته الدينية التي كان لشعته فيها أكبر الأثر في نسبه إلى المباد . . . أقول لولا ذلك لما توقعنا منه أن يقص علينا مثل هذه القصة ، أما وقد نشأ هذه للشاة التي تسمى إلى وطيد اتصاله برحال الدين لليهود والصارى والمجوس وغيرهم ، فلا غرابة فيما قدم .

وله قصيدة أخرى رائية يحكى فيها قصة إبليس مع آدم وسميه لإعرائه وطرده من الجنة متوسلا بهواء .

أما قصصه التاريخية فمن أبرزها قصيدته الرائية التي ذكرنا طرفا منها في الشعر الدينى والتي يقول في مطلعها :

أيها الشامت المعبر بالدهر أنت المبرأ الموفور

وفيها يحكى من قصة ملوك الفرس والروم ما يعظ السامع ويعيده إلى الله ، وينأى به عن الاغترار .

ومن قصصه التي ضمنها شعره قصة ابن بخت نصر الذي تخير لوزارته من رعى شئون مملكته ونصح له وكنتم سره فماش مهييا محبوا منيما ، ولقد ساق هذه القصة في قصيدة أرسلها إلى العمان من سجته وفيها يقول :

الا في الأول الماضى اعتبار	لقدى علة - ل أحى فهم بصير
تخير للوزارة من رعا	باشفاق ونصح في الأمور
وحسن سره فعلا مهييا	يجازى القل بالجلم الكثير
ووائاه الزمان فماش دهرا	منيما في السهول وفي الوهور

* * *

وفي الحق لم يقف عدى في تميزه وسبقه الفنى عند ذلك الحد ، فليما نسب إليه من الشعر ما يشير إلى أن له سبقا كذلك في الحكمة الشعرية ، تبدو في ثمايا هورة شعره الدينى والوعظى على الخصوص ، متناثرة هنا وهناك ، شأنه فيما شأن أضرابه من شعراء الحكمة الجاهليين مثل أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والناظرة .

يبد أننا نجد عدىا يبرز سابقه ومعاصره في داليتة التي خصها للحكمة ، والتي يبدوها

بتساؤل موجه إلى من تمذله وتلومه على كرمه واتفاقه دون أن يعمل للزمن حساباً ،
ومن هذا المنطلق ، يأخذ الشاعر في الرد على عاذلته موضحاً نظريته إلى الدنيا ، وما يترتب
عليها من سلوك ، مما لا أقباله على اتفاق ماله حرصاً على أن يظل الكريم الذي يبذل في
غير حرص ولا تردد بالمصير المحتوم الذي لا يستثنى منه أحد ، وبأن الاتفاق في الحياة
خير من تركه للوارث يستمتع به :

أعاذل : ما يدريك أن منيقي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
ذريفي إلى إنسا لي ما مضى أأى من مالى إذا خف عودى
وحمت ليقتاني إلى منبلى وغودرت أن وسدت أو لم أوسد
وللوارث الباقي من المال فانركى عتابى إلى مصالح غير مفسد

وليس ذلك هو الدافع إلى الاتفاق فحسب ، بل يدفع إلى الاتفاق أيضاً ما يحققه
الكريم للانسان من مركز مقبول محبوب بين أخلائه وأصدقائه :

ولا تلح إلا من ألام ولا تسلم وبالبدل من شكوى صديتك ما فتد
واللخلى إذلال لمن كان باحلا ضنيا ، ومن يبخل يدل ويزهده
وللبخلة الأولى لمن كان ماخلا أعف ، ومن يبخل يلم ويزهده

كما يدفع إليه حرص الإنسان على البعد بنفسه عن الغنى وتجيدها مواطن الشبهات .
حتى يكون من الصفوة الذين لا يندم من يقتدى بهم :

فنفسك فاحفظها عن الغنى والردى متى تفوها يغو الذى بك يقتدى
وإن كانت النماء عندك لا مريء فتمسك بها فاجز المطالب وازدد
ومن هذا يوجه نصحه ، فيرسم منهجه الذى ترفضه في اختيار الأصحاب :
إذا كنت في قوم صاحب حيارم ولا تصحب الأرداف تردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين ما تقارن يقتدى

وعلى هذا للدرب يسير عدى في داليتة ، حريصاً على أن تكون نفسه هي المدد
الذى يأخذ من تجاربه ليسكون قريباً من سامعيه ، فيضمن أقبالهم عليه ، على الرغم
من طول القصيدة وجفاف معانيها .

وريادة منه في الاحتياط حفلت القصيدة بتلك الأصباغ والألوان الجذابة المتناسقة

التمثلة في الصيغ المتلونة المتنوعة من استفهام ، وتمجيب ، وأمر ، ونهى ، ونداء ،
وشرط ، والتفات ، إلى غير ذلك من أسباب الجذب والاقناع العاطفي ، إلى جوار
الاقناع العقلي ، من كل ما تضافر مع صدق الشاعر ، وقربه من النفوس ، ليحقق جمال
الآداء ، ويمنع المعاني رخاوة ، وإيضني على الأفسكار الانسجام والسلسل .
وليس هذا مقصورا على الدالية الحسكية ، بل أن حكمته المتناثرة في ثنايا موعظه
التي قدمنا طرفا منها لا تخلو عن بعض ذلك الذي مجده في داليتة (١) .

(١) لمزيد من الدراسة الناقد راجع المؤلف بحث (عدى بن زيد ظاهرة متميزة
في الشعر الجاهلي) المنشور بمجلة كلية اللغة العربية - العدد الأول .

(٣)

الناطقة الذيباني

نشأته وحياته :

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع ويرتفع نسبه إلى غيظ بن مرة ، ثم إلى ذيبان ، ثم إلى غطفان . لقب بالناطقة واشتهر به قيل : لقوله في بعض شعره : « فقد نبئت لهم مناشئون » ، وقيل : لأنه قال الشعر بعد أن كرت سه ، ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله (١) . وقد يكون تلميذه بذلك راجعا إلى وصفه بالنبوخ في الشعر والتفوق فيه ، ويرشح ذلك أنه قد لقب بذلك اللقب جماعة من الشعراء غيره ، مثل الناطقة الجعدي ، والناطقة الشيباني ، والناطقة التلي ، وهم ليسوا جميعا جاهلين ، بل منهم المخضرم ومنهم الإسلامي .

ولم يكن الناطقة أحسن حالا من أصحابه الجاهلين ؛ إذ لا نكاد نعرف عن نشأته أكثر من أنه عاش في أواخر العصر الجاهلي ، وامتد به العمر حتى قبيل ظهور الإسلام ، فقد قيل إنه توفي سنة ٦٠٤ م .

أما حياته فيخبرنا الرواة كما يخبرنا شعره أنه قضاه في السباحة بين بلاط النعمان بن النذر أمير الحيرة ، وبلاط عمرو بن الحارث النساني وأخيه النعمان .

ويبدو أن غاية من تلك السباحة كانت الكسب المالي ، والسياسة ؛ فقد كان النعمان يجزل له العطاء على مداخله وكذلك فعل النعمانة معه ، وكان يستغل صلته تلك في العمل على رفعة قومه ، والحفاظ على أمنهم وسلامتهم ، ولعل ذلك كان من أسباب انتقاله إلى النعمانة ؛ روى أن ذيبان وأحلامهم من بني أسد تعدوا على وادي أقر الحبيب الذي كان تحت حماية النعمانة ، فنسكل هؤلاء بهما تمكيلا عظيما ، وأسروا كثيرا من نساها ، بما آلم الناطقة ذلك الألم الذي تلمسه في قوله :

(١) الأغانى ج ١١ ص ٣ ، الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربهم في كل أصفار (١)
وقلت : يا قوم إن الليث لمنقبض على برائفه لوثة الضارى (٢)
لا أعرفن ربربا حورا مدامها كأن أبكارها نماج دوار (٣)
يظنن شذرا إلى من جاء عن عرض بأوجه منكرات الرق أحرار (٤)
يذرين دما على الأشفار منحدرأ بأمان رحلة حصين وابن سيار (٥)

ولم يحد مفرا من أن يقوم بدوره في تخليص قومه من هذا الذى وقعوا فيه ، واسترداد الأسرى ؛ وسمى إلى الفساسنة مقدما بين يديه مدائجه ، فزل بعمر بن الحارث الأصغر ، ومدحه كما مدح أحاه النعمان مدحا رائعا ، فاستجابا لطلبته ، وعموا عن الأسرى ، وكفا عن ملاحقة ذبيان وأحلافهم وأقام في ظلال الفسانين فترة نال فيها منهم الجوائر الثمينة ، وتوجههم فيها من شعره بالقصائد الرائعة ، ولكن ذلك لم يشغله عن هدفه الأصيل ، وهو حماية قومه وأحلافهم من بطش الفساسنة . بل إنه إلى ذلك حرص على أن يلشع حيره على أصدقاء قومه ، كما كان الشأن مع بنى حن التى كانت تنزل عليها بين الحين والحين بنو ربوع عشيرة النابغة . وقد رأى النعمان الفسانى بعد المدة لزم بنى حن ، فتعرض له النابغة محاولا منعه من ذلك ، خوفا منعتهم ومنعة ديارهم ، ولكن النعمان أصبر على غزوهم ، فأرسل النابغة إلى عشيرته بدعوها أن تعد نفسها لمجدة حلفائهم بنى حن وإعانتهم في رد عادية الفسانين عنهم ، وتحقيق له ما أراد فقد منى جيش الفسانين بالهزيمة ، وفي ذلك يقول النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بنى حن بركة صادر (٦)

(١) أقر بضم الحمة والقاف : واد ، تربهم : إقامتهم وقت الربيع ، أصفار جمع صفر : شهور الربيع .

(٢) البرائن جمع برثن : الخالب ، الضارى : الموقع بأكل اللحم .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به ، حورا جمع حوراء : الميى الجميلة واضحة البياض والسواد ، النعاج جمع نعجة : إناث البقر ، دوار : أسم صنم .

(٤) النظر الشدر : النظر بمؤخر الميى ، عرض بضم الميى والراء : جانب .

(٥) الأشفار جمع شفر : هدب الميى . (٦) بركة صادر : موضع .

نجنب .- في حن فإن لقضاءهم كربه وإن لم تلق إلا بصابر (١)
عظام اللهى أولاد عذرة إهم لها مم يستلونها بالخناحر (٢)
وهم منعوا وادى القرى من عد وهم يجمع مبير للعدو المسكائر (٣)

وهذا الموقف يكشف عما كان يسكنه الباطنة لقومه وحلفائهم من إحلاص ومحببة وما زال على حاله ذلك ، يرمى مصالح قومه ويوطد العلاقات بينهم وبين النصارى حق توفى عمرو بن الحارث وأخوه النعمان ، معاد إلى النعمان ثمانية

كان الباطنة أثيرا عند النعمان خاصة به ، وكان من ندمائه وأهل أسرته ، إلى أن حدث ما أثار عليه النعمان وتهدهد - على اختلاف الروايات في أسباب ذلك - إلى قومه ثم شخص إلى ملوك عسان ، بالشام فأقام فيهم يمدحهم ، فانتقل من بلاط ، ثم لما اطمان إلى عقو النعمان بن المنذر عنه عاد ثمانية إلى الحيرة وأمنه وأدناه حتى قال فيه حسان بن ثابت : وحسدت النافذة على ثلاث لا أدري على أيهن كنت أشد حسدا ؛ على إدناء النعمان له بعد المبادعة ومسامحته له وإصفائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة مبير من عسافيره (٤) أمر له بها (٥) ،

ولقد قدم لمودته إلى الحيرة بقصائد يعتذر فيها إلى النعمان ، ويعلم ندمه على ما سلف منه : ورعبته في العودة إليه محلصا كما كان ، حتى عفا عنه ، وهو إنما كان راغبا في النعمان طمعا في استمرار عطاياه ، واستدامة حياة الترف التي كانت تغمره ، قال أبو عبيدة قيل لأبي عمرو : ألحن مخافتة امتدحه وأناه بعد هربه منه أم أغبر ذلك ؟ فقال : لا لعمرك الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآما من أن بوجه النعمان له جيشا ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهله ، ولأنه رغب في عطاياه وعسافيره ، وكان النافذة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب عطايا وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك (٦)

(١) صابر : شجاع في الحرب .

(٢) اللهى بضم اللام جمع لهوة : المال الكثير ، اللهاميم جمع لهموم بضم اللام ؛ الجيش العظيم . يستلونها : يبتلعونها .

(٣) مبير ؛ مهلك .

(٤) العسافير ؛ إبل مجاثت كانت للموك (٥) الأغاني ج ١١ ص ٢٨

(٦) الأغاني ج ١١ ص ٢٩

وأقام الباعة في ظلال العمان إلى أن غضب كسرى على النعمان فاستدعاه سنة ٦٠٢ م وألقى به في عياض السجن حتى مات ، ورجع الباعة إلى قبيلته وقضى بها آخر أيام حياته ويبدو أنه مات في الفترة ما بين عودته من الحيرة سنة ٦٠٣ ، ونهاية حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م ، وقد ذكر لويس شيخو أنه توفي سنة ٦٠٤ م (١) .

ولم تكن شهرة الباعة وقفا على علاقته بالفلسفة والذاكرة ، بل كان له إلى ذلك شهرة طومت شبه الجريفة مكنت له بين الشعراء ، فكانوا يغربون له قبسة من آدم بسوق عكاظ ، فتأثبه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، قال الأصمعي : وأول من أنشده الاعشى ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الحنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صخرًا لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لتأت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أيك ، فقال له الباعة : يا ابن أحمى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن حلت أن المتأى عنك واسع

خطاطيف حجون في حبال متية نمد بها أيديك نوارع (٢)

فخلص حسان لقوله (٣) .

شعره :

واصح من نشأة الشاعر وحياته أنه لم يقض منها بين قبيلته قدر ما قضاه في الحيرة والشام في قصور المناذرة والفلسفة ، وأنه جمع من ذلك مالا كثيرا ، وهو نفسه

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠

(٢) خطاطيف جمع خطاف بضم الخاء : حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء وغيرها ، حجون بضم فسكون جمع أحجن : وهي الموجة ، نوارع : جواذب ، يقول لك خطاطيف هذه صمتها أجز بها إليك ، على سبيل التمثيل ، يريد أنه مشدود إليه بأسباب لا يستطيع أن يتخلص منها .

(٣) حلس : انقبض أو رجعت وتحى : الأغاني ج ١١ ص ٦

حياة مترفة أدنته من حياة للولك ؛ إذ كان يأكل ويشرب في صحاف الذهب والفضة .

وواضح - كذلك - بمن تلك النشأة وهذا الارتباط ببلاطى آل المنذرو آل غسان أنه أسلم حزا كبيرا من حريته الشخصية لما يفرضه عليه مقامه في قصور الملوك من الالتزام بخلق معين ، والوقوف بشعره عند حد معين ، حمله يدور في محور من يكتنفه منهم ويرعاه ، لا يتحاذره إلى غيره ، فلا يرى غير ما يدور في محيطه المسكى ، ولا يحس إلا بما يحدث هناك .

ومن ثم ينظر الدارس في شعره فيجد لا يكاد يتجاوز الحديث عن بنى المنذر وبنى غسان ، مدحا أو رثاء أو اعتذارا .

ومن ينظر في شعر النابغة يلمس أثر هذا الوسط المتحضر المترف في شعره .
إذ يجد نفسه أمام شاعر يدرك أثر السكامة في سامعيه ، فهو لذلك حرص أشد الحرص على انتقاء عباراته والفاظه بما لا يعطى فرصة لطاعن ، يتقرب إلى النابغة على حساب النابغة .

ويلاحظ أنه مع شاعر لا يقول كل ما يفد على خاطره ، بل هو المتحفظ الذى يتروى في إراز أفكاره ومعانيه ، وما يرال وراءها بالعقل ومعاودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

ويدرك أنه يعايش شاعرا جعل من شعره وسيلة لتحقيق مآربه الفردية أو القبلية فشعره مصنوع بما فيه من مدائح ومراني واعتذاريات ، إذ قلما تجد فيها تعبيراً ذاتياً عن حس صادق أو شعور أصيل ، ودور العقر فيه أوضح من دور الماطمة ، وهذا لا شك أحد آثار البيئة الحضارية المترفة التى قهرت فيها جل سى عمره ، والتى سلحته عن الفطرة العربية الخالصة ، ونأت به عن البيئة البدوية بأحلاقياتها رقيها .

ونظرة إلى مدائحه التى خلصها على الملوك المتوجين في الحيرة والشام تحملك تقطع بأنه شاعر أجاد الصمت ، وبرع في الوقوع من القوم على ما يرمى غرورهم ويستجيب لما حرم ؛ وذلك بحشد طائفة من الصفات العامة وتحليلتها ببعض الخصوصيات ، فتبدو كأنها جميعا حلية يخصهم بها من دون غيرهم .

مثال : ذلك بائيته التى قالها في مدح عمرو بن الحارث الغساني وآثاته ؛ فقد بدأها

باستهلال مخاطب فيه ابته ، وببشها شكواه مما يهتم له وبشجبه وبطيل ليله ، ليخلص من ذلك إلى الحديث عن ممدوحه حديثا مستقيضا يقول فيه :

إذا ما عزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير نهدي بهصائب (١)
ي صاحبتهم حتى يقرن مفارهم من الصاريات بالدماء الدوارب (٢)
تراهن خلف القوم حزراعيونها حلوس الشيوخ في ثياب المرائب (٣)
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب (٤)
على عارفات للطمان عوابس بين كلوم بين دام وجالب (٥)

فالشاعر يمدح الفسائنة بالفرسية والشجاعة التي حملت جماعات الطيور المتوحشة تتبع خطوهم لإيقانها بأنها حاصلة على روائسها وناقمة على زادها من أعدائهم، ولماقتها من ذلك ترى جانحة على استعداد للانقضاض ، ثم يمضي في إتمام الصورة فيبرر شجاعة القوم من خلال تصور حيولهم بما عليها من أثر للطمان وجروح دامية ومتجمدة ، ويظل في انتقالاته تلك حتى تكمل صورة الفروسية ، فينتقل إلى صفات أخرى يمدحهم بها حيث يقول :

لهم شيمة لم يطمها الله غيرهم من الجود، والأحلام غير عوارب (٦)
محلتهم ذات الإله ، وديهم قوم فما يرجون غير العواقب (٧)

(١) عصائب جمع عصاة : جماعات .

(٢) الصاريات : المتمودات ، الدوارب : المدرية .

(٣) حرر بصم الحاء وسكون الزاي جمع آخر : الذي ينظر بمؤخر عينه ، المرائب .

ثياب سوداء .

(٤) جوانح : مائلات للوقوع .

(٥) عارفات : صابرات ، كلوم : جروح ، دام : سائل دمه ، جالب : متجمد .

عليه الدم .

(٦) الأحلام : العقول ، العوارب جمع عازب : الغائب .

(٧) محلتهم : منزلتهم ، ذات الإله : الله يقصد كمائسهم .

رقاق الأعمال طيب حجراتهم يحبون بالريحان يوم السباسب (١)
 تحميم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضراب فوق المشاجب (٢)
 يصونون أجسادا قديما يميمها بمخالصة الأوذان حضر المناكب (٣)
 ولا يحسبون الخير لاشر بعده ولا يحسبون الشر صربة لازب (٤)
 حبوت بها غسان إذ كنت لاحقا بقوص وإذ أعيت على مذهبى (٥)

فيصنفهم بالجلود وبالعقل الحاضر ، وبالسلك بالدين القويم - وكانوا نصارى -
 والقيام على حلقة ، ثم يرج من ذلك إلى وصف مظاهر الترف والنعيم التي تنعم حياتهم
 فهم رقاق الأعمال ، وهم على عفة ، يعاظون على طقوسهم الدينية يحبون بالأزهار في
 يوم السباسب - ولعله يقصد به يوم الشمانين أحد أعياد النصارى - تحميم الخواري
 والإماء ، ويعفظون أجسادهم الثروة المنة من قديم شباب مزركشة من الخبز الخالص
 خضراء المناكب ، ثم يخلص من ذلك إلى صفة عقيدته يحرس على مدحهم بها
 تقريرا لاستمطاعهم على قومه ، فيقول إن النسانيين متفتحو العقول يدركون أن السلوك
 البشرى لا يقف عند الخير لا يتجاوز ، ولا يقف عن الشر يتخطاه ، بل لا بد من
 مجاورة الشر للخير ، ولا بد من نهاية للشر بالخير ، وكأنا يهيمه ذلك إلى أن يكشف
 عن حقيقة مقصده ، فيعلن أنه في تلك القصيدة لسان قومه الناطق ، وأنه يقدم هذه
 المدحة وهو وشيك العودة إلى قومه بعد أن ضاقت السبل أمامه بسبب من أسر من
 أهله وعشيرته

فأنت أمام مدائح عامة لا تخص واحدا من دون غيره ، ولاتقف على جماعة من

(١) الحجرات جمع حجرة يضم فسكون : موضع شد الإرار من الوسط ، وطيب
 الحجرة : كناية عن العفة ، السباسب جمع سبب : للفارة

(٢) الولائد : الجوارى والإماء ، الإضراب : الحرير الأحمر ، المشاجب جمع
 مشجب أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأرذان جمع رذن بفتح الراء والذال الخبز ، وحلوصها : صفاؤها وزوال
 شوبها ، والمناكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف : مجتمع رأس المضد والكثف

(٤) لازب : لارم .

(٥) أعيت عليه مذاهبه : ضاقت سبله وسرت .

دون الناس ثم هي لا تكشف عن خصوصية في السلوك ، ولكن الشاعر بما كساها من جزل الألفاظ ، وعجم المعبر ، وجمل الصور قد نثت فيها روحا من عنده ، وأبرزها في معارض حضارية المعنى ، تكشف عن مظاهر الترف والنعم التي يرفلون في ثيابها . . . وهو بذلك حولها من موات حامد إلى صفات تنبض بالحياة .

* * *

ومثال ذلك بأبيته التي يعتذر بها إلى اللعنان من المذر والتي يقول فيها :

أناي أبيت اللعن أنك لئن	وتلك التي أهتم منها وانصب
مبت كأن المائدات فرشن لي	هراسا به يعلى وراشي ويقشب (١)
حلفت فلم أترك لنفسك ربية	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عفى حيانه	لبائت لك الواشي أغشى وأكذب
ولسكني كنت امرأ لي جانب	من الأرض غيه مستراد ومذهب (٢)
ملوك وإخوان إذا ما أنينهم	أحكم في أموالهم وأقرب
كفمك في قوم أراك اصطفتهم	فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
وإنك شمس وللوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منها كوكب
فلا تتركني بالوعيد كأني	إلى الناس مطلى به القار أجرب (٣)
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كل ملك دونها يتدبذب (٤)
ولست بمستبق أخا لائمه	على شعث أي الرجال المهذب (٥)
فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته	وإن تك ذا عتي فمثلك يعتب (٦)

(١) الرواس بفتحيتين : شجر كثير الشوك ، المائدات : الزائرات في المرض ، قشب : يجدد .

(٢) جانب من الأرض : متسع ، مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد ، لعنه إلى إكرام الفساسة له .

(٣) القار : الفطران .

(٤) السورة بضم السين : المنزلة ، يتدبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٥) لئمه : تضمه وتجمعه ، شعث ، فساد .

(٦) العتي ، الرضا ، بمتب بضم الميم وكسر التاء ، مطلى العتي والرضا .

يقول للنعمان إن أباؤك إياي على ما بدر مني جعلتني مهموما مكدودا لا يكحل النوم عني ، فأنتفي ليلي مؤرقا مسهدا كأنني أنام على شوك . ويحاف له بأنه لم يرتكب ذنبا بسببه ، فهو ما زال على عهده الوفي المحاسن ، أما ما بانك عني فهو وشاية الواشين قصدوا به فهم ما بيني وبينك من علائق . وكل ما صدر مني أني قصدت ديار المساسمة طالبا منهم عن عشيرتي ، فأنزلقني خير منزل ، وأكرموا وفادتي ، وأحسنوا معاملتي ، وأحزوا لي العطاء ، فلم يكن مني إلا أن رددت لهم هذا الصنيع بمدحهم ، كما يفعل ملك من تهمه شواك من الشعراء - محتجا بذلك لمساكنة من واقع مدوس لدى النعمان - وليس معنى ذلك أني حرحت عليك ، ولا كفرت نعمتك ، ولا انحرت إلى المنصاة دونك ، وأين هم المنصاة وغيرهم منك ، فأنت من الملوك كالشمس بين الكواكب ، إذا سطع صرورها احتفت أضواء الكواكب - موحيا بذلك إلى أنه يرحو منه أن يسطع عليه بالزبد حتى يوارى كل من عداه - ثم يصرح باستعطافه ، فيطلب إليه أن يهفو عنه لأن غضبه عليه جعل الناس يترأفونه كأنه يعبر أجرب طلي بالقار وأبعدت عنه الإبل صيانة لها منه . وما ذلك إلا لترلك في نفوس الناس ومكانتك منهم وذلك إحدى خصوصياتك التي وهبها الله لك . ولكنك بعد إنكاره تهمة الخروج عليه واستقصاء كل ما يزيل آثار تلك الوشاية ينتقل إلى طريق آخر ، فيقول له ، ولو صحت أني ارتكبت هذه الهفوة ، فهل يمكن لإنسان أن ينأى عن الخطأ ، ولن يكون لك صديق إذا عزلت من صداقتك كل من يصدر منه هفوة . وأيا ما كان صيغتك مني فأني راص بكل ما نراه في ، فإن ظلمتني فبعد ظلمه سيده ، وإن عفوت عني فذلك أمر طبيعي ؟ إذ مثلك يعتب ويصفح .

ولاشك في أن اليون شاسع بين مدائحهم واعتدالياته ؟ إذ هو في اعتدالياته يعتمد على تصوير ضيقه ومعاناته ، وهو فيها مرهف الحس والشعور ، يقطر العقل ، يلحس بها قلب محاط به ، ويقرع عقله بالحجة الجلية والبرهان القاطع ، حتى تمكن في آخر الأمر من إدارة رأسه ، واستلال الحقد والنصب من صدره ولقد وصح من هذه الاعتذاريات أن الدابة ليس حبيرا بطبائع النفس البشرية حسب بل هو حبير بطبائع الملوك ، ما بما يؤثر فيهم ، وأقرب شيء إليهم أن تعترف بضيقك أمامهم ، وتقر بسيادتهم عليك .

وواضح أن الدابة لم يحصل على ذلك إلا من مشا كمة القصور ، ومعايشة الأمراء

والملوك، ومخالطة الحاشية ورجال الدولة والسياسة، مثقف بثقافتهم، وتعمم لهم منهم أساليب مخاطبة الملوك مديحا واستعطافا واعتذارا .

وهكذا اسلخ من طبيعته البدوية، دون أن يحس في ذلك بنقضة، أو يشعر بما يشعر به أهله من ضيق، بل كان على العكس من ذلك يرى أن ذلك السبيل يحقق له العباداة بين قومه - رضوا بذلك أم كرهوا - وهم بحاجة إلى ماله كما هم بحاجة دائما إلى جاهه ومكانه عند الماذرة والفساسة ولعل من مظاهر ذلك أنهم أكبروه وصرخوا له القبة الحمراء في سوق عكاظ ليحكم في الشعر والشعراء، ويقدم هذا ويؤخر ذلك .

* * *

ومن ثم يتضح الفرق بين النابغة وامرئ القيس، مع اتفاق البيئتين الخاصة بهما؛ فامرؤ القيس كان في تربة الأمير ابن الملك الذي يشعر بأصالته فيما هو فيه، وهو مستقل عن الآخرين، يصنع ما يروقه، ويتحرك من منطلق ذاتي، أما النابغة فيحس أن ما حققه ذلك الذي هو فيه إلا باستمداده من غيره؛ فالنابغة مصدر نعمته، وهو لذلك مشدود إليه، لا يستطيع العكاز من أسره الذي يملقه في يدي سيده .

خطاطيف حجن في جبال متية تمد بها أيد إليك نوارع

وكان هذا الفارق بين الشعارين أساس اختلافهم في الفنون الشعرية التي تناولوها؛ فهما - على الرغم من اتفاقهما في البيئة الخاصة - مختلفان فيما يلونها ويشكلها، مختلفان فيما يحدوها وما يبدأ عنها .

ولم يقف اختلاف النابغة عن امرئ القيس عند حد الاختلاف في الدافع إلى القول وما نشأ عن ذلك من الاختلاف في الفنون الشعرية . . .

وذلك لأن الناظر في شعر الشعارين نظرة موازنة يلاحظ أن من بين الفوارق المميزة لكل حرص امرئ القيس في تصويره على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه وغيره من ألوان البيان بينما يحرص النابغة في تصويره على الصور البيانية القائمة على النظرة المحسية المستقصية لأحراء الصورة، والوقوف منها على الجوانب المصورة، كما رأينا في تصويره جيوش الحارث النساني وما نحتقه من انتصارات، وتصوير العباسية في سلمهم، فيتحدث عن سجايهم وشيمهم ومعتقداتهم الدينية حديثا يرسم لهم صورة رائمة في قوله :

لهم شبيهة لم يعطها الله غيرهم من الجود، والأحلام غير عوازل

إلى آخر ما ذكرنا من ذلك آنفا ولا يعنى ذلك أن النابغة لا يستخدم - في تصويره - الصور التفسيرية ، ولسكن الذى أعنيه - ذلك أن النابغة لم يكن يحتفل بهذه الصور احتفال امرئ القيس ، ولا كان يعتمد عليه في تصويره اعتماد امرئ القيس . من ثم ركز النابغة جهده في الوقوع من مدوحه على المعاني التي يتمدح بها ، وعرضها في ترتيب متناسق أخذ ؛ رأينا في صوره - لذلك - معانى حضرية جديدة لم تعرف ولا لشاعر العصر العربي لشاعر للبادية الخالص ، تمثل سلوكهم ومعتقداتهم البدئية ، ومظاهر الترف والمعيم في حياتهم .

بيد أن مواراة النابغة بمسدى بن زيد تكشف عن ما بين الشاعرين من علائق تنمى عما أخذته النابغة من عدى في ذلك ، خصوصا في اعتدالته .

كما يتضح الفرق بينه وبين زهير الذى ارتبط ببيئته القباية ، ولم يخرج عليها على الرغم مما أتبع له من أسباب الترف والنعمة ، فانجبه بمدائحهم إلى من يقدم الخير لأهله وعشيرته ، فلم يمدح أشخاصا بقدر ما مدح أفعالا ، على عكس النابغة الذى قصد إلى مدح الأشخاص ليدفعهم من وراء ذلك إلى الأعمال . ومن ثم افترق زهير في مدائحهم عن النابغة ، فالتصمت مدائح زهير بالصدق الواقعى والفنى ، وكانت نابغة من شعور متسق مع اللوقف ، أما مدائح النابغة فكانت معتمدة على الفن المصنوع الذى لا يقوم على تجاوب نفسى ، ولا انساق عاطفى . ولا ريب في أن ذلك أثر من أثار البيئة الحضرية التي ضمت النابغة .

بيد أن بين الشاعرين تشابها يتمثل في زوف كل منهما عن الهجاء ، وتحفظه فيه . إذا اضطر له اضطرار ، وهما في ذلك متأثران بخلق البادية العربية المترفة أو المتحضرة المزوج بالوقار الذى أضفاه على كل منهما مركزه بين عشيرته وتقدمه في السن ، فلما كان زهير يتمتع من الخوض في عرس مهجوه ، والإقذاع في شتمه وسبه ، كان في قوله يهجو عامر بن الطفيل ردا على هجائه إياه :

فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مطية الجهل السباب

فكن كأبيك أو كأبي براء توأفك الحكومة والصواب (١)
ولا تذهب بملك طاميات من الخيلاء ليس لمن باب (٢)
وإنك سوف تحلم أو تنامى إذا ناشبت أو شاب الغراب (٣)

ولعل هذا الاتجاه للتحفظ في هجائه كان أحد الأسباب التي مكنت له في نفوس
معاصريه من مختلف القبائل والعشائر فحكوه بين الشعراء في أسواقهم الأدبية .

-
- (١) أبو براء : عامر بن مالك ، ملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل .
(٢) طاميات : فاضات ومرتفعات . ليس لمن باب : ليس لمن مخرج .
(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابنة ذلك مثلاً لعامر ، وأنه لن يحلم أبداً .
(١٥ - الأدب العربي)

العباس بن مرداس السلمى

مولده وأشأته :

أبو الهيثم (١) العباس بن مرداس بن أبي عامر ينتهى نسبه - على الخلاف فيه (٢) - إلى سليم بن منصور بن قيس عيلان بن مضر ، أما مولده وأشأته شأن مولد معاصريه ، لم يكن ميسورا أن يعرف على وجه التحديد متى ولد . وكل ما تحمله كتب التاريخ من مجموع الروايات التى تتناول نشأته أن حياته تورعتها الجاهلية والإسلام . وأنه قضى فى الجاهلية من عمره ما تمكن معه من أن يكون فارسا ذائع الصيت بين قومه ، وأن يكون شاعرا له شأنه ، فهو بحق مخصوم .

وكان أبوه - مرداس بن أبي عامر - من سادة سليم ورسائها ، حضر يوم شعب جيلة مع بنى عامر ، وأبلى فيه بلاء حسنا واشتهر - إلى جانب مروسيته - بالكرم حتى لقب بالفيض ، وكان شريكا لحرب بن أمية فى القرية ، التى دفن فيها بعد موته . وقد ادعاها كليب بن أبي عهمة السلمى لنفسه ، واستولى عليها (٣) ، وفى ذلك قال العباس قصيدته النونية يطالب فيها كليبيا بالكف عن الظلم ، وإعادة القرية إلى أصحابها ، وفيها يقول (٤) :

(١) اختلفت الروايات فى كنيته بين « أبو الهيثم » ، و « أبو الفضل » ، راجع الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لأبى عمرو بن يوسف بن عبد الر على هامش الإصابة طبع للتجارية ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى طبع الحلوى ص ١٠٢ (٢) انفتت الروايات على نسبه حتى جده أبى عامر ، ثم اختلفت فيما بعد ذلك راجع الاستيعاب ج ٣ ص ١٠١ ، ومعجم الشعراء ص ١٠٢ والأغنى ج ٤ ص ٣٠٢ ، والإصابة ج ٢ ص ٣٦٢ ، وطبقات بن سعد ج ٤ ص ٢٧١ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٣ . (٣) الأغنى ج ٦ ص ٣٤١ طبع دار الكتب . (٤) انظر ديوان العباس ص ١٠٨ بتحقيق د / يحيى الجبورى طبع بدمشق ١٩٦٨ .

أكلب مالك كل يوم ظالما والظلم أنكد وجهه ملمون
إن القرية قد تبين أمرها إن كان ينفع عندك التبيين
حيث انطلقت تخطها لى ظالما وأبو يزيد بحمها مدهون

وقد تزوج مرداس أكثر من زوجة ، كان أشهرهن تماضر الخنساء بنت عمرو بن
الشريد السلية الشاعرة ، وكانت تروجه بعد زواجها الأول رواحة بن عبد العزى ،
وبقيت مع مرداس حتى مات فحزنت عليه ورثته .

وكان تعدد زوجات مرداس سببا في احتلاط الأمر على المؤرخين ، حين أرادوا
للتعريف بأبى العباس بن مرداس ، فقد سبق إلى وهم الكثيرين أن الخنساء هى أم
العباس (١) .

لكن الذى نبين لى من البحث أن أم العباس هى هند بنت سة بن سنان - وكانت
رنجية سوداء - وهى إحدى المنجيات على ما ذكره ابن حبيب (٢) ؛ فالخنساء لم يرد فى
شعرها ما يدل على أن العباس ابنها ولم ترد إشارة فى شعر للعباس تفيد أنها أمه . وقد أيد
الجاحظ ما ورد عن ابن حبيب ، فقد ذكر فى رسالة آخر البيضان على السودان ما يشير
إلى أن أم العباس رنجية ، وذلك فى أثناء القصيدة التى أوردها لسبيع بن رباح الزنجى
فى هجاء جرير بن الخطفى حين انتقص الزنج ، وفيها عدد الشاعر أبناء الرنجيات مفتخرا
بما لهم من مكانة ، ومنهم : حماف ابن ندبة ، وعباس بن مرداس ، وأبى شداد عترة
الفوارس وأخاه هراسة - وسليك بن السلكة . ومطلع قصيدته تلك :

ما بال كلب من كليب سبنا - إن لم يوارن حاجبا وعقالا (٣)

وقد ولدت الخنساء لمرداس معاوية ويريد وعمرا وعمرة وكانت شاعرة - فكانوا
إحوة العباس لأبيه على الصحيح ، أما عبد الله بن رواحة بن عبد العزى المعروف
بأبى شجرة فليس أحبا للعباس بن مرداس ، ولكنه ابن الخنساء زوج أبيه ، وكان

(١) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ، والأصمعيات لعبد الملك بن
قريب الاسمى بتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . ودائرة المعارف الإسلامية
ج ١٢ ص ١٤٤ ، ص ١٤٥ . (٢) انظر الخبر لمحمد بن حبيب ص ٤٥٥ ، ص ٤٥٦
(٣) انظر رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢
طبعم الخايجى بالقاهرة .

لقد أسلم مع سليم وارتد مع من ارتد منها، ولحق بطليحة مع محبه، ويدكر أنه أسلم بعد
فلك ودخل فيما دخل فيه الناس^(١) ، ومن إخوة العباس أيضا عمارة بن مرداس الذي
قتله بنو خولان في حقل من نواحي صعدة ، ورثاه العباس بقصيدة ، جاء فيها :

أبمد عمار الخير نرجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله
ملا وضمت عندي حصان حمارها ولا ظفرت كفي بقرن أنازله
لأن لم أزر خولان في مقر دارها بأرعن رجاف نزجي قنابله^(٢)

وقد تزوج العباس في الجاهلية حبيبة بنت الضحاك بن سفيان السلمي - وكانت
شاهرة - ، ولكنها فارقت حين علمت بإسلامه ، وقالت تهجوه وتوعده بما ينتظره
إذ فارق دين آبائه :

لعمري لئن تابعت دين محمد وفارقت إخوان الصفا والصنائح
لبدلت تلك النفس ذلا بمزة عداة اختلاف المرفهات للقواطع^(٣)

ثم تزوج بعد إسلامه ، لكنها لم تقف على اسمها ، وكان له من الولد : كنانة ،
وسميد ، وعبيد الله ، وجامحة ، وقد أسلم جامحة وكان له صحبة بالنبي صلى الله عليه
وسلم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم بعض الحديث ، وكان تواقا للجهاد في سبيل
الله فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك ، فقال : هل لك من أم ؟ قال
نعم . قال فآلزمها فإن الجنة تحت أرجلها^(٤)

* * *

أما حياة العباس فمن ثنايا الأخبار القليلة المتناثرة هنا وهناك نستطيع أن نقرو

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦

(٢) الديوان ص ١٣٧ ، وانظر صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد

الهمزاني ص ٢٨٠ ، ص ٢٨١ مطبعة السمادة بعصر ١٩٥٣ ، ومعجم البلدان ج ٧
ص ٢٨٧ ، ص ٢٧٩ .

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٣٠٤

(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧٤

أنه كان ذا مكانة مرموقة في قومه ؛ لما ضم من شمائل وصفات ؛ فقد كان عاقلا متزنا حرم على نفسه الخمر في الجاهلية ، ولما قيل له ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد في جرأتك ويقوك ، فقال : أصبح سيد قومي وأمسى سقيمهم^(١) . واعتزازه بمسكاته في قومه وزعامة أمته جعل منه فارسا مغوارا يشاركهم في حروبهم بمدانها عنهم ، ومتعاطفا مع رغباتهم ؛ واقد صور ذلك في شعره ، واقتصر بشجعان قومه في مثل قوله :

وكما إذا ما الحرب شبت نشبها ونضرب فيها الاليج والمتقاعسا
فأبنا وأبقى طعننا في رماحننا مطار دحطى وحمر مداعسا^(٢)

وحينما أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحية من أرض بني سليم نهض العباس لمقاومتهم في جمع من قومه وقاتلهم حتى أكثر فيهم القتل^(٣) ، وصور ذلك في ميمته التي منها قوله :

وما زال منهم رائغ عن سبيلها وآخر يومى للـدين ولهم
لبن غدوة حتى استبيحوا عشية وذلوا فـكانوا لـحمة المتلحم^(٤)

واشترك في أكثر أيامهم مثل يوم الفيفاء ، وبرزة ، والـكديد^(٥) ، ويوم تثليث ، وفي هذا اليوم تولى العباس زعامة سليم حين غزت مرادا فجمع لهم عمرو بن معد يكرب ، خالتي الجيشان بتثليث ، وصيرا ولم تظهر طائفة منهما بالأخرى ، وفي ذلك قال قصيدته السيلية ، وهي إحدى القصائد المنصتات^(٦) .

كما كان في كثير من شعره الجاهلي اللسان الناطق بأعجاد قومه ، المدافع عنهم ، المفتخر ببلائهم ، وشجاعة مرسائهم . على نحو ما قال في الرد على خصمهم عبد الله بن جندل غداة يوم برزة :

ألا أبنا عفى ابن جندل ورهطه فكيف طلبناكم بسكرز ومالك

-
- (١) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٦٥ ، وانظر قطب السمرور في أوصاف الخوارج ص ٤١٦
(٢) الديوان ص ٧١
(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ طبعة ساسي (٤) انظر الديوان ص ١٤٦
(٥) انظر العقد الفريد ج ٥ ص ١٣٤ ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٦
(٦) انظر العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٦٨

غداة جفناكم بمحسن وبابنه وبابن المملى عاصم والممارك
نذية-كم والموت بينى سرادقا عليكم شباحد للسيوف البواتك
تلوح بأيدينا كما لاح بارق تلالا في داج من الليل حالك
صبحناكم الموج المناجيج بالضحى تمر بنا من الرياح السواهلك (١)

يبد أننا نلاحظ وجود خصومة بينه وبين ابن عمه خفاف بن ندة من قوله :
وعلى الله يمكن من خفاف فأسقيه التي عنما يحيد (٢)

وترجع هذه الخصومة إلى تنازعهما على زعامة قومهما بمد مقل صخر بن عمرو بن
الشريد في يوم « ذات الأثل » الذي كان يتولى تلك الزعامة آنذاك (٣). وقد ولدت
هذه الخصومة معارك شعرية بين الشعراء ، لبست ثوب المناقضات ، وكان للعباس
منها إحدى عشرة قصيدة .

وكما يكشف شعره عن هذه المعركة اللسانية بين الشاعر وابن عمه ، يكشف كذلك
عن معركة أخرى حربية نشبت بينه وبين أحد الصناديد المدودين في عصره ، هو
عمرو بن معد يكرب ، في نحو قوله :

ألا أبلنا عمرا على نأى داره فقد قلت قولا حائرا غير مهتد
أتهدى الهجاء لامرئ غير مفهم وتهدى الوعيد لامرئ غير موعد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلونه حديثا وإن تفجر على تفعد (٤)

وفي الحديث عن تلك الخصومة يذكر ابن عبد ربه أن عمرا قد فر من العباس في
إحدى المارك ، وأن العباس أسر ربحانة أخت عمرو الذي أشار إلى ذلك الحدث في
مطلع قصيدته الميمنية حيث يقول :

(١) الديوان ص ١٣٠

(٢) الديوان ص ٤٢

(٣) راجع أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد وآخر ص ٣٩٩ طبع الحلبي

(٤) الديوان ص ٤٧

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هيجوع (١)
وكان العباس في جاهليته على علاقة طيبة باليهود - خصوصا يهود حير - الأمر
الذي جعله يدافع عنهم ويبيح قتالهم في حربهم مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة
مثل قوله في إجلاء بني النضير من ديارهم ، والتحزن لما أصابهم :

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا (٢)

وقوله في الرد على حوات بن جبير وما قاله فيهم :

أخوات ادر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم ومكبارهم (٣)

يؤيد هذا ما رواه صاحب الأغاني من تحاور بين العباس بن مرداس وحوات بن
جبير أمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ فقد قال حوات : يا عباس أنت الذي
رثيت اليهود فقد كان منهم في عداوة رسول الله ما كان ١٥ فقال عباس : إنهم كانوا
أحلائي في الجاهلية ، وكانوا أقواما أنزل بهم فيكرموني ، ومثلي يشكر ما صنع إليه
من الجليل (٤)

* * *

هذا العباس في الجاهلية وقبل أن يدخل الإسلام كما صورته الأخبار والإشارات
المتناثرة هنا وهناك .

أما حياته في الإسلام فكانت أوضح منها قبل ذلك شيئا ما ؛ فقد خرج في قومه
عام الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه بقديد فأسلموا جميعا ، وقالوا اجعلنا في
مقدمتك ، واحمل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدم ، ففعل ذلك بهم (٥) ؛ ليفتحوا بذلك
صفحة جديدة بعد مقاومة وعناد في مواجهة الدعوة الإسلامية ، وإصرار على عبادة
الأصنام وكان لكل صنم يتمعب لعبادته ويكب عابه . روى أنه كان مرداس وثني يعبد

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٤٦

(٢) الديوان ص ٣٨

(٣) الديوان ص ٤٠

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٨ طبع دار المكتبة .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٣٠٧

وهو حجر يقال له « ضمار » - فلما حضر مرداس الموت قال العباس : أى بنى أعبد « ضمار » فإنه يملكك ويضرك ، فبدا عباس يوما عند « ضمار » إذ سمع من جوف « ضمار » مناديا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بمدابن مريم من قریش مهتدى
أودى « ضمار » وكان يعبد مرة قيل الكتاب إلى النبى محمد^(١)

لا ينبغي هنا من القصة وأحداثها أكثر من أن نعرف أن العباس بن مرداس ورث عن أبيه وثنا ، قام بمبادنة قبل أن يعتنق الإسلام ، وأن هذا الوثن كان يسمى « ضمار » ، أما ما عدا ذلك مما يثار حوله الشكوك فلسنا فى مجال تحقيقه وبحث مكانه من الحقيقة .

لقد أسلم العباس بن مرداس بعد هذه الحياة الوثنية ، وحين إسلامه ، حتى أصبح من جنود الإسلام المدايين عنه ، والداعين إليه فى كل مكان ، فشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، ويوم حنين ، حمل لواء مرداس يوم فتح مكة وخفاف ابن ندبة تحت قيادة خالد بن الوليد^(٢) ، أما فى يوم حنين فقد أبلى هو وقومه بلاء حسنا ، وأشرك شعره فى المعركة ، فتمنى فيه بأعجاذ المسلمين ، وأوضح دور بنى سليم فى المعركة فى محو قوله :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
عبرنا مع الضحالك لا يستفزنا قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخذروف السحابة لامع^(٣)

بيد أنه فى يوم حنين كان ما يزال خاضعا لمؤثرات الجاهلية ، ولم تكن مبادئه وسلوكياته وأحكامه قد أخذت منه مكان القيادة والتوجيه ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل من غنائم حنين ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) انظر امتاع الأسماع للمقرئ ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣

(٣) الديوان ص ٨١

وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى العباس دون المائة فسخطها
وقال يمانب الرسول صلى الله عليه وسلم :

كانت نهـ ابا تلافيتها	بكرى طى المهر فى الاجرع
وإيقاضى القوم أن يرقدوا	إذا هجع الناس لم أهجع
بأصبح نهى ونهب العيب	د بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذائد	رىء لم أعط شيئا ولم أمنع
إلا أفايل ^(١) أعطينمـ	عديد قوائمها الأربع
وما كان حصن ولا حابس	يفوقان شيخى فى المجمع
وما كنت دون امرىء منه	ما ومن تصع اليوم لا يروع

وقال صلى الله عليه وسلم : أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حق رضى ،
فكان ذلك قطع لسانه^(٢) .

ولم يكن موقفه هذا هو أول مواقفه المادية التى تدل على ما استقر فى نفسه من روح
الجاهلية ولم يتأثر بعد بالخلق الإسلامى فقد سبق هذا موقف آخر شبيه بذلك ، حين
عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رد سبائا هوازن وأموالها إليهم ، مرد المهاجرون
والأنصار نصيبهم ، وقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله ، أما زعماء الأعراب من للؤلؤة
قلوبهم فكان لهم غير هذا الشأن ، فقد قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ،
وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا
و بنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وقال عباس بن مرداس لقومه : وهنتموى^(٣) .

(١) أفايل : الأفيل : الصغير من الإبل والتمم ، وجمعه إفال - بكسر الهمزة -
وجمع الجمع أفايل .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣١٣ طبع المطبعة الخيرية بمصر
سنة ١٣٢٩ هـ ، وإمتاع الأسماع للمقرئ ج ١ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، والطبقات الكبرى
ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٢ .
(٣) السيرة النبوية ج ٣ ص ٩ ، الطبعة السابقة .

لكن الإسلام ظل يتغلغل في نفس العباس طي مر الأيام حتى أصبح موضع ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقامه على صدقات بني سليم ومازن ابني منصور^(١) ، وبعثه مع رجال إلى قومه بني سليم ليحصيهم على الجهاد ويرغبهم في الصدقة استعداداً لفزوة تبوك^(٢) ، وهكذا حتى جاء اليوم الذي كان فيه العباس بن مرداس واحداً من رواة حديث النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان مقلداً - فقد روى أبو دارود وابن ماجه عنه حديثاً في عموم المفرة للحجاج يوم عرفة^(٣) ، وقال عنه العجلي : هذا حديث غريب ، وليس يروى عن العباس بن مرداس سوى هذا الحديث^(٤) ، غير أن الحافظ ابن حجر العسقلاني تعرض لهذا الحديث بالدفاع والتصحيح ، والرد على ابن الحوزي الذي أورده في الموضوعات وأشار إلى أن له أحاديث أخرى غير هذا الحديث^(٥) .

* * *

ومع مامرت به حياة العباس بن مرداس من تقلبات وتغيرات - حيث انتقل من الجاهلية إلى الإسلام - لم يغير مقامه ، فقد ظل يقم ببادية بني سليم في الجاهلية ولزمها في الإسلام فترة من الزمن يبدو أنها امتدت حتى خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يحضر من بادية بني سليم ليشارك مع النبي صلى الله عليه وسلم في الفزوة ، ثم إذا فرغ من مهمته عاد إلى بلاده ، ولم يبق في مكة ولا في المدينة^(٦) ، ولما انتقل إلى البصرة حين اختطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - كان ينزل في بواديها^(٧) ، مما يتضح معه مدى تعلقه بأرض قومه ، وارتباطه بالحياة البدوية . وإثارة العيش في أكشاف البادية على الحياة في المدينة أو الحاضرة .

وكما لم نحدثنا المصادر التاريخية عن ميلاد العباس في جاهليته ، لم نحدثنا كذلك عن وفاته في الإسلام إلا الحديث المحتمل الذي لا يدعمه السند القاطع ، فابن حجر

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢٥٥ ، وأشباه الأشراف ج ١ ص ٥٣٠

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ (٣) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٢٠

(٤) القول المسدد في الثب عن مسند الإمام ص ٤٩ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠ . (٦) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٣٣

(٧) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢٧٣ .

المسقلاني بقدر أنه مات في خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه^(١) ، وصاحب الأغاني لم يحدد لوفاته سنة بـمـيـها ، وليكنه ذكر أنـه مات في الإسلام^(٢) ، أما الركني وذكر أنه مات بالشام سنة ١٦ هـ^(٣) ، دون أن يشير إلى المصادر التي استقى منها هذا التحديد.

على أى حال المقطوع به أن العباس بن مرداس مات في الإسلام ، وقد أنارت وفاته أشجان أحبه سراقه بن مرداس ، وأخته عمرة بنت الحنساء فرثياه بشعر يفيض أسى وحزنا على فراقه ؟ وكان مما قاله سراقه :

أعين ألا أبكي أبا الهيثم	وأدري الدموع ولا تسأى
وأنتى عليه بآلاته	بقول امرئ موجه مؤلم
فما كنت بأثمه بامرئ	أراه يبدو ولا موسم
أشد على رجل ظالم	وأدعى لدهاية ميثم ^(٤)

وقالت أخته عمرة :

لتبك ابن مرداس على ما عرام	عشيرته إذ حم أسى روالها
لدى الخصم إذ عمد الأمير كعام	فكان إليه وصلها وجدالها
ويعضله للحاملين كفتها	إذا أنهات هوج الرياح طلالها ^(٥)

شعره :

واضح من حياة الشاعر ونشأته أنه بدوى حالص البداوة ؛ فهو مرتبط بقبيلته ، حرم على مكانته معها ؛ لا يرضى بالحياة بين عشيرته ولا فوق أرض سليم بديلا ، حتى حين تيسر له أن يجد متسعا من الحياة خارج حدود باديته لم يقبل أن يستبدل بها أى موطن آخر ، على الرغم مما فى هذا الموطن الجديد من مغريات ، وما يتوفر له من عوامل الجذب - ويكفى أن يكون من بين ذلك ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم -

(١) راجع تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٣٠

(٢) انظر الأغاني ج ٤ ص ٣١٨ طبع دار الكتب .

(٣) الأعلام ج ٥ ص ٢٢٥

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٣١٩ طبع دار الكتب .

(٥) المرجع السابق ج ١٤ ص ٣١٩ وشرح الحماسة للمرزوقي القسم الثالث ص ١٠٩٩ .

هو تحت إلحاح الضرورة لا يجد مندوحة من مذادة البادية حتى إذا أدى ما عليه ، من واجب الجهاد عاد إليها . بل إنه حين فسكر في الخروج إلى البصرة على عهد عمر رضى الله عنه ، أبى أن يكون خروجاً إلى المدينة ، متأثر بادية البصرة ، ليستبدل بادية ببادية .

واسنأ بصدد البحث عن الشعر في إثثار العباس بن مرداس حياة البادية على حياة الحاضرة ؟ فهذا له مجال آخر غير بحثنا ، إنما الذى يعنيننا هنا أن نحاول التعرف على أثر ذلك في أدبه .

والذى يطرأ مما وصلنا من شعر العباس يلاحظ أثر هذه البيئة البدوية فيه واضحا كل الوضوح ؟ يلاحظ ذلك في فنونه الشعرية ، ويلاحظه في أسكارة ، ويلاحظه في معانيه وأحيلته ، ويلاحظه في أسلوبه ومنهجه الفنى في عرض أسكارة ومعانيه ، ويلاحظه في معجم ألفاظه والأعلام التى ترد فيه .

فالشاعر يكاد يقصر شعره على الفخر والمجاء . ولا ريب في أن هذين العنيتين هما أبرز فنون الشعر البدوى الخالص من التيارات الأخرى ، وذلك لأن البدوى الفارس الذى استقرت حياته بين قومه في البادية لا يحرك نفسه إلى قول الشعر إلى موقف يتطلب منه الاعتزاز بنفسه وبقبيلته ، فينطلق معددا لمفاحره على اختلاف مظاهرها . أو موقف يتطلب منه الرد على من أساء إليه أو إلى واحد من أبناء قبيلته أو تطاول على خلق من أخلاقهم ، أو شذ عن أحد أعرافهم ، فينطلق لسانه بمدد بتصوير هذه العيوب ، وإبراز تلك الثائب ، حتى يتحاشاها هو ومن على شاكلته . . . أما ما عدا ذلك من فنون الشعر فيلاحظ أن الشاعر لم يقبل عليها إقباله على هذين العنيتين ، ولكنه تناول ما تناول منها في شعره عرضا وليس باعتبارها فنا مستقلا ، وما استقل منها بالتناول فهو قليل نادر ، على ما سنفصله إن شاء الله تعالى .

* * *

١ - لقد كان الفخر - وما زال - من ألزم الصفات للإنسان ، بيد أنه يختلف من فرد إلى آخر ، وفقا لظروفه البيئية ، فما يفتخر به الإنسان في الحاضرة غير ما يفتخر به في البادية وما يفتخر به في إحدى الحواضر غير ما يفتخر به في حاضرة أخرى ، كما أن لكل بادية مفاحرها التى يمتز بها ساكنوها . بل إن المفاحر في الوطن الواحد تختلف باختلاف مراحل العمر وأطواره ؛ ففي مرحلة قديم فتخر الإنسان بالطيش والاندفاع وراء

المأطفة ، لكنه في مرحلة أخرى يتميز بالحكمة والأناة والبروى . وقد توجه الإنسان بفخره إلى تعداد مناقب قومه ، وقد يكون ذلك بتعداد مناقبه الشخصية ، وقد يجمع بين هذا وذلك ثم إن ما يفخر به الشاعر قد يكون صفات عريضة ومحاسن جسمية ، وقد يكون فضائل نفسية وسجالات خلقية .

ونحن حين نتفحص شعر العباس بن مرداس نلاحظ أنه جمع بين ذاته وقومه ، فكما افتخر بنفسه افتخر بقومه ، وأنه حرص على التغنى بالفضائل النفسية والسجالات الخلقية التي قامت عليها نفسه ، وارتكزت عليها قبيلته .

من ذلك ما قاله في الفخر على حفاف بن ندة ، فهو ليث يحمى عرينه ، ولا تفلت من بين برائه مريسة أتجه إلى قنصها (١)

إن تلقى تلقى ليثاً في عرينه من أسد حفاف في أرساغه ودع (٢)
لا يبرح الدهر صيد قد تقنصه من الرجال على أشدائه القمع (٣)

وقوله لحفاف أيضاً إنك حين تشتمى لا تنال منى ، لأنك لو تبينت لأمر لمرفت أنك ترمى هضبة صلبة على عرض ناصع طاهر لا يقبل القدم ولا التجريع ، وإنى فارس أبى من قوم أباة شجيمان (٤) .

ألا أيها المهدى لى الشتم ظالمها تبين إذا راميت هضبة من ترى
أبى الدم عرضى، إن عرضى طاهر وإنى أبى من أباة ذوى غشم (٥)

(١) الديوان ص ٨٧

(٢) الأرساغ جمع رسخ - بصم الرء - والرسغ مفصل ما بين الساعد والكف .
والساق والقدم . والهدع - بفتحين - عوج في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ،
وأكثر ما يكون في رسغ اليد أو القدم .

(٣) القمع - بفتحين - عظم نأىء في الحجرة من الخارج ، أو طبق الحلقوم وهو مجرى النفس إلى الرئة .

(٤) الديوان ص ١١٠

(٥) الغشم - بفتح فسكون - الظلم ، يقال غشمت الرجل ظلمته أعاد الظلم .

وإني من القوم الذين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم (١)
وقوله يفخر على عمرو بن معد يكرب ، حين افتخر عليه عمرو بن محمية ونسبه
وعشيرته ، يقال ناقصا عليه مفاحره ، ومفتحرا بأصوله وأحسابه ؛ فهو وإنتمى إلى قبس
ابن عيلان المصري ، وأحسابهم وأحاديثهم ذمة لا يسديها الجول (٢) :

وإن تلك من سد المشيرة تلقى إلى الفرع من قبس بن عيلان مولدى
إلى مصر الجراء تسمى حدودها وأحسابها ومحداتها غير قعد (٣)
فماثل نسا عايها ريمة إنها أحرنا وإن نقصر عن المجد نرد

وفي طلال لإسلام بدأ العباس يتعجه بالفخر متجها آخر ، فاعتاره في شرة بقومه
أكثر وصوحا ، وارتكازه في شرة على شجاعة قومه وإقدامهم ، ليس لإشاعة الظلم ،
ومرض السلطان . ولكن لنصرة الإسلام ، والسعي لرضا الله ورسوله ، من ذلك
قوله مفتخرا بما كان من قومه الدين أمدوا جيش المسلمين يوم حنين بألف فارس
لينصروا رسول الله ، فاصوا للمركة حاملين الراية في أعلا الرمح يدفعون بها في
ميدان القتال فصبغوها بدماء الأعداء (٤) :

نصروا رسول الله بن عصب له بألف كمي لا تعد حواسره
حاملها له في عامل الرمح راية يدود بها في حومة الموت ناصره (٥)
ونحن حضنناها دما هو لونها عداة حين يوم صفوان شاحره

وهم حاضوا غمار الحرب في حين حاملين أرواحهم على أكمهم في ثبات وصبر
خلف الصحاك بن سفيان الذى أمره الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك اليوم
دون أن يحذروا غضاضة ؛ فهم إنما خرجوا لنصرة الرحمن ودينه (٦) :

(١) الترات جمع ترة - بالكسر - وهي مصدر ونزه يتره إذا قتل حميمه وللقصود
الثأر ، والرعم - تثنية الراء - الكره والذل ، يقال فعل هذا الشيء على رغفه .

(٢) الديوان ص ١٣٠

(٣) القعد - بصم مسكون وضم - الجبان ، الخامل يقعد عن المسكارم .

(٤) الديوان ص ٥٦

(٥) عامل الرمح أعلاه مما يلي السنان بقليل

(٦) الديوان ص ٥٤ ، ص ٥٥

واذكر بلاء سليم في مواطنها وفي سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن وانبعروا دين الرسول وأمر الناس مشجع
ومحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عرا وعمد الله مدحر
إذ رك الموت مخصرنا بطائمه والحيل ينجاب عنها ساطع كدر
نحت اللواء مع الصحاك يقدمنا كما مشى الليث في غاباته الحدر (١)

ويطل العباس في خرو على هذا النجم، فيكرر إلحاحه على أن قومه ودوا للرسول،
وناصروه، ودافعوا عن دين الله، حتى عر بهم وتحقق النصر بألف الفارس السلمي
الصادقين المخلصين، مثل قوله (٢) :

وأنا مع المهادي إلى محمد ومينا ولم يستويها ، عشر ألفا
فتان صدق من سليم أعـرة أطاعوا لما يصون من أمر حرها
بنا عز دين الله غـير تسجل وردنا على الحى الذى قمعه صفها
عداة وطشنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرنا

ولا ريب في أن أثر الإسلام - هنا - واضح، حيث حول العباس في خرو من الفخر
الشخصي والفخر القبلي إلى الفخر ناشترا كما هو وقومه في معركة من أخطر معارك
المسلمين، ومساهماتهم في أحداث يوم من أبرز أيام الإسلام الناصلة، دون غرض شخصي،
أو دافع قومي، يوضح ذلك قوله (٣) :

رضا الله نرى لا رضا الناس نبتنى والله ما يسدو جعيما وما يخفى

وقوله مشيدا بقيادة الصحاك بن سفيان السكلابي الذي ولاه الرسول صلى الله عليه
وسلم قيادة بني سليم، ومفتخرا باستجابتهم له، كالأسود تأهبت للمراك طاعة لربهم،
وحبا لرسول الله حسب (٤) .

(١) يقال حدر الأسد ثم عرينه وأقام به .

(٢) الديوان ص ٨٩ ، ٩٠

(٣) الديوان ص ٩٠

(٤) الديوان ص ٩٥ ، ٩٦

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضعفا
رجلا به ذرب السلاح كأنه لما تكلمه العدو براكا

* * *

وبو سليم معنقون أمامه ضربا وطعنا في العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العربين أردن ثم عراقا
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهواكا

ولأن نثر العباس - في الغالب - يدور على فخره بالشجاعة والإقدام في الحرب ،
والتماني في طاعة الله ورسوله . . . جاء فخره بمتجرا بالحماة ، أو قل إن فخره لون من
ألوان الحماة ؛ فأنت لا تكاد تدثر له على مقربة يفتخر بها غير مناقب الفارس المقاتل .

هذا إلى أن فخره أو حماسه ذلك يكاد يدور حول معركة حنين . . . ويبدو أن
لقرب إسلام العباس وقومه من هذه المعركة أثره في إبرازها في شعره ، وفخره بما كان
من قومه فيها ؛ فهي - إلى ذلك - تكشف عن فرحة كامنة في النفس بالدخول في
الدين الجديد ، ومصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل في هذا تفسيراً لقوله في
يوم حنين وحده سبع قصائد منها قوله (١) :

فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية أسير (٢)
وأم الجمع جمع به قبيس على حنق نكاد له نظير
واسم لوهم منكثوا لسرا إليهم بالجنود ولم يعوروا (٣)

* * *

٢ - وإذا كان الفخر من ألزم الصفات للإنسان ، فإن الهجاء - في الغالب - بما
يستلزمه الفخر أو يستدعيه ويتطلبه ، خصوصا في البيئات البدوية ، وذلك لأن الفخر

(١) الديوان ص ٥٠ ، ٥١

(٢) ضحيا يضحو : برز الشمس .

(٣) غار الماء يغور : ذهب في الأرض وسفل فيها ، والمقصود : ولم يفروا .

إنما هو امتداح الإنسان نفسه أو قبيلته ، فهو - كالممدح - في مقابلة الهجاء ، أى أن الهجاء يحتذى الفخر والمدح تماماً ، فإذا كان الفخر - كما قررنا - يختلف باختلاف الشاعر وبيئته وملايساته ، فإن الهجاء - كذلك - يختلف باختلاف بيئات الشاعر وملايساته وثقافته .

والهجاء في شعر العباس بن مرادس يندبثك عن أنه دمع إليه دفعا ، فلم يكن بطبعه ميالا إلى هذا الفن الشمرى ، وإنما هو فيه واقع تحت تأثير بعض آرائه ممن كانوا يثيرون غضبه بما يبدونه نحوه من أحقاد ، وسببونه من عنف وضيق ، مثل ابن عمه خفاف بن ندبة ، وعتبة بن الحارث ، وعمرو بن معد يكرب . والشاعر يوضح ذلك بنفسه ويفسر اتجاهه إليه حين يواجه من يلومه في الهجاء بالاستنكار عليهم وذلك في أثناء هجائه سفيان بن عبد يثوث بقوله (١) :

ألام على الهجاء وكل يوم تلاقيني من الجيران غول

ويلاحظ أنه في هجائه اعتمد على سلب الصفات الخلقية ، وللمضائل النفسية ، يصف مهجوه بدم الوفاء ، ونكران الجليل كقوله لسفيان ابن عبد يثوث (٢) :

ألا من مبلغ سفيان عني	وظني أن سيبله الرسول
ومولاه عطية : أن قبيلا	حلامي وأن قد بات قيل
سئتم ربكم وكفرتموه	وذلكم بأرضكم جميل
ألا توفي كما أوفى شبيب	فحمل له الولاية والشعول

أو يصفه بالقدر ويصمه بالحناء والحناء ، كما في قوله بهجو عتبة بن الحارث (٣) :

كثر الضجاج ومامنيت بغادر	كمتيبة بن الحارث بن شهاب
جلت حنظلة الحانة والحناء	ودنت آخر هذه الأحقاب (٤)

(٢١) الديوان ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٣٦

(٤) الحانة : الحيانة . والحناء - بالفتح - الفحش في الكلام .

وقد يكون الهجاء في أثناء الفخر ، فيأبى مزيجاً من الهجاء والفخر والحماسة ، كما في قوله يرد على عمرو بن معد يكرب هجاءه ، ويميره بالتخاذل أمامه (١) :

ألا أبلغنا عمراً على نأى داره	فقد قلت قولاً جاثراً غير مهتد
أنهدى الهجاء لامرئ غير مفحم	وتهدى الوعيد لامرئ غير موعد
فإن تلقى تلقى امرأ قد بلوته	حديثاً وإن تفجر على تفنيد
ألم تعلمن يا عمرو أبى لقيتكم	لدى مأقط والحيسل لم تنبذ
وما زلت أحمى محبتي وأزودكم	برمحي حتى رحت قطر بمطردى

إنه فارس حتى في هجائه ؛ فهو عف اللسان ، لا يعيب مهجوه بما تتقذى به الاسماع ، وإنما هو إلى الواصف المقرر أقرب منه إلى الذام الشاتم الذى يتصيد المعاييب ليعم بها من يهجوه ؛ فلا نجد في هجائه حشاً يخذش الحياء ، كما في رده على ابن عمه خفاف ابن نديبة حين هجاه (٢) :

خفاف ما تزال تعجز ذليلاً	إلى الأمر الفارق للرشاد
إذا ما عايتك بنو سليم	نبيت لهم بداهية نآد
وقد علم العاشر من سليم	بأبى فيهم حسن الأيادى
فأورد بأخفاف فقد بليت	بى عوف بحية بطن واد

ولعل أوسع ميادين هجائه تلك للناقضات التى دارت بينه وبين بعض معاصريه ممن كانوا ينافسونه على الزعامة ، كذلك التى كانت بينه وبين خفاف بن نديبة ، فقد هجاه خفاف بقصيدته التى منها (٣) :

يا أيها المهدي لى الشتم ظالماً	ولست بأهل—حين أذكرك—لشتم
أبى الشتم أبى سيد وابن سادة	مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجرم
هم مسحوا الضراً أباك وطاعنوا	وذاك الذى يرمى ذليلاً ولا يرمى

(١) الديوان ص ٤٧ •

(٢) الديوان ص ٤٦

(٣) ديوان خفاف ص ٥٩

مأجابه العباس ناقضا قوله ، رادا عليه قوله (١) :

ألا أيها المسدى لى الشتم ظالما تبين إذا راميت هضبة من ترمى
أبى القدم عرضى ، إن عرضى طاهر وإن أبى من أباة ذوى غشم
وإنى من القوم الدين دماؤهم شفاء لطلاب الترات من الرغم (٢)

وكذلك صنع فى مناقضاته مع خوات بن جبير ، وعبد الله بن جذل (٣)

* * *

٣ - وكان إلى جانب هذين الفنين الأصليين فى شعر العباس بنى مرادس شعر فى بعض فنون الشعر التقليدية مثل الرثاء والمدح ، والغزل وشعره فى هذه الفنون قليل .
ويبدو أن ذلك يرجع إلى بيئة الشاعر وطبيعة الفارس فيه ؛ فالبادية بأخلاقياتها تنأى على الشاعر أن يتعلق الآخرين ويتمدحهم ، والفروسية تتعارض مع البكاء على الميت ، وهذه وتلك ترى فى المرأة حرما يجب أن يحصى ولا ينزل إلى ميدان القول وحديث اللسان .

من ثم لم يؤثر له شعر فى الرثاء إلا قصيدة رثى فيها أخاه عمارة بن مرادس ، وإلا ما بسكى فيه يهود بن النضير حين أخرجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من ديارهم .
وحق هاتين المرتبتين لهما من الملابس ما ينأى بهما عن فن الرثاء .

أما رثاؤه أخاه عمارة فلمل الدافع إليه حب العباس إياه ، والظروف التى أحاطت بقتله ؛ إذ قتل فى حقل صعدة فى بلاد اليمن بعيداً عن موطنه ، إذ كان قد ترك دياره ، وذهب إلى أرض اليمن حيث قتل ، ولقد أشار العباس إلى ذلك فى رثائه الذى قال فيه (٤) :

(١) ديوان العباس ص ١٠٥

(٢) الترات جمع قرة - بالكسر - مصدر وتروه إذا قتل حميمه ، والمقصود بالثرة الثأر ، والرغم - بثليث الراء - السكوه والذل .

(٣) لمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع راجع المؤلف (الممارسة فى الأدب العربى)

(٤) الديوان ص ١٣٧ ، ص ١٣٨

أبعد عمار الخير زجو سلامة وقد بتكت آرابه ومفاصله^(١)
 ولا وضعت عندي حصان فمارها ولا ظفرت كفى بقرن أنازله
 لئن لم أزر خولان في عقر دارها بأرعن رجاف تزجى قنابله^(٢)
 وأهني غليلي من سرة قضاة وكل صقيل يملأ الكف حامله
 فمن مبلغ عمرو بن عوف رسالة ويعلى بن سعد ثؤور يرأسه
 بأنى سأرمى الحقل يوما بنارة لها منكب حاب تدوى رلازله^(٣)
 أقام بدار الغور في شر منزل وحلى بياض الحقل يزهر خامله

والناظر في هذه الرثية يجد أنها إلى الحماسة أقرب منها إلى الرثاء، فهو يهدد ويتوعد
 قاتلي أخيه بالنار منهم والانتقام .

فلذا نظرنا في مراثيته يهود بن النضير وجدناه فيها مدفوعا بالوفاء لما كان بينه وبينهم
 من علاقات قديمة وصداقات وطيدة ، تلفت فلم يجد أحدا منهم حوله ، فلم يكن له بد من
 أن يعلن أسفه لبعدهم عنه ، في قوله^(٤) :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا
 فإنك عمرى هل أريك ظمائنا سلكن على ركن الشظاة فنيا^(٥)
 عليهن عـين من ظباء قبالة أو انس يصيبن الحليم المجربا
 إذا جاء باغى الخير قلن لجاءة له بوجوه كاللذنانير : مرحبا
 وأهـلا ، ولا ممنوع خير طلبته ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
 فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلام ، ولا مولى حي بن أخطبا

* * *

- (١) بتكة: قطعه والآراب جمع إرب - بكسر الهمزة وسكون الراء - العضو السكامل .
 (٢) الجيش الأرعن : العظيم الجرار ، زجى الشيء رجاء أى ساقه ودهنه ، وقنايل
 - بفتح القاف - جمع قنبل - بفتح القاف وسكون الدون وفتح الباء - الطائفة من الناس
 ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين .
 (٣) المنكب - بفتح فسكون - مجتمع رأس العضد والكف ، وعريف القوم
 ولعله المقصود هنا ، والحاب ، يقال : حاب يحوب حوبا : أتم .
 (٤) الديوان ص ٣٨ (٥) نيأب اسم موضع .

وأما مدحه فلم يعرف له قبل الإسلام سوى مدحه قيس بن عاصم وأبي حليس ،
 ولكل من المدحتين من الدوافع ما جعل العباس ينتسب مذهبه ، ويرغم نفسه على
 هذا الفن ، وذلك لأن قيس بن عاصم كان من الشخصيات المثالية التي أخذت العباس
 بما أثر عنها من كريم الخلال ، وطيب الفعال ؛ فمدحه قيساً قصة ، وذلك أن
 رجلاً^(١) من بني القين من قضاة جاور قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ولم يرمه
 إلا الخير ، فلما فارقه ونزل في جوار جوين الطائي ، أبي عامر بن جوين ، ووثب عليه
 رجال من طيء وقتلوه وأخذوا ما معه ، فما كان من العباس إلا أن اندفع بمدح قيس
 ابن عاصم لحمايته جاره ، ويندم رجال طيء على ما بدر منهم من الندر والحياة
 في قوله^(٢) :

لعمري لقد أوفى الجواد ابن عاصم	وأحسن جارا يوم يمدح بكره
أقام عزيزاً منتدي القوم عنده	فلم ير سوءات ولم يحسن غدره
أقام بسعد يشرب الماء آمناً	ويأكل وسطاها ويربض بحره

كما أن وراء مدحه أبا الحليس دافعا أقوى ، وذلك أن أبا الحليس قتل حويلدا الذي
 قتل هريم بن مرداس أبا العباس ، فلم يسكن من العباس إلا أن يذكر هذا الصنيع
 لله ، ويشيد بموقفه ، ويثني عليه ، ويشكر له إقامته على الثأر من قاتل أخيه في
 قوله^(٣) :

أتاني من الأنباة أن ابن مالك	كفي ثائرا من قومه من تقيبا ^(٤)
ويلقاك ما بين الخيس خويلد	أرى عجبا ، بل قتله كان أعجبا
فدى لك أمي إذ ظهرت بقتله	وأقسم أبني عنك أما ولا أبا
فثلك أدى نصرمة القوم عنوة	ومثلك أعياذ السلاح المجربا

(١) انظر الأغاني ج ١٤ ص ٧٢

(٢) الديوان ص ٦١ ، ص ٦٢

(٣) الديوان ص ١١٢

(٤) تنبيه في الأمر : لم يبال فيه .

فليس للمدح من طبائع العباس ، ولا التكبب بالشعر ديدنه . إنما هو مدح على صنائع تشد انتباهه ، وتستحوذ على إعجابه ، فيجد أن من واجبه مدح صنمها على ما صنموا ، فهو مدح على خلق ، وليس مدحا لذات المدح .

ولما اعتنق الإسلام ، ووجد نفسه أمام المثل للعالمية تتحرك ، تحركت مشاعره فياضة ، فاندفع بالثناء الصادق ، والمدح الخالص للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء من هداية ونور كشف للناس السبيل وأخذ بأيديهم ، من ذلك قوله (١) :

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ، ومحمدا سماكا

ومحمد صلى الله عليه وسلم خير البرية ، نشر كتاب الله الذي جاء بالحق ، وأنار بالبرهان العقول فبدد ظلام الجاهلية الدامس (٢) :

رايتك يا خير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا وأطفأت بالبرهان نارا مضرما
وظل العباس يتتبع مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلما وقف على منقبة جلاها ، وأبرزها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم محلي في أداء رسالة ربه بمثل ورشاده كما يقول (٣) :

من مبلغ الأقوام أن محمدا رسول الإله راشد حيث يما
دعا ربه واستعصر الله وحده فأصبح قد وفى إليه وأنما

وهو صلى الله عليه وسلم خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب (٤) :

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تمد الأنفس

ولم يفته في هذا الصدد أن يقارن بينه صلى الله عليه وسلم وبين سبقه من الأنبياء فقد جاء بالحق الناطق ، وكان أمينا على الفرقان ، وأول شافع ، وآخر مبعوث تخاطبه الملائكة (٥) :

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) الديوان ص ١٤١ (٣) الديوان ص ٩٠

(٤) الديوان ص ٩٣ ، ص ٩٤ (٥) الديوان ص ١١٦

فى أنانا بعد عيسى بنـاطق من الحق فيه الفصل منه كذلك
أمینا طى للفرقان أول شافع وآخر مبعوث یجیب الملائکا

فالمذح فى شعر العباس یمد بحق ولید الحیاة الإسلامیة ؛ إذ لم یسكن قبل الإسلام
حریصا طى مدح واحد بعینه حرصه طى مدح الرسول صلى الله علیه وسلم ، وما أثر من
مدحه فى الجاهلیة إنما هو مدح على صنائع بخصوصها، ولولا تلك الصنائع لما سمع له .
فى هذا الفن - صوت .

* * *

وأما غزله فهو - على قلته - غزل تقليدى ، لا یشف عن عاطفة ، ولا یكشف عن
میل ، وسكل ما أثر من شعره فى ذلك آیات قليلة جاءت فى مطالع بعض قصائده .
اللهم إلا ثلاثة آیات جاءت مستقلة ، وفيها یصف المرأة بحسن الطلعة وجمال العینین ،
وأنها شابة مخدمومة لا تقوم بشئون نفسها إلا أن تلهو باللعب كالأطفال ، كأنها هلیل یجد
الراحة فیمن یقوم على رعايته (١) :

قليلة لحم الناظرین یزینها شباب ومحفوض من العیش بادر
أرادت لتتناش الرواق ولم تقم إليه ، ولسكن طأطأته الولائد (٢)
تداعى إلى لهو الحديث كأنها أخو سقطة قد أسلته العوائد

وما عدا هذه الآیات الثلاثة مقدمات عزلیة یبتدىء بها بعض قصائده لیتقل منها
إلى غرضه ، وفى هذه المقدمات یقف على الأطلال والرسوم لیناجى من عرف من النساء
فيها ویتمتها بصفات الحسن والجمال ثم ینتقل إلى غرضه ، مثل قوله (٣) :

لاسماء رسم أصبح الیوم دارسا وأقفر منها رحرحان وراكسا (٤)

(١) الديوان ص ١١٦

(٢) اتناش الشیء تناوله وأخذه ، والرواق بیت كالفساطیحمل على عمود واحد،
ورواق البیت مقدمه ، ورواق المین حاجبها ، والولائد جمع وليدة مؤنث الولید .

(٣) الديوان ص ٦٨

(٤) الرحرحان والرحراح : الواسع المنبسط .

فخفى عسيب لا أرى غير مائل حلاء من الآثار إلا الروامسا (١)
ليالى سلمى لا أرى مثل دلهما دلالا وأنسا يهبط للمصم آسما (٢)
تضوع منها المسك حتى كأنما ترجل بالريحان رطبا وباسا
مدعها واسكن قد أتاها مقادنا لأعدائنا رجي الثقال الكوادسا (٣)

فالشاعر متأثر ببيئته أينما تأثر في توجهه إلى هذا الفن ، وذلك لأنه في جاهليته فارس بدوى ، له بين قومه من المسكاة والمزلة ما يرتفع به عن تناول المرأة في شعره وانتهاك حرمتها التي يرى أن مركزه ورض عليه حمايتها من أى انتهاك ... ثم هو في إسلامه مشغول بمبادئ الدين الجديد ، حريص على أن لا يخرج على حدوده وآدابه ؛ حفاظا على مكانته التي عرّفه عليها المسلمون ورسولهم صلى الله عليه وسلم ، خصوصا أن العمر قد تقدم به ، فلم يكن مقبولا أن يخوض شيخا فيما ترع عنه شابا .

* * *

تلكم هي أبرز فنون الشعر التي أدار العباس بن مرداس شعره عليها ، وهو فيها جميعا يتوصل بالوصف ، فالوصف في شعر العباس وسيلة لا غاية ، ولذلك لم يخص الوصف بالقول ، إنما هو في ثنايا غيره أو محامته أو مدحه يجد نفسه مضطرا لأن يتوصل بالوصف

ومع ذلك فالوصف في شعر العباس مقتضب لا استقصاء فيه ، سطحي لا عمق فيه ، بسيط لا تركيب فيه ، ساذج يقوم على الرثبات المحيطة به وهيئتها المادية ، فالتأثير في شعره يقوم على الحقائق قبل أن يقوم على التخيل والتهويل ، والمبالغة في الوصف والتصوير ، ومن أحفل شعره بالوصف ما جاء في قصيدته الميمنية التي يصور فيها صبر بن سليم تحت

(١) العسيب : الشق في الجبل ، والروامس جمع رامسة ورامس ، والرامس ، من الطير والدواب ما يطير أو ما يخرج في الليل ، والرامسة : الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار .

(٢) المصم جمع أعصم عصما : الحيوان في ذراعية أو إحداها بياض وسائر أسود أو أحمر .

(٣) الكوادس جمع كادس ، يقال : كدس الحبل إذا ازدحمته في سيرها فركب بعضها بعضا ، والكداس - بضم الكاف وتخفيف الدال - الحب المحصور المجموع .

قيادة الضحك في مواجهة هوازن يوم حنين ، ومها يقول (١) :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضافت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحك لا يستفزنا فراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق وقتنا لواء كخذروف السحابة لامع (٢)
ندود أخانا عن أخينا ولو نرى مصالا لكنا الأقربين تتابع
ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بسد الضلالة أمر وليس لأمر حمه الله دافع

وماذا يرجى من شاعر هو في جاهليته بدوى لاتم له الحياة وظروها حتى يتأني ويتأمل ويتعمق وينظر فيما حوله ويستقصى ما يقع في متناول نظره . . . بل إن الزعامة وواجباتها ، والحروب وأهوالها لتجعل عن مثل تلك النظرات ، ولولا الفطرة الشاعرة لما تمكن من قول الشعر ، فهو يقول الشعر عن نظرة لم يتمكن من تهذيبها بالصنعة الفنية ثم هو في إسلامه معتز بما يقدم له الإسلام من أخلاقيات ومبادئ ، فهو حريص كل الحرص على أن يعيش في إطار هذا الدين الجديد ، لا يند عن آدابه وأفكاره في كل صغيرة وكبيرة ، فهو يرسم الصدق فيما يقول ؛ ويتوحي الحق فيما يعرض ، في مثل قوله (٣) يصف ما حل بالمشركين من هلاك ودمار على أيدي جنود الله حين راحوا يحصدون هاماتهم ويقطفون أعناقهم بسيوفهم حتى أكثروا فيهم القتل ، فرملوا نساءهم اللاتي لم يجدن إلا الدعاء على من أصاب أزواجهن :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرنا
بمترك لا يسمع القوم وسطه لسا رحمة إلا التذامر واللقم (٤)

(١) الديوان ج ٨١ ؛ ص ٨٢

(٢) الخذروف : كل شيء منتشر من شيء

(٤) الديوان ص ٩٠

(٤) الرجمة : الكلمة ، يقال : لم أسمع له رحمة ؛ والتذامر : الغصب والتوعد ؛ يقال : تدمر تغصب ؛ وتذمر عليه تذكر له وتوعده ؛ واللقم - بفتح اللام وسكون القاف - مصدر لقم ؛ يقال : لقم رأسه نقما صر به عليها حتى خرج دماغه

بييض تطير الهام عن مستقرها ونقط أعناق الحكمة بها قطفا
فلكم تركنا من قتل ملحب وأرملة تدعو طي بملها لهفا (١)

* * *

والناظر في أساليب الشاعر والمفاظه ، وفي معانيه وأخيلته لا يستطيع أن يغير
ما قررته ذنونه الشعرية من قبل ، فهو - كذلك - بدوى حضري ، تبرز لديه الطبائع
لابدوية بالطبائع الحضرية .

تقرأ شعره - وهو الذى لم يفادر البادية إلا للضرورة - فتحار فيه أمام تلك الصهولة
والوضوح التى تنسم بها أكثر ألفاظه ، كما تحار فيه أمام تلك البساطة القوية التى تبدو
عليها تراكيبه .

ولكن مع شيء من التروى والتأمل تجد تفسير ذلك قويا واضحا . وذلك لأن
الشاعر - كما عرفنا من نشأته - لم يسلم نفسه للبادية تماما ، فهو لم ينطو على نفسه فى
بداوته ، ولم يقبع بين صحاريها وجبالها وطبائعها ، بل كان دائم التنقل والترحال -
متخذاً من الساع المرقمة التى يسكنها قومه وسيلة لتلك النجعة الدائمة ، أضف إلى هذا
أن مركزه بين قومه فرض عليه أن يكون على رأس الوجود . من كل مامنحه الفرصة
ليخرج من نطاق البادية ، وليتعامل مع غير البدو من سكان المدن والخواضر . هذا
إلى ما كانت تتمتع به بادية بنى سليم - على امتدادها - من قرب إلى الخواضر العربية
شمالا وجنوبا ، إذ كانت تمتد فى غرب الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بامتداد الحرة
المتدة من قرب عشيرة إلى قرب مدينة يثرب ، وأوديتها الشرقية مساحة فى عالية نجد
حتى حى الربداء الواقع غربى حى ضربة : وتمتد بلادهم جنوبا حتى تشمل منهل الدفينة .
ولما كان الإسلام وأقبل على الدين الجديد ، وشرف بصحبة الرسول صلى الله عليه

(١) لحب الشيء - بالتضعيف - أثر فيه بالضرب أو القطع ونحوه ، واللفظ :
الحزن والأسى .

وسلم حتى روى عنه بعض الحديث . . . اجتمع إليه كل أسباب الميونة والسهولة ليكسوها ما طبع عليه من أخلاقيات البادية ثم الإسلام .

ولقد تميز الإسلام بالظهور في ألفاظه ، ليس بالسهولة والبساطة ، بل بالمصطلحات والألفاظ الإسلامية ، فقد احتوى شعره على طائفة ليست بالقليلة من تلك المصطلحات والألفاظ ، مثل (دين الله ، والهدى ، والشرائع) في قوله (١) :

ولسكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
ومثل (جنود الله) في قوله (٢) :

لحنا أسد غابسات إليهم جنود الله ضاحية تسير
ومثل (رسول الله) في قوله (٣) :

بذى لجب رسول الله فيهم كتيبته تعرض للضراب
ومثل (الإسلام) في قوله (٤) :

إن يهدوا إلى الإسلام يلقوا أنوف للناس ما سمر السمير
ومثل (الشرك) في قوله (٥) .

الضاربون جنود الشرك ضاحية يبطن مكة والأرواح تبتر
ومثل (المؤمنون) في قوله (٦) :

كانوا أمام المؤمنين دريئة والشمس يومئذ عليهم أشمس
ومثل (الكفار) في قوله (٧) :

إن تبتغي الكفار غير ملومة فإنى وزير للى وقابع

-
- | | | |
|------------------|------------------|------------------|
| (١) الديوان ص ٨٢ | (٢) الديوان ص ٥٠ | (٣) الديوان ص ٣٤ |
| (٤) الديوان ص ٥٢ | (٥) الديوان ص ٥٥ | (٦) الديوان ص ٧٤ |
| (٧) الديوان ص ٨٠ | | |

ومثل (العدل والصرف) في قوله (١) :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا
إلى غير ذلك من الألفاظ القرآنية والمصطلحات الإسلامية التي صبغ بها شعره ،
فأصبح مميزا آتم التميز عن شعره في الجاهلية ، وإن السم في الجاهلية والإسلام بسمه
السهولة والوضوح والبساطة .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى معاني الشعر عند العباس وجدناه - خاضعا لبيئته - يمتاز
بالصدق والصراحة والوضوح ، إلى جانب البساطة والقرب والإيجاز ، مع الاختلاف
البين بين معانيه الجاهلية والإسلامية ، وذلك لأن الشاعر الصادق - على وجه العموم -
يستجيب في معانيه لما تضطرب به مشاعره ، وما تفيض به أحاسيسه ، دون تسكف
أو تصنع .

ففي شعره الجاهلي تبرز المعاني الجاهلية ليقدم من خلالها الشاعر أفكاره ، من
ذلك أنه حين أراد الامتناع بقومه وإظهار عزم ومنهتهم ، قدم ذلك من خلال معنى
جاهلي معروف ، حيث وصفهم بالظلم في قوله (٢) :

أبي الدم عرضي إن عرضي طاهر وإن أبي من أباة ذوى غشم

وكما كانوا في الجاهلية يفتخرون بالأصول والأنساب ، افتخر العباس كذلك ،
حين فاخر عمرو بن معد يكرك في قوله (٣) :

وإن تك من سعد المشيرة تلقى إلى الفرع من قيس بن ميلان مولدى
إلى مضر الحمراء تنمى جدودنا وأحسابنا ومجدنا غير قعد

أما في شعره الإسلامي فأفكاره ومعانيه إسلامية خالصة ، حتى يخيل إليك أنه غسل

(٢) الديوان ص ١٠٥

(١) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١١٩

نفسه تماماً من كل ما هو جاهل الأمر الذي يلات النظر ؛ إذ كيف يتأني لشاعر أن
يفصل نفسه - هكذا - تماماً عن مرحلة النشأة والتكوين اللفي .

فالعصر في الحرب ليس بالقوة والشجاعة ، وإنما هو بحراسة الله ونصره في
مثل قوله (١) :

فمضى ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائم من يحرس
والجهد والكفاح مع ما يلاقى من عنت وإرهاق ، هو لإرضاء الله ليس غير ،
والله وحده يعلم خفايا النفوس وظواهرها ، كما في قوله (٢) :

رضا الله نوى لا رضا الناس نبتى والله ما يسدو جميعا وما يخفى
إلى غير ذلك مما يتلى به شعره . وهكذا تغير تصور الشاعر بإسلامه ، فأصبحت
مرائيه غير مرائيه في الجاهلية .

* * *

وإذا وجهنا النظر إلى خيالاته وصوره وجدنا البيئة البدوية - بكونياتها وحيواناتها.
وظواهرها الطبيعية - ماثلة تماماً في شعره . فالخيل إذا اندمعت في الحرب بقوة ، وأراد
تصويرها ، لجأ إلى مرائيه المتكررة في هذه البيئة فانتقى منها ما يقرب الصورة ويوضحها ،
فلم يجد سوى السيل المرمر الذي لا يكاد يغيب عن ناظر بدوي مثله ، وذلك قوله في
تشبيهه الجنود مندفعين بمنف مرسانا ورجاله (٣) :

على الخيل مشدودا علينا دروعنا ورجلا كدفاع الأتقى عرمرما (٤)
والجيش إذا كثر جنوده ، وكثف عتاده ، وأصبح يترجرج في حركته يشبه

(١) الديوان ص ٩٠

(٢) الديوان ص ٩٠

(٣) الديوان ص ١٠١

(٤) الرجل - بفتح وسكون - الماشى على رجله ، والآفة - بتصغير الياء ، السيل
يأتى من بعيد ، والمرمر : الشديد

الأنجوم المتلألئة في السماء ، يراها الناظر ولا يحيط بها حصرا ولا عدا ، وذلك في قوله (١) :

ورجاجة مثل لون العجو م ، لا العزل فيها ولا الحسر
واللواء الخافق الذي تهفو إليه الأفئدة ، وتنطلق إليه النفوس يشبه طرف السحابة
المنتشر في الفضاء في شدة الأنظار ، وتمكثه منها ، كما في قوله يشبه لواء رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم حنين (٢) :

أمام رسول الله يخفق قوقنا لواء كخدروف السحابة لامع (٣)

والسيوف اللوامع في أيدي الجود تشبه السحاب البارق المتلألئ خلال الظلام
الحالك ، كما في قوله (٤) :

نديتكم والموت ينفى سرادقا عليكم شباحد السيوف البواتك
تموج بأبدينا كما لاح بارق تلالاً في داج من الليل حالك

وإلى جانب مشاهد الطبيعة البدوية ، نرى حيواناتها وطيرها يستمد منها الشاعر
أحيلته وصوره ، فجنود المسلمين يوم حنين يشبهون الأسد (٥) :

فكنا أسد لية ، ثم حق أبجناها وأسلمت الدور

وبنو معاوية بن بكر أمام الإسلام يشبهون الأعمام في قوله (٦) :

كان بنى معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تغور
والخيل في المركة تشبه المعبان في قوله (٧) :

إلا سواج كالمعبان مقربة في دارة حولها الأخطار والمكر

(١) الديوان ص ٦٥ (٢) الديوان ص ٨١

(٣) الخدروف : كل شيء منتشر من شيء .

(٤) الديوان ص ١٣١ (٥) الديوان ص ٥١

(٦) الديوان ص ٥٢ (٧) الديوان ص ٥٤

واللواء في المعركة يشبه العقاب الذي يحملق في السماء ثم ينقض على فريسته فيخطفها،
مئل قوله (١) :

بمسكة إذ جئنا كأن لواءنا عقاب أرادت بمد تحليقها خطفا
لى غير ذلك من الصور المتزعة من البيئة البدوية التي آثرها الشاعر على الحاضرة
حتى بمد إسلامه ، وانتقاله إلى البصرة على عهد عمر بن الخطاب على ما سبقت
الإشارة إليه . .

حسان بن ثابت

نشأته وحياته :

حسان بن ثابت بن للنذر بن حرام الخزرجي ، من بني النجار من قبيلة الخزرج ،
 وله بالمدينة ، ونشأ في بيت شرف وجاه . ويكاد يجتمع المؤرخون على أنه عاش مائة
 وعشرين عاماً نصفها في الجاهلية (١) . نشأ بين قومه ، وعاش في مجتمع يثرب الذي يضم
 الأوس والخزرج واليهود ، والذي كان يثنى من الحروب المتصلة بين الأوس والخزرج ،
 بتأريث اليهود وإشغالهم نار الفتنة بينهم ، حتى تتمكن قبصتهم من السيطرة على مصائر
 الأمور فيها ، فكان لسان قومه المدافع عنهم في تلك الحروب ، وكان في مواجهته الشاعران
 الأوسيان : أبو القيس بن الأسلت ، وقيس بن الخطيم (٢) . الفصل في الجاهلية بالنساسة
 ومدحهم ، وكان يتردد عليهم ، وقيل إنه اتصل ببلاط الحيرة ، وحل محل الدابغة حين
 كان على خلاف مع النعمان بن النذر . ولما أسلم بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
 أصبح شاعر الإسلام ، الذي يدافع عن النبي وعن المسلمين ، ويقتنع قريشاً بهجائه
 اللاذع ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثه على هجائهم ويدعوه ، ويروى أن
 الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم
 وأحسابهم ، ثم اجههم وجبريل معك (٣) » . وقد نال منزلة رفيعة عند رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فكان يقسم له في الثنائيم ، وأهداه سناناً ، كما أهداه سيرين
 أخت مارية القبطية ، فأعجب منها ابنه عبد الرحمن ، واستمر الخلفاء من بعده صلى الله
 عليه وسلم على تقديره وإجلاله ، حتى مات في خلافة معاوية ، بعد أن كعب بصره .

شعره :

الناظر في شعر حسان يرى أنه قسمان متميزان ، أحدهما تسرى فيه روح

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٥ وما بعدها . (٣) الأغاني ج ٤ ص ١٣٨ وما بعدها .

الجاهلية بقيها وأحداثها ، وآثاني لمصرى فيه روح الإسلام بمثلها وقيمه وأخلاقياته وأحداثه

قال ابن سلام : حسان أشعر شعراء القرى الخمسة ، وهو كثير الشعر جيدة ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تماضت قريش واسابت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنق (١) ، وكان للشعر للوضوح أثره في ضعف شعر حسان الإسلامي ، فهو لا يثبت له تماما ، حتى ظن الأصمعي أن إسلام حسان كان من أسباب ضعفه ، وقال : الشعر نكسكد بابه الشعر ، وإذا دخل في الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت دخل من فحول الجاهلية ، ولما جاء الإسلام سقط شعره وقال : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه في الإسلام ، لحال الذي صلى الله عليه وسلم (٢) ، والحقيقة - فيما أرى - أن الذي أضعفه هو ما أدخل عليه مما رواه ابن اسحاق في الغزاة ، بل لقد اختلط الأمر على الرواة فنسبوا إلى حسان ما قاله غيره ، كما نسبوا إليهم ما قاله حسان (٣) ، أصعب إلى هذا ما فعلته الفتنة الكبرى بمد مقتل عثمان رضى الله عنه في نفوس المتحزين ، وقد عمل الأمويون على إثارة المسلمين ضد على رضى الله عنه ، فصنعوا شعرا في مدح عثمان على لسان حسان شاعر الرسول ، كما حملت عليه أشعار في مدح الربيع بن العوام ، وعبد الله بن عباس .

وأيا ما كان الأمر ففيها وصلنا من شعر حسان قصائد جاهلية وأخرى إسلامية وثقها الرواة ، تكشف عن اتجاهات حسان وشاعريته من ذلك ميمته التي يفخر فيها بقومه ومآثرهم ، والتي عرصها على الباقية في سوق عكاظ ، ومطلعها :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما بمدح أشداخ فبرقة أظلمها
وفيها يقول :

لما حاضر نعم ولاء كأنه شمرايخ رصوى عزة ونكرما

(١) تماضوا : رمى بمصهم بمضا بالضمية وهي الإلك والشتيمة . طبقات المحول للشعراء ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٠٥

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام وقارن بالديوان .

(١٧ - الأدب العربي)

مضى ما نزلنا من معد بعصبية وغسان نمنع حوضنا أن يهدما
بكل فتى عارى الأشاجع لاهه قراع الككاة يرشح المسك والهدما
لنا الجفونات القوي يلمعن بالضحى وأسياما يقطرن من نجوة دما
أبى فعلنا المروب أن نطق الحما وقائلنا بالعرف إلا نكلما

وكان لحسان دور فعال في الصراع الدائر بين الأوس والخزرج قبل الإسلام فقد شارك بشعره في هذا الميدان ، حيث شبت نار المناقشات بين شعراء القبيلتين . من ذلك ما قاله في الفخر حين أهرمت الأوس أمام الخزرج في يوم الربيع بعد قتال عنيف كاد يفنيهم ، وكان حريصا أن يبدأ قصيدته بمطلع يتفوز فيه بليلي بنت الحطيم الأوسية ، وذلك قوله :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها (١)
تذكرت ليلى أبى بها إذا قطعت منك أقرانها
وحجل في الدار غربانها وخف من الدار سكانها
وغيرها معمرات الرياح وسح الجنوب ونهتانها
مهاة من العين تمشي بها وتقبها ثم غزلانها
وقفت عليها فساءلتها وقد ظعن الحى : ما شأنها ؟
فميت وجاربي دونها بما راع قلبى أعوانها

ولما اعتق الإسلام أحلص نفسه للدفاع عنه ، فكان الجندى الناهب بشعره لكل معركة ، ووقف مع عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك للدخول على شعراء المشركين في هجائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال عبد الله ابن الزبمرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمر بن الماص . كما تراه في همزته التي يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث ، ويدح النوى صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول :

ألا أبلغ أبا سفيان عفى فأنت عجوف نجب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإمام
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذلك الجزاء
أنه جوه ولست له بكفاء مشركا لخير كما الفداء

(١) أديانها جمع دين : الداء والمراد الحب القديم .

هجوت مباركاً برا حنيفاً أمسين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى لمرض محمد منكم وقاء

ولما بسى عبد الله بن الزبيرى قتلى قريش في معركة بدر بميمته التي يقول في مطالعها :

ماذا طى بدر وماذا حوله من فتية يمس الوجوه كرام
أجابه حسان بن ثابت ناقضاً عليه قوله بقصيدة ميمية طى الوزن نفسه والناقية ،
سواء فيها :

ابك بكت عيناك ، ثم تبادرت بدم يمل غروبها سجام
ماذا بكيت به الدين تنابخوا هلا ذكرت مكارم الأقدام
وذكرت منا ماجدا ذا همه سمع الخلائق صادق الأقدام
أعفى البى أحا المكارم والندى وأبر من يولى طى الأقسام
ولئله ولئله ما يدعو له كان الممدح ثم غير كهام

ولما قال ابن هبيرة قصيدته الهائية في انتصار قريش على المسلمين في أحد ، أجابه حسان ، يقض قوله ، وإسفه رأيه وآراء من اتبعوه طى حرب الله ورسوله ولا طلاقة لهم بذلك ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جند الله ، والمشركون أعداء الله ، وسوف يخزى الله أعداءه بأيدي حموده . . . ثم ينهى قصيدته بالحديث عن مكارم الرسول وأصحابه ، ومنهم على قريش في إطلاقهم أسرى بدر ، وفيها يقول :

سقم كسابة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول لجند الله عزها
أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقبها
جميعتموهم أحابشا بلا حسب أئمة الكفر عرتكم طواغيبها
ألا اعتبرتم بحيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير مكسكس بلا ثمن وجز ناصية كسا موالبيها

ولما بكى كعب بن الأشرف اليهودى قتلى بدر في هيلته التي قال فيها :

طحننت رجا بدر لمهلك أهله ولئله بدر كستهل الأدمع

أجابه حسان بقوله :

أبكي لكذب ثم طى بعبرة	منه وعاش مجددا لا يسمع
ولقد رأيت يبطن بدر منهم	قتلى لسح لها الميون وتدمع
فأبكي فقد أبكيت عبدا راضعا	شبه الكليب إلى الكليمة يتبع
ولقد شهدا الرحمن منا سيذا	وأهان قويا فأنلوه وصرعوا
ونجا وأملت منهم من قلبه	شعف يظل أخوه يتصدع

ولما قدم على النى صلى الله عليه وسلم وفد تميم سنة الوفود — بعد فتح مكة —
وفيه عطار بن حاجب بن زرارة قام الربقان بن بدر وقال قصيدة يفخر فيها بقومه
منها قوله :

نحن الكرام ، فلاحى يعادلنا ما الملوك ، وفيما يقسم الربع
وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء وسمع ما قاله
الزريقان قال عينية يمارضه بها ، وفيها يقول :

إن الدوائب من فخر وإخوتهم	قد يدموا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره	تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
نوم إذا حاربوا صبروا عدوهم	أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
فإن فى حربهم فأنرك عداوتهم	شرا يحاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم	إذا تماوت الأهواء والشيع

وفى هذه القصيدة يظهر مدى تأثر حسان بالدين الجديد ، إذ فخر بالرسول وبما
أتى من أمور الدين التى يجب على كل ذى عقل أن يدين بها ويتبعه فيها .

ومن إسلاميات حسان التى يظهر فيها تأثره بالفكر الإسلامى ، دالته التى
يقول فيها :

وقد زعمتم بأن تعصوا ذماركم	دماء بدر زعمتم غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم	حق شربا رواء غير تصريد
مستمعين بحبل الله غير منجدم	مستحكم من حبال الله محدود
فيا الرسول وغيا الحق تتبعه	حق المات وصر غير محدود

واف وماض شهاب يستضاء به بدر أنار على كل الأماجد

وهكذا واصل حسان بن ثابت رحلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الإسلام ، يتصدى لكل عدو ، حتى إذا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وقف حسان يبكيه ، ومما قاله في ذلك دليته التي يقول فيها مصورا حزنه وألمه لفراق الرسول :

ما نال عينك لأنام كاءا	كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا	يا حير من وطىء الحصى لا تبعد
وجهي يقبك التراب ، لهفي ليتنى	غيبت قبلك في بقيق الغرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته	في يوم الاثنين النى المهدي
مظلمت بعد وفاته متبلدا	متلدا باليتنى لم أولد ^(١)
أقيم بمدك بالمدينة بينهم ؟	ياليثنى صبحت سم الأسود ^(٢)
أوحل أمر الله فينا عاجلا	في روحة من يومنا أو في عد
مقوم ساعتنا ، فنلقى طيبا	محضا خرائب ، كريم المختد ^(٣)

ومن يقارن بين شعر حسان في الجاهلية وشعره في الإسلام يجزم بأن قائل هذا شعر ذاك ، ولولا الصياغة اللفظية لما كان بين الشعرين أدنى صلة . وهذا يدل على مدى تأثر الشاعر بالإسلام ، وقد تحول به إلى إنسان آخر يختلف تماما عنه قبل الإسلام .

بيد أن الناظر في شعر حسان قبل الإسلام وبعده يلاحظ أن أثر البيئة الحضرية الحسية والمكرية والدينية - يتضح في جرالة الفاظه وسهولتها ، وفي إحكام عباراته ودقتها ، كما يتضح في معانيه التي تكشف عن يئئنه الحضريتين في يثرب وجوار الغساسنة من جهة ، وفي ظل الإسلام ومكره وعقائده ومبادئه من جهة أخرى .

(١) للتبلد : من أدركته الحيرة . ومثله التلدد .

(٢) صبحت : سقيت صبحا (٣) الضريبة : الطبيعة والسجية ، والمختد : الأصل

(٦) كعب بن زهير

نشأته وحياته :

كعب بن زهير بن أبي سلمى ؛ أحد حلقات السلسلة الممتدة من شعراء بيت زهير - كما أهرنا من قبل - نشأ في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، لقنه أبوه الشعر ، فكان هو وأخوه بجير من رواة أبيهما زهير . ويدكر الرواة أن زهيراً كان يخرج يابنه كعب إلى الصحراء ، فيلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يحيزه ، إن دريها له وتغرينا على صوغ الشعر (١) . وقد ولد في غطفان قبل عجم الإسلام ، ولم ينقض المعصر الجاهلي إلا وله من الشهرة والمكانة في الشعر ما جعل المحيطية زميله يقول له : قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الدحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بمدك ، وإن الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع (٢) .

أدرك الإسلام كما أدركه بجير أخوه ، والمحيطية وكان بجير أسبقهم إلى الإسلام ، نهجاء كعب هجاء تألم له رسول الله ، فتوعدده وأهدر دمه ، من ذلك قوله :

ألا أبانه - أعنى بجيرا رسالة	مهل لك بما قلت - ويحك - هل لك
شربت مع المأمون كأساً روية	فأنهك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى وتبعته	على أى شيء - ويب غيرك - دلوكا
على خلق لم تلف أما ولا أباً	عليه ، ولم تدرك عليه أخا لك

بعث إليه بجير محذراً ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم متسكراً ، فبدأ بأبي بكر ، فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاءه وهو متلثم بهامته ،

- (١) أنظر الأغاني ج ١٥ ص ١٤١ طبع الساسي ، وأما المرتضى ج ١ ص ٩٧ طبع المحلى ، ومقدمة ديوان كعب طبع دار الكتب المصرية .
- (٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٤ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٦ ، والأغاني ج ٢ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ طبعة دار الكتب .

فقال . يا رسول الله هذا رجل يبائلك على الإسلام ، فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فخر كعب عن وجهه ، وقال هـذا مقام المائد بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . وآمنه صلى الله عليه وسلم ، واستشهده (١) ، فقال لاميته المشهورة معتذرا عما بدر منه ، ومادحا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به ، ومن حوله من صحابته ، ومطالعها (٢) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفسد مكبول

وهي تقول :

أبثت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك ناهله لا	قرآن فيها مواعيط وتفصيل
لأنأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت عى الأفاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به	أرى وأسمع مالم يسمع القليل
لظل برعد إلا أن يكون له	من الرسول بإذن الله تنزيل
حق وضعت عيني لا أنازعه	في كف ذي نقات قبلة القليل
إن الرسول لمـور يستضاء به	مهند من سيوف الله ملول (٣)
في عصابة من قریش قال قائلهم	يعطن مكة لما أسلموا : رولوا (٤)
زالوا ، فارال أنكاس ولا كشف	عند اللقاء ، ولا ميل معاريل (٥)
شم المرانين أطلال ، لبوسهم	من نسج داود في الهيبة اسرايل (٦)

والناظر في هذه القصيدة يرى شاعرية كعب وتفننه في الانتقالات ، ودقة التصوير،

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤ ، وابن سلام ج ١ ص ٩٩

(٢) الديوان ص ٦ وما بعدها طبع دار المكتبة المصرية .

(٣) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند ، وهو أفضل السيوف .

(٤) رولوا : انتقلوا ، يمي : هاجروا .

(٥) الانكاس جمع نكس : الضعيف ، والكشف جمع أ كشف : من لا رس له ،

الميل جمع أميل : من لا يحسن الركوب ، معازيل جمع معرول : من لا سلاح له .

(٦) المرانين جمع عرنين : الأنف ، والشم : حدة في طرف الأنف مع كشير .

وحسن العرض ، لـكنه مع كل ذلك جاهل في كل ما قدم ، سواء في مطالعه النزلى ، أو في مديحه الرسول صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين ، بحيث تكاد لاتشم رائحة الدين الجديد ، وهذا دليل صدق الشاعر ، إذ لم يعرف بعد عن الإسلام شيئاً ، وإذا مزج الإسلام نفسه ، صدر في شعره عن قيمه وأفكاره ، مثل قوله :

أعلم أنى متى ما يأتى قدرى	فليس يحبسه شح ولا شفق ^(١)
بيد الفقى معجب بالمشى مفتبط	إذا الفقى لهناها مسلم غلق ^(٢)
والمرء والمال ينمى ثم يذهب	مر الدهور ويفنيه فيلسف
فلا تحاى علينا الفقر وانتطرى	فضل الذى بالقى من عنده شق
إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا	ومن سوانا واسنا نحن نرتق

ومثل قوله :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى	سمى الفقى وهو مخبوء له القدر
يسمى الفقى لأمر ليس يدركها	والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش بمدود له أمل	لاتنتهى العين حق ينتهى الأثر

ومن يردد نظره في ديوانه يدرك الفارق الكبير بين كعب الجاهل في خلقه وسلوكه ، وبين كعب المسلم الزاهد المنسجم الذى برد على هواء من هواء ، بالحكم والمواعظ ، طالبا منه مقابلة صفح ، عنه بالسكوت ، حتى لا يخرج عما الترمه من آداب .
مثل قوله^(٣) :

إن كنت لا ترهب ذى لما	تعرف من صفحو عن الجاهل
فاخش سكونى إذ أنا منعت	بيك لمسمع خنا القائل

(١) الشفق : الخوف .

(٢) الملق بفتح وكسر . المستحق ، يقال : علق الرهن إذا استحق .

(٣) حزاة الأدب ج ٤ ص ١٢ ، والحيوان ج ١ ص ١٥

فالسامع الندام شريك له ومطعم المأكل كالأكل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولقد كان كعب أحد الفحول المقدمين في الجاهلية والإسلام ، إذ كان في
شعره الفنان الأصيل الصادق ، العميق الحس ، الرائع التصوير ، القدي يملك أزمة البيان ،
فيوجهه أنى شاء .

الفصل الثاني

فنون الشعر الحضري

في حديثنا عن فنون الشعر البدوي قررنا - من واقع الحياة العربية البدوية - أن شعر البادية كان استجابة صادقة لما أملت البادية على أبنائها من اتجاهات فنية ، وقيم خلقية وسلوكية . وكذلك كان الحال في الشعر الحضري ؛ فقد تطلبت الحاضرة من الشعراء تنازلات عن بعض القيم البدوية ولم يجدوا مناصا من الاستجابة إليها ليحققوا لأنفسهم التلاؤم مع ما يجد عليهم من أخلاقيات .

وفي مقدمة هذه التنازلات استبدال الدعوة إلى السلام بالدعوة إلى الحرب والحض عليها ، والتحميس لها ، أو على أقل تقدير السكوت عن الحرب وما يتصل بها

وتحول الشاعر من مدح القيم والأفعال إلى مدح الأشخاص لدوائهم سعياء وراء كسب ، وطلب الجزيل عطاء .

وتهالك الشاعر في سبيل الحصول على الأعطيات والجوائز بالتفنن في الاعتذار على اختلاف أساليبه واتجاهاته وممانيه .

واستبدال للتع المادية بالشاعر ، مما دمه إلى تعرية الراء وتجريدها بما يسترها في جراءة ، لتبدو للأعين مظاهر جاذبيتها وإغرائها ، وإلى الحديث عن الخمر ووصف آثارها على شاربيها ، وتبجح بحالها ودنانها وكثوسها بالوصف المستقصى

اتخاذ للشعر سلاحا من أسلحة الدعوة الدينية ، ووسيلة من وسائل الوعظ ، يصل بها الشاعر إلى نفوس سامعية ، يقرر العقيدة ، ويوضح الفكرة ، ويدفع الخصم المهاجم بنقض هجائه ، ويبيكى قتلى الحروب الناشبة بين الداعين إلى الدين وخصومهم .

متحقق من ذلك الشعر أغراض جديدة وأخرى مطورة عدلت لتناسب مع البيئة الحضرية .

ومن ثم أمكن أن نحصي فنون الشعر الحضرى فى فنون ثمانية هى : المدح ،
والهجاء ، والاعتذار ، والفخر ، والفزل ، والدليليات ، والمواعظ ، والثناء ،
والوصف .

ولا ريب فى أن أثر الحضر يختلف فى ذلك من شاعر إلى شاعر ، وفقا لمدى واقعه
الفنية ، وطبيعة الحضارة التى تكتنفه .

المدح :

كان من المدح من أبرز فنون الشعر الحضري ، ولقد أتجه شعراء الحضرة بهذا الفن متباينى الدواعى فانشعب الطريق بهم فى المعانى والصور بما يتناسب مع الصفات التى يمدح بها . فبينما نجد النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر ، ويمتدح إشعاعه على الصفات التى يحمدها فيه من كرم وجود فى قوله :

الواهب المائة المكاء زينها	سعدان توضح فى أوبارها اللبد ^(١)
والأدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة ببحال الحيرة الجدد ^(٢)
والرا كصات ذبول الریط فانقها	برد الهواجر كالغزلان بالجرد ^(٣)
والخيل تمزغ غربا فى أعنتها	كالطير تنجوس الشؤبوب ذى البرد ^(٤)

ونسمع صوت حجر بن خالد يمدح النعمان - كذلك - مركزا على كرمه وجوده ، فى قوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجـد	كفعل أبى قابوس جزما ونائلا
يساق الغمام النـر من كل بلدة	إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى	وئضحى فلو ص الحمد جرباء حائل ^(٥)

(١) المكاء - بكسر الميم - الغلاظ القوية ، ويريد الإبل ، وتوضح : موضع ، والسعدان - بفتح السين - صراع ، اللبد : ما تلبس من الشعر .

(٢) الأدم - بضم فسكون - النوف البيص ، حيدمت - بضم الخاء وكسر الياء المضعفة - ذلت ، فتلا - بضم الفاء - كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٣) الرا كصات : الساحبات ، الریط : ثوب طويل ، فانقها : نعمها ، الجرد - بفتح

الجيم والراء - موضع .

(٤) تمزغ غربا : تسح سحبا شديدا ، الشؤبوب : السحاب أو دومات مطره .

(٥) الباع : الشرف ، والندى : السكرم ، والفلوس : النافذة الشابة ، والحائل ، الذى

حمل عليها الفحل فلم تلتحق

فلا ملك ما يبلغنك سعيه ولا سودة ما يمدحك باطلا
نجد العباس بن مرداس قبل الإسلام مادحا بدويا ، فلا نعت له إلا على مدحتين
إحداهما يمدح فيها قيس بن عاصم ، ويمدح في الثانية أبا الحليس ، وهما مدحتان على
مواقف وأحلاق .

ونجده في ظلال الإسلام يتجه بمدحه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيركز
مدائح على ما جاء به من هداية ونور كشف للناس السبل وأخذ بأيديهم كما في قوله :
نى أنانا بمسد عيسى بإطاق من الحق فيه الفصل منه كدلسا
أميننا على الفرقان أول شافع وآخر مبعوث يعجب الملائكا

فالشاعر إنما يمدح فيه صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الحق ، وأمانته على القرآن ،
وشفاعته المأمولة وكان ذلك تمهيدا للشعر المدائح النبوية ، فقد كان مدح الرسول صلى
الله عليه وسلم أحد مظاهر الحرب الدائرة بين المشركين والمسلمين ؛ إذ كان المشركون
يعتمدون على مهاجمة الرسول وهجائه .

أما مدح غير الرسول صلى الله عليه وسلم فكان في الغالب موجها إلى جماعات ،
لا إلى أفراد ، من ذلك ما قاله كعب بن زهير في مدح الأنصار استجابة لرغبة صلى الله
عليه وسلم حين غضبوا لتعريضه بهم في لاميته الاعتذارية ؛ فذكر بلاءهم مع الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وإخلاصهم في الدعوة والدفاع عنها :

من سره كرم الحياة فلا يرل	في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا السكارم كبرا عن كابر	إن الخييار هم بنو الأحيار
والبائعين نفوسهم لببهم	لموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون ، يرونه اسكا لهم	بدماء من علقوا من الكفار

المهجاء :

عرفنا - فيما تقدم - أن المهجاء سلب المحامد عن المهجو .

كما عرفنا أن شعراء الجاهلية البدو لم يتردوا قصيدة بالمهجاء، وإنما كانوا يتناولونه في سياق المخر، أو كانوا يرجون بين المهجاء والفخر، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن هاء حهم يستلزم الفخر عليه بالانصاف بما يسلب عنه من المحامد، فهو لون من للقبالة والمطاقة .

والناظر في شعر الحضر - على اختلاف اتجاهاته - يلاحظ أن طائفة من شعراء الحضر لم يشدوا عن المنهج البدوي في من المهجاء، وهو يأتي في طوايا المخر، ويحرص فيه الشاعر على التلطف والتعطف، دون إحشاش أو إقذاع، على نحو ما رأينا في شعر النابتة من هاء وخر دار به حول قبيلته وما كان يديها وبين بنى أسد من تحالف، وما كان بينها وبين بنى عامر من حروب . من ذلك قوله :

إن بك عامر قد قال جهلاً وإن مطيعة الجهل السباب
ممكن كأيك أو كأي براء توافك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحملك ظاميات من الخيلاء ليس لمن باب
وابك سوف تحلم أو تنأى إذا ما شئت أو شاب الغراب

وغير حتى ما لجأ إليه الشاعر من السخرية من مهجوه، والتمسك به، دون إقذاع أو إخش، وكل ما وجهه إليه أنه أوماً إلى وصفه بالحق والجهل، ويملق انصافه بالحلم على مستحيل

وعلى هذا النحو - أعشى قيس في هجائه يريد بن مسهر الشيباني، حين حسم قومه للنار بمن أعتدى على واحد منهم وقتله، وكان القتال واحداً من بنى قيس بن ثعلبة، يهدده الأعشى وهجاء لذلك في قوله :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثبيت أما تنفك تأنكل (١)
 ألت منتها عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما ألت الإبل (٢)
 كذاطح صخرة يوما ليونها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٣)

فقد لجأ إلى السخرية بطريق الاستفهام ، قائلا : ألا تنتهى عن السعى بالشر
 والحقد علينا ، والوقوف في أعراضنا بالقدم والسب ؟ إنك لن تنال منا شيئا ، ولن تضير
 إلا نفسك ، كما يحدث للوعل الذى يطح الصخرة قاصدا إضعافها وإيهانها ، فلم يل
 منها بقدر مانال من نفسه .

كما سار في هجائه علقمة بن علاثة ، معتمدا على التمرىض والإغماء المؤلم في قصيدتين ،
 في أولاهما ، ازن بينه وبين خصمه ومسامره عامر بن الطفيل في قوله :

علقم ما أت إلى عامر الناقص الأوتار والواتر (٤)
 يا محب الدهر متى سويأ كم ضاحك من ذا وكم ساخر
 ولست بالأكثر منهم حصي وإنما المرة للكاثر (٥)
 علقم لا أسفه ولا تجملن عرضك للوارد والصادر
 ولست في السلم بدى نائل ولست في الهيجاء بالجالس (٦)

وحاء في الثانية قوله :

تبيتون في المشق ملأ بطونكم وجاراتكم غرثي بيتن خائفا (٧)

(١) مألكة - بضم اللام - رسالة ، تأنكل : تسعى بالشر أو تنضب وتغلى
 حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٢) الأثلة : شجرة ، يقال نحت أثلته : تنقصه وعابه ، ألت : أت .

(٣) الوعل - بكسر الهمزة - صرب من الماعز الجبلى .

(٤) الأوتار جمع وتر ، وهو النأر ، وناقص الأوتار : الآحد بالنأر ، والواتر
 الذى يترك تأره في الاعداء فلا يستطيعون نقصه .

(٥) المقصود بالحصى : العدد .

(٦) المائل : العطاء ، والجالس : الجرى .

(٧) المثنى : زمن الشتاء ، غرثي : حائفة ، حائص : ضامرات البطون .

وكان إلى جانب تلك الطائفة التي لم تفرد للهجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطارارا ، كما رأينا في مناقضات العباس بن مرداس التي شئت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن حبير ، وعبد الله بن جذل ، وقد سبق الإشاره إلى ذلك في الحديث عن العباس .

وبلاحظ أن العباس — مع ذلك — لم يخرج على المنهج العام ، من التزام عفة اللسان ، والبعد عن الإغش والإقذاع ، وإن مال إلى التصريح في بعضها كما في قوله :

أكليب مالك كل يوم ظالما	وانظلم أنسكد وجهه ملعون
فأفعل بقومك ما أراد بقومه	يوم الغدير سميك المطعون
وأظن أنك سوف تلقى مثلها	في صفحتيك سنانها مسون
قد كان قومك يحسبونك سيدا	وإخال أملك سيد مغبون

وليس البعد عن الإغش والإقذاع هي سمة هذا الهجاء ، بل إن من سماته كذلك البعد عن المبالغات والنهويل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا في هجاء حسان أنا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح في هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجاهم من المشركين ، كما رأينا في هجاء كعب بن زهير ، وقصارى ما كان يضمه الشاعر المسلم أهاجيه تصير الكفار بالمثالب أو بالكفر ، على ملاحظته صاحب الأغاني في قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يمارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والآثر ، ويميراهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يميزهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلخوا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول ومحبيه ودعوته ، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فالتصع في ذلك الجو ميدان المناقضات .

وهكذا بدأ أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا في من الهجاء ؛ وكان قصارى

الشاعر أن يصف مهجوه بما يميمه به من خلق ونعوت ينهر منها المسلم والدوق العربي
مما . كما نجد في قول كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي يهجو أحبار بني النضير ،
ويندري بموقفهم المشيد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع توفر الأدلة العلمية والدليية
لديهم على صدقه صلى الله عليه وسلم (١) :

لقد خزيت بمدرتها الجبور	كذلك الدهر دو صرف يدور
وذلك أنهم كهرو رب	عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معاً فهما وعلمنا	وحاهم من الله النذير
مقالوا : ما أنيت بأمر صدق	وأنت بمنكر مننا جدير
أرى الله النسي برأى صدق	وكان الله يحكم لا يجوز
فأيده وسلطه عليهم	وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم (كعب) صريحا	فدلت بعد مصرعه النصير
فما كره فأنزله بمنكر	و (محمود) أحوثه جسور
منك بسو النصير بدار سوء	أبارهم بما اجترعوا البير
عساة أناهم في الزحف رهوا	رسول الله وهو بهم بصير
فذاقموا غب أمرهم وبالا	لكل ثلاثة منهم بصير

وشمر المجيء في هذا المجال كثير ، يدور في الغالب حول هذا الانجاء .

(١) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣

الاعتذار :

الاعتذار هو تنصل الإنسان مما نسب إليه ، واحتجاجه لنفسه . وهو من شمرى وطيد الصلة بفنى المدح والهجاء ، فالهجاء قد يكون من دواعى الاعتذار ، أما المدح فهو سقيه وصوره القدى يشبهه فى كثير من أبعاده ، غير أن المدح ينبع من عاطفة الشكر والرصا والأمل ، بينما الاعتذار تمتاز فيه عاطفة الخوف بماطفة الشكر والرجاء .

وهو من الفنون التى نشأت فى الحضرة ، وندر أن يجد شاعرا بدوها يعتذر . ولعل ذلك يرجع إلى أنفة العربى من أن يضع نفسه فى موضع يضطر معه إلى الاعتذار ، حتى إنهم فى أهاجهم كانوا يتحفظون ويلجئون إلى التعريض أو الإيماء والإيحاء - على ما رأينا - حتى لا يضطروا إلى الاعتذار والتأسف على ما سلف منهم .

ولما طأطأ العربى فى بعض الحضرة رأسه تحت إغراء المنح والمطام ، وجرى لاهة وراء الملوك والأمراء مقدما بين يديه تملقه ونماقه فى صورة مدائح يشتري بها ما يجو به عليه من المال . . عمدت هانت على العربى نفسه ، وضاعت قيمة الألفة بين ما ضا فى غمار حياته الجديدة ، فلم يجد فى الاعتذار ما كان يجده البدوى فى باديته .

وحرص على أن يفتن فى الوصول إلى قلب سامعه طلبا لرضاء عنه ، وعفوه وغفر ما قدم من خطأ ، فاختر بعض الشعراء لهم فى الاعتذار أساليب أصبحت فيما بعد مداعب تناسب إليهم وترتبط بهم ، وذلك بأن يذهب فى اعتذاره مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، يصل من خلاله إلى قلب المعتذر إليه ليستل منه ما انطوى عليه ويسح إعطائه ، ويستجلب رضاه ؛ وذلك لأنهم وجدوا أن إثبات المعتذر من الاحتجاج وإقامة الدليل والبرهان على نفي التهمة خطأ فاحش ، يريد النار اشتعالا . لا مع الملوك ، ودوى السلطان . وحق المعتذر العاقل أن يتلطف فى حديثه ، فيقسه - فى أثناء ذلك - برهانه ممتزجا بالتضرع والاستنجاد والدخول تحت عفو الملك ، ورجاء والأمل بمعاودة النظر فى الكشف عن كذب الناقل ، ووشاية الواثى ،

أن يلجئه ذلك إلى الاعتراف بما لم يجتنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه فإن ذلك مهلكة ، وإنما عليه أن يحيل الكذب على الناقل والحاسد (١) .

والاعتذار في الشعر العربي - على ذلك - ينشعب في اتجاهين :

أولهما : اتجاه الشعراء طالبي المطايا والمناسب في توجيه اعتذارهم إلى من أدمعهم الحياة المترفعة على أن يكونوا في ركابهم من ملوك الحيرة والشام ، حرصا على مكانة ، وتطلعا إلى عطية .

وثانيهما : اتجاه الشعراء المسلمين الذين سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين في شركهم إلى الاعتذار عما سلف منهم ؛ والتأسف على ما كان في جاهليتهم .

ولا ريب في أن اختلاف الدافع إلى الاعتذار ، يشأ عنه اختلاف المنهج والأسلوب .

وكان على رأس الاتجاه الأول عدى بن زيد العبدي ، وتلميذه في ذلك النابغة الذبياني ، وقد وحده الشاعران اعتذاراهما إلى الزمان بن النذر على نحو ما ذكرنا في ترجمتهما ، وقد أثر عنهما في ذلك قصائد كثيرة طوال ، ذكرت نماذج منها في ترجمة كل منهما .

وكان على رأس الاتجاه الثاني كعب بن زهير في لاميته المشهورة التي قل في مطلعها :

بانت سعاد فقل لي اليوم متبول متيم إرها لم يفد مكبول

وهو فيها يكشف عن الفارق بين الاتجاهين ، فبينما يقدم أصحاب الاتجاه الأول اعتذارهم بين يدي آمالهم ، نرى كعبا يقدم اعتذاره بعد أن تحقق مأموه ، وقال عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمينه ، وإلى ذلك يشير في قوله :

لنقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع القيل
لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله توبيل
حق وضعت عيني لا أأزعه في كف ذي تقات قبيلة القيل

(١) راجع العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٦ بتحقيق الشيخ محمد محي الدين .

يمتاز الفخر الحضري من الفخر البدوي بتميز المحامد والتموت الحضرية من المحامد والتموت البدوية ، إذ الفخر لا يخرج عن تعداد الشاعر ما يشتمل عليه من ذلك ، وكل شاعر يتأثر بوسطه وبيئته في تقدير للصفات ، وتحديد الفضائل ، إذ كثير منها نسبي ، فليس ما يفخر به ابن البادية - بالضرورة - مثل ما يفخر به ابن الحاضرة ، ومن هذا للنطلق أقرر أن ما يفخر به ابن الحاضرة المادية لا يتفق بالضرورة - مع ما يفخر به ابن الحاضرة الإسلامية .

يتضح ذلك إذا نظرنا في شعر شاعر مثل طرفة بن العبد الذي استلمكته الماديات فلم يشعر بسكياها إلا بالإحسان بكل ما هو مادي فهو الفارس الذي لا يضارعه فارس ، الجواد ، السكير المربد ، المتلاف ، المكب طي ملذاته وتمعنه على الرغم من عشيرته ، وذلك في قوله :

إذا القوم قالوا من متى؟ حلت أنى	عنيت ، لم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلّاع عصابة	ولكنى متى يسترد القوم أرفد
فإن تبغى في حلقة القوم تلقى	وإن نلتسنى في الحوانيت تصطد
وإن يلتقى الحى الجميع تلاقى	إلى ذروة البيت الشريف المصد
ندا ماى يبيض كالنجوم وقينة	روح إلينا بين برد ومجسد
وما زال ثمرابى الخور ولدتى	وبيعى وإفراقى طريقى ومتمدد
إلى أن تحماتنى العشيرة كلها	وأفردت أفراد البعير المعبد

ومن ذلك المورد قدم امرؤ للقيس فخره طي نحو ما رأينا ، وهو دائما اللقى الأثير عند الفتيات ، الذى فرغ من كل ما يشغل العظيم من عظام الأمور ليهتم بالتأفقه من ألوان الحياة ، فليس يعنيه إلا تبكير في رحلة صيد يتعطى فيها فرسه القوى ، ومن حوله ثلة من الشبان الفارغين ومهمم الجوارى لينتهوا إلى حفل تنحدر به الدبابيح وتعد المواثد .

فإذا قلبنا النظر في شعر الحضر الإسلامى وجدنا شعراء يتخرون بقيم اصطفاها الإسلام من القيم العربية لتصبح قيما إسلامية ، يحرص عليها المسلم ، ويمتز بالتزامه بها ، واشتاله عليها .

وكان أهم ما يهتم به المسلمون في العصر الأول لمجيء الإسلام من هذه القيم الإخلاص للدعوة ، والوفاء لمهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإقدام على الموت في معارك الجهاد طلبا للشهادة ، والخلوص من الشرك وتوابعه ، والوقوف في وجه المشركين دفاعا عن الرسول والدعوة . . . الخ .

من ثم كان الفخر في هذا الوسط الإسلامى مزيجا من الفخر والحماسة الإسلامية ، كما نجد في شعر حسان حين وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على صرعى قريش يتناديهم : يا أهل القلب بئس عشيرة النى كنتم لئبيكم ، كذبتوني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتوني ونصرني الناس ثم قال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال حسان بأبيته التي يصور فيها هذا المشهد وفيها يقول :

منادرنا أبا جهل صريعا	وعتبه قد تركنا بالجيوب
وشيبة قد تركنا في رجال	ذوى حسب إذا سبوا حسب
ينساديهم رسول الله لما	قدوناهم كباكب في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقا	وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
فما بطفوا ، ولو نطقوا لقالوا	صدقت وكنت ذا رأى مصيب

وفي غمرة الفرح بنصر الله يوم بدر ينطلق لسان حسان مصورا بطولة القائد العظيم ومن خلقه المسلمون يستمعون بحبل الله ، ممددا ما يفخر به كل مسلم في مثل هذا الموقف ، فيقول .

مستشعري خلق المادى يقدمهم	جلد النحيظة ماض غير رعديد
أعنى رسول إله الخلق فضله	على السبرية بالتقوى وبالجلود
مستمعين بحبل عسير منجذم	مستحكم من حبال الله ممدود
فينا الرسول وفيما الحق تقبمه	حتى المات ونصر غير محدود

فأى معامد ونموت يعتز بها المسلم فوق هذه المعامد والنعوت ؟
إنها كما ترى قيم الإسلام التي دعا إليها القرآن الكريم ، وتخلق بها الرسول صلى
الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله تعالى عليهم .

وصفة القول : إننا هنا أمام نثر حماسي يدور حول انتصار الجاهة ؛ فهو نثر
تغلب عليه الروح الجماعية من خلال الأخلاق والقيم والمبادئ الإسلامية ، ولا ريب
في أن الفارق شاسع بين هذا الفخر ونثر أمثال طرفة وامرء القيس ممن نشأ في
احضان الحضارة الحسية بمبادئها وقيمتها المادية .

الغزل :

من المنون للشعرية التي يلتقي فيها البدوى مع الحضري ، لسكنهما لا يلتقيان إلا على الاسم العام ، أما للمهجع وللمأني فهما مختلفان تماما ، فإذا كان الشاعر البدوى يرى في المرأة حرما لا يذنبك ، وإنما يطفأ حوله في خشوع ، فإن الشاعر الحضري كان يرى فيها متعة الحواس ، ومنهل المرائز والشهوات فهو حين يتعرض لها إنما يتعرض لمباح ، يتمتع نفسه بالنظر إلى ما يخفى من جسمه ، ويتمتع غيره بتعريتها مما يسترها ، على نحو ما رأينا في شعر امرئ القيس الذي يقول فيه مصورا إحدى مصافراته النسائية التي يفخر بها ، ويرى أن ذلك قصارى ما يصبو إليه رجل مثله :

جئت وقد نضت لبوم ثيابها	لدى الستر إلا أبسة المتفضل ^(١)
مهففة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجندجل ^(٢)
أصد وتبدى عن أنيل وتتنق	بناظرة من وحش وجرة مطفل ^(٣)
جيد كجيد الرثم ليس فاحش	إذا هي نصته ولا بمطبل ^(٤)
ومرع يرين المسن أسود فاحم	أثيث كقنو النخلة المتمشكل ^(٥)

-
- (١) نضت : حلعت ، والمتفضل : من يلبس ثوبا واحدا إذا أراد الحفة في العمل .
 (٢) المهففة : لطيفة المحضر صامرة البطن ، والمفاضة : المرأة عظيمة البطن مستريحة اللحم ، والترايب : جمع تريبة . موضع القلادة ، والصقل : إزالة الصدأ والندس والسجندجل : المرأة .
 (٣) أصد : تعرض ، وتبدى : ظهر ، وخذ أسيل . فيه امتداد وطول ، ووجره موضع ، ومطفل التي لها طفل
 (٤) الرثم : الظن حالص البياض ، نصته : رفعتة ، والفاحش : ما حاور القدر المحمود من كل شيء ، والممطل : الخالي من الخلق .
 (٥) الفرع : الشعر النام ، والمثنى . الظهر ، الأثيث : الكثير ، والقنو : المدق ، والمتمشكل : المتدلى .

وتضحى لتبت المسك فوق ثيابها نؤوم الضحى لم تلتطق عن تفضل^(١)
وعلى هذا النحو يسير المنخل اليشكرى في تصوير واحدة من مفاخراته مع المتجردة
زوج النعمان ، وفيها يقول^(٢) :

ولقد دحلت على الفتى	ة الحدر في اليوم المطير
السكائب الحسناء تر	قل في الدمقس وفي الحرير
بدنعتها فتداعت	مشى القطاة إلى الفدر
ولثمتها فتفتست	كتنفس الظى البير ^(٣)
فدنت وقالت يامن	خل ما بجسك من حرورا
ماشف جسمى غـير حـبـ	لك ، فاهدنى عى وسيرى

ولم تطف حسية الغزل في الشعر الحضري عند حد هذه القصص التي تدور حول
مفاخرات الشاعر مع المرأة ، بل إنك لتجد الشاعر الحضري في ذلك العصر لانغم عينه
من المرأة إلا على محاسنها للحسية ، وأوصاف جسمها المادية ، مما يكشف عن انهماك في
المادية انهما كما يشبه من قريب تهالك بعض الشعراء المحدثين في البيئات الهادية . من
ذلك ما قاله الأعشى متغزلا في امرأة شدة جمالها :

فخراء فرعاء مصقول عوارضها	تمشى الهويثا كما يمشى الوجى الوجى ^(٤)
كان مشيتها من بيت جاريتها	مر السحابة ، لاريث ولا عجل
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت	كما استمان برج عشرق زجل ^(٥)
يكاد يصرعها - لولا تشدها -	إذا تقروم إلى جاراتها الكسل ^(٦)

(١) البيت كله كناية عن الترف والنعيم .

(٢) الأصمعيات رقم ١٤

(٣) البهر من البهر : وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من

قتابح الأنفاس .

(٤) الفراء : البيضاء واسمة الجبين ، والفراء : طوبلة الفرع من شعر وعوارص ،

والوجى : الذى رق حاوره من كثرة المشى .

(٥) الوسواس : صوت الحلى المشرق - بكسر العين - شجيرة مقدار ذراع لها

أكلام فيها حب صفار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب نسمع له حشخشة على الحصى ،

والزجل : ذو الصوت المطرب . (٦) البيت كله كناية عن السمن والترف .

إذا قوم بضوع المسك أصورة والزئبق الورد من أردانها شمل (١)
ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل (٢)
يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (٣)

والغزل الحضري كما ترى في الغالب يدور حول الماديات ، سواء في علاقة الرجل
بالمرأة ، أو في محاسنها الى تأسره ، ومن ثم لا تسكاد تجدد هذا الغزل خارج الحضرة
الحسي ، أما المحضر الإسلامي فلم يكن أمام شعرائه مجال لتناول المرأة بأي صورة من
صور التناول اللهم إلا الغزل التقليدي في مطالع القصائد ؛ إذ كان ما يشغلهم من أمور
المنوعة أعلا صوتا من ذلك ، أضف إلى هذا أن استجابة الشعراء لفيم الإسلام تمنعهم
من الخوض في ذلك ، فلم يكن الكثير منهم قد انتزع أمامه بعد ما رفضه الإسلام
وما يقبله من ذلك .

(١) ضاع المسك : انتشر ، وأصورة جمع صوار : الرائحة الطيبة ، والزئبق : دهن
الياسمين ، والأردان جمع ردن - بضم الراء - السكم .
(٢) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد البجامة فيه رياض
وقيان .
(٣) الأصل - بضم الصاد - جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى الظلام .

الدينيات والمواعظ:

الحديث عن الدين وما يتصل به من الآء-كار والمقائد ، والدعوة إليه ، والحث على
التخلق بقيمه ، ولفت القلوب والمقول إلى أسرار الحياة ، ونظام الكون ، والمصير
المحتوم . . إلى غير ذلك من المواعظ فن شمرى جد على الشعر المعصرى ؛ وقد تأثر
الشعراء في المحواضر المختلفة بالفكر الدينى - على اختلاف مصادره - المسيحى واليهودى ،
والوثنى ، ثم الإسلامى ؛ واعتنق شعراء العرب بعض تلك الأء-كار ، وأخلصوا أنفسهم
للدعوة إليها من حلال شعرهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء شاعر للحيرة عدى بن زيد العبادى ، الذى أحاص
أكثر شعره لذلك الفن ، وتناول له من مختلف اتجاهاته ، قصص من أحداث الأمم
الغابرة وحكاياتهم وما وقع لهم ما عثل أمام الناظر ، فيجرد الإنسان من أدراك الحياة
وشوائب المادة ، ويحميه من الاغترار بها والانخداع بظواهرها . وبما قدمنا من
نماذج شعره ما يقرر ذلك

وسار قربا من مسار عدى شاعر الطائف أمية بن أبى الصلت الذى نسب إليه
شعر يتحدث فيه عن إله العالمين ، خالق السماوات والأرض ، ومشىء الكون ،
مستدلا على وجود الله بنظام هذا الكون ويتحدث فيه - كذلك - عن الموت
والفناء ، والبعث والنشور ، والمذاب والثواب نحو قوله الذى نسب إليه على شك فى
صحة تلك النسبة :

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بهاها وابنى سبعا شدادا	بلا عمد يرين ولا رحال
وسواها وزينها بسور	من الشمس المضيئة والهلل
ومن شهب تلالاً فى دحاها	مرامبها أشد من المصال
وشق الأرض فانبجست عيونا	وأناهرا من المدب الرلال
وكل معمّر لا بد يوما	وذى دنيا يصير إلى زوال

ورجع الشك في نسبة هذا الشعر لأمية إلى معانيه بالمعاني الإسلامية ، وليس هذا بالسبب الذى يشكك في نسبة الشعر إلى أمية ؛ خصوصا إذا ذكرنا أنه ممن كان يسمى للنبوة ويمد نفسه لادعائها

وقد أوضحنا - في أثناء حديثنا عن عدى بن زيد - مكان شعر أمية الدينى من شعر عدى .

وأيا ما كان الأمر فإن الشعر الدينى في هذه المواطن لم يخرج عن الأمور العامة ، والقضايا البسيطة التى اجتمعت عليها الديانات السماوية كلها .

ولما كان الإسلام لم يتوقف الشعراء المسلمون عند هذا الحد ، بل تجاوزوه إلى عرض قيمه الخاصة ، والحث على مناصرتة . بينما حرص شعراء المشركين على محاربتة والصدد عنه .

ولعل أوضح مثل لذلك ما نجد من شعر كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبى	سمى الفتى وهو محبوب له القدر
يسمى الفتى لأمر ليس يدركها	والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل	لا تنتهى العين حتى ينتهى الأثر

(٧)

الرثاء :

فن الرثاء من الفنون المشتركة التي حفل بها شعر الحاضرة كما حفل بها شعر البادية؛ وإن كان في البادية أكثر شيوعاً ، وأشد انفعالا وتفجعا ، وذلك لما يواجهه شاعر الحاضرة من مبادئ وقيم تذكره دائماً بالمصير المحتوم الذي يتناول كل كائن مخلوق ، بحيث تخف حدة الالتباس والتفجع ازوال المفاجأة في زول اللوت .

ومن ثم يلاحظ المدارس أن شعر الرثاء في الحواضر العربية غلب عليه العزاء والتسلى على اختلاف اتجاهات الشاعر فيه ، من تذكر لما نزل بالملوك الفارين ، وتأمل في سنن الكون ونظام الحياة ؛ وهو فرصة للنظر الدأى فيما حول الشاعر ، وصوغ ما انطبع على صفحة فكره وعواطفه من إنعكاس لهذا النظر ، يتمثل دعوة الآخرين إلى تقبل ما يأتي به القدر بنفس راضية على الرغم من مرارته وألمه .

بيد أن الشاعر لم يكن يقف عند حد التأسي والتعزية ، بل كان يضطر إلى سرد طرف من سمات الميت وخصائصه الخلقية ، وكأنه بذلك يعال التعزى بفقد هذا الشخص من دون الآخرين الذين يموتون في كل يوم ولا يتألمون من اهتمام الشاعر بما يحمله يرثيهم ويتعزى عن فقدم ؛ ولذلك دار شعر الرثاء حول الموتى ذوى المكانة في نفوس معاشيهم .

ولعل ذلك يتضح من رثاء فضالة بن كلدة الذي قال فيه أوس بن حجر ، طالبا من نفسه التجميل في الجزع لوقوع المذخور ، دون أن يفرق في ذلك بين شخص وآخر ، فقد أودى بمن ضم كريم الأخلاق من سماحة ونجدة وحزم ، وعقل ، كما أودى بمن تجرد عن هذه الصفات جميعا :

أيتها النفس أجمل جزعا	إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنجدة	دعة والحزم والقوى جمعا

الألمسى القدى يظن بك الظـ ر كأن قد رأى وقد سمعا^(١)
 الخلف المتأف المرزا لم يتمتع بضعف ولم يمت طبعاً^(٢)
 أودى وهل تنفع الإشاحة من شيء لمن قد يحاول البدعاً^(٣)
 ويتضح من رثاء امرئ القيس أباه ، وفيه تأملات حزينة ، ونظرات باكية إلى
 مايجرى في السكون ، وذلك في قوله :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب^(٤)
 عصفير وذببان ودود وأجرا من مجلحة الدئاب^(٥)
 وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همقى وبه اكتساب
 بمض اللوم عاذلق وإلى مستكفي التجارب وانتساب
 إلى عرق الثرى وشجت عروقي وهذا الموت إسلامي شياي^(٦)
 ونهسى سوف يسلبها وجرى يلاحقني وشيكاً بالتراب^(٧)

ولما كان الإسلام ، تأثر الشعراء بتعاليمه السامية الواضحة التي تأتي على الشاعر
 للبالغة في الترفع والتمسك ، واستجابوا لقيمه التي تفرض على الجميع روح الجماعة ،
 فلم يبكوا ميتاً لداته ، وإنما يبكون فيه تأثر الأمة بفقده .

وصادف ذلك ما كان بين المسلمين والمشركيين من صراع بلغ درجة عالية من التعدي

(١) الألمسى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور ولا يحطىء ، وأنه بطلن
 صادق الظن جيد الفراسة .

(٢) المرزا : الذي تصيبه الرزايا في ماله لسكرمه ، يتمتع : يصاب ، والطبع - بكسر
 اللباء - اللثيم .

(٣) أودى : مات ، الإشاحة : الجد في طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

(٤) موضعين - بكسر الضاد والعين - لأمر غيب : يريد به الموت ، وسحر :
 نلهى ومخدع .

(٥) الدئاب المجلحة : المصممة على الشيء التي لا ترجع عما تريد ، يعني : نحن في الضعف
 مثل هذه المخلوقات ، وهي ركوب الإنان أجراً من الدئاب التي تصمم على ما تريد .

(٦) وشجت عروقي : اشتبكت وانصلت ، يقول : إن أصله في حسبه ثابت راسخ .

(٧) الجرم البدن ، والشيك : السريع .

فألبس الرثاء ثوب الفخر ، ومزج الفخر بالرثاء ، في بكاء من استشهد من المسلمين ، ومن قتل من المشركين في الحروب التي دارت بين الطرفين في مطلع الإسلام . وكان محور هذا الرثاء - كما فرصة الموقف - تعداد المناقب ، ووصف المثوى الأخير وما يلتظر الشهيد من جزاء .

يبد أننا نلاحظ في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم مزيدا من التفجع والتوجع لمعهده ، إذا قورن برثاء غيره ، لكننا إذا وضعنا في الاعتبار مكان الرسول من نفس المسلم لم نجد في ذلك زيادة ولا مبالغة ، وإنما هو التصوير الصادق لما يحس به الشاعر من فداحة المصيبة ؛ فهي إذن أمور بسية ، لا ندرك أمادها إلا بال نظر المدقق الفاحص . ومن أبرر المرائي الجماعية ، وبث الأحران المصائب العامة ما قاله أبو أسامة معاوية ابن رهير حليب بن محزوم وهو مشرك حين مر بهيرة بن أبي وهب فرأى إعياءه من الحرب وبما أصاب قومه من الهزيمة في غزوة بدر ، مصورا أساء وحزنه لما ألم بهم ، فاحرا بنمسه وقبيلته وشهوده الحرب :

ولما أن رأيت القوم حفوا	وقد زالت نمامتهم لفر
وأن تركت سراة القوم صرعى	كأن خيارهم أذباح عتر
وكانت جمه وامت حماما	واقينا المنأيا يوم بدر
وأبلغ إن بلغت المرء عنا	(هيرة) وهو ذو علم وقدر
بأنى إن دعيت إلى أفيد	كررت ولم يضق بالكردى

وهذا الأسود بن المطالب - وكان قد أصيب له في بدر ثلاثة من ولده زمعة وعقيل والحارث بن زمعة - يسمع نائحة من الليل فيسأل غلامه عمن تبكى ، فأخبره بأنها تبكى بميرا لها ضل ، فانفجر ساحتها غاضبا نائحا يقول :

أتبكي أن يضل لها بعير	وبعها من السوم السهود
ولا تبكى على بكر ولو كن	على بدر تقاصرت الجدود
وبكى إن بكيت على عقيل	وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى حميما	وما لآني حكيمة من نديد
ألا قد ساد بهم دم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

بينما يقول عبد الله بن الزبير السهمي يبكي شهداء بدر ، فيسمى أبطالهم ، ويشيد بتواقفهم وحسن بلائهم ، وإقدامهم على الموت في غير خوف ولا تردد :

ماذا على بدر وماذا حـوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها وابن ربيعة خير خصم فثام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلى ليلة الإطلام

* * *

وإذا بكى باك مأعود شجوه فعلى الرئيس الماحد ابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصمهم بسلام

وهو رثاء - كما ترى - يمازجه الفخر والمدح ، فهما عنصران يكادان لا يفارقان
المرأى في الشعر الإسلامى ، إذ المرأى في هذا الوسط البيئى منبثقة من الصراع القائم
بين معسكرى الإسلام والشرك .

لوصف :

يكاد شعراء الحاضرة لا يقلون عن شعراء البادية إحداهما بفن الوصف - على ما سبق الإشارة إليه - ولا يخرجون طي منهجهم فيه ، من تنوع في معارضه ، حيث وصفوا الدانيات والموضوعيات ، ووصفوا المدركات الوجدانية والمدركات العقلية والمدركات الخيالية ، كما وصفوا الماديات والمدركات الحسية .

١ - وكان من أهم ما استأثر بفن الوصف لدى شعراء الحاضرة المادية مجالس الخمر ، وما يدور فيها من رقص وطرب ، حيث أفردوا القصائد لذلك ، وقلبوا نظرهم في مشاهدتها ، فوقعوا منها على لوحات كثيرة ، متعددة الأحداث ، وتمننوا في تلوين كل لوحة بما يناسبها . وكان من المتقدمين في ذلك عدى بن زيد الذى تناول الخمر بالوصف ، فقدمها في صورة رائعة من حلال أوانها وكؤسها - على ما سبق الإشارة إليه - وشاركه في هذا الاعشى الذى برع وأجاد فتمكن من استحضار مجالسها مشخصة مجسمة بما يلتزمون فيها من عادات تشبه الطقوس ، وما يتزيا به السقاة والغنون من أزياء ، وما يكون عليه الإماء من خلاعة وتثن . يوضح ذلك ما أراه في معلقته من قوله :

وقد عدوت إلى الدانوت يتبعى	شار مشل شاول شلشل شول ^(١)
في منية كسيوف الحمد قد علموا	أن ليس يدبع عن ذى الحيلة الحيل
نازعته قصب الريحان متكثا	وقهوة مزة راووقها حصل ^(٢)
لا يستيقون منها وهى راهنة	إلا بهات، وإن علوا وإن نهلوا ^(٣)

-
- (١) عدوت : ذهبت ، شار : يشوى اللحم ، ومعنى مشل - بكسر ففتح - شاول ، شلشل - بصم الشينين - شول : أنه حفيف الحركة شيط ،
 (٢) قصب - بضم القاف والضاد - جمع قضيب : الفصن والقهوة : الخمر ، والراووق : اللوعاء الذى تروق به الخمر ، حصل : ندى ، كى بذلك عن اتصال شربهم .
 (٣) علوا : من العلى - بفتح العين - الشرب بعد الشرب تباعا ، ونهلوا من النهل : أول الشرب ، إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .

وقمنا ولما يصح ديكما	إلى جونة عند حدادها (١)
تدخلها من بكار القطاف	أزرق آمن إكسادها (٢)
ذات له : هذه هاتها	بأدماء في جبل مقتادها (٣)
فقال : تريدونى تسمه	وماذاك عدلا لأندادها (٤)
قلت لنصفنا : أعطه	فلما رأى حضر شهادها (٥)
أضام مظاته بالسرا	ج والليل عامر جدادها (٦)
دراهمنا كلها جيد	فلا تحبنا بالنقادها (٧)
فقام وصب لنا قهوة	تسكننا بعد إرعادها (٨)
كيتا تكشف عن حمرة	إذا صرحت بعد إزبادها (٩)
كحوصلة الرأل في جريها	إذا جليت بعد إتمامها (١٠)
وجال علينا بإبريقه	محضب كف بفرصادها (١١)

- (١) جونة - بفتح فسكون - جرة وحدادها : خمارها .
(٢) تدخلها : تخيرها ، وبكار القطاف : أول ما يقطف ، والأزرق ، تصغير أزرق ، يعنى به أزرق المينين ، آمن إكسادها - بكسر الميم - لا يحاف كسادها .
(٣) الأدماء : الناقة البيضاء ، ومقتاد الناقة : الغلام الذى يرعاها .
(٤) الأنداد : الأمثال .
(٥) النصف - بكسر الميم وفتح الصاد - الخادم ، والحضر - بفتح الحاء وسكون الضاد - الحضور ، ويقصد بالشهاد هنا : الدراهم .
(٦) المظلة : الحانوت أو الحبساء ، والجداد - بضم الجيم وتشديد الدال - الأهداب والأستار .
(٧) انتقاد : المد والنقد وتبين الزائف من الصحيح .
(٨) تسكننا : سكن إليها .
(٩) السكيت : الحمراء ، صرحت : ذهب زبدها .
(١٠) الرأل - بفتح الراء وسكون الهمزة - ورخ النمام ، شبه الخمر بمحوصلة في الحرة . حليت : أخرجت ، من جلوة العروس ، والقاعدة : إذا قدمت عن الطلب .
(١١) الفرصاد - بكسر الفاء - التوت الأحمر .

فبانت ركاب بأكورها لدينا وخيل بألبادها (١)
ورحنا تنمنا نشوة نجهور بنا بعد إقصاها (٢)

٢ - واستأثر كذلك بفن الوصف - لديهم - مشاهد الطبيعة وتقلبها، ومظاهر
السكون ودقائقه ؛ فرأينا منهم من يستأثر به مشهد الأمطار والسيول التي تلم بالديار
فيكسبها من مبتدئها إلى منتهاها ، كما صنع امرؤ القيس في مملته ؛ إذ خص جزءا كبيرا
منها بوصف وميض البرق ولعانه المتداخل في السحاب المتراكم ، وكيف جلس هو
وأصحابه بين حامر وإكام يتأملون سح الماء ، وهطول الأمطار، حتى تحولت في الأرض
سيولا تجرف كل ما يصادفها من أشجار ، فلم تترك بها بخلا ولا بيتا ، وما زالت المياه
تترايد ، والسيول تشدد حتى عات آجام السباع ففرقت ، وأصبحت رءوسها فوق سطح
الماء كأنها جدور البصل ترى ؛ وذلك قوله :

أحار ترى برقاً كأن وميضه كلع اليدى في حبي مكمل (٣)
يضىء ساء أو مصابىن راهب أهان السليط في الغبال المقتل (٤)
قعدت له وصحبى يسد حامر وبين إكام بعد ما متأمل (٥)

إلى آخر الصورة التي ذكرت أبياتها كاملة في ترجمة الشاعر ، ووضح فيها أنه
- على منهجه البيانى - يعتمد في توصيحه مقصده ، وإبرار الصورة على التشبيه بمختلف
أنواعه وأدواته .

(١) الأكور - جمع كور - الرحال ، والألباد - جمع لبد - قطعة الصوف
توضع تحت السرج .

(٢) الإقصاء : القصد والاعتدال .

(٣) حار : ترخيم حارث ، وميض البرق : لعانه ، والحى من السحاب : المتراكم
ومثله المكمل .

(٤) السليط : الزيت ، والغبال : القتال ، والمنصرده بقوله : أهان السليط ؛
أكثر منه .

(٥) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

ولم تكن هذه الآيات وحدها هي التي نسبت لامرئ القيس في وصف الله ومشاهد الطبيعة ، فقد نسب إليه مقطوعة أخرى في الغرض ذاته - وإن كان أبو عمر ابن الملا ينسبها لقدي الرمة - وفي هذه المقطوعة يعرض الشاعر فيصور مطرا قر الشبه بالظن السابق ؛ فالمطر ينهر حتى يعم الأرض ، ويقطع فتبدو الأوتاد من الأبر وإسكنه يعود أكثر مما كان متتواري عن الأنظار ، وتظل متوالية متدوقة حتى تنال الأشجار ولا يبدو منها إلا أعاليها ، فتترامى كأنها رؤوس ميممة قطعت وبها عمام وما يزال على هذا الانصباب والتدفق فترة ، تستدر السحب ربح الصبا الشالية فيه المطر في المطول ، وتقابلها ربح الجيوب فتعجز السحب بالمطر كذلك ، وتسيل ا حتى تضيق بأمواجه الأرض المعروفة باسم خيم وجفاف ويسر :

ديمة هط-لاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر (١)
تخرج الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشكر (٢)
وترى الضب خفيها ماهرا ثانيا برثنه ما يمه (٣)
وترى الشجراء في ريقه كرهوس قطعت فيها الحمر (٤)
ساعة ثم انتحاهما وابل ساقط الأكناف واه ميمر (٥)

(١) الديمة : المطر الدائم، وهطلاء : كثيرة الهطل، والوطف : الدنوس من الأبر طبق الأرض - بالباء المفتوحة - تطبقها وتعمها كثرة مطرها ، تحرى : تمه الأمكنة وثبتت فيها ، وتدر : يكثر ماؤها وترسل درها .
(٢) الود - بفتح الواو - الود ، وأشجذت : أفلتت وسكنت ، وتشتر تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) خفيها ماهرا : يريد مسرعا في عدوه ، وبرثن الضب : يقابل الإصبع من الأبر وما يمه : لا يصيبه المطر والتراب وذلك لحفته في عدوه .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، وريق المطر : أوله ، ينفى أز ينمر الأشجار لا يبدو منها إلا أعاليها فتبدو كأنها رؤوس قطعت وفيها الحمر وا

(٥) انتحاهما : قصدها ، الوابل : المطر الغزير ، والساقط الأكناف : الدانواحي الأرض . واه . متخرق ، المنهمر : المنسكب .

راح تمر به الصبائم اتحي فيه شؤبوب جنوب منفجر^(١)
 نيج حق ضاق عن آذيه عرض خيم فجفاف فيسر^(٢)
 قد غدا يحمل في أنفه لاحق الإطلين محبوبك ممر^(٣)

* * *

٣ — كما احتفل شعراء الحاضرة بإمراد إحدى وسائلهم الحيوية بالوصف ؛ من
 حيوان ، وآلات حرب ، ونحو ذلك . فهذا أبو دؤاد الإباضي يصف فرسه في قصيدة
 من روائع شعره تبلغ نحو ثمانية وعشرين بيتا خصها كلها في وصف الحصان ،
 بجام فيها :

وقد أعدو بطرف هـ كل ذي ميمة سكب^(٤)
 أسيل سلجم المقبل لاشخت ولا جأب^(٥)
 مسح لا يوارى العير منه عصر اللهب^(٦)

(١) راح : عاد بالمطر في آخر النهار . تمر به : بفتح التاء - تحركه وتديره ،
 والشؤبوب : دومة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .
 (٢) نيج : سال ، والآذى : الموج ، وحيم - بفتح الحاء وسكون الياء - وجفاف -
 بضم الجيم - ويسر - بضم الياء والسين : أما كن .
 (٣) يحما في أنفه : يريد في أنف المطر أي في أوله ، ولاحق الإطلين : فرس
 ضامر الكشحين ، المحبوك : الموثق الخلق ، ومثله المر - بضم ففتح - من الحمل المر
 وهو الحكم القتل .
 (٤) الطرف - بكسر الطاء ، الفرس الكريم ، والميكل : الطويل في ضخامة ،
 ذوميمة : ذو جرى سائل ، ومثله السكب .
 (٥) أسيل الحد : مستو ، ساحم : طويل ، المقبل . يعني حين تراه مقبلا ، والاشخت
 المقيق ، والجأب : الغليظ .
 (٦) المسح : الذي ينصب في حريه ، والمصر - بفتح الميم والصاد - الملجأ ،
 واللهب : شق في الجبل ، يعني أن الحصان لشدة اندفاعه في الجري لا يتوارى عنه العير
 وإن التجأ إلى شق في الجبل .

له ساقا ظليم خا	ضرب فوجيء بالرعب (١)
ومتنان خطان	كزحلوفا من الهضب (٢)
يهرز العنق الأجر	د في مستأمن الشعب (٣)
ترى فاه إذا أقبل	مثل السلق الجذب (٤)
نبيل ساجم اللجبين	صافي اللون كالقالب (٥)
حديد الطرف والمنك	سب والعرقوب والقلب (٦)
جواد الشد والإحضا	ر والتقريب والمقب (٧)

وهذا أوس بن حجر في وصف القوس ، وقد سار فيه على منهج الاستقصاء والتكميل
فبدأ بالقوس منذ كان غصنا في شجرة بميدة المنال ؛ إيعاء إلى نذرة هذا القوس ، ففهم
أحسن الآقواس الممدة للحرب ، صنعته خير ، حين أبصر شجرته جشم نفسه العناء
حق تمكن من الحصول على هذا الغصن ، وقام بصقله وإعداده ، فأخرجه وسطا بين
الطويل والقصر ، ملء الكف ، حين يستعمل يسمع لصوته رنين ، فإذا شد النازع السهم
عاد إلى القبض ، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها :

ومبضوعة من رأس فرع شظية	بطود تراء بالسحاب مجللا (٨)
على ظهر صفوان كأن متونه	علان بدهن يزلق المنسلا
يطيف بها راع يحشم نفسه	ليكلأ فيها طرفه متأملا

(١) الظليم : ذكر النعام ، والخاصب : الذي رعى الربيع فخصبت قوائمه ، وساقا
الظليم قصيرتان .

(٢) الخطاة : المسكتزة ، والزحلوفا : المسكان الزلق .

(٣) الأجرد : قصير الشعر ، والشعب : الموصل المركب في الحارك وهو موصل
العنق مع السكاهل ، يقول : قد ركب في أصل متين ، وإذا سار هز عقه .

(٤) الساق - بفتح السين واللام - الأرض المتجردة من النبات .

(٥) القلب - بضم القاف وسكون اللام - الشوار يكون نظما واحدا .

(٦) المنكب : مجتمع رأس المضد والمنكب .

(٧) كل ما ذكر في البيت مضافا إلى (جواد) أنواع من الجرى .

(٨) المضبوعة : المقطوعة ، والشظية : الفتلة من الشيء ، والطود : الجبل .

على خير ما أبصرتها من بضاعة لستس بيما بهما أو تبكلا (١)
فويق جبيل شاخ الرأس لم تكن لتبلغه حتى تكلا وتعملا
فأبصر الهابا من الطود دونه يرى بين رأسى كل نيقين مهبلا
فأشرب فيها نفسه وهو مصمم والسقى بأسباب له وتوكلا (٢)
وقد أكلت أظفاره الصخر كلا تميا عليه طول مرقى توصلا
فما زال حتى نالهسا وهو مشفق على موطن لو زل عنه تفضلا
أمر عليها ذات حسد غرابها رقيق بأخذ المداوس صيغلا (٣)
على خذيه من براية عودها شبيه سفا البهى إذا ما تنفلا
عردها صفراء ؟ لا الطول عابها ولا قصر أررى بهسا فتعطلا
كتوم طلاع الكف لادون مائها ولا عسها من موضع الكف أفضلا (٤)
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذ أنبضوا عنها ثلثا وأزملا (٥)
وإن شد فيها للزغ أدبر سهمها إلى منتهى من عسها ثم أقبلا (٦)

وصفوه القول : إن شعراء الحضرة الجاهلى فى فن الوصف اختلفوا عن شعراء البادية
فى أمور من أهمها :

١ - الموصوف ؛ فما يشير اهتمام الحضرة المختلف عن ذلك الذى يشير اهتمام البدوى ،
ولا ريب فى أن الشاعر إذا ركز مصورته على الشيء القدى يشد نظره دون غيره ،
ولا أصيب شعره بالفتور والوهن .

(١) التبكل : الغنيمة . (٢) أشرب نفسه : ألذها .

(٣) ذات الحد : السكين ، وغراب السكين : حدها ، والمداوس جمع مدرس
كثير : آلة الصيقل التى يشتق بها النسي .

(٤) الكتوم . التى لا يوجد فى عودها شقوق ، وطلاع الكف . ملء الكف
والمعجس . المقبض .

(٥) الإنباض : تحريك الوتر فى القوس ، والنثيم : صوت القوس ، والأزمى الرنين .

(٦) معنى إقبال السهم إلى المقبض وإدباره أن القوس لينة فى صلابة عود ، وإذا
شد الفازع السهم عاد إلى المقبض ، ثم ابتعد عنها القوة دوما وصلابتها .

٢ - المنهج الاستقصائي ، فكل واحد من شعراء البيثنيين يمتد في وصفه على الاستقصاء ، بيد أن شاعر الحضر في استقصائه يلجأ إلى الوصف التأملي المتفحص ، كما رأينا في شعر أوس بن حجر ، وشاعر البادية في استقصائه يلجأ إلى الوصف القصصي ، فهو يقدم نموت موصوفه في تتابع قصصي ، تتكامل بمناصره الصورة كما يراها الشاعر ، على ما رأينا في وصف زهير وليبد .

الفصل الثالث

الشعر العربي بين البادية والحاضرة

من المقرر أن الأدب العربي على اختلاف أنواعه وفنونه يلتقي مع آداب الأمم الأخرى في المشتركات الإنسانية التي لا تتميز فيها أمة عن أمة ، ولا يختلف بها أفراد عن فرد ، وفي الآداب جميعا ترى صورة الإنسان في صراعه مع ما يصادفه من عقبات في حياته تعمقه عن مواصلة المسار ، لا يختلف في ذلك أدب عن أدب ، وفي الآداب جميعا ترى القيم الإنسانية الفطرية تدور حولها الأحاسيس والشاعر والانتعالات رضا بها أو سخطا عليها ، دواعا عنها أو برماها . . .

ومن المقرر كذلك أن البيئات - زمانية كانت أو مكانية - تباعد كل أمة عن أختها في أمور كثيرة من أبررها - في ميدان الأدب - الرؤية العقلية والخيالية لما تصادف في الحياة الواقعية ، والإدراك التصوري للعلاقات القائمة بين عناصر موقف من المواقف المجابهة ، وكيفية نقل هذا المعنى المرئي أو الصورة المدركة إلى الآخرين ، ثم بالأسلوب الأنسب في عملية النقل هذه .

من هذا يتقرر أن أدب كل بيئة له من الخصائص ما يتميز به عن أدب البيئة الأخرى ، وهو يتميز بفرضه عليه ظروف البيئة بكل أبعادها ، ولا يحق - لذلك - أن يحمّد أدب أمة أو جيل لخصائصه ، ويذم أدب أمة أو جيل لخصائصه ؛ إذ هي من ضروريات البيئة التي لا جهد لأحد فيها ، إنما يذم أدباء بيئة ما إذ تجاوزوا ما تمليه عليه بيئتهم أو تجاهلوه ؛ لأن أدبهم عندئذ يكون مصنّعا مصمّعا لا يعبر عن ذات أصحابه .

فإذا أردنا أن نتعرف على خصائص الشعر العربي الجاهلي في بيئته البدوية والحضرية فمعنى هذا أننا نقصد إلى الكشف عن خصائصه المعنوية والخيالية وخصائصه الضمنية ، وخصائصه الأسلوبية ، وخصائصه الشكلية ، إذ الحال التي الذي يعبر شعر بيئة عن شعر بيئة أخرى يكاد لا يخرج على هذه المناحي الأربعة .

الخصائص المنوية والخيالية :

المقصود بالمعنى هذا الدركات التى يقف عليها الشاعر فى أثناء تفكيره فى موضوعه ، فالمعنى الشعرية هى الحقائق التى تشد انتباه الشاعر فى موضوعه ، وعليها يقوم البناء الشعرى ؛ لأن الشاعر حين يتناول موضوعا ما من الموضوعات أو حدثا من الأحداث لا يمكنه أبداً أن يستقصيه ويلم بكل أطرافه ، وإنما هو بحسه الخاص يقع على جانب منه يتأثر به ويميش فيه . هذا الجانب المخصوص بجزئياته هو الذى السكى أو الفكرة الأصلية التى يقدمها الشاعر . وهو ذلك حاضن لثقافته وممارسه الخاصة النابعة من بيئته .

والناظر فى شعر البادية العربية ، وشعر الحاضرة العربية يصادف عدة ملاحظات :

١ - وهو يلاحظ أن المعانى فى الشعر البدوى واضحة صريحة صادقة فلا يحول بينها وبين متلقيها غموض ؛ وذلك أحد آثار البيئة فى مقومات الشخصية لديهم ، فقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية المفتوحة التى لا تعتمد فيها الحياة إلا على الضرورى من الحطب ، والننى لا يفيد فيها الالتواء والتخفى ، ولتنفى لا كيان فيها لجبان أو ضعيف .. فرضت عليهم تلك البيئة أن يتخلقوا بخلق الشجاعة ، ذلك الخلق الذى ينطلق به اللسان فى غير موارد ولا للتواء ، والذى تمكن كشف به السرائر فى تحد وتحديد ، وكما نرى فى المعانى التى شددت اهتمام الشعراء فى زوجه أمية إذ يقول (١) .

لقد أعجبتهى لا سقوطاً قناعها	إذا ما مشيت ، ولا بدات تلفت
تبليت - بعيد النوم - تهدى غبوقها	لجاراتها إذا الهدية قات (٢)
تحمل بمنجاة من النوم بيتها	إذا ما بيوت بالمدمة حلت
كان لها فى الأرض نسيا قصه	على أمها ، وإن تكلمك تبليت (٣)

(١) المفضليات رقم ٢٠

(٢) الغبوق : اللبس الذى يشرب فى العشى .

(٣) النسي : الشواء الحسى أو المفقود ، قصه : تتمتع أثره ، أمها - بفتح الهمزة -

قصدها ، تبليت - بفتح السين - أو جزت .

أميمة لا يخزي نشأها حليها إذا ذكر الدنوان عمت وجلت (١)
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (٢)

فالشغرى يرى أن محاسن المرأة تقوم على الوقار ، والكرم ، واللبد عن أسباب
اللوم والذم ، والحياء ، حسنة السيرة والسمة لمفتها وجلالها ، يسعد بها زوجها لأنها
موضع ثقته

وقار المرأة في تصور الشغرى يعنى أن قائمها لا يسقط عن وجهها في انثناء سيرها ،
وأنها لا تتلفت حولها . وكرمها في تصويره يعنى الإيثار ؛ فهي تؤثر حاراتها في الجذب
بغبوق الابن ، وبعدها عن أسباب اللوم يعنى حسانة بينها عن كل يوم أو ذم . وحياؤها
يعنى أنها لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها كأنها تبحث عن شعرة مقدسة ، وأنها
لا تتكلم إلا باقتضاب ، وحسن سيرتها يعنى أن الحديث عنها لا يحمل الخزي لزوجها ،
وسعادة زوجها بها ترجع إلى اطمئنانه إلى مسلكها وثقته فيها ، فلا يخالج بومه شك
ولا ارتياب

وكا يرى في تصوير دريد بن الصمة ارتباطه بمشירתه وتمصيه لها ، إذ يقول :

وما أنا إلا من غربة : إن غوت غويت ، وإن ترشد عرية أرشد

فارتباطه بمشירתه عزية يعنى في تصويره أنه يكون حيث كانت ، فإن ضلت ضل معها ،
وإن اهتدت اهتدى معها .

* * *

وليس وضوح المعاني خاصة بدوية ، وإن معاني الشعر الحضري في هذا العصر
كانت كذلك واضحة ، بيد أنها في غالبها تنقسم الملو والمبالغة ، كما يتسم بعضها بالتواء
والمواربة ، وذلك متأثر البيئة الحضرية ، وما تستقرمه المعيشة فيها من تحفظ في التعبير ،
يلتقى على ذلك الشاعر الحضري الذي ولد ونشأ في الحاضرة لمدى بن ريد ، والشاعر
البدوي الذي تحضر بحسبه وحسه دون عقله ومكره ، كالباينة الديباني والأعشى .

(١) الأصمعيات ص ١١٢ طبع دار المعارف .

(٢) انظر حماسة البحتري ص ٢٠

وسمة الغلو والمبالغة تبرز أوضح ما تبرز في شعر المدح وما يتصل به من هجاء ورناء واعتذار ؛ وقد غلبت المبالغة على هذه الفنون لصدور الشعراء فيها عن طمع في المكافأة وتطلع إلى الجراء ، كما نرى في مدائح عدى والمبالغة والأعشى وأضرابهم ، انظر من ذلك إلى أعشى قيس يمدح هوذة بن علي سيد بني حنيفة فيمضي يجمع من الصفات مايفك عقدة الأيدي فتبسط بالمطاء ، وذلك قوله :

إلى هوذة الوهاب أهديت مدحتي	أرجى نوالا فاضلا من عطاياك
سمعت برحب الباع والجود والدى	فأدليت دلوى فاستقت برشائك (١)
فنى يحمل الأعباء لو كان غيره	من الناس لم يهين بها متاسكا
وأنت الذى عودتى أن ترينى	وأنت الذى آويتنى فى ظلالك (٢)

تجدد المبالغة المزوجة بالنصريح بالسؤال وطلب المطاء

وانظر إلى المبالغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر فيقدمه في صوره تملن عن تلك المبالغة لاقى تجاور بها الحد وذلك فى قوله :

فما المرات إذا هب الرياح له	ترمى أواذيه العرين بالزبد (٣)
يمده كل واد مترع لجنب	فيه ركام من اليبوت والحصد (٤)
يطل من خوفه الملاح متمهما	بالخيزرانه بمد الأبن والمجد (٥)
يوما تأجود منه سيب ناهلة	ولا يحول عطاء اليوم دون غد (٦)

(١) الباع : الكرم ، والرشاء : جمل الدلو .

(٢) ترينى : تملينى وتفتينى .

(٣) أواذيه : أمواجه ، العيران - بكسر العين الشاطئان .

(٤) مترع : مملوء ، لجنب : ذو صوت شديد ، واليبوت : شجر ، والحصد - بفتح الحاء والضاد - المحطم من الأشجار .

(٥) الخيزرانة : سكان السفينة ، والأبن : القنب ، والمجد - بالتحريك -

الكرب .

(٦) السيب : المطاء ، والمبالغة : الزيادة ، يريد أن عطاءه يمر .

فهذه مبالغات لا يعرفها البدوي الخالص فرضتها على أمثال هؤلاء - مما تجد ناذج
بعضه في ترجمات من ضمنهم بحثنا هذا - أخلاقيات الحاصرة ، واستعداداتها التي تبين
للشاعر مالا تبيحه البادية .

ومن هذا المعيل قدم البائدة اعتذاراته للنمان ، مثل قوله :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب (١)
فبت كأن المائدات ورش لي هراسا به يعلى فرائشي ويقشب (٢)

ومثل قوله :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أناني ودوني راكس الضواجع (٣)
فبت كأنني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع (٤)
يسهد من ليل التمام سلبها لحلى النساء في يديه قماقع (٥)
تناذرها الراقون من سوء ممها تطلعه طورا ، وطورا تراجع (٦)

* * *

(١) أنصب : أجهد جهدا شديدا .

(٢) الهراس ، بفتح الهاء - شجر كثير الشوك ، والمائدات : الزائرات في المرض .
يقشب : يجدد .

(٣) في غير كنهه ، يريد على غير ذنب منه ، والكنة : الحقيقة . راكس : واد
في منازل بني أسد ، والضواجع : منحى الوادي .

(٤) ساورتني : لدغتنى ، وضئيلة : أفعى دقيقة الجسم ، والرقش جمع رقشاء : المنقطة
نقطا بيضاء وسوداء ، والنافع : القاتل .

(٥) يسهد : يجمع النوم ، وأيل التام - بكسر التاء - أطول ليالي الشتاء ، والسلام :
اللدوخ ، والقماقع : الأصوات ، كانوا يحملون الحلى في يد الملدوخ اعتقادا منهم
بأنها تكشفه .

(٦) تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضا منها ، يريد أنها من خبثها لا تجيب الرقي ؛
بل تجيب مرة ، ولا تجيب مرة .

ومن ثم نجد الشاعر البدوي الذي تحضر بفسكره وعقله في ظل الإسلام لا يخرج على المعاني البدوية في انوضوح والصراحة والصدق ، دون مبالغة أو تهويل ، فهو في ظل القيم الإسلامية صريح واضح صادق ، كما كان في ظل القيم البدوية ؛ إذا كانت تلك القيمة من القيم البدوية التي أقرها الإسلام وحرص عليها ودعا إليها بمثله وأحلاقياته ، ولعل في مدائح العباس بن مرداس وكعب بن زهير ، وحسان وعبد الله بن رواحة ومماخرهم الإسلامية ما يؤكد ذلك ويقرره . فهم إنما يفخرون بما هو قائم ، وإنما يمدحون بما صدر عن المدوح من حميد الأعمال ، وما يتصف به من كريم الخلال .

فمدح العباس بن مرداس في إحدى خرياته يعتز بأنه وقومه نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودين الرحمن ، فركبوا الموت دون خوف :

واذكر بسلام سليم في مواطنها	وبى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصرُوا الرحمن واتبعوا	دين الرسول وأمر الناس مشتعرا
ومح يوم حنين كان مشهدنا	للدين عرا وعد الله مدخر
إذ نركب الموت محضرا بطائمه	والخيل يجاب عنها ساطع كدر

وهذا كعب بن زهير - في أخريات جاهليته - يمتدح لرسول الله ، فيضطر إلى الاستواء في ذلك ، دون أن يخرج إلى التهويل والمبالغة ، لعل أنه هذا النهج ليس مما يستسيغه الرسول صلى الله عليه وسلم .

أنبئت أن رسول الله أوعدني	والعهو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نأمله	تقرآن فيها مواهظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذب ولو كثرت في الأقاويل

وهذا حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا يتجاوز الاعتدال ، ولا يشد عن ذكر الحقائق :

ألا أبلغ أبا سفيان عفي	فأنت مجوف نخب هـواء
نأن سيوفنا تركتك عبدا	وعبد الدار سادتها الإمام
هوت محمدا وأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أنهجو ولست له بكفاء	فشركا لخيركا الفداء
هوت مبارك برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء

٢ - ويلاحظ أن المعاني والأفكار في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - بسيطة
وطرية ، لا تعقيد فيها ولا تركيب ؛ فدور العقل فيها دور المحصى المنتبع ، لا دور الصانع
المركب ، أى أنها معان حسية لم تخضع لصناعة العقل ، فهي على حالها لم يطرأ عليها
تغيير أكثر من ضم بعضها إلى بعض ، على نحو ما نرى في تأني المتدلس على الرضوخ
للهموان والضميم ، فيقرر أنه لا يقبل الهموان كريم ولا عاقل ، ولا يرضى به إلا حمار ذليل
أو جماد لا يعقل ، وذلك في قوله (١) :

إن الهموان حمار الأهل يمره والحار ينكره والرسلة الأجد (٢)
ولا يقسم على خسف يراد به إلا الأذلان: غير الأهل والوتد (٣)
هذا على الخسف معقول برده ودا يشج ولا يسكى له أحد

فالهموان لا يقبله إلا من يشبه هذين - الحمار والوتد - في الرضا بالذل ، وعدم
الإحساس بما يصنع به

إن الشاعر يتمدح بالأئمة وإباء الضيم ، ويرى أنه لا يقبل الضيم عاقل ، وإنما هو
أحد اثنين ، حيوان يجهل ما يراد به ، أو جماد لا يدري من أمره ولا من أمر غيره
شيئا ، وكل منهما وضع في موضع التسخير والإذلال ، وواضح أنه استمد هذا الملحق
من بيئته التي يعيش فيها ، دون أن يعيى إليه من عنده شيئا ، سوى أنه قرن
هذا بذلك .

وطى نحو ما رأينا في تصوير رهير الحرب في صورة بشة تدعو المعتلاء إلى النفور
منها والبعاد عنها ، فهي أسد ضار ، ونار مشتعلة ، ورحى تطحن للمتجاربين ، وأنثى
لا تلد إلا الأبناء المشثوم ، وتجارة لا تروح مالا ، ولا ريب في أنها معان مطروحة في
البيئة لم يصنعها عقل الشاعر بقدر ما لاحظها وانتأها من بين غيرها ليمرورها بها الحرب
فيحقق مقصده ويفر منها .

(١) انظر حماسة البحتري ص ٢٠

(٢) الرسالة - بفتح فسكون - المأقه الذلول ، والأجد - بصم الهمزة والجسيم -
الموثقة الخلق .

(٣) العير - بفتح فسكون - الحمار .

وهذا المنهج في اساطة المعاني يسير عليه عدى بن ريد شاعر النعمان في مخنّف
فنونه الشعرية من حريات ومواعظه واعتداريات ، من ذلك قوله .

من رأنا واحداثت نفسه	انه موف على قرن روال (١)
وصروف الدهر لا يبق لها	ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد اناخوا عدينا	بشربون الخربالماء الزلال (٢)
عمروا دهرنا بعيش حسن	آمنى دهرهم غمير عجال
ثم اضحوا عصف الدهر بهم	وكذاك الدهر يودى بالرجال
وكذاك الدهر يرى بالفق	في طلاب العيش حالا بعد حال

وجودنا هذا وعشك الزوال ، وان يفلت من الموت كائن حق صم الجبال ، فليس
في هذه الدنيا واحداثها ما يفتح باب الأمان لها ، ولا يتخذ عن إنسان بما توهمه حياة
بعض الناس ، وما عليه إلا أن ينظر في مصيرهم ، مذاك مصير كل حى .

ولا تمكاد تجسد شاعرا - بدويا أو حضريا - يخرج على هذا المنهج ، فهم جميعا
لا يصنعون معانيهم ، وإنما يستمدونها من البيئة المحيطة بهم ، فيضمون بعضها الى بعض
لتتحقق المقصود ، حتى في تلخيص خبراتهم وتقديعها في صورة حكم ، لا يلجأ الشاعر
إلى تركيب معانيه وتقديعها في صورة عقلية ، وإنما هو ملاحظ محض ، كما نجد في حكم
زهير بن أبي سلمى ، حين يقول :

فلو كان حمد يخلد للناس لم نمت والكن حمد الناس ليس يخلد

وحين يقول :

وهل يلبث الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابتها الخجل

وكما نجد في حكم الباقية إذ يقول :

ولست بمسبق أحدا لا تلمه على شعث أى الرجال المهدب

فأنت مع لشعر الربى الجاهلى أمام معان إنسانية حسية يقدمها الشاعر بما يتراءى له
في بيئته ، دون أن يتحول بها إلى معنى ذهنى أو صورة عقلية مركبة أو معقدة .

(١) القرن - يفتح مسكون - الطرف . (٢) الماء الزلال : الصافي .

ويلاحظ أنها قريبة المأخذ ، فهي مع صراحتها وبساطتها لا عمق فيها ، وكيف يتعمق من حرمة بيثته الاستقرار والهدوء ؟ فهو دائم الحركة ، مستمر الرحلة ، لا ينزل إلا ليرتحل ، ولا يقيم إلا ليسافر ، سواء كان من ساكني الحضر أو قاطني البادية ؛ فظروف الحياة في شبه الجزيرة دأمة للتقلب والتغير .

ولكنهم استمضوا عن عمق الفكرة بدوة الحس ، في تتبع الحركة ، واستقصاء المشاهد ، فحملوا من شعرهم لوحات تتجسم فيها المأوى ، ولشخص الأحداث والمواقف . كما في قول زهير بن أبي سلمى يصف مدوحه حين يستغاث بهم فيطيرون إليه بخيلهم .
ورماهم ليقودوه مما ألم به ، غير هيا بين ، فالقتل إحدى أمانهم من قديم (١) :

إذا فزعوا طاروا إلى مستفيهم طوال الرماح لاضفاف ولا عزل (٢)
فإن يقتلوا فيشتق بدماهم وكانوا قديما من مناسيايم القتل
وكا رأينا آنفا في وصف البقرة الوحشية التي شبه بها ليبد بن ربيعة العامري ناقته .
وكا في قول زهير يصف أحد مشاهد الصيد ؛ فيلم بدقائق الحدث حتى يحملنا
نمايشه ونحس بإحساسه ، ونلطف نلفه .

إذا ما غدوننا ننتفى الصيد مرة متى نره فإننا لا نخافه (٣)
فبيننا نبقى الصيد حاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله
وتال : شياه راتمسات نفرة بمستأسد القرمان حو مسايه (٤)
ثلاث كأقواس السراء ومسجل قد أخضر من أس العمير جحافله (٥)

(١) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) عزل - بضم فسكون - جمع أعزل : من لا سلاح له ، وفزعوا : نهضوا للاغاثه .

(٣) نخافه : نمكر به وصيده دون أن يرانا .

(٤) المستأسد : الدب الذي طال ، والقرمان : مجارى للماء ، والحر : البسات

الضارب إلى السواد

(٥) السراء : سير تؤخذ منه القسي ، شبهها بها في الضمور ، والمسجل : حمار

الوحش ، والعمير : نبت ، ولسه : أحده بمقدم الفم ، والجحافل : من الجير والإبل
والحيل بمرة الشفاء

وعلى هذا سار شعراء الحضر في معانيهم ، كما نجد أمراً القيس في وصف فرسه وهو يجري :

وقد افتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيسكل^(١)
مكر مفر ، مقبل مدير معاً كجلود صخر حطه السيل من عل^(٢)
كيت يل البسد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل^(٣)

وكما نجد الأعشى في تصوير جيش عمرو بن الحارث المساني ، حيث يصور جماعات الطير من اللسور والعقبان تتبع الجيش تنتظر رادها من أشلاء القتلى :

إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم مصائب طير تهتدي بمصائب^(٤)
يصاحبهم حتى يشرن مفارهم من الصاريات بالدماء الدوارب^(٥)
تراهن حلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرائب^(٦)

ومن هذا للانطلاق في المعاني حرصوا في أوصافهم على أن لا يخرج عن نطاق الموصوف المحسوس ، وحرصوا في مدائحهم على أن لا يخرج عن المحمودة التي دعت الشاعر إلى المدح شكراً عليها وعرفاناً بها دون مبالغة أو مغالاة ، وأقاموا مراثيهم على تعداد مناقب الميت ، وبكائه والنعيميس على الثأر له إن كان قتيلاً ، دون أن يعمقوا في أسرار الموت أو يتجاوزوا سطح الأحداث ، بل إن من تناول الموت في حديثه لم

(١) الوكنات جمع وكنة - بضم الواو - مواقع الطير ، المنجرد : الماص في السير ، والأوابد جمع أبدة : الوحوش ، والهيك : الفرس العظيم الجرم .

(٢) مكر - مفعل - اسم آلة من كر إذا عطف ، ومفر : اسم آلة من فر ، جملة كانه آلة السكر والفر ، والجلود : الحجر العظيم الصلب ، وحطه : ألقاه ، من عل : من فوق .

(٣) الكيت : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ، والحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، والصفواء والصفوان : الحجر الصلب .

(٤) المصائب : الجماعات .

(٥) الصاريات : التمودات ، والدوارب : المدرية .

(٦) خزر الميون - بضم الخاء - جمع أخزر : القى ينظر بؤخر عينه ، والمرائب : ثياب سوداء .

يتناولوه من الوجهة العقلية الخفية ، إنما تناوله من الوجهة البارزة المكشونة ، فاللوت ضرورى محتوم لا يمنع منه مانع ، ولا يصح من عاقل أن يفر منه ، هل ما رأينا في عيانية أبى ذؤيب . وتحذثوا في غزلهم عن جبال المرأة ، وما أقاموا من علاقات في صراحة تكاد في بعضها تخدش الحياء ، بيد أن بعضهم قد سار بالفزل مسارا قدسيا فيه شهء من التعمق والأناة على ما رأينا في نونية عنتره .

هذا ويظن كثير من الدارسين أن معانى الشعر الجاهلى - بدوية وحضرية - ضعيفة التماسك ، راحة الروابط ، فهي معان مفككة ، فائة على الاستطراد ، بحيث تستطيع أن تقدم فيها وتؤخر ، وتحذف وتضيف ، دون أن تتأثر بذلك القصيدة ، فهي ليست - كما يتطلبه النقاد المحدثون - بناء عضويا تاما ، بقدر ما هي مجموعة مشاهد أو مواقف لا يشد بعضها إلى بعض رباط وثيق ، وإن كانت لضمها وحدة عامة ، وإطار - محدود ؛ فالقصيدة الجاهلية - على ما يرون - خالية من الوحدة الفنية ؛ فليس فيها وحدة بناء ولا وحدة غرض

ويمل هؤلاء ما يرونه بعدم معرفة العرب الجاهليين بالترتيب المطلق أو النظر الفلسفى ، مما اضطرهم إلى رؤية المشاهد مقطوع بعضها عن بعض ، ولا صلة ولا نظام .

وفي الحق أن هذا رأى مجاف للصواب ، بعيد عن الواقع ، دمع إليه التعمجل في الحكم ، أو التسليم بما قرره بعض المستشرقين دون أناة وترو ، ومماودة نظر فيما بين أيدينا من شعر هؤلاء . ولو أننا قبل أن ننظر في الشعر الجاهلى تعرفنا على دقائق الحياة البدوية - على ما في ذلك من عسر - ونقلنا أنفسنا لنشاركهم معيشتهم ونجاورهم في بيئتهم بكل أبعادها لما وجدنا في شعرهم هذا التفكير المروع ؛ فالمعيب فينا نحن ؛ لأننا ندرس شعر قوم لا نعلم من أحوال معيشتهم ، ومن ظروف بيئتهم إلا التذرد اليسير ، وكيف نمنصب أنفسنا قضاة يتضون للقضاء المبرم في شعرهم .

على الدارس الصادق النية أن يتوقف عند كل إشارة ترد على ألسنتهم ويبحث عن مدى أثر ذلك في علائقهم الاجتماعية والشخصية ، وأن لا يمر من الكلام على تلك الأما كنهن التى يتحدثون عنها ويقفون عليها ، بل لابد لنا من تعرف على تلك الأما كن

وذكرياتهم فيها ، كما يجب على الدارس أن يعنى بالتعرف على حال الشاعر النفسية قبل أن يصدر حكمه على ما يقول

إننا إذا ما نجحنا في تحقيق ذلك قبل مواجهة شعرهم ضمننا لأنفسنا النجاح في أن نصدر في أحكامنا من فوق أرض صلبة لا تهز من تحت أرجلنا . وهذا ما سوف نحاوله مع بعض شعرائهم إن شاء الله تعالى .

وصفوة القول في هذا أن ما صدر على الشعر الجاهلي - في هذا الميدان - من أحكام لا يقوم على الدراسة العلمية الموضوعية الخالية من الزيف ، بل هي أحكام لا تخلو من التعجى والارتجال والتسرع .

* * *

أما الخيال فيقصد به الصورة التي يرى الشاعر فيها معانيه بخياله بعد تأثره بها ، أو هي الترجمة العاطفية للحقائق العقلية التي يتكون منها الموضوع .

فإذا كانت المعاني خاضعة لثقافة الشاعر ومعارفه العقلية الخاصة ، فإن الأخيـلة خاضعة لمعاطفه وتأثراته وانفعالاته الخاصة كذلك ، فليست واحدة منهما من المشتركات العامة ، وإنما كل منهما يختلف من شاعر لآخر وفقا لما خضع له عقله وحسه من مؤثرات بحل أو تدق .

والناظر في الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - يلاحظ أنه حافل بألوان الخيال - سواء في ذلك الخيال الابتكاري والخيال التفسيري^(١) - غير أنه لا يخرج عن حدود البيئة الجاهلية ، يمثل ذلك قول عبد العزى الطائي موضعاً حرصهم على الثأر :

(١) الخيال الابتكاري هو الخيال الذي يقوم على الابتكار ، حيث يعتمد فيه صاحبه على تكوين مجموعة من العناصر المختزنة في القهن ؛ ويلعبها من شتات ليصنع منها صورة جديدة تكشف عن إحساس داخلي تجاه موقف أو مشهد . أما الذي يقوم على التفسير والتصوير فهو ما يقدمه الأديب من إضافة الصورة التي يراها ويعبر عنها إلى صورة أخرى أقرب منها إلى إدراك المتلقين ، وأوضح في تصوراتهم ، ويعتمد في هذا النوع من الخيال على فنون البيان من تشبيه واستعارة وكناية إلى غير ذلك . انظر المؤلف كتاب في الأدب العربي المعاصر القسم الثاني ص ٧٥

إذا ما طلبنا قبلنا عند مشرأينا حلاب الدر أو نشرب الدما^(١)
فالشاعر يرى الحرص على الثأر في صورة رفض الدية بالنة ما بلغت ؛ لأن قبولها
في الدل والهوان ، ولذا جعل رفضها إباء وليس مجرد رفض .

وعلى هذا النحو يواجهنا تأبط شرا ، حيث يبرز الحرص على الثأر في صورة الغريزة
طورية التي لا يهدأ له بال ، ولا يفض له جفن حتى ينال ثأره ، وذلك في قوله :
قليل غرار النوم أكبر همه دم الثأر أو يلقي كيا مسقما
فطالب الثأر ولقاء البطل الذي سفت وجهه المواجه أكبر ما يهتم به وينصب له .
والشاعر يربنا هذا الاهتمام والنصب الدائمين في قلة النوم التي يماثي منها .

كما يمثل قول امرئ القيس في وصف الدهر :

أزال من المصانع ذا نواس وقد ملك الحرونة والزمالا^(٢)
وأشب في الخالب ذا حليل وللزراد قد نصب الجبالا^(٣)
ونجم كسندة الأخيار طرا يمهرو واسطى حجرا مزالا

ومثل قول الشفري في وصف القديس الجائع :

فهدا طاويا يمارض الريح هابيا يخوت بأذنان الشباب ويعسل^(٤)
فلما لواء القوت من حيث أمه دعا فأحاطه نظائر نحلى^(٥)

(١) التبل - بفتح مسكون - الثأر ، وحلاب الدر : الإبل التي تحلب ويشرب لبنها .
- حماسة البحتري ص ٢٨ طبع بيروت ، والفصليات القصيدة رقم ٤٢ ، والأصمعيات
بيدة رقم ٤٢ .

(٢) المصانع : الحصون والقصور ، وذو نواس : ملك اليمن ، والحزونة : الموضع
ظلة ، يريد ملك السهل والجبل

(٣) أنشب في الخالب : يعنى أنشب الدهر محالبه في ملك من ملوك حمير يقال له
أصميج . ويقال للسكبد الحليل .

(٤) يمارض الريح : يستقبلها ، وهابيا : مسرعا ، يخوت : ينفذ ، والأذنان -
أرواف ، والعسل : المشى السريع .

(٥) لواء : مطه وامتنع عليه ، أمه : قصده ، نحل جمع ناخل : الهزيل .

مهلهلة عيب الوجوه كأنها قداح بسكنى ياسر تتقلقل^(١)

وكذلك الشأن في الخيال التفسيري ، فهو مستمد من البيئة الجاهلية حيث يخلق الشاعر فيتزعج من البادية أو الحاضرة الجاهلية الشكل أو الهيئة القريبة التي تبرز رؤيته الخاصة في صورة تشبيه أو استعارة أو كناية ، وهو في ذلك دقيق ، يجمع الاطراف من هنا وهناك فتترامى جليلة واضحة ، كما تتميز بالطرافة والروعة على الرغم من تكرارها وتشابهها ليس في شعر الشاعر حسب ، بل في شعره وشعر غيره ، ولقد بلغت بهم دقة التصوير هذه حدا جعل من الميسور علينا أن نتعرف على مواطنهم بما فيها من مضاب وسهول وأودية ، وبما تحتويه من حيوانات متوحشة ومستأنسة ، ونتعرف على مألوفاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، وما كان يدور فوق أرضهم ، كل ذلك نراه ونتعرف عليه إذا ما نظرنا في أخيلتهم التفسيرية ، مثل قول الأعشى في مدح الحاق :

لثشب لقرورين يصطليانها وبات على القار الندى والمخلق

مثل قول علباء بن أرقم في وصف المرأة :

يوما توافينا بوجهه مقسم كأن طيبة تمطو إلى ناصر السلم^(٢)

ومثل قول المنخل اليشكري :

ولثمنـا فتنتت كتنتس الظوى البهر

ومثل قول المهامل في حديثه عن طول الليل ، فيرى النجم في بطشه يشبه الفصال الصغيرة التي تجول في المطر فتخشى الرلق فلا تسرع :

كأن للنجم إذ أولى سعيها نصال إجلان في يوم مطير

أما لكواكب فيراها في ثباتها وعدم تحركها كأنها فوق حدثات النتائج عطفت على وليدها فهي لا تتركه :

(١) مهلهلة : قليلة اللحم ، القداح : أداة القمار ، والياسر : المقامر ، وتتقلقل : تتحرك وتضطرب .

(٢) المقسم : الجميل المتناسق ، يقاله قسم الوجه حسن ، تمطو : تقناؤ ، والسلم :

شجر بدوى .

كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربيع كبير^(١)

وامرؤ القيس يحدثنا عن طول الليل فيراه بعيرا ثقيلا يتمطى ، ويرى نجومه
مشدودة إلى الجبل بحبل متين فلا تتحرك :

مقات له لما تمطى بصلابه وأردف أعجازا وناء بكل كل^(٢)

فيالك من ليسل كأن نجومه بكل مزار القتل شدت يذبيل^(٣)

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كثنان إلى صم جندل^(٤)

ولعل ارتباطهم يبينهم الارتباط الوثيق في معانيهم وأخيلتهم هو القدي فرض عليهم
المحدودية والحسية في المعاني والأخيلة

يبد أنهم أكسروا تلك الحواجز وتجاوزوها بما ولدوا من المعاني وما ابتكروا
من الأخيلة .

كما أنهم لم يستسلموا الحسية المعاني والأخيلة حتى لا تتحول إلى تماثيل حامدة لشيع
الضيق وللذل ، بل أمدوها بأسباب الحياة بما حرصوا عليه فيها من دقة التصوير والاستقصية
فأصبحت الصور مسرحا لحركة واقعية تتراءى فيها تحركات الكائنات المصاحبة لهم في
عصرهم ، فأنت أمامها كأنك تمشي بينهم ترى ما كانوا يرون وتعامل كما كانوا
يتعاملون معها ، على نحو ما ترى في مطلع معلقة زهير بن أبي سلمى التي يتحدث فيها
عن مسارل حبيته المسكية بأمر أوفى :

أمن أم أوفى دمنة لم نكلم بحومانة الدراج فالتثل^(٥)

(١) عوذ جمع عأدة : الناقة حديثه النتاج ، والربيع بضم ففتح : الفصيل ينتج في
الربيع ، وهو أول النتاج

(٢) تمطى : تمدد ، والأرداف : الاتباع ، والأعجاز : المآخير ، وناء : بعد ،
للكل كل : الصدر .

(٣) معار القتل : محكم القتل ، بديل : اسم جبل ببجد .

(٤) الأمراس : جمع مرساة : العجبان ، والمصام : موضع الوقوف ، والجندل :
الصخر ، والصم جمع أصم : الصلب .

(٥) الدمنة : ما أسود من آثار الدار ، وحومانة للدراج ، والتثل : موضعان .

ودار لها بالرقعة بين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم (١)
بها المين والآرام يشين حلقة وأطلاؤها ينهض من كل مجثم (٢)

رائظر فيما قدمنا في فن الوصف من معلقة امرئ القيس يصف البرق والمطر من معلقة لبدي يصف الديار المشية ، ويصف البقرة الوحشية وما قدمنا من شعر زهير يصف مشهد الصيد ، إلى غير ذلك تجد أمامك للتشخيص الحي المتحرك الماطق النابض القلب

وصفة القول أن الشعر الجاهلي - بدوية وحضرية - في معانيه وأحيلته وتيق الارتباط بالبيئة الجاهلية - بادية كانت أو حاضرة - ؛ فهي البسم الذي استمد منه الشعراء معانيهم ، ومن أحداثها نسجوا أحيانهم ، وكانت صدى صادقا للحياة الجاهلية وما يتردد في أجوائها ومن ثم تميز شعرهم عن شعر غيرهم ، بفاض بالحركة الواسعة التي لا تكاد تتوقف منذ مطلع القصيدة حتى منتهى سواد كان الشاعر فيها موضوعا أردانيا .

الخصائص المضمونية

المقصود بالمضمون أو المحتوى الشعري هو تلك الذنون الشعرية التي يتناولها الشاعر وما يتضمنه كل فن من أحداث ومواقف ، فأنت حين تنظر في مضمون الشعر الجاهلي ترى الحياة البدوية الجاهلية في الشعر البدوي ، كما ترى ؟ الحياة الحضرية بمختلف ألوانها في الشعر الحضري بكل شخصياتها وأحداثها ، فلا يكاد الشاعر يتناول موضوعا خارجا عن بيئته ؛ فصدقهم ليس في التعبير عن الموقف حسب ، بل هو كذلك شامل

(١) الرقعتان : مرتان إحداها قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة ، والمراجع جمع مرجوع من قولهم رجعه رجعا ، أراد الوشم المجدد ، ونواشر المعصم هروقه ، الواحد ناشر ، والمعصم موضع السوار من اليد .

(٢) المين أى البقر المين ؛ واسعات الميون ، والآرام جمع ريم : الظى الأبيض حالم البياض ، وخلقة : يخاف بعضها بعضا ، إذا مصى قطع منها حاء قطيع آخر ، والأطلاء جمع الطلاء : وهو ولد الظلية والبقرة الوحشية ، والجثوم للسان والطير والوحوش بمنزلة البروك للبعير .

للصدق في تناول الموضوعات ، حتى ما هو قائم على الخيال من تلك الموضوعات لن تجده طارئا على يئته ، إنما هو موجود بالفعل فيها ، سواء كان وجود الموضوع ملاسا للشاعر أو لغيره ، فهو صفات البدو عربية بدوية جاهلية ، والمرأة التي يتناولونها في غزلهم عربية بدوية جاهلية ؛ والخلائق التي يتمدحون أو يفخرون بها خلائق ونموت عربية بدوية جاهلية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم وتجاربهم التي يضمنونها حكمهم عربية بدوية جاهلية كذلك ، فأنت مع الشعر البدوي إذن منغمور في الحياة البدوية الجاهلية تماما .

وكذلك الحال مع شعر الحاضرة لا يشتد الشاعر فيه على يئته ، وإنما هو في كل ما يتناول خاضع لقيمه وأخلاقها وأعرافها ، من ثم لم يكن غريبا أن نجد الشعر العربي الجاهلي يجمع بين التناقضات في مضامينه أو ما يشبه التناقضات ، فبينما نجد الشاعر البدوي يتمدح بالمفة والكرم والشجاعة في مواجهة الأعداء نجد الشاعر الحضري الذي عاش العصر بحسه وحسه يتمدح بالجرأة على التسلل إلى المرأة في فراش زوجها ، واستهلاك المار في الخمر والقمار والجري وراء المتع الجسدية ، أما الشاعر الحضري الذي عاش الحضرة العسكرية والقصيدية في ظلال الإسلام ، فإنه يتجه بمنخره اتجاه مخالف اتجاه شاعر البادية الخالصة واتجاه شاعر العصر المادي ؛ إذ يذوب شخصه في أمته وقومه ، فهو لا يميز بمسلك شخصي إلا أن يكون هو المسلك الجماعي ، ولا يفخر إلا بما يتلاءم مع قيم الإسلام ومبادئه كما رأينا في شعر العباس بن مرداس ، وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم .



وهم في هذا على خلاف غيرهم من الشعراء ، إذ نجد كثيرا من أشعار البيئات الأخرى غير العربية توغل في الأحداث الخيالية المفرطة التي لا واقع لها إلا في الخيال والتصور ، على نحو ما نرى في أساطير اليونانيين ؛ فالأحداث التي ضمنها اليونانيون أشعارهم أحداث أسطورية غريبة تمثل مرحلة من مراحل التطوُّل العقائدي ؛ إذ هم يتحركون من منطلق يخالف عن مطلق الشعراء العرب الجاهليين ، بينما ينطلق اليونانيون من بيئة ينحصر

إني امرؤ سمع الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواما
البطولة التي يعتز بها عنزة هنا هي تمكنه من نفسه ، وسيطرته عليها ، وكبحه
جأحها ، فلا ينال من أنقى شيئاً بدون حق مشروع . هذه البطولة لاشك تختلف عن
البطولة التي يفتخر بها عروة بن الورد ، الذي يؤمن بأنه خالق لرعاية الضمائم والمهلك
من قبيلته ، ويعتقد - لذلك - بأن البطولة هي قيامه على هذا الذي خالق له ، وليس
مقبولاً لديه أن تهلك عشيرتنا (معتم وريد) وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من
أجلهما ، فذلك عار أى عار ؛ إذن البطولة أن يقتحم مع رفاته من الصماليك حمى
بعض القبائل ليحصلوا منها على ما يشاءون من الغنائم ليقدموا للمحتاجين ما يشبعهم ،
وذلك في قوله :

أهلك معتم وريد ولم أقم	على نذب يوما ولى نفس مخطر ^(١)
ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا	كواسع في أخرى الوام الممر ^(٢)
نطاعن عنها أول القوم بالقما	وبيض خفاف وقمن مشهر ^(٣)
ويوما على غارات نجد وأهله	ويوما بأرض ذات شت وعرع ^(٤)
يرح على الليل أضياف ماجد	كريم ومالى سارحا مال مقتر ^(٥)

وهذه وتلك تختلف عن بطولة الشنفرى التي يعتز بها في قوله :

(١) معتم - بضم مسكون مفتوح - وريد : بطنان من عبس . ونذب - بفتح النون
والهال - خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلاء وتسكسها . والوام : الإبل السائمة . وأحرى :
آحر ، والمنهر : الذعور .

(٣) البيض : السيوف ، وفي البيت على هذه الرواية إقواء ، ورواية الديوان
(ذات لون مشهر) ، وعليها فلا أقواء .

(٤) الشت - بفتح الشين - والعرع - بفتح مسكون - من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد ، ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله ، وسارحا :
سائما في المرعى ، ومقتر : فقير مقل

وليلة نحس يصطلى القوس رها واقطمة اللاتي بها يمل (١)
دعست على غطش وبغش ومحبتي سمار وارربز ووحروأفكل (٢)
فأيت نسوانا وأيتت إلهة وعدت كما أدأت والليل اليل (٣)
وأصبح عى بالنميصاء جالسا مريقان ؛ مشول وآخر يسأل (٤)

فالبطولة هنا في المقدرة على تجشم الصعاب في سبيل الفتك والقتل والمدوان ، ولا شك في أن كلا منم ضمن شعره ما ضمنته ناسه بتأثير بيئته الخاصة داخل إطار البيئته البدوية ، فأصبح خاصة من خواص شعره التي يتميز بها .

ولا ريب في أن البطولة البدوية تختلف تماما عن بطولة الحضارة المادية ، والتي يمثلها امرؤ القيس في قوله :

ريضة خسدر لايرام خباؤها تختمت من لحو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا وأهوال معشر على حراس لو يشدون مقنلى
حقت وقد أضت لنوم ثيابها لدى السر لا لبسة المتفضل
فقال . يبين الله مالك حيلة وما إن أرى عنك العاية تنجلى

وكذلك انشأن على البطاق العام ، تحدث البيئته العربية في الشاعر العربي ما يوجهه إلى مضامين خاصة يتميز بها الشعر العربي عن غيره من الشعر ، والحديث عن النباق والظباء ، وحسر الوحش ، والخيل ، والدئاب ، والمخيل ، والرمال ، والرياح ، والسكواكب ، والأمطار ، والسيوف ، والرماح ، والبال . إلى غير ذلك من أبر خواص الشعر البدوى .

-
- (١) النحس : الجهد والضر والبرد ، يصطلى القوس - بها . يوقدها ليتدفئ بها ، والأقطع - بضم الطاء - جمع قطع بكسر القاف : نصل السهم ، يتبلل - يتخذ منها النيل .
(٢) دعست : مشيت ، والنطش : الظلمة ، والبغش : المطر الخفيف ، السمار : شدة الجوع ، الارربز : الرد الشديد : الوجز . الخوف ، والأفكل : الوعدة والإرتعاش ،
(٣) أيم المرأة أوقدها زوجها حماها أيا ، والأليل : شديد الظلمة .
(٤) النميصاء : مكان بنجده .

الخصائص الاسلوبية :

الأسلوب هو الصياغة اللفظية التي تُشف عن الماني والأخيلة التي يعبر بها الشاعر عن المضمون ، وهو - كذلك - القالب الفني الذي يصب فيه الشاعر معانيه وأفكاره ، مستجيبا لتكوينه الفني وجهته إليه بيئته . والشاعر الصادق تلصق من بيئته شفثية الألفاظ المناسبة لشموره وأخيلته ومعانيه في الشكل الذي يتلاءم مع البيئة التي نشأ فيها طبيعيا واجتماعيا ودينا ؛ ولذلك كانت أساليب الشعر مرآة تمكس مضمونه وأخيلته ، فهما متلازمان ، ترى في الألفاظ ما يحس به الشاعر ، وتعرف من أحاسيس الشاعر على طبيعة الألفاظ .

١ - والنظر في شعر البدو الجاهليين يجد ألفاظه جزلة قوية - على وجه العموم - بيد أنها تتردد بين الوعورة والحشونة وبين السلاسة والمذوبة بما يتلاءم مع المحتوى الشعري ، والجو النفسي الذي يفرضه الموضوع على الشاعر .

مع الجزالة والقوة ترى الحشونة في ألفاظ الشعري ، حين يعزى نفسه عن اعتزال الناس إياه بصاحبة قلبه الشجاع ، وسيفه الصارم وقوسه الحيدة للصنع ، وذلك في قوله :

وإني كفاني فقد من ليس حاريا	بحسنى ، ولائى قربه متمل (١)
ثلاثة أصحاب . - وؤاد مشيع	وأبيض إصايت ، وصفراء عيطل (٢)
هتوف من الماس المتون يزنيها	رصائع بيطلت إليها وعمل (٣)
إذا رل عنها السهم حنت كأنها	مرراة على برن وقه-ول (٤)

وحين يصور صراع الحياة الذي يحوضه هو وأصحابه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، يدكر أنهم يقطعون النار في النهار ، فإذا جنهم الليل وجدتهم

(١) التملل : التلهى .

(٢) مشيع - بصم الأول وفتح ما قبل الآخر - شجاع ، والأبيض : السيف ، والإصايت - بكسر الهمزة - المصقول ، والصفراء القوس ، والعيطل - بفتح فسكون ففتح - الطويلة العنق . (٣) الهتوف : ذات الصوت المنغم ، والمتون : الطهور ، والرصائع جمع - صيعة : ما يرصع به ويحلى ، ونيطت به : علفت ، والحمل - بكسر الميم وسكون الحاء - ما يملق به القوس على للسكتف .

(٤) رل السهم : خرج ، والمرراة : كثيرة الررايا والمصائب .

في مغارة أخرى راكبين ظهور المهالك والمطرب ، دون رفيق - في الغالب - سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع ، وهم - لذلك - مغزعون دائماً ، حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينام قلبهم ، بل ظل يكاؤهم ويرعاهم حيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا عراراً ، وهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ ؛ فهم دائماً مستوحشون حتى أصبحوا يؤثرون الوحشة لما يرون فيها من الأنس ؛ إذ لا يأنسون إلا بالقمار التي تعودوا عليها فعرفوا دروبها ومسالكها معرفة تعاملهم لا يفلون قصدهم كما لا تصل الشمس قصدها (١) :

يطـلـ بـوءاة وئـى بـيـرها	جحيشا ، ويرورى ظهور المهالك (٢)
وبـيق وهد الريح من حيث يلتـحـى	بـمـخرق من شـده المتـدارك (٣)
إذا حاط عـينه كرى النوم لم يرل	له كالىء من قلب شـيحان ماتك (٤)
ويجـمـل عـينه ربيضة قلبـه	إلى سلة من حـد أخـصر ماتك (٥)
إذا هـمـره فى عظم قرن تـهـلت	نواجـذ أهـواه المسايا الضواحك (٦)
رد، الوحشة الأنس الانيس ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٧)

كما ترى الحشونة في الفاظ رهير بن أبي سلمى حين يصف البقرة الوحشية التي يشبه به ناقته في سرعتها في قوله :

(١) أمالى القالى ج ٢ ص ١٣٨

- (٢) يظل : يندو ، والمومة : الغلاة ، جحيشا : منفردا ، يرورى : يركب .
 (٣) وهد الريح : أولها ، يلتحى : يقصد ، والمخرق : السريع ، والشد : العدو ، والمتدارك : المتلاحق .
 (٤) حاط عينه كرى النوم : نام ، والكالى : الرقيب ، والشيحان : الجادى الأمر .
 (٥) الربيضة : الرقيب ، والسلة - بفتح السين - الواحدة من سل السيف ، والأخضر السيف ، والباتك : الداطع .
 (٦) القرن - بكسر القاف - الكف والنظير ، تهلت : نلأت وأشرقت .
 (٧) أم النجوم : يقصد الشمس .

كفخساء سفعاء الملائم حرة مسافرة مزعودة أم فرقة-د(١)
 غدت بسلاح مثله يتقى به وبؤمن جأش الخائف التوحد(٢)
 وسامعتين تعرف العتق فيهما إلى جذر مدلول السكوب محدد(٣)
 وناظرتين تطهران قداها كأنهما مكحولتان بإئد(٤)
 طباهها ضحاء أو حلاء خالفت إليه السباع في كناس ومرقد(٥)

إلى آخر الأبيات التي ذكرناها في بحث رهير .

ومع الجزالة والقوة ترى السلاسة والمذوبة في نحو قول المهمل بن ربيعة في رثاء أخية كليب :

دعوتك يا كليب فلم تجبني وكيف يجيبني البلد القفار
 أجبهني يا كليب خلاك ذم لقد لحمت بغارسها نزار
 سقاك الفيث إنك كنت عينا ويسرا حين يلتبس اليسار

وتراها في قول الحنساء ترثي صخرها :

قذى بسينيك أم بالمين عوار أم ذرفت إذخات من أهلها الدار ؟
 كأن عبي لقد كراه إذا حطرت فيص يسيل على الحدين مدرار

(١) الحنساء : بقرة الوحش ، سميت بذلك لتأخر أبقها ، سفعاء الملائم ، السفع : سواد في حمرة ، والملائم : الخدان ، ومزودة : مذعورة ، ومسافرة : ترحل من موضع إلى موضع ، والفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد بالسلاح قريبها ، والجأش : الصدر ، والمتوحد ، الوحيد المفرد .

(٣) السامعتان : الأذنان ، والعتق : الإصالة ، ومعرفة العتق فيهما كناية عن أن أذنيها محددتان متصبتان . إلى جذر : مع أصل ، فإلى بمعنى مع . ومدلوك : أملس ، السكوب جمع كعب : مابين العقدتين في القرن ، يريد أن قرنيها أملسان محددا الرأس .

(٤) الناظرتان : العينان تطهران قداها : ترميان به وتنفيانه . والإئد : كحل أسود

(٥) طباهها : دعاها ، ضحاء - بفتح الضاد والحاء - رعى الضحى ، وخلاء : حلو

المسكان خالفت إليه : السباع : اختلفت إلى ولد البقرة : والكاس - بكسر الكاف -

بيت في الشجر تستتر به البقرة أو تستر أولادها من الحر والبرد .

فالمين تبكي على صخر وحق لها ودونه من جديد الأرض أستاذ

وتراها في قول زهير يمدح هرم بن سنان والهارث بن عوف :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بهد ما تهاونا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلنا : إن ندرك السمع واسعا بمال ومعروف من القول سلم

كما نراها في قول عنتره يفخر بإقدامه وشجاعته

بكرت نخوفني الختوف كأنني أصبحت من غرض الختوف بمعرل
فأجبتها إن النيسة منهل لابد أن أسقى بكأس المنهل

فجزالة الألفاظ وقوتها هي السمة العامة في الشعر البدوي ، إذ يندر أن نجد في شعر بدوي لهظا رقيقا ، وإذا وجد كان — في الغالب — علامة السجل والتزييف ، أما خشونة الألفاظ على مسمع المتلقي فهي سمة تلازم بعض الشعر البدوي ، وينأى عنها البعض الآخر ، ويلاحظ أن الخشونة تغلب على الألفاظ حين يفخر الشاعر أو يصف ، كما تغلب السلاسة والمدوية حين يتنزل أو يرى أو يمدح ، فهي إذن ليست من أمارات البداوة الخالصة ، بيد أن الجزالة والقوة هي الأمانة الناطقة في البدوي إذ هي الملازمة لاستدعاءات البادية بما تحويه من أسباب الحياة .

* * *

أما الشعر الحضري فالألفاظ تختلف باختلاف منشأ الشاعر ، ولون الحضارة التي تأثر بها ، فبينما يحتفظ الشاعر البدوي المتحضر لألفاظه بالجزالة والقوة ، يميل الشاعر الحضري الذي نشأ في الحضر إلى الرقة والليونة فيها إلى الحد الذي يشكك المتأخرين في صحة ما نسب إليه من الشعر ، كما حدث لعدي بن زيد العبادي ، الذي قال فيه ابن سلام : « عدي بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويراكن الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد (١) » .

(١) طبقات خول الشعراء ج ١ ص ١٤٠ بتحقيق محمود شاكر ، ومعنى يراكن

الريف : يلامه ويطلق الإقامة فيه .

ويلاحظ أن شعر البدوى المنحضر مع قيامه - في العموم - على الألفاظ الجزلة ،
اختلف في بعض حالاته ، ومن حيث الوعورة والحشونة ، فشعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة المادية في الحيرة وغيرها من عواصم الإمارات العربية في الجاهلية ترددت
ألفاظ بين الوعورة والسهولة حسبما يستدعيه المقام ، أما شعر البدو الذين تأثروا
بالحضارة الإسلامية فإن ألفاظه طالت وسطا بين الوعورة والسهولة ، فلم تخشن لدرجة
الصعوبة على المناطق والسماع ، ولم تأن لدرجة الانحدار والمهبوط عن مستوى الفصاحة ،
لقد تأثر الشعراء في ظل الإسلام بالألفاظ القرآنية ، وبالأحلاق الإسلامية ، فمالوا إلى
القرب من السامعين ، والتأسق بين ما يلفظون وما يتناولون من فنون وأصناف .

٢ - والنظر في الشعر البدوى يلاحظ أن العبارات فيه تؤدي وظائفها الفنية في
وضوح واستواء ، لا غوص فيه ، ولا اضطراب ، ولا إعراب ، فالشاعر يتمكن من
لغته ، مدرك مدلولاتها ، مستوعب صيغها ، معاش أطوارها ، ليس غريبا عليها
ولا متطاعا طارتا ، يقعك بأن ما يقدم صنيع عفو الخاطر ، دون معاناة أوكد ،
وإن كان قد تردد النظر فيه مرارا وراجعه ، حتى صحت له صيغته وعباراته بالشكل الذي
أنسق مع مزاجه الفطري ، واستمداده البدوى ، فالنسيج محكم ، والبناء متكامل ،
والمبارات تامة ، والألفاظ بجودة مستولة .

كما يلاحظ أن صورهم الفنية تعتمد - في الغالب - على الخيال التفسيري أو المماثلة
البيديمية ، والإيماءة الكنائية ، وأنهم في هذا وذلك دائرون داخل الإطار البدوى
لا يشدون عنه ، ولا يتناولون ، عليه ، بيد أن دورانهم هذا لم يكن دورانا عفويا دون
قصد وتعمد ، بل كانوا مدفوعين إليه لتحقيق التجويد ، وإحراز التفوق

ونظرة إلى حكاية عترة عن جواده في المعركة :

فازور من وقع القسا بابـهـانه وشكا إلى بهـبـيرة ونجمم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمى

وإلى قوله يصعب القباب في الروع :

وخلا القباب بها فليس يبارح عـردا كفعل الشارب المرنم
(٢١ - الأدب العربي)

هزجا بحمك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجذم^(١)
ترينا اتجاه الخيال العتري واعتاده في إبراره على التفسير والمقارنة ، حيث أقامه
على الاستعارة والتشبيه .

ونظرة إلى قول عبد الله بن سلامة الغامدى الأزدي :

ألا صرمت حبالنا جنوب وفرعنا ومال بنا قضيب^(٢)

ترينا كيف جمع فيه بين الاستعارة في (صرمت حبالنا) ، والكناية في (ومال
بنا قضيب) فإنه يكفى بذلك عن التفرق ، وابتعاد كل عن الآخر .

ونظرة إلى قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطلقت رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت

ترينا - إلى جوار الاستعارة - التورية الذى يمر بطريق الإيحاء ، والاختصار ،
وذلك في قوله (ولكن الرماح أجرت) ، أى شقت لسانى . يعنى بذلك أن رماح
قومه أسكنته ومنعته الكلام .

وليس يبعد عنا شعر زهير ، والحارث بن حلزة في معلقتهما .

وإلى جوار هذه الصور التى تعتمد على الخيال التفسيري ، تجدد الصور التى تعتمد
على الخيال الابتكاري ، ويلاحظ أن هذا اللون من الصور يغلب في شعر الفرسان
الصعاليك وغير الصعاليك ، ولعل ذلك راجع إلى اشتغالهم عن المقارنة ، والبحث عن
المثيل المشابه لتقديع ، فلم يكن لهم بد من الاعتماد على عرض الحدث بتفاصيله القصصية
فتحقق لهم ذلك النوع من التصوير .

(١) هزجا : مصوتا ، والزناد : حجران يضرب أحدهما بالآخر فتخرج منه النار
والأجذم : مقطوع اليدين .

(٢) المفضليات ج ١ ص ١٠٠ ، صرمت : قطعت ، والحبال : جمع حبل ، وهو
جمع لم يرد إلا نادرا ، ويقصد بالحبال المودة ، وجنوب : اسم امرأة ، وفرعنا :
علونا في البلاد ، وقضيب : واد بنجد ، مال بها : سلسكته .

ونظرة في شعر عنتره والشنفرى وعروة بن الورد وغيرهم من الفرسان الأبطال ،
تقفنا على هذا الملحظ .

* * *

فإذا وجهنا النظر إلى شعر الحضر لم نجد اختلافا كبيرا بين العبارات الفنية ، والصور
البيانية عما وجدنا في الشعر البدوي ، اللهم إلا في الحدود التي تفرضها البيئة على الشاعر
الصادق الذي يمتد في عباراته وصوره على ما يحيط به في بيئته .

ولا ريب في أن ما يمجده الشاعر الذي يقيم في جوار المناذرة أو الفساسة من مادة
صوره غير ما يمجده الشاعر الذي يقيم في جوار الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ظلال
القرآن ومدنية الإسلام من ذلك

ومن ثم لم يكن غريبا أن تسمع صوت الأعشى يستعير من كنائس المسيحيين
صورة المهرب في قوله .

كسدية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر
وأن نجد المرقش الأكبر يشبه صياح البوم بصوت الوافيس في أوائل الليل في قوله:
وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما صربت بمد الهدو والنواقيس (١)
ولا كان غريبا أن يمرض النابتة الديباني في مدح الفساسة لبمض أعيادهم ، كعبد
الشعانيين (السباب) ، في قوله :

رقاق المعال طيب حجرانهم يحيون بالريحان يوم السباب
كما لم يكن غريبا أن يسمع صوت كعب بن زهير في اعتذاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم يبعثن مكة لما أسلموا : زولوا

* * *

٣- والباظر في الشعر الجاهلي - بدويه وحصريه - يلاحظ أن الموسيقى فيه
ناجحة تماما ، سواء في ذلك ما يحدّثه الورد ، وما تحدّثه القافية ، ويبحث عن المرفى

(١) ترقاء - بفتح التاء - الصياح ، والهدو : أوائل الليل .

ذلك فيجده كامنا في الوصول بمصدرى الموسيقى الشعرية - الورد والقافية - إلى أرقى درجة ؟ فقد تمكنوا في هذا العصر من اللبس الموسيقى ، وبرعوا في تجرئة الأوزان ، وملكوا زمامها ، هلاءموا بينها وبين القافية ، ثم استطاعوا أن يتخيروا من هذين ما يتسق مع المعنى ، فضموا الشعرهم أسلوبا فنيا متميرا يتأرر فيه الشكل للمادى مع الإيقاع الموسيقى مع المضمون الشعرى . على نحو ما نرى في شعر أصحاب المملكات ، ودريد بن الصمة ، والمتأس ، والشنفرى ، والمثقب العبدى ، وأبى دؤاد ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وغيرهم كثير ممن لا يحصى عددا .

وقد حاول بعض الدارسين أن يبعث تميز شعراء بعض المناطق عن غيرهم في الموسيقى الشعرية ، لكن الوسائل إلى ذلك ما رالت محدودة لانتيج الوصول في هذا الصدد إلى رأى قاطع واضح ، ولعل في مستقبل الدراسات الأدبية ما يمكن من تحقيق ذلك .

ومن اشتغل بهذا اللون من الدراسة والبحث الدكتور عوستاف فون غرنباوم ، وقد خرج من دراسته تلك بنتائج خطيرة كان من أهمها - مما يتصل بموضوعنا - ملاحظته من أن التفنن في الأوران الشعرية في العراق كان أغنى في هذا العصر مما كان عليه في أى مكان آخر .

وما لاحظته من نمو بحر الرمل في الشعر الحيرى ، وإهماله في سائر المناطق الأخرى من بلاد العرب ، فقد أكثر شعراء الحيرة من هذا البحر ولم يستعمله في الشعر القديم إلا أبو دؤاد في ثلاث قصائد ، وطرفة في ثلاث قصائد ، وعدى بن زيد في سبع قصائد ، والمثقب في قصيدة واحدة ، والأعشى في اثنتين .

ولما بحث عن الملة في نمو هذا البحر في شعر الحيرة - مع إهماله في سائر البلاد العربية - أرجع ذلك إلى أن الرمل استعير من الوزن البهلوى الثماني المقاطع كما صورته بنفيسته (المجلة الآسيوية ٢ : ٢٢١ سنة ١٩٣٠) ، وأنه عدل على نحو يلائم العروض العربى .

وما لاحظته من نزوع مدرسة الحيرة إلى بحر الحفيف ، الذى نجد منه خمس عشرة قصيدة لأبى دؤاد ، وسبعا لعدى بن زيد ، وخمسا للأعشى (١)

(١) راجع (دراسات في الأدب العربى ص ٢٦٥ وما بعدها ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

ولا ريب في أن هذا اللون من الدراسة - على طرائقه - يحتاج إلى بحث وتقص
للشعر الجاهلي في مختلف بيئاته ، حتى تتحقق من صحة ما يتقرر في هذا الصدد .

* * *

٤ - والناظر في الشعر الجاهلي يلاحظ أن للشعراء - بدوا وحضرا - منهجا
يكاد يكون ثابتا ، لا يختلف إلا في الندر اليسير ؛ فهم في مجموعهم يبتدئون قصائدهم
بمقدمات تمهد الموضوع ، يثلب عليها أن تكون وقوفا على طلل ، أو دعوة إلى وقوف ،
أو تغزلا في امرأة ، ثم في براعة فنية يخلصون إلى الموضوع مدحا كان ، أو غزا ،
أو غزلا ، أو رثاء ..

كما يلاحظ أن الشاعر يعنى بتقديم موضوعه من خلال أفكاره في أثناء وروية
- على اختلاف بين البدوي والحضري - في مظهر ذلك - فهو لا يستقل من فكرة إلى
أخرى حتى يطمئن إلى تمام عرضها ، محتوينا هي ذلك الصور المختلفة التي قد تعين في
إيضاحها ، مستقصيا كل الجوانب والأبعاد فيها ، حتى أصبح من ينظر في القصيدة من
معاصرنا يشغل بالعكسة عن تاليتها ، فيتوهم أن القصيدة مفككة الأفكار ، أو أنها
متمددة الأغراض والمقاصد . فأصبح - في تقدير هؤلاء - من عيوب الشعر الجاهلي
الافتقاده إلى الوحدة الموضوعية .

وفي الحق أن هذا ليس عيبا في الشعر الجاهلي ، وإنما هو عيب في معاصرنا ممن
لا يسرون في القصيدة الجاهلية بخطئ أصحابها ، ولكن يسرون بخطائهم في العصر الحديث .

ومن ثم كان للقصيدة العربية شكل متغير ثابت ، لا يكاد يختلف فيه شاعر عن آخر ،
لأنهم إلا في بعض الأحوال التي ينفل فيها الشاعر المقدمة ، أو يضطره المقام إلى الإسراع
توقعا في عرض أفكاره ، فيتجاوز الاستقصاء والاستيعاب التصويري ، كما في المراثي ،
والمواعظ ، وبعض القصص .

البَابُ الرَّابِعُ

النثر بين البدو والحضر

الفصل الأول

فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن

لا أشك في أن العصر الجاهلي قد عرف للنثر الأدبي باعتباره وسيلة من وسائل البيان ، ولا أشك كذلك في أن ما عرفه الجاهليون من فنون النثر لم يكن على غرار ما عرفه غيرهم من الأمم ؛ إذ لكل أمة ما يناسبها من فنون المقال وفقا لدواعي القول عندها ؛ ألا يحق لنا أن نطلب في الأدب العربي من فنون النثر ما نجد في الأدب اليوناني أو الروماني أو نحو ذلك .

أقرر ذلك على الرغم من آراء كثير من المستشرقين ومن تابعهم التي يزعمون فيها أن عرب الجاهلية لم يعرفوا النثر الفني ؛ لأن عرب الجاهلية لو كانوا يجيدون النثر الفني لما كان لتعليمهم بالقرآن الكريم قيمة ؛ فالتعدي المعجز لا يكون عن فقر ، وإنما يكون عن مقدرة في ذلك المجال . هذا إلى أن عرب الجاهلية لو كانوا غرباء عن النثر الفني لما استطاعوا أن يتذوقوا البيان القرآني ويحلوه المحل المؤثر في نفوسهم ، فيكون سببا في إسلام عمر بن الخطاب ، وعاملا من عوامل التشكك في نفس الوليد بن المغيرة وضربائه من الجاهليين الذين وجدوا في القرآن ما يدهمهم إلى التزوي في الحكم ، ومماودة النظر ، لولا خوفهم من ثورة قومهم ، وحشيتهم من ضعف سلطانهم الموروث .

ولا أشك في أن أكثر نثر هذا العصر لم يصلنا ، لعدم تسجيله في كتاب يحفظه ، ولضادته بالقرآن الكريم واشتغال العرب به من أسلم منهم ومن لم يسلم ، مما كان له أبعد الأثر في الانصراف عن أكثر نثرهم الموروث ، وضياعه بمرور الوقت وفقد من حفظوه .

كما لا أشك في أن القليل الذي وصلنا من نثر هذا العصر يمكن أن يلقى الضوء على هذا الفن الأدبي عند الجاهليين ، على الرغم مما قد اعتراه من إضافات وتغيير في بعض عباراته ، وتحريف في بعض أصوله ؛ إذ هو - مع كل ذلك - يطلعنا على فنونه السائدة

بينهم ، ويعرفنا بكثير من قضاياهم التي كانت تشغل تـهـكـيـم ، كما يقفنا على منهجهم
البياني في ذلك الفن .

هذا فيما يتعلق بالنثر قبل الإسلام ، أما بعد مجيء الإسلام ، والحض - في ظله - على
تعلم للكتابة ، واستئلاها في تدوين المهم من أمور الحياة العربية الإسلامية ، فإن حال
الأدب المنشور يختلف عن حاله فيما تقدم ؛ فقد وثقه التدوين ، وقام على حفظه طائفة
من الكتّاب كل في ميدانه الخاص ، ابتداء بالقرآن الكريم .

فالنثر العربي - في ظل الإسلام - يختلف من هنا عن النثر العربي قبل الإسلام .

ثم إنه يقوم على دعائم مختلفة من ألوان البيان العربي .. واختلاف هذه الدعائم
ليس اختلافا في أسلوب الأداء ، ولا اختلافا في الشكل ، ولا في الموضوع فحسب ، بل
هو فوق ذلك كله يختلف في المصدر ؛ وذلك لأن دارس النثر العربي في صدر الإسلام
يحمد نفسه أمام نثر عربي ليس صادرا عن كائن عربي ، بل هو منزل من رب العرب
والمعجم رب العالمين ، دليكم هو القرآن الكريم ، ويحمد نفسه أمام نثر عربي صادر عن
كائن عربي ، بيد أن له من الظروف ما يجعله في مركز الريادة والقيادة والقُدوة ، تهوى
إليه أممته العربي وغير العربي من مختلف بقاع الأرض ، وذلك هو الحديث النبوي
الشريف ، كما يحمد نفسه أمام نثر عربي حاض لـكل ما تخضع له فنون الأدب من تأثير
وتطور واحتذاء .

من ثم لا يستطيع دارس للأدب العربي في ظل الإسلام أن يتجاوز في دراسته
القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ فالقرآن - وإن كان ليس من صنوع بشر - بيان
عربي مبين . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم بيان عربي ، نسجه أول من تتلمذ
على القرآن الكريم وتأدب بأدابه ... ومهمة الدارس أن يتناول كل بيان في لسان
اللغة التي يدرس آدابها .

بيد أن الأمر يختلف في دراسة القرآن عنه في دراسة غيره من الآداب ؛ إذ دراسة
القرآن الكريم لا تتناول الأطوار المنية له ولا التأثيرات الخارجية التي خضع لها ؛
إذ كلام رب العالمين لا يخضع لتأثيرات خارجية ، ولا يمر بأطوار فنية ، إنما ذلك شأن
النتائج للبشرى الذي يخضع صاحبه نفسه للتغيرات ، ويعرف في حياته بمديد من الأطوار .

أما من يقول بأن القرآن الكريم ليس نثرا ، كما أنه ليس شعرا ، وإنه هو قرآن (١) ، فهو يتلعب بالألفاظ في محاولة للتلاعب بالعقول ، وليس ترفعا بالقرآن الذي قال منزله في وصفه إنه « بلسان عربي مبين » ، واللسان العربي شعر ونثر ، فإذا لم يكن القرآن شعرا - وهذا واضح - مقرر بالنص القرآني أيضا - كان نثرا دون شك أو جدال . لكنه نثر ذو سمات خاصة في قيوده البيانية ، وفي شكله ، وفي أسلوبه ، إلى غير ذلك ، كما أنه ذو سمة خاصة في مصدره .

* * *

والناظر فيما تناقله الرواة من النثر منسوباً إلى من قبل الإسلام يلاحظ أنه يدور في محورين متميزين :

أحدهما محور التعبير الموجز الذي يعتمد على الإشارات البيانية والذاكرة الحافظة في حمل الحدث القصصى ، دون إجهاد في بناء قصصى ، أو في نقل خبرات الأديب بالحياة وهذا هو المروف المثل والحكمة .

والثانى محور التعبير الخطابي الذي يعتمد فيه صاحبه على وسائل التأثير الفنية في الوصول إلى عقل المخاطب وحسه ، وهذا هو المروف بالخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات ، فهذا كله تعبير لصوت صاحبه وهيئته ومنهجه فيه دور كبير .

فالغنون الأدبية التى قدمها النثر الجاهلى هي المثل ، والحكمة ، والخطابة ، والوصايا ، والمحاورات ، والمنافرات ، وأما ما روى من القصص الجاهلى فلا أستطيع أن أسلكها ضمن فنون نثرهم ، لأنها من صياغة رواتها ، وإن كانت أحداثها جاهلية ، فهى أدب غير جاهلى يعالج قضايا وأحداثا جاهلية ، بيد أنها - إلى ذلك - تشير إلى أن الجاهليين صاغوا هذه الأحداث فى قصص وتداولوها فيما بينهم ، والناظر فى كتاب الأغاني يجد حافلا بألوان من القصص الجاهلى .

(١) انظر من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ص ٢٥ الطبعة العاشرة

الحكم والأمثال

الحكمة :

قول بليغ موجز يفيض به اسان حكميم يجمع خلاصة تجاربيته وخبراته بالحياة ، ويقوم على مقررات ثابتة مسلم بها قبلها المقول ، وتنقاد لها النفوس وللشاعر .

والحكمة من أنسب ما يتداول في البيئات القبلية التي تمتاز برجل القبيلة ، ويكبر شبابها شيوخها ، ويلتصقون بهم ، يأخذون عنهم ، ويتأسسون طريقهم ، مهم لهم للمارة للرشدة ، والقيادة للوجهة . ومن ثم كثر في العصر الجاهلي الحكماء ، وكان في كل قبيلة حكميم - إن لم يكن أكثر من حكميم - تفزع إليه في الشدائد ، وتلجأ إلى رأيه في المضلات ، وتجاس إليه في وقت السلم تأخذ منه ما يمينها على مستقبل الأيام .

وحفاظا من الحكميم على مكانه ، وحرصا على أن تعلق به القبيلة ، كان يهتم كل الاهتمام بصياغة حكمته ، ويديرها في رأسه مرارا حتى تكون وافية شافية .

ولذلك كان للحكمة من الخصائص الفنية ما يبرزها عن غيرها ، وإضمن لها أداء الغرض منها ، والوصول إلى قلب وعقل متلقيها ، ومن أبرر تلك الخصائص :

اعتناء الحكميم بانتقاء ألفاظه وحرصه على أن تكون تلك الألفاظ الموحزة قادرة على أن تظم المعنى المجرد إلى المعنى الحسي لتصنع منها صورة قريبة التناول ، واضحة للدلالة ، ذات إيقاع ينسجم مع محتواها .

وحرصه على أن يشحن تلك الألفاظ بخلاصة خبراته وتجاربه الإنسانية ، معتمدا على الصدق والإخلاص والتعميم .

ثم دقته في نظم تلك الألفاظ بطايتها لئلا ما تحمل تعريحا أو تديحا .

ومن أشهر الحكماء الجاهليين :

١ - أكرم بن صيفي التيمي ، وكان من المعربين ، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في

للطريق وقد نسب إليه حكم كثيرة منها : شر النصرة التمدي ، رب قول أنفذ من صول (١) . رب محلة تهب ريذا (٢) . إذا فزع اللؤاد ذهب الرقاد . رب كلام ليس فيه أكتتام . ليس من العدل سرعة العذل . ويل للشعبي من الخلى .

٢ — عامر بن الظرب للعدواني ، وهو من العمرين كذلك ، ويقال : إنه لما أسن واعتراه النسيان أمر ابتته أن تقرع بالعصا إذا هوفه (٣) عن الحكم وحرار عن القصد ، وكانت من حكيمات العرب . . وفي ذلك قال المتلمس (٤) :

لندى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلم
وعد نسب إليه كثير من الحكم والوصايا، منها : رب زارع لنفسه حاصد غيره .
المقل نائم والهوى يقظان . من طلب شيئا وجده .

وكتب الأدب تفيض بالحكم الجاهلية ، لكن أكثرها يذكر غير منسوب إلى قائله ، مما كان عاملا من عوامل اختلاط الحكم الجاهلية بغير الجاهلية ، وإيجار الحكم لا يتيقن لدارس أن يتلمس مصدرها .

المثل :

واضح من التسمية الفرق بينه وبين الحكمة ، وإذا كانت الحكمة تعتمد على خبرات قائمها وتجاربها ، فإن المثل يعتمد على الماثلة والمشابهة ؛ إذ يلاحظ فيه مشابهة موقف لموقف آخر فيقال في هذا ما قيل في ذلك . هائل : قول موجز سائر يشبه مضربه بمورده . ويعتاز المثل بأنه يوصى إلى حادثة أو قصة أو خبر تضمنت تلك العبارة السائرة ، بحيث تقترن القصة بها ، فإذا ذكرت العبارة مثلت القصة الأصلية وتراءت في الأفق ؛ وبذلك يمكن أن تعرف على كثير من أحداث الجاهلية بالنظر في أمثالهم .
وكا يشير المثل إلى موقف واقعي ، قد يشير إلى حادثة مفترضة ، يقصد بها الوصول

(١) الصول - بفتح فسكون - الاستطالة في الحرب .

(٢) الريث : البطء .

(٣) فـه : حاد ومال .

(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٨

إلى عقل سامعها وقلبه ، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناس أو جماد أو نحو ذلك ، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقي والاقتراضي .

ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبي ؛ إذ حملوا العبارة القصيرة السائرة قصة ذات دلالة خاصة ، وأصبح من السهل اليسور على كل عربي أن يتداول القصة العربية من غير حاجة إلى كتابة ولا إلى مجهود شاق في حفظها ونقلها ، فيكفي أن تنثر تلك العبارة في جميع ليستعيدوا الحدث الأصلي الذي قيلت فيه .

وبذلك يكون للمثل رسالتان يؤديهما ، أحدهما . تشبيه حدث بآخر والإيحاء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث هنا ، ثانيهما : إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل ، وأقربها إلى ذوق كل عربي . من ذلك :

راوق شن طبقة :

قيل إن شا هذا رجل من دهاة العرب ، خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، مراقة رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها ، ولم يكن يعرفه . قال شن : أتحملي أم أحملك ؟ فقال الرجل : يا حاهل أنا راكب وأنت راكب ، وكيف تحملي أو أحملك ؟ فسكت شن حتى قابلتهما جبارة ، فقال شن : أصاحب هذا الدمش حتى أم ميت ؟ فقال الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جبارة وتسال عن صاحبها أميت أم حي ، سكت شن ، ثم أراد مفارقتها ، فأبى الرجل وأخذ به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباه عن الضيف فأخبرها بما حدث منه ، فقالت : يا أبت ما هذا بجاهل ، إنه أراد بقوله أنحملي أم أحملك : أحمدي أم أحذثك ، وأما قوله في الجازة فإنه أراد هل ترك عقبا يحيا به ذكره ؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن ما هذا بكلامك ، صارحه بأنه قول أبلته طبقة ، وتزوجها شن ، فقيل : وابق شن طبقة وأصبح يضرب للمتوافقين .

الصيف ضيعت اللبن .

قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضانت به ، فطلقها فتزوجت في جميلة ، ولكنهم أجدبت ، فبعثت تطلب من عمرو لبنا ، فقال : الصيف ضيعت اللبن ، وأصبح يضرب لمن يطلب شيئا دونه على نفسه .

على أهلها تجنى براقش :

كانت براقش كلبة لقوم من العرب فأغبر عليهم ، فهدوا ومعههم براقش ، فانبسح القوم آثار بياح براقش ، هجموا عليهم فاصطلموهم ، فقيل : على أهلها تجنى براقش . يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك :

أصل هذا المثل - على ما حكته العرب على لسان الحية - أن أخوين كانا في أبل لهما فأجدت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المسكلى ورعيت فيه إبلى وأصلحتها . فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهاكته ، قال : فوالله لأفعلن ، فهبط الوادي ورعى به إبله زمنا ، ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة بمسد أخى خير ، فلأطلبن الحية ولأقتلها أو لأنبعن أخى ، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها ، وقالت له الحية : ألسنت ترى أى قتلت أخاك ؟ فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : إني أفعل ، خلف لها وأعطاها الموائيق لا يضرها ، وجمعت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا ، ثم إنه تذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ فعمد إلى رأس فأخذها ثم قدم لها فمرت به فتبعها فضرها فأخطأها ودحات الجحر ، ووقعت الرأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه ، ولما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ، تخاف الرجل شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن تتوائق ونعود إلى ما كننا عليه ؟ فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ يضرب لمن لا يفي بالمهد .

(٢)

الخطابة

الخطابة أحد دون النثر ، وهي ليست وثقا على أمة دون أمة ، لكنها في كل وسط تتشكل بما يتناسب مع متطلبات المحاطين ؛ إذ هي كلام منشور يتجه به صاحبه إلى من يجتمعون إليه ، بقصد الوصول إليهم بما لديه من أفكار .

ولا ريب في أن أنسب البيئات لازدهار الخطابة ما ظلتها الحرية ؛ حيث يستطيع كل فرد أن يبرع عما في نفسه ، وأن يخاطب مجتمعه بما يوجد ، ويعمل على توجيهه إلى ما يرى .

ولا ريب في أن البيئة العربية في "عصر الجاهلي" كانت من أنسب البيئات لازدهار هذا الفن وتطويره ، بيد أن الشعر كان - في أول الأمر - المستحود على اهتمام العرب وكان الشاعر يقدم على الخطيب ، لمرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفتح شأنهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتحدوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (١) بل لقد أصبحت الخطابة ملازمة للسيادة فكانت من أهم ما يتميز به السادة ؛ وما كان يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته ، ولم يكن يتعاطى الخطابة في هذا العصر - غالبا - إلا سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويخوضون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس السريعة ، والمجاميع الحفوية (٢) .

فالخطابة - كما يتضح من ذلك - إنما احتفل بها الجاهليون لأن الشاعر - في رأي بعض السادة - انحط بشعره إلى مستوى أنفة العربي الشريف ، وأبى أن يكون واحدا

(١) العمدة ج ١ ص ٨٢ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٢٤١ ، ج ٤ ص ٨٣ بتحقيق

عبد السلام هارون

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ج ١ ص

من هؤلاء الشعراء ، ترنما عن أن يظن فيه التسكيب بالشعر وامتنانه . ولم يختلفوا بها
لذاتها ولتوفر دواعيها وأسبابها .

ومن ثم يلاحظ الناظر فيما وصلنا من خطابتهم - على تشكك في صحة نصه - أنه
توقف عن التطور والنمو ، فلم يكن الخطيب يطمع في أن يصل من سامعيه إلى أكثر مما
يصل إليه الشاعر منهم . وطأت قصاراه أن يستحوذ على قلوبهم ، ويملك مشاعرهم ،
دون أن يهتم بأن يتجاوز التأثير إلى الإقناع ، لأن التصدد إلى الإقناع يحتاج إلى التدبر
قبل الكلام ، ومراجعة ما يقال ، وترتيب الحجج ترتيبا تقع به في مواقعها
إلى غير ذلك .

فالخطابة الجاهلية كانت إلى الشعر أقرب ، ولولا تحلل الخطيب من بعض قيود
الشعر لكانت شعرا ، لأن أفكارها ومفانيها وأغراضها كانت في أكثرها شعرية ، فإذا
ما تحقق في مبناها البناء الشعري أصبحت الخطبة قصيدة بكامل مفهومها .



ومن يردد نظره فيما وصلنا من خطابة تمرى إلى هذا العصر يلاحظ أنها تتميز
بخصائص بيئية من أبرزها :

١ - ضيق أسلوبها ؛ فقد أصبح يتردد بين أن يكون حكا وأمثالا يسردها
الخطيب لتقوم بدور التأثير ، وبين أن يكون أسجاعا ذات قيود إيقاعية تقترب بالخطبة
من الشعر خطوات ، وبين أن يكون أفكارا متباينة لا يشدها إلى بعضها إلا رابط
نفسى . مثال ذلك ما جاء على لسان هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذى قار ،
يحرصهم على القتال :

« يا معشر بكر ! هالك معذور خير من ناج فرور إن المحذر لا ينجى من القدر .
وان الصبر من أسباب النصر . المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره .
لظمن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور » .

فهى - كما ترى - جملة من حكم شتى ، لا يربطها رابط فنى ، سوى التأثير النفسى .

- ومثال ذلك - كذلك - قول الأوس بن حارثة يوصى ابنه مالمكا :

« يا مالك ! المية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجالد ولا التبلد واعلم

أن القبر خير من الفقر ، وشرب الشنف . وأصبح طاعم للقتف . والدهر يومان ،
قيوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك ولا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلها
سينحسر .

وقال أكنم بن صيفي في خطبته أمام كسرى :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ،
وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . للصدق منجاة ، وللكذب مهواة ،
والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والمعجز مركب وطىء .. »

« آفة الرأى الهوى ، والمعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن
ورطة ، وسوء الظن عصمة »

« إصلاح ساد الرعية حـير من إصلاح فساد الراعى ، من وسدت بطائنه كان
كالماص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه للبرىء »

٢ - ضيق أعراضها ؛ - كما ضاقت أساليب الخطابة الجاهلية ضاقت أعراضها ،
وانكشفت ضرورها ، تبعاً لما تقتضيه البيئة العربية إذ ذاك ، وحسباً تقسم به حياتهم
البدوية من البساطة والسذاجة ، سواء في ذلك حياتهم العقلية والسياسية والاجتماعية .

ومن ثم قصرت أعراض الخطابة على المناورات والمفاخرات ، والحض على القتال ،
والتحريض على الأخذ بالثأر ، وإصلاح ذات البين ، والنسكاح ، والإرشاد ، وحطاب
الحامل والوفود ، والوصايا ، وسجع الكهان .

ومع كثرة هذه الأعراض عددياً ، نلاحظ أنها كثرة لا ثرى ، فليس في هذه
الأعراض ما يدفع الخطابة إلى الترقى فنياً ؛ إذ كلها يكاد يدور في محور - إن لم يكن
واحداً - فهو أدنى إلى التوحد .

فبجال للمناورات والمفاخرات يعتمد على دقة للمحظ ، واستغلال الصمات في إخم ،
الحصم ، دون أن يهتم بابتسكار المص ، وتنميق العبارة ، وتجويد الأسلوب .

وميدان الحض على القتال ، والتحريض على الثأر ضيقه طبيعة العربي المنهية
للاتنفاض ، المستمدة للقتال ، بالتحريض يحتاج إلى الابتسكار والتنميق والترتيب إذا
كان موجهاً إلى إنسان في حاجة إلى إثارة أو إقناع ، أما إذا كان عربياً جاهلياً فهو ليس

في حاجة إلى شيء من ذلك ، ومن ثم فالتحريض بالنسبة له ليس أكثر من تنبيه ولفت نظر ، ومثل هذا ليس في حاجة إلى تفنن وتحسين وترتيب

والإصلاح والإرشاد والوصايا أغراض حددتها حياة العربي ، والشكل الإجتماعي الذي يسود بيئته ، فليس شيء من ذلك في غالب الامر بموجه إلى جمهور ، وإنما هي أقوال من فرد إلى فرد أو بضمه أفراد لهم في القبيلة مركز القيادة والتوجيه . ومثل هذا لا يحتاج إلى تشويق للكلام وإعدادة إعدادا خاصا ، فالقائل والسامع في مركز متقارب من قيادة القبيلة ، وليس بينهما غالبا سوى فارق السنين . . . فهي أقرب إلى الحكم المنثورة منها إلى الخطابة .

أما خطب المحافل والوفود فتقيدها طبيعتها السياسية ، وشكلها الرسمي للثابت ؛ إذ هي لا تتجاوز تحية في استقبال وفد ، أو شكرا في توديع مضيف ، ولا شك في أن مثل هذا لا يطور من القول ، ولا يسهم في تطويره بالتدريج الذي يحسب له .

وما سجع السكهان بأومر حظا من تلكم الأعراض السابقة ، بل إنه أضيقها جميعا ، وأبعدا عن مباشرة الإثراء لهذا الفن .

إذا فهي أغراض كثيرة ، لسكنها - كما رأينا - مع كثرتها لا يتسع ميدان واحد منها لأن يطلق عقول الخطيب ، فيصول ويجول ، ويقالب المعاني على مختلف الوجوه : بل هي جميعا تسكد تصدر عن منبع واحد ، لا تختلف مذاقه وإن اختلفت ألوانه ودواعيه ، فهي إلى الحديث السائر أقرب من أن تكون عملا أدبيا ذا قيم فنية معينة ، أو قواعد أسلوبية يرتكز عليها . . . بيد أنهم - إلى ذلك - تمارفوا على سنن وتقاليد تتبع في خطابتهم ؛ فكانوا يحطبون على رواحهم في الأسواق المظلمة ، والمجامع السكبار (١) . وكانوا يلوثون المائم على رؤوسهم ، ويمسكون بالخاصر (٢) والقضبان ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ، ويشيرن بالعصى والقنا ، حتى كانت الخناصر لا تفارق

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧

(٢) الخناصر جمع مخصرة : ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده ، من عصا أو مقرفة

أو عكازة أو قضيب .

أيدي الملوك في مجالسها^(١) . وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان ، وحضور البديهة ، وقلة التلث ، وكثرة الربق ، وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يميون فيه للتنحيز والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام . . إلى غير ذلك مما عني بتفصيله الجاحظ . في بيانه .

٢ - قصر بنائها ، ولعل ذلك من أهم ما يلاحظه المدارس على خطب الجاهليين ، وهو قصر فرضته طبيعة الحياة الجاهلية على الخطيب ، وليس قصرا مقصودا أرادته الخطيب تحقيقا لهدف واضح ؛ فالبينة لا تستدعي طول الخطبة إلا إذا كانت ذات حياة فكرية نامية ، وإلا إذا كانت ذات حضارة معقدة ، من كل ما يتطلب البسط في الحديث ، والتفصيل في المواقف ، والتكرار في الأفكار بنية للتقرير والتأكيد ، وبسطا للخطبة ، وتقوية للبراهين . لكن البيئة العربية في ذلك الحين لم تكن تمتد بها الحضارة ، ولم تكن عزتها المدنية ، فقد كانت الحياة فيها بسيطة ساذجة ، ومن ثم كان العربي بعيدا عن الفلسفة والتعقيد ، ولم يتيسر له من الموامل ما يخرج به عن طبيعته الفطرية السائدة التي تدفعه إلى أداء فكرته بأوجز عبارة وأوضح أسلوب . وهذا مرئد الخير أحد أقوال^(٢) حمير يخطب في الصالح بين سبيع بن الحارث أخى ذى جند ، وميثم بن مثوب بن ذى رعين حين تنازعا الشرف ، وشاحنا حتى خيف أن يقع بين حبيهما شرفيتان أصلاهما ، وذلك قوله : « إن التخطيب ، وامتطاء الهجاج^(٣) . واستحقاق الهجاج^(٤) سيقه كما على شفاهوة في توردتها بوار الأصيلة ، وانقطاع الوسيلة . فتلافيا أمر كما قبل انتسكات المهد . وانحلال المقد . وتشتت الألفة . وتباين السهمة^(٥) . وأتتافي فسحة رافهة . وقدم واطدة . والمسودة مثرية^(٦) . والبقيا

(١) البيان والنبين ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أقوال جمع قيل : من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٣) امتطاء الهجاج : ركوب الرأس وعدم التروى .

(٤) استحقاق الهجاج : التمسك بالخصومة .

(٥) السهمة : القوابة .

(٦) مثرية : متصلة .

معرضة^(١) ، وقد عرفت أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف
الرعيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيت ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان
صيرور أمورهم ، قتلاهم للقرحة قبل تفاقم النأى^(٢) ، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ،
فإنه إذا سكت الدماء استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت^(٣) عرى
الإبقاء ، وشمل البلاء .

هذا مع استثناء بعض الخطب ؛ فقد كانوا يطيلون سببا في حطب النسكاح ،
وإصلاح ذات البين .

ولا يمكن بحال أن نتصور وصول خطبة من خطبهم كاملة مفصلة كما قالها أصحابها ؛
لعجز الرواة عن استظهارها كلها ، فهم إنما يحفظون منها ما كان أشد قرعا لاسمع ،
ووقعا في النفس ، بعبارة تحمل ذات المعنى الأصيل ، وإن اختلفت عنها شيئا في
بعض اللفظ .

ومع هذا فلا يمكن كذلك أن نتصور خطيبا جاهليا محيط به بيئة الجاهلية بكل
أبوابها وأغوارها يخطب فيطيل الإطالة التي نهدها في الخطابة بعد ذلك المصير لما
قدمنا آنفا ، ولا نطباع للعرب الجاهليين على الإيجاز ، ولأنها أسهل للمعظم ، وأسرع
شيوعا من الخطب الطوال .

٤ — عدم الاهتمام بالمقدمات ؛ فقد كان الخطيب في الجاهلية يرجع على أغراضه
مباشرة من غير تقديم ولا تمهيد ؛ إذ الخطبة بالسبب له لا تخرج عن أى عمل يقوم به
العربي في تلك البيئة بما تشتمله من صراحة ووضوح وانكشاف ، وبما تنطوى عليه
الحياة فيها من قسوة وخشونة . . . فليس شئ مما يقع عليه نظر العربي مرت عليه يد
التهذيب والتثقيف إلا أن تكون ضرورة الحياة هي التي تفرض عليه تهديده أو تثقيفه ،
وليس في محرائه المكشوفة الواسعة ما يلفته إلى الالتواء .

(١) معرضة : ممسكة .

(٢) النأى : الإنساد .

(٣) تقضبت : تقطعت .

هذا إلى أن شدة الحياة خلعت على نفسه الضيق والتبرم - وإن لم يعرفهما في نفسه -
كما يدغمه إذا قال إلى أن يبدأ بما يريد أن يقول ، وإذا سمع أن يطلب سماع ما يراد أن
يقال يحسب .

ثم إن الخطيب العربي - إلى ذلك - لم يكلف نفسه وضع خاتمة ينهى بها كلامه إذا
ما انتهى من عرض فسكرته فذلك السبب الفطري ذاته .

ومن ثم لم تسكن في الخطبة الجاهلية أقسام واضحة ، وإنما هي أقوال مباشرة ،
كما تبدأ تنتهى ، وفي خطبة مرثد الخير التي قدمناها آنفا ما يشير إلى تلك السمة في خطابة
الجاهليين ويقررها ، فضلا عن أن تلك السمة هي الطبيعة الواضحة التي لو وجد غيرها
في خطابهم لكان تزييدا أو شذوذا .

هـ - سذاجة الأمكار التي تشتملها الخطبة الجاهلية وبساطتها على العموم ، وذلك
لضآلة نصيب العرب في تلك الآونة من الثقافة العسكرية ، فقد كان جبل همهم - في
الثقافة - أن يعرف المرء شيئا أو أشياء عما يحيط به مما تتطلبه الحياة في بيئته تلك
فعلى من يريد الثقافة أن يعرف شيئا عن موافع النجوم ومطالع الكواكب ، وعن
أسرار الرياح في هبوبها وتوابعها ، وعن تاريخ القبيلة ، وأيام العرب ، أو تاريخ
أمته . . . إلى غير ذلك من المعلومات السطحية البسيطة التي لا تخرج عن ذلك الإطار
الضيق المحدود ، والتي لا تنحوج إلى كد ذهن ، أو إعمال فكر ، أو قصد إلى ترتيب
وسمى إلى استنباط ، وإنما هي حقائق مقررة قسارى ما تتطلبه أن يستوعب ويستذكر .

ولم يقف الأمر بالأمكار عند حسد السذاجة في طبيعتها ، بل لقد كانت ساذجة
كذلك في عرضها ، فلم يكن هناك اهتمام بترتيب الأمكار وتسلسلها وارتباط بعضها
ببعض . . . ولكن الخطيب يرسل أفكاره حسبما تتوارد في مخيلته ، دون أن يعتق
بتسويقها وترتيبها ، حتى ليسر على القارئ في كثير من الأحيان أن يحدد موضوع
الخطبة الذي يقصد إليه الخطيب .

٦ - التزام السجع ؛ فقد التزموه في خطبهم ، ليكون بديلا من موسيقى الشعر
خلا تلتصق الهوة بين الفسيفساء ، ولتكون الخطبة أسهل في السمع ، وأقرب من القلب ،
ولتكون الخطبة أسرع في الشيوخ وأبعد في الصبيح .

وفي مقدمة من التزام السجع في الخطابة كهان العرب ، بيد أنهم يمتازون عن غيرهم من الخطباء الجاهليين في إضافتهم إلى السجع غرابة اللفظ ، واستعمال صيغ في القسم غريبة . . . ولعل ذلك كان منهم بقصد إضفاء الغدوض على أنفسهم ، والمبالغة في السيطرة على نفوس السامعين ، وتأكيدها ما سيطر على الأفكار من مقدرتهم على السحر . والساحر - كما يستعين بالطلاسم - يستعين بالإيقاع الصوتي ، والألفاظ الغريبة ليتمكن من التأثير في الجماعة ، فهو من وسائل الإيهام التي يعتمد عليها الكهان ، ونظرة إلى مثال من الخطب المسجوعة أنير الكهان ، وآخر مع سجع الكهان تقرر لدينا ما نقول .

قال علقمة بن علاثة في منافرة له مع عامر بن الطفيل : « إني لبر وإنك لفاخر ، وإني لودود وإنك لعافر ، وإني لواف وإنك لنادر » فأجابه عامر بقوله : « إني أشعر منك أمة (١) ، وأطول منك قه ، وأحسن له (٢) ، وأجعد جمة (٣) .

وقالت الزبراء كاهنة بني رثام تذر قومها ، وتنبئهم بمياغنة عدوهم لهم : « والروح الخافق ، والليل اناسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو حتلا (٤) ، ويحرق أبياننا عصلا (٥) ، وإن صخر الطود اينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا (٦) » .

ويقرر ذلك ما ذكره عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاش حين سئل عن السر في إشارته السجع على المنشور فقال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الثائب والخاصر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه

(١) يعني أكثر قوما .

(٢) اللدة : ما تجاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) ياد وختلا : يميل خدعا .

(٥) يحرق بضم الراء وكسر ها : يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت . وعصلا

جمع أعصل : الثاب المعوج في صلابته .

(٦) الملجأ : الملجأ . انظر الأملالي ج ١ ص ١٢٦ .

أسرع ، والأذان لسماعة أنشط ، وهو أحق بالثقيد وبقلة الثغلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من الموزن عشرة ، (١) .

أضف إلى هذا أن هذا الاتجاه يرجع إلى أنهم قوم فطروا على قول الشعر، تتأرت
فذلك لفة النثر عندهم واتجهت - عن قصد منهم أو عن غير قصد - إلى محاكاة لفة
الشعر في مجازها وخيالها ، وموسيق الناطها .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٧ .

الفصل الثاني

حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم

(١)

أثر الإسلام في الحياة العربية

جاء الإسلام فقلب نظم الحياة الأساسية في شبه الجزيرة العربية رأساً على عقب ، ثم امتد منها إلى العالم أجمع ؛ ففي سنة ٦١٠ م بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه إلى عشيرته بمكة ، ثم إلى العرب جميعاً والناس كافة ، فبدأ يصل الناس بالدين الجديد ، ويأخذهم بمبادئه ، ويتعهدهم بقيمه ، حتى أصبح الناس غير الناس حساً وعموراً ، واعتقاداً وتفكيراً ، وخلقاً وسلوكاً .

ولا أعنى بذلك أن كل ما جاء به الإسلام كان جديداً أو غربياً على الإنسان ، وإنما هو عقيدة هادفة ومبدأ قاصد أقر من عادات الجاهليين وأخلاقهم ما يوائم منهجهم ، وعدل بما ينحرف منها عن طريقه ، وهدم ما يتنافى منها مع قيمه ومثله ، مقبلاً مكانه مبادئ تحقق ما يهدف إليه ، وتقرر ما يريده للإنسان من كرامة وعزة .

جاء الإسلام فلم يكن مغايراً لما كان عليه الرب في حياتهم من كل الوجوه ؛ فهو دين جاءت به السماء في اللحظة المناسبة ، بعد أن أعدت لاستقباله النفوس ، وأحست بالحاجة إليه للشاعر ، وبمحت هذه العقول فتاهت وضأت ، ودعت إليه دواحي الفطرة المتبلورة في الأحياء من بني البشر . . . فهو دين الفطرة المستقيمة .

لقت الناس إلى الروحانية ، وكانوا مستسلمين لأوهام وعادات جمعت مشاعرهم ، وسدت الطرق في وجوههم ، فربطهم بالله الذي يجدر بهم أن يعطوه ، ويأمنوا له ، ويؤمنوا به ، . . . إنه ليس إلهاً خاصاً ، ولكنه إله الجميع (رب العالمين) ، وهو لا يغيب عنه

شيء ، (لا يميز عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)^(١) ، وهو واحد لا شريك له ، ولا ولد (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد .) ، وهو خالق السكون وما فيه ومن فيه : يحيط علمه بكل شيء ، ويمتد سلطانته إلى كل شيء (على كل شيء قدير) ، وهو يريد الخير للناس جميعا (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)^(٢) ، (ما يريد الله ليكمل عليكم من حرج ولما يكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم)^(٣) ، ومن هذا المنطلق يأخذ بأيديهم ميمدا بهم عن السوء ، لتسمو نفوسهم ، وتترقى مشاعرهم ، ويحضهم على التمسك بعبادته التي يريدهم عليها ، مقررا أن ذلك سبيل فوزهم بحبه لهم ، ورضوانه عليهم (إن الله يحب المتقين)^(٤) ، (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)^(٥) ، (إن الله يحب المحسنين)^(٦) ، (والله لا يحب المفسدين)^(٧) ، (والله لا يحب الظالمين)^(٨) ، (إن الله لا يحب المعتدين)^(٩) . مؤسسا هذا الحب على على ما هو مذخور في الحياة الآخرة من جنة ونار يجارى بالجنة من استقام بعد أن يبعث من موته ويحاسب ، ويجارى بالدار من ضل وانحرف كذلك .

وأقام عقيدتهم على العسر والتدبر ، فجعل للعقل دورا في الحياة هو من أهم الأدوار؛ إذ به يبحث ويفحص ويوازن ، ليصل إلى ما يعتقد؛ ومن ثم أخذ الإسلام بيد الإنسان في جولات كونية بين الأرض والسماء ، يديه يها إلى ما تطوى عليه مفردات هذا السكون من دلائل تقفه على الحقيقة ، وتهديه إلى الصواب ، فمنحه بذلك الثقة ، وفتح له أبواب الانطلاق ، فجار آفاقا بعد آفاق . « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتكرون في خلق السموات والأرض ربما ما خلقت هذا باطلا سبحانه فمنا عذاب النار »^(١٠) ، « أهلا يطرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت »^(١١) ، « نأسقط عنهم أغلال التبعية والتقليد الأعشى ، ودهمهم إلى أن يسيروا في طريقهم على هدى وبصيرة ، منبها إلى أن

-
- (١) سبأ : ٣ (٢) البقرة : ١٨٥ (٣) المائدة : ٦ (٤) التوبة : ٤
 (٥) البقرة : ٢٢٢ (٦) البقرة : ١٩٥ (٧) البقرة : ٢٠٥
 (٨) آل عمران : ٥٧ (٩) البقرة : ١٩٠ (١٠) آل عمران : ١٩١
 (١١) النازعة : ١٧ - ٢٠

الجراء مبني على العمل « ولا تزر وازرة زرر أخرى » (١) ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .

وأسس حياتهم على الاجتماع والآلهة ، موطد دعامتهم الآخرة ، وقوى روابط الوحدة ، فنبههم إلى وحدة الأصل البشري : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٣) . « وأرشدكم إلى أهمية الوحدة القائمة على وحدة العقيدة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٤) ، ثم وجههم إلى دعائم ذلك المجتمع الموحد المثالي فأوضح أن المجتمع القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٥) ، فانتقل بهم من البيئة الفردية التي يعيش فيها الإنسان لنفسه ، ولقي يدعوها فيها إلى نوع من حميد الصفات حرصه على نفسه حسب ، إلى مجتمع يقوم على الحب والتكافل والتضامن في مختلف مظاهر الحياة ومسالكها ، وخاصتهم بذلك من عادات وتقاليدها كادت تصبح عرفا وقانونا يلتزمون به ، من معاملات ربوية ، وانكباب على الميسر والقمار ، وهضم الحقوق طائفة من طوائفهم أو جلس من أجناسهم وصل بهم في بعض الأحيان إلى وأد البنات ، وقتل الأبناء . وهكذا تحول العرب من ذر منثور إلى مجتمع متلاحم الخيوط ، محكم النسيج .

وانهض مجتمعهم على مبادئ الحرية والكرامة ، والعدل والمساواة ؛ ليس لإنسان على آخر من سلطة موروثية ، وإنما للجميع سواء ، لافضل لعربي على عجمي ، ولا إكرام على عقيدة ، ولا اغتصاب لحق ، ولا عدوان على مسلم .



وهكذا جاء الإسلام قوما - أول ما جاء - هيأتهم الحياة لاستقباله ، مسار - حين تابوه - مبنعدا بهم شيئا مشيئا عما ألفوه واستبد بهم من أعراف وعادات ، حتى تلافوا بعد حين فوجدوا الطريق غير الطريق ، والحياة غير الحياة ، ونظروا فرأوا كل شيء قد تغيرت معالمه وتبدلت ألوانه وظلاله . . واختلعت مذاهبه واتجاهاته .

(٢) الزلزلة : ٧ - ٨

(٤) الأنبياء : ٩٢

(١) الأنعام : ١٦٤

(٣) الحجرات : ١٣

(٥) آل عمران : ١١٠

وهكذا كان الإسلام تغييرا جذريا وعرضيا لجرى التاريخ الدينى والأدبى والإقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى . . . وغير ذلك من الجوانب التى تواجه الإنسان وتوجهه . ولكنه - مع كل هذا - قد لاقى مقاومة عنيفة ، وحربا لاهوادة فيها ، شملت الحرب النمسية والمادية والمعنوية ، وكل ما يمكن أن تقع به حرب من قوم استبدت بهم الشهوات ، وسيطر عليهم حب الذات ، وجرفتهم الماديات ، فأضلتهم عما هم فى حاجة إليه .

وكان هذا التغيير المنتظم ، وتلك المقاومة العنيفة سر إقبال الشعوب الأخرى - غير العربية - عليه فى مدى بضع عشرات من السنين .

(٢)

أثر الإسلام في الادب العربي

من يتتبع الأدب العربي في العصر الجاهلي ، ويقارن بينه وبين الأدب العربي فيما بعد مجيء الإسلام يجد الفرق الكبير ، والبون الشاسع بين الأدبين بحيث لا يكون متعسرا أن يميز باحث بين أدب كل من المرحلتين مع ما يبدو هناك من أصول أدبية ثابتة ، وقوانين مشتركة تربط بين أدب الجاهليين وأدب الإسلاميين . . . وتلك الأصول والقوانين هي التي تضيء على الأدبين صفة المربية . وهذه سمة مشتركة بين جميع الآداب الإنسانية ، حيث تتأثر بكل ما يعرض للانسان من تغيرات ، وما يطرأ على بيئته من مؤثرات .

وتأثر العرب بالإسلام أمر لا شك فيه ولا جدال ، بل إن كلمة تأثر هذه تدل على حقيقة ما كان ، إذ تشمل تأثيرهم به كل مناحي حياتهم ، ولا يدل على ذلك إلا أن نقول : إن العرب تغيروا بالإسلام فأصبحوا ناسا غير الناس السابقين .

وبدا تأثر العرب بالإسلام أول ما بدأ حين سمعوا القرآن الكريم في أول علاقته بهم ، وهم ما يزالون على دين آبائهم ، وما يزالون على إصرارهم وعنادهم ، ولم يكن حين صكت أسماءهم بعض آيات القرآن الكريم مسرت في كل أجسامهم كات كالرعدة تصيب الإنسان فتذهله عن التصبر السريع ؛ فلقد ذهل العرب حين سمعوا القرآن وشملتهم حيرة لم يكن واحد منهم ليتوقعها ، فهم ما لكو ناصية القول ، وهم أرباب البيان ، والكلمة فيهم هي كل شيء ، هي القلب النابض ، وهي الخيال الساج ، وهي المشاعر الجياشة ، وهي - إلى ذلك - العقل المفكر فيها .

لقد أدهل العرب روعة نظم القرآن ، وحيرتهم قوة أسره ، فانطلق لسان الشافئ المبعض قبل المادح المحب معبرا عن ذلك التسلط الذي يلته به حصه ووجدانه في آياته للكرمة . وهذا عتبة بن ربيعة أحد رعماء قريش يكشف عن بعض نواحي الدهول والحيرة في قوله حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الآيات من أول سورة هات ، وقد سأله قومه حين عاد إليهم عما وراءه .

« ورأى . . . أى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالسكھانة يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . »

ثم هذا الوليد بن المغيرة أنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ ، فقرأ عليه : « إن الله يأمر بالمدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١) .

فقال : أعد . فأعاد صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفه لمندق ، وإن أعلاه لمشر ، وما يقول هذا بشر (٢) .

فالمدرس لتاريخ الأدب العربى يلاحظ أن من أهم عوامل التحول فيه على مدى تاريخه المتمدن ظاهرتين لاتسكadan تفارقه منذ ظهور الإسلام ، والتقاء العرب بكتابه الكريم ، واجتماعهم على مبادئه رقيه .

١ — أما أولى هاتين الظاهرتين فهو القرآن فى ذاته ، ذلك الكتاب العربى الذى توارى أمامه كل ما أنتج العرب من أدب ، وما قدموا من بيان ، فتمت له الصدارة ، وخلصت له الريادة والقيادة ، وأصبح هو المثل الذى يحاول كل عربى ومسلم أن يحتذيه فى حياته كلها أدبية كانت أو سلوكية أو إجتماعية . . إلى غير ذلك من شتى مجالات الحياة التى قن لها القرآن ، وقاد إليها ، ووجه نحوها .

أقد رأى العرب فى القرآن ضالتهم التى طالما بحثوا عنها فلم تسعفهم مقدرتهم حتى على تصورها . . رأوا فيه ما انتقدوه فى آدابهم ، وما تمنوه ولكنهم لم يدركوه رأوا فيه السكال التعبيرى الذى اهتمل الأسس الثلاثة بنامها ، والتى حاولوا أن يضمونها كلامهم فوقفوا دون ثالثها عاجزين فقد أسس العرب بلاغة اللسق على ثلاثة لاينفى واحد منها عن الآخرين . . هذه الأسس الثلاثة هى :

(١) النحل : ٩٠

(٢) الرسالة الشابية للجرجانى ص ١٢٥ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

الطبعة الثانية .

(١) الموسيقى التي تحدثها الحروف بتزيينها ومخرجها ، وحركاتها ومناسباتها لها معها من كلمات ، حتى تصبح الكلمة مصدر نغم ورنين يهز النفس ، ويستأثر بالمشاعر ، وتتهيء وجدان المتلقي لاستقبال ما توجه له الكلمة من معنى ، وما يفيض به المعنى من مضامين .

(ب) المعنى الذي تجعله الكلمة لتصل به بين مشاعر الإنسان وبين عقله .

(ج) الدقة في التصوير المعنوي وما يترتب عليه من الإبداع في تلوين الخطاب ، وترديده بين ألوانه المختلفة ، فيودع النفس مرة ، ويجاذبها أخرى ، ويعمد إلى طرائف المعاني فيسوقها إليها وإلى شق وجوه البيان فيوردها عليها ، حتى يتمكن من السيطرة التامة الكلمة على جوانبها ، وحتى تصبح تلك النفس - من تفضلها له وموافقتها إياه - كأنها هي الراغبة فيه ، القاصدة إليه التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام ، وليس الكلام هو الذي يجيء إليها بهدف معالجتها والتأثير فيها (١) .

فمع أن السق البليغ يجب أن يشتمل على هذه الأسس الثلاثة، إلا أنه يرقى في ميدان البلاغة تبعاً لوضوح الأسس الثالث فيه ، حتى إذ كانت الدقة في التصوير المعنوي ، والإبداع في التلوين البياني شائعا في كل جوانب الكلام بحيث لا تفتقده في جهة واحدة من جهاته ، بل بحيث لا يقل في جهة عنه في جهة أخرى . . أحس الإنسان أمام مثل ذلك الكلام بالمعجز الذي لا أمل في اجتيازه ، إلى جواز إحساسه بالافتتان به .

وإنما كان لهذا الأساس الثالث تلك الأهمية لأنه في الحقيقة هو الذي كان يترامى للعرابي ولا يتمكن من الوصول إليه في تعبيراته . فصور الموسيقى - وهو الأساس الأول - من الأصوات الطبيعية في تركيب لغة العرب ، وإنما هو يتفاوت بين السكال والنقصان .

وصوت الفسك - وهو الأساس الثاني - لم يكن صعبا عليهم أن ينفوا عليه في كثير مما جادت قرائح أدباؤهم .

أما البعيد القريب منهم فهو هذا الصوت الثالث ، فقد كانوا يرونه في تصوراتهم أملا ،

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ ، ص ٨٨ ، ودلائل الإعجاز ص ٤٥ وما بعدها

بتحقيق المراغي .

ولكنهم لا يجدونه في كلامهم واقما، وإذا هم حاولوا الوصول إليه تبين لهم قصر باعهم عن أن يمتد إليه لينمكن منه .

حتى إذا جاء القرآن الكريم فوجئوا بأشغاله على ذلك الأساس - بالإضافة إلى تسميته لقمة في الأساسين الأولين - فلم يجدوا بدا من الخضوع أمامه ، والاستسلام لروعته ومن ثم أصبح قصارى جهده كل عربي ومسلم أن يتعرف على شيء مما في التعبير القرآني وبني عليه أدبه ، ويروض عليه لسانه .

٢ - والظاهرة الثانية هي أن المسلمين اتجهوا بكل ما أوتوا من ثقافة ومعرفة يبعثون عن نواحي الإعجاز البياني القرآني ، ويكشفون عن مظاهرها ، ويربطون بين ذلك وبين الآداب - خصوصا الأدب العربي - فكان ذلك الاتجاه ميدانا لقدح ~~الناجف~~ ^{لناجف} ~~لناجف~~ ^{لناجف} واستنار ما أوتوا من أدوات وأسباب في ذلك الميدان ، وحرص على أن يترددوا بكل ما بين حتى يكشفوا عن شيء من هذه النواحي البلاغية للمعجزة في النص القرآني . . مما خاف لديهم لما جديدا في مقتناته وفي اتجاهاته . . ذلك هو فن القول ، ولم يكن من قبل علما مؤصلا ولا لنا يستمد على المنهج الدروس والقوانين للعدة . وهذا من غير شك له في التحول الأدبي أثره البعيد . ولقد أشار البطلوسى إلى هاتين الظاهرتين فى قوله :

إن العرب طلبوا الأدب واهتموا بمدارسته وترويض أنفسهم عليه لغرضين: أحدهما يقال له الغرض الأدنى . والثاني الغرض الأعلى ؛ فالغرض الأدنى : أن يحصل للتأدب بالنظر فى الأدب والشعر قوة فيه يقدر بها على النظم والثر . والغرض الأعلى : أن يحصل للتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى . وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابه ، ويعلم منها الأحكام وتفروع الفروع . وتنتج النتائج، وتقرن القرائن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجاراتها لما يفعل أصحاب الأصول (١) .

وهكذا أصبح القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية رائد كل أديب، ومنار كل قائل ، ومنهل كل متعلم ، وميدان كل دارس - هذا إلى كونه وحى السماء للشعيل على كل أسس التشريع، والمحتوى على كل قوانين السلوك - فكان ملء عيون العرب

(١) البطلوسى فى (الافتضاب فى شرح أدب الكتاب) لابن قتيبة ص ٤١ ط

واسماعهم ، لا شريك ينازعه هذا المركز ، ولا صارف من شعر أو أدب أو فكر .
أو فن يصرفهم عنه ، ولا شاغل من شواغل الحياة إلا كانت ألوانها يشغلهم عن البحث
فيه ، والأخذ منه .

هذا ولقد جمع الإسلام أصحاب آدابه ، ووجدهم في تجربتهم الوجودية ، فأصبحت
أحاسيسهم ومشاعرهم غير أحاسيس الجاهليين ومشاعرهم .

وهذه المنيرة تناول ما يؤثر في الأحاسيس والمشاعر ، كما تناول الوحدة في
الاستجابة لتلك التأثيرات ؛ إذ المارق كبير بين إنسان بشعر بالنيه ، ويحس بأنه يعيش
في فراغ ، تخيمه الهواجس ، وتزعجه الهوائف ؛ تكشف الشمس فينخلع فؤاده ،
ويضطرب فكره . وتثور الريح فيتوقع الانتقام ، ويتف موقف الاستسلام . وبين
إنسان يعرف مكانه في هذا الوجود ، ويرف علاقته بكل كائن فيه ، ويدرك أبعاد تلك
العلاقة ؛ فهو يسير على هدى وبصيرة .

ثم إن هذه المعرفة ليست مقصورة على فرد أو أفراد لذاتهم ، ولسكنها معرفة عامة
عائنة ، تمتد جذورها في نفس كل مسلم باسم الإسلام ، وفي ظلال تماليمه وقيمه .

ولقد وحد الإسلام أصحاب آدابه في منارهم الفكرية الأساسية ، فجعلهم جميعا
يدينون بدين واحد ، ويعتقدون عقيدة واحدة ، ومن ثم فتلك الكبريم يسير في مخطط
موحد ، لا يختلف في موضوعه أو أساسه من شخص إلى آخر ، ولكمه يعتمد على
أسس ثابتة واحدة .

وعلى العكس من ذلك كان أصحاب الآداب في الجاهلية ، فقد كان لكل منزعه
الذي يوجه فكره ، ويملك حسه ، ويهيج وجدانه ، ويحرك ضميره .

وكذلك وحد الإسلام أصحاب آدابه في الاستجابة الخارجية ، فجعلهم جميعا
يخضعون لسلطان مبادئ واضحة محددة ، تنص على الشكل وعلى طريقة التعبير ؛ لأن
مبادئ الإسلام التي شملت كل مسلم ليست مبادئ مهوشة ، ولا مبادئ تقتصر على
العموميات ، كما أنها ليست مبادئ طافية تعيش على السطح . . ثم هي ليست مبادئ
فلسفية تبحث عن الأنوار لتختفي فيها ، درن أن تعنى بالظواهر .

إن مبادئ الإسلام تكسب بالشمول ، وتمتاز بالاستقصاء ، فهي في الأعماق تهتم
بالظواهر وتدكر بها ، وهي فوق السطح تبحث عن الخفايا .

ومن ثم إن هذه المبادئ كما وجهت الإنسان إلى الفكرة والمقيدة ، حرصت على أن تتدخل في توجيهه إلى الشكل وطريقة التعبير، فكان أن وسعت آدابها بالوحدة في ذلك كله .

أنصف إلى هذا أن أصحاب آداب الإسلام جميعا يشتركون في الخضوع لنظام سياسي وإجتماعي واحد، يرتبط بمبادئهم الموحدة، ويعتمد على عقيدتهم ، ويقوم عليها . وليست صمة الوحدة مقصورة على الآداب ، ولكنها تتناول كل ما يمكن أن ينفش من التطورات المحلية المتولدة عن الإسلام وأخلاقه وأعرافه في كل أجيال الحياة التي تجدد بعد ذلك .

وصفوة لبقول : إن الناقد المدارس يلاحظ أن من أهم ما طرأ على العرب بمجىء الإسلام قيمتان إحداهما قيمة فنية ، وثانيهما قيمة سلوكية ، ومن كلا القيمتين اتخذ الأدب العربي سمته الجديدة ، واكتسب مميزاته ، ظهر ذلك في محالات الأدب المختلفة من ألحان اللغة وأسلوبها ، وفنون الأدب وطرائقه وأغراضه . . إلى غير ذلك .

الفصل الثالث

أعلام من النافرين المسلمين

من المقرر أن دراسة الأعلام الفنية فى ثمايا دراسة الأدب ليس مقصودا منها الدراسة التاريخية الخالصة ، وإنما المقصود بها التعرف على الوجهة الفنية لهذا العلم ، وللؤثرات التى خضع لها منذ نشأته ، ليتمكن الباحث من الوقوف على سر موافقته أو مخالفته معاصريه أو غيرهم فى اتجاهه الفنى ، ولتعرف المدارس على أطوار الأدب ومؤثراته فى وسط أو بيئة أو عصر من العصور من خلال قمره على ذلك فى المعاصر التى تتكامل بها الحياة الفنية فى ذلك الوسط أو البيئة أو العصر .

ودراسة الأعلام الشعرية ليست مقصودة لذاتها ، وليس ضروريا أن توجه هذه الدراسة إلى أعلام بشرية ، بل قد تكون تلك الأعلام كيادا فنيا بارزا ، لا يدرك من خلال المخلوق البشرى وماتعرض له فى نشأته وحياته من مؤثرات ، وإنما يدرك من خلال العمل الفنى ذاته والنظر فى أساليب عرضه ، وماهيج تقديمه . . إلى غير ذلك ، وذلك إنما ينطق - فيما بين أيدينا - على القرآن الكريم ، والبيان النبوى الشريف ، وذلك لأن القرآن الكريم بيان رب العالمين أنزله على الناس معجزة لديه ؛ فكأنه من أدب العرب إذن مكان الصدارة والمثل الذى يحتذى ، كما أن البيان النبوى - وإن يكن بيانا بشريا - لا ينظر إليه فى مجال الدراسة الفنية ، بصفته بيان كائن مخلوق خضع لأطوار الحياة التى مرت به ، واستجاب فيه للؤثرات الفنية المختلفة ، وإنما بصفته بيانا مطريا وجه إليه صاحبه للقيام بمهمة محصورة هى مهمة الرسالة الدينية .

من ثم لم يكن غريبا على أن أجعل التمرير بالقرآن الكريم والحديث النبوى على رأس أعلام النافرين المسلمين ، إذ هما بالنظرة المتقدمة يؤديان فى دراستنا تلك دور العالمين العبيين .

(١) القرآن الكريم

هو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي قدمها بين يديه ليثبت مصدقه في دعوته لمن يحتاج في تصديقه إلى شاهد ودليل . « وقالوا: لولا أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكلفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (١) .

وهو هدى للناس ، يأخذ بأيديهم إلى الطريق السوي والشايطي الأمين . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢) . « كتاب أنزلناه إليك لنخرج الناس من الظلمات إلى النور . بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٣)

وهو يحمل دعوة الحق ، ويقرر ما تقدمه من كتب سماوية . « الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » (٤)

وهو تذكير للناس ، وتنبية إلى مسئولياتهم وما يتعلق بهم من واجبات . « وإنه لذكرك لك ولقومك وسوف تسألون » (٥) .

ثم هو كتاب قوى الجانب ، نهواه الأئمة ، لا يساميه كتاب ، ولا يدنو منه كلام ، معصوم من الباطل . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه تبديل من بين يديه ولا من خلفه قيريل من حكيم حميد » (٦) . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشع منه جلود الدين يحشون ربه ثم تلين جلودهم وتلوهم إلى ذكر الله » (٧) .

(١) المـكـبـوت : ٥١، ٥٠

(٢) البقرة : ٢

(٣) إبراهيم : ١

(٤) آل عمران : ٢ ، ٤

(٥) الزحرف : ٤٤

(٦) نـصـلـت : ٤١ ، ٤٢

(٧) الزمر : ٢٣

وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « إن هذا القرآن مآدبة الله في أرضه فتعلموا من مآدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو جبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يموج ميتوم ، ولا يزيع فيستعيب ، ولا ينعد عجايبه ، ولا يخاف عن كثرة الرد » (١) .

نزوله وحفظه .

أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الأحوال والواقف ، بحيث تم إنزاله في ثلاث وعشرين سنة وكان هذا المهج الإلهي في إنزال القرآن مثيرا لدهشة الجاهليين واعتراضهم ظنا منهم أن ذلك وسيلة يمكن بها مضايقة الرسول الكريم ، بطالبوه بأن ينزل عليه جملة ، ولكن كان في إجابة القرآن ما يسكت « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به لقوادك ورتلناه ترتيلا » (٢) . وقال جل شأنه في ذلك أيضا : « وفرآنا مرقءا لتقراء على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » (٣) . فإنزال القرآن على تلك الهيئة أحد مظاهر الإعجاز البياني فيه ؛ إذ لا يمكن لسكائن مخلوق أن يصوغ بيانه على مدى ثلاث وعشرين سنة ليتجمع في النهاية على تلك الهيئة من الإحكام والانساق ، دون أن تنبؤ عبارة عن جارتها — مع فارق الزمن للامتد بينهما — أو تتناقض مع فكرة مع أخرى ، أو يختلف مستوى الصيغة في موطن عنه في موطن آخر ، وأنى لسكائن مخلوق أن يكون على حال واحدة يوما واحدا ؟ إن طبيعة المخلوق خاضعة للتغير والتبدل لحظة بعد لحظة ، ومن ثم فنتاجه لا يستقيم على هيئة واحدة ثابتة .

ومنذ بدأ نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم وجه المسلمين إلى حفظ ما يأتي به الوحي واصطفي من صحابته من يقومون بكتابة الوحي على حسب ما يوجهه ربه ؛ ضامنا لحفظه على الهيئة التي يريد الله تعالى عليها ، حتى إذا أكمل الدين ،

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود

(٢) آية ٣٢ سورة الفرقان .

(٣) آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأتمت الدعة ، وروى الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن في صدور المسلمين وبين أيديهم مرتباً على هيئته المحسنة : « إن علينا جمعه وقرآنه بإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (١)

ولما اشتدت الحرب بين المسلمين وللرتدين على عهد الخليفة الأول ، وقتل كثير من القراء حفظ القرآن الكريم ، حتى عمر رضى الله تعالى عنه على القرآن من الضياع ، فدعا أبا بكر إلى جمع القرآن من صدور الحفظة ومن السبب والخاف قبله أن يفنى الحفظة فيضيع ويبسى ، ولكن الصديق أبى في أول الأمر ، وبعد إلحاح من عمر وابق أبو بكر ، وعهد إلى زيد بن ثابت - أحد كتبة الوحي على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بجمعه ، فجمعه من السبب والخاف وصدور الحفظة مثل أبي بن كعب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء . متحرراً في ذلك الدقة والحيلة ، فكان لا يقبل من حافظ شيئاً حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما أتم جمع القرآن الكريم حفظ في بيت أبي بكر ، ثم انتقل إلى عمر حين تولى الخلافة بعد وفاة الصديق ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة أم المؤمنين . ومن ثم كانت عملية جمع القرآن عملية الأمة في ذلك الحين . تصادر عليها أروادها ، كل يقدم ما يستطيع في سبيل إتمامه حتى إذا تم لزيد جمع القرآن ، وجدناه موثقاً أنهم التوثيق متواتراً لا شبهة فيه ، ولا شك يدنو منه

وعلى ذلك للمصنف اعتمد عمر رضى الله تعالى في إقراء المسلمين القرآن بعد أن اكتملت البلاد ، وكثر المسلمون ؛ فقد بعث إلى الشام ثلاثة ممن جمعو القرآن حفظاً ؛ هم معاذ بن جبل ، وعبد الله بن الصامت ، وأبو الدرداء ، ليقوموا بهذه المهمة متقلبين بين حمص ودمشق وبلطيس (٢) .

ولكن انقشار الإسلام ، والساع الدولة الإسلامية ، وكثرة عدد المسلمين كان أسرع وأقوى من جهد هؤلاء الثلاثة ، فلم يتمكنوا من توحيه كافة المسلمين الجدد إلى

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) أنظر الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٥٦

القراءة الصحيحة ، فظهرت حاجة الأمة إلى مصحف إمام مكتوب يضبط القراءة ، ويلتزم به المسلمون في كل مكان فاستنسخ المصنف الذى جمع على عهد أبى بكر وجعل منه أربع نسخ ، أرسل واحدة إلى كل من الكوفة والبصرة والشام ، واحتفظ بالنسخة الرابعة عنده (١) . وعلى هذا المصحف مضى القراء يقرءون الداس القرآن في بلاد المسلمين المختلفة .

من ذلك - على إجماله - يتضح أن القرآن الكريم أصدق بيان ، وأدق وثيقة تناقلتها البشرية في شتى أبعاد الحياة زمانا ومكانا ، فقد تماونت كل أبواب الحفظ ، ووسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيدا عن أى زيف ، وفوق كل اشتباه ، سواء كان ذلك بالكتابة في المصحف أو الحفظ في الصدور ، أو التلاوة الدائبة ليلا ونهارا في الصلاة وشق ضروب العبادة ، أو مراجعة آياته وتحييها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة ، أو كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الدلائل الأخرى وغيرهم ، بحثا عن سقطة وجريا وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه . « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٢) .

طبيعته :

يتكون القرآن الكريم من أربع عشرة ومائة سورة ، تقوم جميعها على منهج واحد ، ويربط بعضها ببعض نسق واحد ، ويضمها جميعا سياق واحد .

لكنها - إلى تلك الوحدة - تختلف طولا وقصرا ؛ إذ تتضمن أطول سورة ستا وثمانين ومائتي آية ، وتتضمن أقصر سورة ثلاث آيات فقط .

وتختلف منزلا ؛ إذ نزل جزء من القرآن قبل الهجرة في مكة ، ونزل الجزء الآخر بعد الهجرة في المدينة ، ومن ثم أصبحت السور إما مكية وإما مدنية ، ولكل صفاته وخصائصه .

وتختلف غرضا ؛ إذ خوطب ببعضها المسلمون في أول الدعوة ، فدارت حول

(١) البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢ .

العقيدة وما يقررها في النفوس ، وخطوب يبعثها المسلمون بعد الهجرة حين أصبحت لهم دولة ، فدارت حول العلاقات الاجتماعية وما يتصل بذلك من تنظيمات سياسية ، وتشريعات مالية وجنائية . . الخ ؛ بيد أن سورة - مع هذا الاختلاف - تقوم على الوحدة العامة ، فلا تخرج على الإطار المحيط بها جميعا .

وأعراض القرآن الأساسية متعددة المظاهر دون تدارس ؛ فهو ذكر ، وهو هدى ، وهو موعظة ، وهو نور ، وهو - مع هذا وذاك - كتاب مبين ، أو قرآن مبين : وهو يقوم في كل أغراضه على الإبانة ، ومن ثم كان البيان والإبانة من أبرز خواص القرآن الكريم ؛ تصاحب كل عرض من أغراضه - قارئاً كان للتلقي أو سامعاً - فإن كان الغرض تدكيرا فهو مصحوب بالإبانة ، وإن كان هداية فهو مقرون بالإبانة ، فالإبانة هي القاسم المشترك بين كل أغراض التعبير القرآني .

والناظر في البيان القرآني يلاحظ فيه خصيصة لا يمكن بحال أن تطلب أو تفتقر من بيان أديب مخلوق أيا كانت إمكاناته الأدب لديه ، ومهما أوتي من القدرة التعبيرية وآلاتها ؛ فالبيان القرآني لا يقتصر على جنس من أجناس التعبير ، وإنما هو يستعين بكل ما عرف من أجناس الأدب المنشور على حسب ما يتطلبه الموقف ، موضوعا ، وأشخاصا ، ومكانا ، و زمانا . وعاية^(١) . ثم هو في كل جنس يتردد بين الإيجاز والإطناب والمسارة ، بحيث تراه في كل حالة البيان الأمثل ، والتعبير الاسمى الذي لا يداني .

هذا ويلاحظ من يتصل بالقرآن اتصال درس أنه ميسر «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»^(٢) . فالقرآن يسر يتلى ، وحير ينساب ، لا عسر فيه ، ولا حوائل تمنع عنه مريدا ، فهو قريب من كل نفس ، قريب من كل قلب وعقل . هو كتاب كل إنسي وجان ، ليس للخاصة دون العامة ، ولا للعامة دون الخاصة ، فليس فيه ما في العلوم والفنون من مستملقات ومصطلحات لا يعرفها إلا أربابها ، ولا يعلمها إلا من راض نفسه على تعلمها ، ليس فيه ما في كتب العقائد والفلسفات من لف ودوران ، وإقدام وإحجام ، وتحليق فوق الحقائق ، ولشتيت المدهن . . ما يرد على القرآن وارد إلا أصاب منه

(١) راجع بتوسع لهؤا ف : البيان القصص في القرآن الكريم .

(٢) القمر : ١٨ .

خيرًا ، وتروى منه براد طيب كريم ؛ فهو ليس كتاب العلماء وحدهم ، وليس كتاب الفقهاء ورجال العقائد وحدهم ، وليس كتاب من اهتدى ومن آمن وحده ، وليس كتاب من يهتد إلى الاهتداء والإيمان وحده . ليس كتاب طبقة أو طائفة من الناس دون باقي الناس . . . إنما هو كتاب رب العالمين للعالمين من إنس وجان ، كل يأخذ منه على قدر ما يباغح حمده وتدفع له اسمه وقابله .



فالقرآن الكريم نعط فريد في الأساليب العربية ؛ له سماته وخصائصه التي تميزه عن أساليب المخلوقين ، ولهذا التميز والتفرد مظاهر كثيرة من أبررها : تميزه في نظامه ، وتميزه في أسلوبه ونهجه ، وتميزه في تماسقه وتلاؤمه ، وتميزه في القيام بأغراضه التعبيرية المختلفة ، وهذا التميز والتفرد الذي يتسم به القرآن الكريم يلحسه كل من يلتقي به على أية هيئة .

أنظر إلى قوله تعالى في تصوير أبي لهب وروجه : « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أعى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » . نجد وحدة تعبيرية كاملة ذات مطلع وموضوع وقرابة ، وذات الساق في الجور الموسيقى والموضوع والألفاظ ، وذات مشاهد مصورة ، وصورها ذات ألوان وظلال . كل هذا وذاك يمشى في روعة ودقة تلهم الثلاث وعشرون كلمة في خمس آيات

وأنظر إلى قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدهك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . وأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ، تجد - كذلك وحدة تعبيرية كاملة - على نحو ما ذكرنا - تقدمها أربعون كلمة في إحدى عشرة آية .

ثم أنظر التعبير القرآني في سورة المسد - حيث الحرب والإيماد - وفي سورة الصبحى حيث التطمين والهدئة ، تجد اختلافًا في كل شيء .

وسورة المسد نموذج من نماذج التحدى ، وسلسلة من سلاسل الدفاع عن الدعوة

ورسولها ، ومن ثم حمل مطلبها في أوله دعاء بالهلاك والبوار ، وختم بتقرير هذا الدعاء وتأكيده . وعلى هذا التسق سارت السورة ، حتى قدمت امرأة أبي لهب في صورة حية تذر بالهلاك والبوار - كذلك - ونشر السخرية منها والاستهزاء بها ، حيث نرى حاملة وسيلة إحراقها هي وزوجها ؛ فإذا كان هو أبو اللهب وحامله ، فهي صاحبة الخطب وحامله . . فإذا كانا قريبين رأياها . أرا في - - ورة إنسان تشتعل وتسمى بين الناس ، وتجر ورامها زادها الذي يعدها بالوقود

وسورة الضحى نموذج من نماذج التلمية والتدريية ، والترويح والتطمين ، ومن ثم نسج مطلبها إطارا شفافا رقيقا صائبا ، من الضحى الرائقة ، والليل الساحل ؛ إذ هما أصنى أوقات الليل والنهار وأشرفها ، بهما تسرى الروح ، وتطلق النفوس فإذا هي مستتركة في ^{الأماني} . وفي داخل هذا المطلع ينشئ - البيان القرآنى صورة من نعمات رقيقة بها الحب الصادق ، والحنان اللطيف ، والإقبال العادل ، والرضا الشامل ، والرحمة الوديمة ، والشجى الشفيف ، والوعد القاطع . تأت هنا أمام لوحة مانحة أتم الالتئام ، وظلال تسرى منها الإيماءات الصادقة ، ليتسق المشهد مع حقائق الواقع ، مع الجور النفسى ، مع أحداث الأحداث .

وفي معرض آخر انظر إلى قوله تعالى : يفند مراعم الشركين في شأن العقيدة : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يشركون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا مسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يعمل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشعرون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » . تجد البيان المتسق مع موضوعه ، وهو يقلب الأمور على شق وجوها ، بحيث لا يترك لدى مشكبه شبهة ، ولا أدنى فرصة لإثارة من شك . تأت هنا - في مجال المباشرة العقلية - مع بيان هادى . يعم - ل على تفتيح الآفاق المختلفة أمام الشركين ، إفاذا لهم من الردى والهلكة . فإذا نقلت نظرك إلى موطن آخر من مواطن العقيدة

مع قوله تعالى : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له
كفووا أحد . وجدت الأسلوب اللطيف المقرر ، الذي لا يناقش ولا يحتمل أدنى
مراجعة أو تفكير .

وهكذا كلما رددت نظرك في آيات القرآن وسوره وجدت البيان الذي لا يداني ،
والنسق المعجز ، الذي أقر بروعته المدعو الجاحد له مع المؤمن به المطمن إليه ، والذي
أخذ العرب الأدباء أنفسهم به في ثراهم وشعرهم ، فتحولوا عن طريق أسلافهم ،
وقدموا لنا أدبا حديدا على مدى الأجيال المتلاحقة .

(٢)

الحديث النبوى

والذى نقصده بالحديث النبوى هنا هو ما أثر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وتواترت بنقله الروايات أو نص اللماء على أنه روى بالفظه ، فهذا الذى يتصل بدراسة فى الأدب العربى . أما ما عدا ذلك من حمرة الأحاديث صلى الله عليه وسلم التى حرص فيها الرواة على المضمون دون اللفظ ، فاختلفت ألفاظها من راو إلى آخر ، فهذه لاتصل بما نحن فيه ؛ فهى من صياغة الرواة على اختلاف أزمته .

والحديث النبوى - على عمومه - نسق بيانى جديد على الأدب العربى إذ لم يسبق صلى الله عليه وسلم أحد إليه ، ولا عرف مثاله لاحد قبله ، حتى قال له الصديق مرة : لقد طفت على العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أنصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبى ربي فأحسن تأديبى . وإذا ذكرنا مع هذا أن أبا بكر هذا كان فى علم العرب وأسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها النباة التى ينتهى إليها ويوقف عندها ، حتى لا يبدل به عدل استطعنا أن نصح هذا الحكم موضعه .

وأهم ما يتميز به الحديث الشريف أنه بيان عربى موحد العرض ، محكم الدسق . يوضح تشريعا ، أو يوجه إنسانا ، أو يصور موقفا من مواقف الإيمان أو الكفر . . إلى غير ذلك . فى إيجاز وإعجاز ، تحول به إلى حكم مأثورة ، وأمثال سارة . قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كبردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفى روايه أخرى عنها أيضا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو هذه الماد لأحصاه . وهذا يعنى أن منطقته صلى الله عليه وسلم يرالفه فكر قبل أن ينطلق إلى انهم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه ، مصروف له ، حتى لا يمتريه لس ، ولا يتخونه نقص . ومن ثم قال كلامه صلى الله عليه وسلم ، وخرج قصدا فى اللفظه ، محيطا بمعانيه ، تحسب النفس قد اجتمعت فى الخلة القصيرة والكلمات للمدودة بكل معانيها ، فلا ترى من الكلام الفاظا ، ولكن حركات نفسية فى الفاظ . ولهذا كثرت جوامع كلمه ، وحلص أسلوبه ، ولم يقصر فى شيء ، ولم يبالغ فى شيء ، وتم له من هذا الأمر

على - كمال المصاحفة والبلاغة - ما لو أراد مريد لمعجز عنه ، ولو استطاع إنسان بعضه لما تم له في كل كلامه ، ويكفيه أنه كان تليذ القرآن ، يهجه الوحي ، ويرشده إلى القول الفصل بمثل قوله تعالى : « وحادلهم بالتي هي أحسن » ، و « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقلوا أشهدوا بأننا مسلمون » .

ونظرة إلى نماذج من مآثور حديثه صلى الله عليه وسلم تنطق بما نطق به الجاحظ من قبل فتقول : « لم يتكلم إلا بكلام قد حذف بالمصحة ، وشيد بالتأيد ، ويسر بالتوفيق » (١) . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار : « ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع ، وتكثر عند الفزع » . وقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدباؤهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتي صالحا أمرها ما لم تر الأمانة مغمنا ، والصدقة مغرما » . وقوله : « إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، للوطنون أكفأ ، الدين يألون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتلفعون » ، وقوله : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تمتصوا بحبله حميما ولا تفرقوا ، وأن تصحوا من ولاء الله أمركم . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وقوله : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، وإنما لك من ماله ما أكلت فأديت ، أو لبست فأبليت ، أو وهبت فأمضيت » . وقوله : « أوصاني ربي بتسع : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالتقوى في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمي ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صنتي فكرا ، ونظمي ذكرا ، ونظري عبدا » ، وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة في البحر فاقسموا نصار لكل رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكان أصعب به ماشئ ، فإن أخذوا عليه نجوا وبجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » .

وعلى الإجمال يستطيع الناظر في الحديث النبوي أن يلمس أثره في الأدب العربي

منذ صدر الإسلام إلى العصر الحديث، بما أدخل على الأدب من تراكم بيانية جديدة،
فرفع منزلة النثر وخطابه خطوة أبعدته عن سجع الكهان، وفتحت له آفاقاً جديدة
من ذون الأدب. هذا إلى أنه كان إلى جوار القرآن الكريم مساعداً على توحيد
اللهجات العربية، والحفاظ على لغة العرب وذوقها، وتوسيع مادتها، مما أشاع من
الفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص، كما أنه فتح
أبواب دراسات جديدة لم يكن للعرب عهد بها، مثل علوم الحديث وما تفرع عنها من
تراجم المحدثين، وكتب الحديث، وما عليها من شروح وتعليقات واستنباطات بيانية
وتاريخية ولغوية... إلى غير ذلك.

(٣)

أبو بكر الصديق

تولى زمام الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، فعمر بن الخطاب ، فعثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، فخرص كل منهم على أن تظل الدولة الإسلامية كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تغير كبير ، فكانت البيعة امتدادا لعهد الرسول ، لانسداد تشدده في شيء ، وكان أثر القرآن الكريم وبيان الرسول عليهم ما رآه قديما ، والصحابة جميعا ينهلون من معينهما البياني والأخلاقي والعقدي ، لا يشاركنها معين آخر فيه ، فكانوا - في مجملهم - مظاهر متحركة يتمثل فيهم البيان القرآني والنبوي ، حيث سرى في نفوسهم بما يتضمنان من ترعيب وترهيب ومواعظ تنزيهات ؛ فبدأ ذلك في سلوكهم حلقا رويما ، وعلى السنتهم بيانا ناضجا تراءى في خطابتهم وكتاباتهم

أما الصديق أبو بكر فكان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي بالإسلام ، وكان أدل من أسلم من الرجال ، وظل الرقيق للالصق لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والصديق المؤازر له في كل مراحل الدعوة ، حتى تولى الخلافة وهام على أمم المسلمين ، فكان أثر البيان القرآني والديان النبوي فيه واضعا ، تجلى في ذلك البيان الإسلامي المتدفق من لسانه تدفق السيل ، دائرا في إطار المعاني الإسلامية وقيمته الروحية ، كما يرى في خطبته حين تمت البيعة له ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

د أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل وسعدوني - أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، إلا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، واضعكم عندي العوي حتى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم (١) .

وأهم ما يلفت نظر الدارس في هذه الخطبة إيجازها ، والدقة في اختيار ألفاظها ، والصرامة في القوة في عباراتها ؛ فإذا عرفنا ملائمتها أدركنا وعيه رضى الله تعالى عنه بالموقف وما يستدعيه ، وحرصه على أن يتلالم في خطبته مع الموقف . وذلك أنه قال هذه الخطبة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ووجه باضطراب المسلمين في مواجهة الصدمة اضطرابا جعل الكثيرين منهم - وفيهم عمر بن الخطاب - يرفضون التسليم بهذا اللبأ ويقولون إن الرسول لم يميت ، فأقبل في حزم وكشف عن وجهه صلى الله عليه وسلم وقال . بأبي أمي رأيت طبت حيا وطبت ميتا ، وخرج إلى الصحابة فالتقى فيهم خطبته المشهورة التي ارتكر فيها على القرآن الكريم ليقطع على كل شاك شبهة ، وفيها قل : « من كان يعبد محمدا إن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ، ثم أخذ في تلاوة الآيات الكريمة التي ترد عليهم شبهاتهم مثل قوله تعالى : « إنك ميت وإنتهم ميتون » ، وقوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أم إن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، ثم تلا قوله عز وجل : « كل نفس ذائقة الموت » ، وقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، فذاب الجميع إلى الرشد ، ورجعوا إلى الصواب (١)

كما ووجه في الموقف نفسه بؤادر اختلاف المسلمين حول قيادة الأمة ، فقد بلغه أن الأنصار قد احتجموا إلى سعد بن عباد بن سقيفة بني ساعدة يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراه ذلك ، وحشى على الأمة من التمرد والطمع في الملك ، فبادر إليهم هو وجمع من الصحابة حتى يقص على هذه التفتت بني مبهدها ، فلما انتهت بتوليته أمر المسلمين التي خطبته تلك .

ولا ريب في أن مثل هذا الموقف لا يتحمل خطبه أطول من ذلك ، ولا يتسع المجال لمزيد من التفصيل والإضافة .

فإذا نظرنا في خطبة أخرى له ، وجدناه رضى الله تعالى عنه ملتزما بمنهج التراما بيدا ، حيث يحرص على مراعاة الوقت واستدعاءاته ، كما نرى في إحدى خطبه الوعظية التي يقول فيها :

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٤٥ وما بعدها

« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أحلصتم لله من أعمالكم فطاعة أنيتموها ، وحفظ ظميركم ، وضرائب أدبتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم اعترت ، اعباء الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم الآن ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يبطئه به حيرا ولا يصرف عنه به سوءا إلا بطاعته وأتباع أمره ، واعلموا أنكم عباد مدينون وأن ما عده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده المار ، ولا شر بشر بعده الجنة » (١)

والخطبتان تحتلطان إطنابا وإيجارا بمقدار اختلاف الموقفين ، والإطناب في الخطبة الأخيرة يقوم على التمهيد للمشخص ، والخيال المفرط الذي يقل المشاهد من عوالم غيبيتها السنون ليراها السامعون من حلال آذانهم فإذا هم يجمعون بين ما كان وما يكون ، لتتضح المظنة ، ويقتنع بها العقل ، وينبض لها القلب ببص الاستجابة والقبول .

أما مادة الخطبتين مستمدة من القرآن الكريم والبيان النبوي ، وروح الإسلام . ولم يبق الصديق بخطابته عند حد الموعظة والدعوة ، وبيان السياسة والمنهج الحكومي ، بل أضاف إلى ذلك غرضا آخر استغل الخطابة فيه ، وذلك أنه كان يخطب في الجيوش الخارجة للدواع عن دين الله موصيا الجيش وقادته ، مستقيا وصاياهم من روح الإسلام ، مقتبسا قدر الاستطاعة من وصايا القرآن الكريم والذي صلى الله عليه وسلم حيث يدعوهم إلى التمسك بسماحة الإسلام ، في معاملة المغلوبين ، ويحذرهم من الحيانة والتدر ، وينهاهم عن التمثل بالقتيل ، وعن قتل الصغير والشيخ الكبير والنساء الآمنات . . الخ ، تلك الوصايا المقررة في ظلال الإسلام ، كما نرى في وصيته جيش أسامة بن زيد حين سيره إلى الشام ، وفيها يقول :

« أيها الناس قهوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني . لا تخونوا ولا تملوا » (٢) ،

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٠

(٢) عل : حان في النجاء .

ولا تندروا ، ولا تمثاها ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقمروا^(١) نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بئرا إلا للأكلة ، وسوف تعرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له^(٢) .

ولعل أبرز سمات الصديق في خطابه تأييد السجع ، وحرصه على إزالة الالفاظ ، ووضوح المعاني . وتمكنه من الكشف عما يحتلج بنفسه . ويريد أن ينقله إلى سامعية .

(١) قمر النخلة - بفتح القاف والميم - استأصلها وقطعها .

(٢) العبرى ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٤)

عمر بن الخطاب

وأما الفاروق عمر بن الخطاب فقد كان أحد العبرين اللذين دعا الرسول ربه أن يعز بأحدهما الإسلام ، وكان هو الذي استجاب الله بإسلامه دعوة نبيه . وكان منذ أسلم المقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المصطفى لمشورته . وما زال على ذلك حتى توفي صلى الله عليه وسلم ، فظل على مكانه من خليفة رسول الله الأول ، فكان له الوزير والمعين والناصح والمستشار ، ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا ، فقد كان الفاروق قريبا الشبه بالصديق صدق عزم ، وضوح رؤية ، وصحة بيان ، وبلاغة لسان ، ورحابة عقل ، ونفاذ بصيرة ، وقوة شكيمة . وقد طبقت شهرته الخافقين حكمة ، وعدلا ، وحلما ، وعزما ، وحسن سياسة ، فأقبلت البلاد والممالك على الإسلام ودولة الإسلام قرارا من ظلم الملوك والحكام ، حتى اتسعت في عهده الدولة الإسلامية الساعا لم يهد في التاريخ مثله ، فقد فتحت بلاد فارس والشام وبصر .

ولهذه الحلال مجتمة كان له من التأثير في عقول وقلوب سامعيه ما يكشف عن مدى صدقه ، وقوة بيانه ، ومصاحبة لسانه ، كما يطلعا على ذلك مثل قوله في إحدى خطبه الوعظية :

« إن الله سبحانه وبجده قد استوجب عليكم الشكر ، وانخذ عليكم الحجج آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، خلقكم تبارك وتم إلى - ولم تكونوا شيئا - لنفسه وعبادته . . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة وحكم في البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لما لكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعا وبصرا ، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم احتص بها أهل دينكم ﷺ ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو تم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أنعمهم شكرها ، ومدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلفون في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . والله الحمود مع الفتوح العظام في كل بلد نسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسايرة إلى مرضاته . »

ومن أهم ما يلاحظه الناظر في هذه الخطبة وغيرها من خطبه رضى الله تعالى عنه خلوها من السجع الذى كان يكلف السكهاً به في ذلك العصر ، ويحرصون عليه كل الحرص ، والهاروق في ذلك ومن قبله الصديق ومتأثران بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم ، حتى لقد أثر عنه أنه أنكر على سحرار العبدي استخدامه للسجع دون حاجة إليه ، فقد روى الطبرى أن الفاروق سأل سحراراً عن (مكران) الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال سحرار : « يا أمير المؤمنين أرض مهلهل جبل ، وماؤها وشل (١) ، وتغر دقل (٢) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثرة الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا » . فقال عمر : « أسجاع أنت أم مخبر ؟ » فقال سحرار : بل مخبر (٣) .

كما يلاحظ أنه يسير فيها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبه من الامتناع بحمد الله وتعظيمه ، والالتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتمتاز خطبة الفاروق هنا بطول عباراتها ، حرصاً منه على تفصيل الحجة ، وتوضيح البرهان ، وبسط القول ، منوع وقسم ، وصور وشخص ، وهو في كل ذلك يدور في محور نعم الله على الإنسان وما تستوجبه من شكر الله عليها .

وكما كان الصديق يخطب في الجيوش الخارجة للنزول موصياً وموجهاً . كان كذلك الفاروق ، ربما أثر عنه في ذلك أنه لما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أحابه حينئذ إلى الجهاد - وهو أبو عبيد بن مسعود - وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشركهم في الأور ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تنبئ ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكث (٤) الذى يعرف الفرصة والكف » .

وله إلى ذلك وصايا كثيرة يوصى فيها الأوصياء والقادة ، ومن ذلك ما أوصى به الخليفة من بعده ، وهي وصية طويلة جاء فيها :

« أوصيك بتقوى الله لاشريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن

(١) الماء الرشل . القليل . (٢) الثمر الدقل : الردىء .

(٣) راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) المكث : الرزين المتبصر في الأمور .

نعرف سابقتهم ، وأوصيك بالانصار خيرا ، فأقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيك بأهل الامصار خيرا فإنهم ردة^(١) العدو ، وجباة الأموال والنفى ، لا تحمل قيمهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٢) أموال أغنيائهم فتد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الدمة خيرا ؛ أن تقابل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتله أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تحشى الله في الناس ولا تحشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والنفخ لحوائجهم وتثويرهم^(٣) . ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . وأمر أن تشتد في أمور الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، واجعل للناس سواء عندك لاتبالي على من وجب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وأياك والآخرة والمخافة فبا ولاك الله بما أفاء الله على المؤمنين ، فتجاوز ونظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ماقد وسمه الله عليك » .

فالوصية كما ترى دستور ضمنه عمر نظام الحكم القدي يجب أن يكون في ظل الإسلام ، تناول فيها كل ما يحتاج الحاكم والمحكوم إيضاحه وتقريره ، في أسلوب واضح بليغ ، لا فضول فيه يضل معه السامع ، ولا إيجاز فيه يختل معه المقصود ، والكلام - كما ترى - ينساب انسيابا لا تشعر معه بتسكف ، ولا تضيق الأذن بسماعه ، فهو عبارات سهلة مع جزالتها وقوتها ورصانتها ووضوح المقصود منها .

(١) الردء : المدين ، فهم يعينونك على العدو .

(٢) حواشي الأموال في البادية : صفاء الإبل والنعيم .

(٣) الثغور جمع ثغر : وهو هنا الخلة والحاجة .

على بن أبي طالب

على بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول من أسلم من الصبيان ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في كنف الوحي ، فكان القريب المقرب منه صلى الله عليه وسلم ، عايش القرآن ، وجاور الرسول ، فتخلق بخلق الإسلام ، ودان به في كل علكيره ونصوره ، فلم يقل عن سابقه شأوا في خطابه وبيانه ، بل لقد أتبع له من دوافع الإنابة ما لم يتح لغيره ، فأثر عنه خطب كثيرة تصدى فيها للخارجين عليه ، مما أتاح الفرصة للذس عليه ، ونسبة ما لم يقل إليه مما ضمنه كتاب « نهج البلاغة » للنسوب إليه كرم الله وجهه . ولقد تصدى لذلك كثيرون من المؤرخين والادباء ، نفخوا أن يكون هذا الكتاب كله من صنع على رضي الله تعالى عنه ، وإنما هو في أكثره محمول عليه ؛ لما تتضمن خطبه من السب للعريخ في السيدس أبي بكر وعمر ، والخط من هأنهما ، ولما ينطوى عليه من التناقض ، ولما فيه من المبارات الركيكة ، والجلل الضعيفة التي يجرم من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة ، وبناس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين . . بأنها ندمت إليه باطلا وزورا (١) .

ومن ثم كان على المدارس أن يتحفظ في الأخذ من كتاب « نهج البلاغة » وغيره من كتب المتأخرين ، ويرجع في ذلك إلى المصادر الأولى مثل البيان والتبيين للجاحظ فقد روى طرعا من خطبه ، مثل خطبته التي وجهها حين تقاعس بعض جنده ، وأخذت جنود معاوية تنير على أطراف العراق ، وفيها يكشف عما في نفسه من ألم وضيق بصنيع هؤلاء المتقاعسين ، كما في قوله (٢) :

(١) انظر (لسان الميران) لابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ طبع حيدر آباد ، وميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ٢٠١ طبع لكهنو ، وشذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٥٧ طبع القاهرة ، ومرآة الجنان للياقبي ج ٣ ص ٥٥ طبع حيدر آباد .
(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٣

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وقمحه للبلاء ، ولزمه الضيق ، وسيم الحسف ، ومع الصف (١) إلا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اعروهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتوا كلمتم وتحاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شات عابكم المارات .. فيأعجبنا من حد هؤلاء القوم في باطلهم ، ومثلكم عن حقكم .. حتى صرتم هدها يرمي ، ويثأر ينتمب ، يقار عليكم ولا تغفرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد ورثتم (٢) صدرى عيظاء وجرعتموني الموت أنفاسا (٣) ، وأفسدتكم على رأيي بالمصيان والخذلان . »

والخطبة من أولها تعان عن حاله كرم الله وجهه وحال الجيش ؛ وتكفي النظر إلى ما طلع به عليهم من تعريف بالجهاد حيث لم يطل الوقوف مع ما ينتظره المجاهدون ، قدر إطلالته الوقوف مع ما ينتظره المتقاعدون الممارون ، فأكتفى في الإخبار عن الجهاد بخبر واحد ، وأحبر عن من ترك الجهاد بحمسة أخبار متعاطفة في سلاسة حتى لتبدو كأنها خبر واحد يضم خمس صور من صور البلاء الذي يتوقع لمن يقعد عن الجهاد .

كما يعلن عن البراءة مما أوقع هؤلاء أنفسهم فيه ، فقد قام بدور القائد البصير ، فلم يترك لحظة تمر إلا حث بها جنده على مواصلة القتال حتى لا تدور عليهم الدائرة ، ويقع بهم المخذور .

فالخطبة كما ترى إعداد منه رضى الله تعالى عنه ، وتبرؤ من التقصير أو الإهمال ، وضيق بموقف الجنود المتخاذل ، وشعور بالمرارة لما حدث .

وقد اضطرته حروبه مع الأمويين إلى الإكثار من هذا اللون من الخطب ، بيد أنه لم يف على ذلك ، بل أترعته كثير من المواعظ في مناسبات مختلفة ، منها قوله (٤) .

(١) الصف - بفتح النون والصاد - الإنصاف .

(٢) ورثتم : ملأتم ، من روى القبيح جوهه إذا أكله .

(٣) الأنفاس جمع نفس - بالتحريك - الجرعة من الماء ونحوه .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٢

« إن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوادع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار^(١) ليوم والسباق غدا ، ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمه ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، ألا وإنى لم أر كالجبة نام طالها ، ولا كالنار نام هاربها ، .

وهكذا نجد رضوان الله تعالى عليه في كل خطبه على اختلاف للواقف والدواعي - خاضعا لقيم الإسلام ومبادئه ، سائرا بمحذات القرآن الكريم والبيان للنبي الشريف لا يشذ عنه ولا يخرج عليه ، في أسلوبه وعباراته والفاظه وأخيلته ومعانيه .

(١) المضمار : الزمان الذي نصور فيه الخيل للسباق .

الفصل الرابع

فنون النثر الإسلامى وخصائصه

(١)

الخطابة

عوامل تطورها :

ظلت الجاهلية بمؤثراتها مهيمنة على الفكر والتصور والسلوك فى المجتمع العربى ، وبدأ هذا التسلط فى شق أعمالهم وأقوالهم ، حتى إذا جاء الإسلام بحضارته أخذت عوامل التحول تتابع من حولهم ، وتهمزم المرة بعد المرة ، حتى إذا غمرتهم مؤثرات الإسلام رأينا تحولاً تاماً فى الفعل وفى القول وفى التفكير وفى التصور والتخيل .

ونستطيع أن نلمس هذه المؤثرات الإسلامية إذا نحن نظرنا النظرة الفاحصة المقارنة . . أولاً : إلى العربى فى عهدى (الجاهلية والإسلام) ثانياً . إلى الواد للفكرى والعاطفى والوجدانى الذى قدمته للبيئة الجاهلية لأهلها ، ثم الذى قدمته للبيئة الإسلامية لأهلها .

ومن النظر فى تلك المؤثرات نستطيع أن نقف على أهم عوامل التحول التى كان لها أكبر الأثر فى تطوير الخطابة العربية ، وتتلخص تلك العوامل فى :

١ — أمثلة الخطابة التى قدمها القرآن الكريم ، وقد وجد العربى فى تلك النماذج الخطابية شيئاً غير ما اعتاده — ربما كان هذا الشيء بى نفسه لكنه ما كان ليوجد لديه القدرة عليه — لما إن سمع العرب القرآن حتى فتنوا به ، وذهلوا عن الأخذ منه والانتفاع به ، ولما أنصتوا إليه وقرأوه أنسوا له ، فأقبلوا عليه ، فإذا بهم أمام غط آخر من الخطابة يباير ما عرفوا من أعماطها ، فهو يقصد إلى التأثير والإقناع مما فى أسلوب تربطه وحدة أقوى من الوحدة النفسية ، مع اشتباهه — كذلك — على الوحدة النفسية .

فأثموا أنفسهم ترسم خطاه ، وانتهاج سبيله ، والسير على هده ، وأخذ أسلحتهم بقوانينه
الأسلوية ، وترويضها عليها حتى تمتد على ذلك السبيل الجديد .

وذلك أنهم قرأوا الخطاب القرآن الكريم الموجه إلى بني إسرائيل في سورة البقرة :

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوبوا بعهدي أوف بعهدكم
وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به .
ولا تشتروا آياتي بثمناً قليلاً وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأركبوا مع الراكبين . أتأمرون الناس
بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة
والإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون .

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .
واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل
ولا هم يصرعون » (١) .

ويحتاج الخطاب على هذا النمط حتى يقطع أكثر من ثمانين آية (٢) . ومن أبرر
ما يلمسه دارس هذا النص عمق الأسفار التي يعرضها ، وترتيب هذه الأسفار ترتيباً
لافتقار فيه ولا تكرار ، ومسار النص ومنهجه في عرض المواقف ، والنص - كما ترى -
يسير في اتجاهه واضعاً مستقيماً كل ما يتعلق بالموضوع من جزئيات تدفع الخطاب في
طريقه . ونميه ، متجاوزاً كل جرئية نجمد الموقف ، أو تحول الأظفار عنه هذا إلى
أن الدارس يحفظ حرص النص على إداية ما قد يشأ عن طول الخطاب من الملل أو
الانصراف والتحول . . . وذلك يجعل الأسلوب مزاجاً من الخطاب والنية والتسليم
(الالتفات) - مع الحرص على أن يكون لتلك الالتفات وظائف أخرى أسلوية ليس
هنا محال الحديث عنها - وحمله مزاجاً من التذكير والنهي ، والوعيد والوعيد ،
والتساؤل المنهكم الساحر ، والوصف الشامل . . إلى غير ذلك .

وهكذا بلغ الإعجاز حداً جعل الخطاب قضية من قضايا السكر ، ذات مقدمات

(١) البقرة ٤٠ - ٤٨

(٢) البقرة ٤٠ - ١٣٣

وتتائج يصل إليها المتلقي ، وتقرر في ذهنه بمجرد سماعه لذلك الخطاب . وما كذلك كانت خطابة العرب ، ولا وقع في أسماعهم من قبل خطبه تيسر هذا المسار (١) .

٢ — استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لمنهج الدعوة الذي أنتمه إليه ربه في قوله . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وجادلهم به أحسن . وهذا المذهب في الدعوة تيسر أكثر ما يتيسر في الخطابة ، وهي حير ما يستمين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، وهي حير ما يستمين به الأنبياء والمصاحون في الدعوة إلى دياناتهم ؛ لأنها أمثل وسيلة تيسر الاتصال بالجمهور ، وتتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم ، والإجابة على ما يطغى فوق سطح أذهانهم من حجاج ، ولأنها تمكن من التأثير في الجماعات ؛ ولذلك اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة بيت بها دعوته في نفوس العرب وغير العرب ، ويعتمد عليها في إقناعهم بصدق ما جاء به ، ولذلك — كذلك — اتخذها أداة يؤكد بها مبادئ الإسلام ، ويقرر بها في نفوس المسلمين . ومن ثم أصبحت الخطابة وسيلة العمل والولاء الدين يبعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمصار ، حيث يقوم الوالي أو العامل حطيا في الناس حين يصل إلى معبره ، ليبين لهم منهجه ، ويوضح لهم طريقته التي سيسير عليها معهم ، حتى أصبحت سنة يتبعها كل خليفة ، ويستهل بها عهد الجديد كل وال .

ومن ثم أهتم المسلمون بتعديل منهج الخطبة بما يتلاءم مع وظيفتها الخطيرة التي وظفوها فيها ، فعملوا خطبة أجزاء لما ابتداء واحتمام ، وبين هذين يعرض الموضوع مناسكا ، مرتبا ، واضحا ، مقاما مغريا ، صادقا . واشتروا في المقدمة شروطا أملاها عليهم إحساسهم بجليل شأن الخطبة ، وتقديرهم الأبدان التي يغزونها بها من نفوس السامعين ، فالتزموا فيها — إلى كونها مقدمة للموضوع ، موطئة لا كسامه — الافتتاح بالتحميد والتعجيد لله ، والصلاة والسلام على النبي .

٣ — ما استلزمه مجيء الإسلام من صراع بين من يدعون إليه ومن يربعون عنه ويقفون في وجهه ، كان عاملا في انتماش الخطابة ، وبابا واسعا ينفذ الدعاة منه إليها ؛ سواء في ذلك المسلمون الداعون إلى الإسلام ، والمشركون الماوثون له .

(١) أريد من التفصيل اطر هذه المؤلف (أثر الإسلام في الخطابة العربية) ص ٥٥

وما بعدها .

وهكذا نتج عن ذلك الصراع حرب كلاسيكية تساقطت فيها عن الخطابة عيوب الجاهلية ، ورادت بها - على الأيام - قوة وتأصلا .

٤ - انجاء الادباء العرب نحو القرآن الكريم . . بما كون أسلوبه ، ويقتبسون من آياته ، ويتأبون منهجه وأمسكاه : أكبوا على القرآن بكليتهم ، ونقلوا عنه فيما كتبوا وخطبوا ، لا مرق في ذلك بين المظاهر من حيث الأسلوب والصياغة ، وبين الحقائق من حيث الأمسكاه والمعاني ، ومن حيث الصور والأخيلة . هذا إلى توشيح خطبهم وكتاباتهم بآيات من آياته يقتبسونها ، حتى قال الجاحظ : إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت شوهاة (١) . وقال كذلك : كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك يرفع الكلام للبهاء والوفار وحسن للوقع (٢) .

وتأثر النقد الأدبي بذلك فأصبح حيا في الخطيب ألا يتعجل بالثقة انقرآنية ، وأصبح عيبا في الخطيب ألا تبدو تلك الثقة انقرآنية في خطبته ولم يقف عند حد الميب ، بل لقد كان ذلك دليل عجز ، وعنوان خواء ، فقد أشار الجاحظ إلى عجز الأعراب الجفاة الذين لم يتفقهوا في الدين عن بحادة الخطبة (٣) . ويحدثنا عمران بن حطان خطيب الخوارج المشهور يقول : خطبت عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقهر فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخا يقول : هذا اللق أحطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن (٤) .

ومعروف أن الأديب محرر السائد ويوحه ، ويعلى عليه ما يكتب وما لا يكتب ، إلا أن يكون الأديب متفوقا على معاصريه . سابقا مناهجهم فيكون رائد تجديد . ولا يلتزم بإملاء السائد . لأنه حينئذ يكون قد شآء . . ومن ثم نبضت الخطابة الإسلامية

(١) البيان واليمين ج ٢ ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٨ .

بروح غير الروح التي كانت تتحرك بها الخطابة الجاهلية . . استمع إن شئت إلى هذا الجزء من خطبة للمصديق أبي بكر :

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا أن ما أحلصتم الله من أعمالكم فطاعة أقيموها ، وحظ ظهركم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قد متموها ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا بالأمس ، وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ أين الذين لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ؟ وقد تضرع بهم الدهر ، وصاروا رميا ، قد تركت عليهم القالات ، الحبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات .

وهكذا كان للقرآن الكريم بنسقه وأسلوبه وصياغته ، ومعانيه وأفكاره ، وأخيلته ، ذلك الأثر البالغ في توجيه الرب المسلمين حيث ترسموه وساروا على هدايه ، وضمنوا أعمالهم الأبدية من آياته ، واقتبسوا منها ما ترقى بفن الخطابة ، وبث فيها روحا تلبيص بالمعاليه والحياة .

أو استمع إلى هذا الجزء من خطبة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بدواع ، وأن الآخرة قد أقبلت فأشرفت باطلاع ، وأن المضمار اليوم وغدا السباق . ألا وإنكم في أيام أمل من وراء أجل ، نحن قصر في أيام أمل قبل حضور أجله فقد خسر عمله . ألا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . ألا وإنني لم أركب لجنه نام طالبا ، ولا كالنار نام هاربا . ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى حارب الضلال ألا وإنكم قد أمرتم بالظن ، ودلتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل (١) .

ثم انظر - مع الأفكار والمعاني - إلى هذا النسق الذي قدم فيه الإمام علي خطبته وإلى تلك الانتقالات الرشيدة ، وإلى ذلك العرض الواضح المترابط ، تجدد التأثير بالقرآن الكريم بيننا ، والتمثل بأسلوبه وطريقته في العرض مقصودا إليه .

٥ - ما جاء به الإسلام في ضمن أنظمته من حرية في إبداء الرأي ، وهورى فى نظام الحكم ، مما جعل طائفة من الأمة تتحرك مع الكلمة وتتحرك معها الكلمة ، لا على وجه الإباحة ولكن على وجه الإلزام ، فمجلس الشورى ميدان لخطابة الواجبة ، وعكس فعال الأفكار والعقول ، ينقد المجلس ، حيث يمرض الأمر ، يناقش من شق جوانبه ، ويبحث بكل أسباب البحث ، ويخص كل قائل ما يقول حتى يضمن لما يقول السداد ، وينصت كل مستمع حتى لا يترك هنة يقرها من غير أن يستوضح ويستبين .

وأول من بدأ السير فى ذلك الطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كثيرا ما يجمع محبة يستشيرهم فيما يمرض من الأمور الهامة ، مثل أحد والخندق وكذلك كان شأن خلفائه من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليقول : « لا خير لي من غير شورى » .

وإبان الأحداث الهامة كان المسلمون يتقدمون مجالس الشورى يتبادلون فيها الرأي ، ويستعرضون الموقف ، فيقوم كل صاحب رأى خطيبا يقدم للآخرين ما يرى ، ويدعمه بالحجج ، ويقويه بكل ما يرى من أسباب القوة ، سواء كانت مادية كالحكم والأمثال والوقائع ، أو كانت صوتية بما تحمل من مؤثرات . من ذلك ما حدث يوم السقيفة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان من اختلاف حول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كانت ميدان شورى من أخطر ميادين الشورى بما طرح فيها من الموضوعات ، وبما قدم فيها من الآراء حتى إذا تسكلم أبو بكر قدم الحجة المسكنة ، والبيئة الصريحة الواضحة ، وذلك قوله : « نحن المهاجرون . . أول قناس إسلاما ، وأوسطهم دارا ، وأكرمهم أحسابا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة في العرب . وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفداء ، وأنصارنا على العدو ، آؤيتهم وواسيتهم ، خزاكم الله حيرا ، نحن الأمراء ، وأنتم للوراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحى من فريش ، وأنتم محقوقون ألا تنفكوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم » (١) .

ومن ذلك أنه لما كانت فتنة أصحاب الجمل انعقد محاس الشورى في مدينة الكوفة، ووقف بعض أعضائه داعياً إلى عدم المشاركة في الفتنة كأي موسى الأشعري، ووقف آخرون يدعون إلى نصرة علي وقتال أصحاب الجمل كالقمقاع بن عمرو^(١)

وهكذا يتراءى الإسلام أمام عيوننا في الخطابة العربية من خلال ذلك المبدأ الذي أقام عليه دولته، فأصبح المحال لارتقاء الخطابة وأردهاها :

٦ - الصراع بين المسامنين بعضهم مع بعض - على ما حدث بين علي ومعاوية - كان من عوامل نمو الخطابة الإسلامية ، لما يحتاج إليه هذا الموقف من تلوين الخطابة بألوان أخرى غير التي عهدت . تموج - من غير شك - إلى تفكير وبحث ودرس وأناة ، حتى يتمكن القائل من الحجج التي يسهل بها على المسلم أن يحارب أحياه المسلم ، ولم تكن الحاجة إلى الخطابة أمس منها في ذلك الحين ، فقد كان قادة كل فريق يحرسونه على تقوية ، الروح المعنوية ، وخلق الإيمان في نفس أتباعهم بإسلامية عملهم هم دون غيرهم ، وإقناعهم بأنهم يحاربون من أجل إقرار الحق ، وشر دين الله . ثم إن القادة والزعماء ليقدرّون الموقف حق قدره ، ويعلمون أنهم في حاجة إلى الإكثار من القول ، وإعادته وتكراره ، لأن تكرار القول يدخل في النفوس توهم صدقه وصحته . ومن ثم نستطيع أن نقف على السر في كثرة ما وصلنا من خطب هذه الفترة وما تلاها .

وبلاحظ على خطب هذه الفترة - مع كثرتها - أنها تنقسم بالطول والإطباب ، وذلك مراعاة من قائلها لمتغى الحال ، فالموقف يستدعي البسط والتفصيل ، وقرع الحجة بالحجة ، من كل ما يقتضيه الإطالة .

وهكذا أصبحت الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي ومعاوية مصدر إراء للخطابة العربية الإسلامية ؛ فالإمام على خليفة بايعة المسلمون وخرج عليه معاوية ، ومن ثم فهو يعمل على ملء قلوب مناصريه بالحماسة والبسالة ، ويبدل كل ما يستطيع من قوة الكلام في أن يشترع من قلوبهم عاطفة الإحوة الدينية التي توشجت أواصرها بينهم وبين إخوانهم الذين انضواوا تحت لواء معاوية وناصروه ، فلا يجد بدا من أن يلجأ إلى العاطفة الدينية

نفسها فيثبها في نفوس أصحابه ، ويظهر الآخرين في مظهر المارقين على الدين ، والمهاديين لأسسه ومبادئه . استمع إليه في إحدى خطبه إذ يقول : « وایم الله ماوتر قوم قط بشيء أشد عليهم من أن يوتروا بدينهم . وإن هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليبتلوا السنة ، ويحيوا البدعة ، ويميدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عز وجل منها بحسن البصيرة ، فطوبوا عباد الله أنفسا بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم . وإن الفرار من الزحف فيه السلب للأمر ، والغلبة على الفناء ، وذل الحيا والمات ، وعاب الدنيا والآخرة ، وسخط الله وألم عقابه . »

وفي الجانب الآخر يقف معاوية ومناصروه يصنعون نفس الصنيع ، استمع إليه خطيب محرضا على قتال علي وصحبه : « انظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلقون أهل ~~الدين~~ ~~عليكم~~ علي إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم ~~عليكم~~ من بلادهم حتى نزلوا بيفتكم ، وإما أن تكونوا قومًا تطلبون يدم حليفكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوما تذبون عن دماءكم وأبائكم ، فعليكُم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم الصبر . »

وفي هذا للبدان ظهرت حماسة من النساء ثارت في نفوسهن عاطفة الحب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فقامن خطيبات يماون بسلاح الكلمة عليا كرم الله وجهه ، فتسير حطمن مسار النار في الهيتم ، مثل عكرشة بنت الاطرش ، وأم الخير بنت الحارث ، والزرقاء بنت عدى . وبهذا النسخ محال الخطابة ، وازدادت ثراء ، سواء كان مظهر ذلك . . الغرض ، أو الداعي لها ، أو القائل الخطيب . . .

٧ - إيجاب الخطابة على المسلمين في بعض حالات العبادة ، واستجابتها في بعض آخر ، مع تحديد الخطيب في ذلك بناية ، وربط الخطبة بأسباب ووسائل كان لها أكبر الأثر في عمر الخطابة وتطورها ؛ فصلاة الجمعة من كل أسبوع لا تتم بدون خطبة ، وفي كل مناسبة أو داعية خطبة يواجه فيها الإمام أو الخليفة جمهور المسلمين . وكل تلك الخطب غير محدودة الموضوع ، بل هي مطلقة على حسب ما يناسب الزمان والوائع والموقف . بيد أن غايتها محدودة ، وكميتها تسكاد تكون كذلك وأوضح نموذج لذلك النمط من الخطابة ما أُرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع . قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، اسمعوا قولي فإنني

لا أدري لى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بافت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أن لا ربا . وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضغ دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . .

* * *

وهكذا اجتمع للخطابة العربية بجىء الإسلام كل أسباب التروى والتقى ، وباستطاعتنا أن نجعل تلك العوامل فى ثلاثة : أحدها جذرى ، والثانى عرضى ، والثالث تهذيبى .

فالأول يعمل على تعميقها وتأصيل أسبابها بعد أن كانت مقصورة على خطاب للشاعر والوجدانات ، كما بدأ ذلك فى الحجاج الموضوعى ، والمنافشة الموضوعية ، والدعوة المذهبية .

والثانى يوسع أبعادها ، ويمدد ميادينها ، وذلك بتشكثير الأعراض التى تستخدم فيها ، والثالث يحدد لها المنهج ، ويرسم لها الطريق ، ويقسم لها الخطوات ، ويربط بين عناصرها وأفكارها .

ومن ثم تهب الخطابة - مع الإسلام - من أسباب الديوع والانتشار ما لم يتهأ لها من قبل ، فقد أصبحت الوسيلة الأولى ، والأداء المبرة عن الدعوة ، تنطق بمحاسنها ، وتشرح لأسرارها ، ويواجه بها أصحاب الآراء والأفكار الجديدة معارضهم بالتوضيح والتشقيق والتفديد .

أهم خصائص الخطابة الإسلامية :

تحت تأثير هذه العوامل وغيرها تمت الخطابة وتطورت ، فاكثرت سمات وخصائص ميزتها عن الخطابة الجاهلية ، كان من أبرزها :

١ - أن الخطيب أصبح يميل إلى الطول ، حيث مست الحاجة إلى الإطناب فيها ؛ عرضاً لحوانب الفكرة التي يقدمها الداعي ، أو تمليلاً وتفسيراً لما اتخذ من المواقف ، أو بسبب ما يأخذه على الخصم من أخطاء واحترافات ، أو استطراداً في ذكر الحجج والبراهين على قوة ما يرى وترهين ما يراه غيره . . . إلى غير ذلك من دواعي الإطناب ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك في قوله : إن جملة القول في الرداد أنه ليس به حد ينهي ~~الخطبة~~ ^{الخطبة} ، وإنما ذلك على قدر السمعين ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ، ولوط لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم (١) . وقد روى الباقلاني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات ، غير أن ما وصلنا من خطبه صلى الله عليه وسلم إنما هو بقايا تلك الخطب ، فقد سقط منها الكثير قبل أن ينتقدها التدوين ، مثال ذلك خطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة له بالمدينة ، وفيها يقول :

والحمد لله ، أحمدوه واستمعوه ، واستمعوه واستمديوه ، وأومس به ولا أكمره ، وأعادي من يكمره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والبر والموعظة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وصلاة من الناس ، واقطاع من الزمان ، ودور من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وصل صلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه . ولا أفضل من ذلك نصيحة . وأعمل من ذلك ذكراً ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وحل ومحافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا يبغى

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٠٥

بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيها بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بيده وبيده أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه . والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأجر وعده لا حلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » فانقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويظم له أجرا » ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وإن تقوى الله يوق مقتته ، ويوق عقوبته ، ويوق سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، حسدوا بحظكم ، ولا تمروا في جنب الله ، قد هدكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويمسلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه « وحاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم » وسماكم المسلمين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بنية » ولا قوة إلا بالله ، فأكثرُوا ذكرا الله ، واعملوا لما يمد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويهلك من أناس ولا يهلكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

٢ - أن الخطيب يحرص على تقسيم الخطبة ، حيث تبدأ بمقدمة توحى بالموضوع ، ثم عرض للموضوع يستخدم فيه كل ما يمكن من وسائل العرض ، ثم خاتمة يلخص فيها ما بسط ، ويحمل ما فصل . ولقد كان للخطاب القرآني أكبر الأثر في توجيه العرب إلى ذلك النهج في خطابه ، حتى إذا اطلع النقاد العرب على خطابة أرسطو وجدوه يطلب من الخطيب السير على هذا المنوال ، فلما رجعوا إلى ما بين أيديهم من الخطابة الغريبة الإسلامية وجدوها تسير في نفس الطريق .

٣ - وكما حرص الخطيب على تقسيم خطبته حرص على أن يكون العرض قائما على الترتيب المنطقي الصحيح الذي يتمدد على استخلاص النتائج من مقدماتها ، سواء بدأ بالمقدمات ونهى بالنتائج أو عكس . ونظرة إلى ما قدمنا من نماذج تقرر ذلك .

٤ - قوة الأفكار التي تناولها الخطابه ، فلقد أصبحت هي أداة التعبير الأولى لديهم ، وكان عليها أن تحمل ما جد في المجتمع الإسلامي الجديد من مضامين . ومن ثم أصبحت أمكارها في مستوى الخطابين بها ، قوة وعمقا وكشفا

٥ - إرسال أسلوبها ، وعدم التزام لون أسلوبى معين فيها ، فجملها تتردد بين الطول والقصر على حسب الحاجة إلى ذلك ، والسجع فيها غير ملازم ولا مقصود إلا أن يجى عفوا ، إذ للخطيب من جلال موضوعه ، وترتيب أفكاره ما يشغله عن الاهتمام بالتحسين اللفظى والقصد إليه .

٦ - توشيح الخطبة بآيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال السائرة ، تزيينا وإقناعا

(٢) الكتابة

معرفة العرب بالكتابة سابقة على مجيء الإسلام ؛ لكن هذه المعرفة لم يصلنا من مظاهرها ما يدل على أنهم توسعوا في استخدامها ، أو تفننوا في موضوعاتها ، والتصور العقلي لحياة العرب في العصر الجاهلي يحدد مجالات استعمالهم الكتابة وسيلة من وسائل الإبانة ؛ فقد كان معتمد على الأصل على الشعر الذي يقوم على الإشاد والشافهة . .

ولما جاء الإسلام ، واتسعت الدولة ، وتوحدت الأمة ، وتشابكت المصالح ، وتوطدت الصلات على البعد المكاني . . . في هذه البيئة الحضارية الجديدة مست الحاجة إلى الكتابة ، وأصبحت من أهم مقومات الدعوة الجديدة ؛ فهي مطلوبة لحفظ القرآن الكريم ، ولتوثيق المعهود والاتفاقات ، ولتبليغ الملوك والرؤساء الدعوة الإسلامية ، ولخطابه العمال والولاة بشئون الحكم ، ولتوصية الرسل والقضاة بالحفاظ على مبادئ الإسلام . . إلى غير ذلك مما جدد على العرب المسلمين ، ودعاهم إلى مزيد من الحرص على الكتابة ، والإقبال عليها تعلما وتعلما وتنمية

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة سوى سبعة عشر كاتباً (١) أسلم أكثرهم في مبتدأ الدعوة مثل أبي بكر الصديق ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعامر بن فهيرة ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . . ومن بين هؤلاء الصحابة تخير الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الوحي ، وكتاب الرسائل والمعهود (٢) . ولما أصبح للمسلمين دولة بعد الهجرة إلى المدينة وزادت الحاجة إلى الكتابة وإلى الكتابيين ، أقبل المسلمون على تعلم الكتابة ، وكان في مقدمة هذا التحرك التعاليمي ما فرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على العاجزين عن دفع الفدية من أسرى بدر ، فقد عادل الفدية بتعليم عشرة من فتيان المسلمين . .

(١) تنوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١ ، ص ٤٧٣

(٢) الزوراء والكتاب للجهشياري ص ١٢ طبعة الحلبي .

وهكذا وجدت الأرض الخصبة والجو المناسب تماما لانتشار الكتابة في عصر صدر الإسلام ، ومع انتشار المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية وما جاورها انتشرت الكتابة العربية ، حتى أصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية الممتدة في تلك الفترة . وكان في مقدمة الدواعي المباشرة إلى الإقبال على تعلم الكتاب ، أن أول ما نزل من وحى السماء تضمن من الله سبحانه وتعالى طى الإنسان بنعمة القلم والتعليم بالقلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . وأنبئ ذلك بقسمه جل وعلا بالقلم وما يكتب بالقلم ، وبالكتاب . . . إلى غير ذلك مثل قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون » . وقوله : « والطور وكتب المبين فى رقى مشهور » . كما أن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يكتبوا ما جاءهم من الكتاب والتسجيل من الله تعالى من اختلاف ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالمدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحلق . . . » (١) .

وهكذا ارتبطت الكتابة بالإسلام وبالدولة الإسلامية ، كما ازداد الإسلام انتشارا ، وازدادت الدولة اتساعا ، ازدادت الكتابة عوا وازدهارا ، ونبتت عن الثمن الطوى أغصان ، وتمتعت عن تلك الأغصان أزهار ونمار ، أيسمت وبدا نضجها سريما ، تقدمت الأدب العربى حتى طيبا شهيا ، كان نواة صالحة لما أنتجت البيئة العربية بعد ذلك من دنون النثر المكتوب .

والناظر بما أثر من كتابة هذا العصر يجد فيها - بعد أول العصر - الكتابة العربية ذات السمات والخصائص التى تتميز بها عن غيرها بما أضفته البيئة ومتطلباتها عليها من مناهج أسلوبية وبيانية خاصة ؛ فهى ليست - كما يتوهم بعض الدارسين - حديثا عاديا يسجل فى كتاب موجه إلى شخص معين ، حاليا من الفية والصنعة الأدبية . وإنما هى عمل فنى ، صادر عن يقدر البيان التعبيرى قدره ، وهو يقدم بين يدي دعوته الجديدة

كتاب السماء يتعدى الإصم والجن أن يأتوا بمثل له مجتهدين متآزرين ، ومن أبرز مظاهر فنية الكتابة في ذلك العهد :

١ - أن الكتب والمراسلات لم يكن يلتزم فيها بشكل معين ولا صورة واحدة . فقد كان صلى الله عليه وسلم يلونها على حسب المرسل إليه ، فإن كان المرسل إليه غير عربي حرص صلى الله عليه وسلم على أن يكون موجزا ، مختار الكلمات بحيث يسهل ترجمتها في بيان قاطع . كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل فارس :

« من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس . سلام على من أنبع الهدى وآمن بالله ورسوله . فأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة ليدبر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإثم الجحوس عليك . »
وإن كان المرسل إليه عربيا انتقى من الألفاظ ما يتناسب مع وسطه البيئى ، كما ترى في كتابه صلى الله عليه وسلم المرسل إلى وائل بن حجر الحضرمى :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال العبالة والأرواح المشاييب (١) . » ثم يقول :
« وفي التبعة شاة لا مقورة الألباط ولا ضناك ، وانطوا التبعة (٢) ، وفي السيوب الخمس (٣) ، ومن ربي مم بكر فاصقمو . مائة ، واستوفضوه عاما (٤) . ومن ربي مم ثيب مفرجوه بالأضاميم (٥) ، ولا توصيم في الدين ، ولا غمة في فرائص الله تعالى (٦) ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقبال ، (٧) . »

(١) الأقبال جمع قبل بفتح مسكون : الملك من ملوك حير وحضرموت . والعبالة : المقرون على ملكهم ، والأرواح : الذين يرعون بالهية والحمل . والمشاييب جمع محبوب : الجبل الزاهر اللون .

(٢) التبعة : أربعون شاة ، وهى نصاب الزكاة فى الضأن . والمقورة الألباط بضم الميم وسكون القاف وفتح الواو : المسترخية الجلود . والضناك بكسر الضاد : السمينة ، وانطوا : اعطوا بإبدال العين نونا فى لغتهم . والتبعة بفتحيتين : الوسط .

(٣) السيوب جمع سيب : العطية والمراد به الركار

(٤) مم : من بإبدال الميم نونا فى لغتهم . والصقع : الضرب ، والاستيفاض : التنزيه .

(٥) الأضاميم . جمع إصامة : الحجارة الصغار . (٦) التوصيم : التوائى .

(٧) يترفل : يترأس .

وقد سار الصحابة في الطريق ذاته ، فاهتموا بتجويد الكتابة ، وحرصوا على اختبار من يتولى الكتابة لهم ، روى الجهمي أن عمر رضى الله عنه دعا زيدا فقال له ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به ، فكتب إليه كتابا وضمه إلى عمر ، فنظر فيه ثم قال أعد ؛ فكتب غيره . فقال له أعد ، فكتب الثالث . فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الأول ولكنى ظلمت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت فسكرت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لكلا يدخله العجب فيهلك ^(١) .

٢ - الميل إلى الأسلوب التصويرى القائم على التعبير والتجويد ، استجابة لما شب في آخريات ذلك العصر من فن وجهت الحكام والكتاب إلى تضمين رسائلهم وسائل التهذيب في الخطوة عند الحكم والتهريب من الخروج عليه ، والتحذير من الإهمال على ما تجد في رسائل عثمان رضى الله عنه إلى عماله وولاته يبه فيها إلى ما شب في البلاد من فن تتمد على اللشائعات . وبين سياسة الجديدة . مثل رسالته إلى معاوية حين قام أبو در بدعوته في الشام ، وفيها يقول : « إن أفتة قد أخرجت حطما وعبيها ، فلم يبق إلا أن نثب فلا تسكأ القرح » ^(٢) .

٣ - انحاء الكتاب إلى الإطبات والإطالة ؛ فالعصر في مرحله الأخيرة ملئ بالصراع السياسى الذى لم يترك فيه المتصارعون وسيلة من وسائل الحرب إلا استخدموها ، ومن بين وسائلهم في ذلك كانت الكلمة المكتوبة ، يقدون فيها مزاعم الخصوم ، ويستعرضون آراءهم ، وينتبهونها في استقصاء يقنع ، وهذا دون شك يستمد على الإطبات والإطالة ، وقد احتذوا في ذلك بالقرآن الكريم ؛ فهم في ذلك حاضمون للبيئة وأحداثها ، متأثرون بالقرآن الكريم ومنهجه .

٤ - سهولتها ووضوح أفكارها ، وبسدها عن التكلف ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، وتحليلتها بآياته ، كما ترى في كتاب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله وفيه يقول : « أما بعد . . فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جراه ؛ فاحمل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصيرتك ، فإنه لا عمل

(١) الوراء والكتاب ص ١٩

(٢) الجهرة لأحمد صفوت ج ١ ص ٢٩٦ .

لا بية له ، ولا أجر لمن لا حصة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا حلق
- بفتح الحاء واللام - له .

ويلاحظ المدارس لما أثر من كتابات ذلك العصر أنها رسائل أو عهود وموائيق ،
وأن الرسائل تتنوع بتنوع أعراضها ، فمنها رسائل الدعوة التي وجهها الرسول صلى الله
عليه وسلم وصحابته إلى الملوك والحكام وغير المسلمين يدعونهم إلى الإسلام ، ومنها
الرسائل السياسية التي تتضمن توجيهها سياسيا يتماق بأمور الحكم - وقد رأينا فيما أسلفنا
نماذج لهذه الرسائل - ومنها الرسائل الإحوائية التي تقوم على الإساءات ، كالحاء
في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل ، يبريه في وفاة ابن له مات ، وفيها
يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو . أما بعد فمعظم الله لك الآخر ، وألمك الصبر ، وورقا وإياك
الشكر ، ثم إن أنفسا وأهلينا ومواليا من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ،
نتمتع بها إلى أجل محدود ، وتقضى لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ،
والصبر إذا ابتلى . وكان إيلك من مواهب الله السنية ، وعوارفه (١) المستودعة ،
متمك به في عبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير ؛ الصلاة والرحمة والهدى إن
صبرت واحتسبت ، فلا تجعن عليك إماما خصلتين : أن يحبط حزرك صرك ، فتدم
أعلى ما فاتك ، ولو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده . عرفت
أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن
الجراء ، وتجر الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك ، فكأن قد ، (٢) .

ومنها رسائل المواعظ والنصح والتوجيه ، وهي تختلف عن الإحوانات ؛ إذ ليس
صروريا أن يكتب بالنصح لآخر ممن تربطه به علاقة أحوة أو صلة قرى ، فقد يكتب
بذلك إلى فرد من عامة الناس ، أو إلى أمير أو عامل أو خليفة . ثم هي قائمة على هذا
الفرض المحدود استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . متبادله سلمان
الفارسي وأبو الدرداء .

(١) العوارف جمع عارفة : المعروف .

(٢) الحمرة ج ١ ص ٦٥

يقول سلمان في إحداها : « أما بعد فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي ، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره ، فليكن كلامك ذكرا ، وصمتك سكرا ، ونظرك عبرا ، فإن الدنيا تتقلب ، وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد » .

ومما كتبه أبو الدرداء إلى سلمان : « سلام الله عليك . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله . وأن تأخذ من صحتك لسقمك ، ومن شبابك لحرمك ، ومن مراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لمودتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين ؛ إما في الجنة وإما في النار ، فإنك لا تدري إلى أيهما نصير » (١) .

ومنها كتب اليهود والمواثيق ، وهي كتب تعتمد على الدقة في التعبير ، والوفوع على اللفظ المناسب ، دون الحاجة إلى المؤثرات العاطفية من تصوير أو تخيل ؛ فالدقة الفنية فيها تتطلب اليقظة للفظ الذي يؤدي الغرض منه .

ولا ريب في أن هذا النمط البياني لم يكن وليد الحضارة الإسلامية ، فقد كان للرب في الجاهلية معاهداتهم واتفاقياتهم المكتوبة ، وكان من عادتهم أن يودعوا لهم منها جوف السكبة توثيقا لها وحفظا ، كما حدث يوم واجهت قريش بني هاشم للضبط عليهم وتسليم محمد إليهم ، فانفقوا على مقاطعةهم ، ودونوا هذا الاتفاق في صحيفة أودعوها السكبة .

بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل على المعاهدة من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات ما نظمها في سلك العمل الفنى ، حتى أصبح الناظر فيها يحمد نفسه أمام لون يبان يكشف فيه صاحبه عن كثير من الجوانب السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة ، ويبين عن طبائع من يتعامل معهم وأفكارهم ، ويواجه الشاذ منها بالتقويم ، مثال ذلك معاهدة صلى الله عليه وسلم مع من كان بالمدينة التي جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، وللمهاجرين من قريش على ربتهم (٢) يتماقلون (٣) بينهم ، وهم يفسدون

(١) الحمرة ج ١ ص ٣٢٤ ، وحياة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) على ربتهم : على استقامتهم ، يعنى على أمرهم الذى كانوا عليه .

(٣) يتماقلون : يعقل بعضهم بعضا ، ويدوم دية جنايته الخطأ .

عائدهم (١) بالمعروف والقسط (٢) بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتماثلون معاقبهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عايها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنو الحارث ، وبنو ساعدة ، وبنو جشم ، وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنو البيت ، وبنو الأوس - وإن المؤمنين لا يتركون مفرجا (٣) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقال ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .

ويسير صلى الله عليه وسلم في المعاهد على هذه الوثيرة من تحديد واجبات المتماهدين قبل الآخرين ، ثم في النهاية ، يحدد معالم الواجبات العامة في قوله : « وأن الجار كالثمن غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ويلتبسونه بأنهم يصلحونه ويلتبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنهم لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم ولا آثم ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو آثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

والناظر في محتوى هذا الكتاب يلاحظ أن الذي صلى الله عليه وسلم التزم فيه سبيل الدعوة إلى الدين والإبانه عن مبادئه ، إلى جوار المقررات السياسية التي تستدعيها نظم الحكم ، واستقرار الحياة في الدولة الناشئة ، فلم ينقل جانباً لحساب الجانب الآخر ،

(١) العاني : الأسير . (٢) القسط : العدل .

(٣) للمفرج - بضم الليم وسكون الفاء وفتح الراء - الذي أثقله الدين والقرم . يقال : أمرجه إذا أثقله ، ويروى (المفرج) بالجيم ، وهو القليل الذي لا يدرى من قتله أو الذي لا ولد له ولا مال ولا عشيرة .

ولسكنه - صلى الله عليه وسلم - خرج بين كل هذه الغايات في كتابه ، بحيث يجد المتأمل أنه أمام وثيقة سياسية بما تتضمنه من مقررات محددة ، وأنه أمام رسالة تكشف عن أبرز مزايا الدين الجديد بما يشد الناس إليه ، ويجتذبهم نحوه (١) .

وصفوة القول : إن الكتابة في ظل حصار الإسلام توفر لها - بالقرآن الكريم ، وبالإسلام ومبادئه ونظمه ، ورسول الإسلام ومبادئه ، وبما جد من أحداث في ظلال الإسلام - من أسباب النمو والترقي مامنحها القدرة على النهوض ، وأتاح لها فرصة القيام والنهرك في مجال النمو والترقي في مختلف الاتجاهات . . أسلوبا ، وموضوعا ، وفكرا ، ومنهجيا ؛ فأصبح للكتابة كيان أدبي يؤرخ له في هذا العصر ، فأضيف لفنون الثرفن جديد .

(١) لمزيد من التفصيل راجع للمؤلف (تأملات في البيان النبوي) ص ١٢٦ وما بعدها.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
للقدمة	٣
تمهيد	٥ - ٢٤
الفصل الأول : الأدب	٥
الفصل الثاني : العرب	١٢
الفصل الثالث : الوطن العربي	١٦
الفصل الرابع : اللغة العربية	٢١
الباب الأول : الأدب العربي	٢٥ - ٨٥
الفصل الأول : البيئة والأدب	٢٧
الفصل الثاني : أجناس الأدب العربي	٣٤
الفصل الثالث : مصادر الأدب الجاهلي	٥١
قضية نخل الشعر وانتعاشه	٦٧
الفصل الرابع : المقصود بالبادية والحاضرة	٧٩
الباب الثاني : الشعر البدوي	٨٧ - ١٦٣
الفصل الأول : أعلام من شعراء البادية	٨٨
٩٢ عنبرة ، ٩٩ الحارث بن حلزة ، ١٠٦ زهير بن سلمى ، ١٢٠ الشنفرى ، ١٢٦ عروة ابن الورد	
الفصل الثاني : فنون الشعر البدوي	١٣١
١٣٣ الفخر ، ١٤٠ المهجاء ، ١٤٣ للمح ، ١٤٧ الرثاء ، ١٥٢ الفزل ، ١٥٧ الوصف	
الباب الثالث : الشعر الحضري	١٦٥ - ٣٢٦
الفصل الأول : أعلام من شعراء الحاضرة	١٦٦
١٧٥ امرؤ القيس ، ١٩٢ عدى بن زيد ، ٢١٤ النابغة	

الصفحة	الموضوع
	الديباني ، ٢٢٦ العباس ابن مرداس السلمي ،
	٢٥٦ حسان بن ثابت ، ٢٦٢ كعب بن زهير
٢٦٦	الفصل الثاني : فنون الشعر الحضري
	٢ : ٢ المدح ، ٢٧٠ الهجاء ، ٢٧٤ الاعتذار ،
	٢٧٦ الفخر ، ٢٧٩ الغزل ، ٢٨٢ المدينيات والمواظ
	٢٨٤ الرثاء ، ٢٨٨ الوصف .
٢٩٧	الفصل الثالث : الشعر العربي بين البادية والحاضرة
٢٩٨	الخصائص المعنوية والخيالية
٣١٢	الخصائص الموضوعية
٣١٧	الخصائص الأسلوبية
٣٢٧-٣٩٥	الباب الرابع : النثر بين البدو والحضر
٣٢٨	الفصل الأول : فنون النثر قبل الإسلام وخصائص كل فن
	٣٣١ الحكم والأمثال ، ٣٣٥ الخطابة
٣٤٤	الفصل الثاني : حضارة الإسلام وأثرها في العرب وآدابهم
	٣٤٤ أثر الإسلام في الحياة العربية
	٣٤٨ أثر الإسلام في الأدب العربي
٣٥٤	الفصل الثالث : أعلام من النثرين المسلمين
	٣٥٥ القرآن الكريم ، ٣٦٣ الحديث النبوي ،
	٣٦٦ أبو بكر الصديق ، ٣٧٠ عمر بن الخطاب ،
	٣٧٣ علي بن أبي طالب
٣٧٦	الفصل الرابع : فنون النثر الإسلامي وخصائصه
	٣٧٦ الخطابة ، ٣٨٨ السكتانة